رواية واقعية ..
تروي شهادة المؤلف على الاجرام
العنصري في سجن تدمر العسكري

الطريق إلى تدمر

كهف في الصحراء

(الداخل مفقود ، والخارج مولود)

1981 ـ 1986 م

مدونة أبو عبدو

تأليف

المهندس سليمان أبو الخير

ABU ABDO ALBAGL

دار الأعلام

رواية واقعية..
تروي شهادة المؤلف على الإجرام العنصري
في سجن تدمر العسكري

الطريق إلى تدمر

كهف في الصحراء

«الداخل مفقود، والخارج ولد مولود»

1981-1986

المهندس سليمان أبو الخير

دار الأعلام
للنشر والتوزيع

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠١١/٣/٨٦٦)

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر عن رأي دار الأعلام، ويتحمل المؤلف مسؤولية كافة المعلومات الواردة في الكتاب

دار الأعلام

الأردن - عمان - العبدلي - مركز جوهرة القدس - الطابق ٢ - مكتب ٦٠٥
تلفاكس ٤٦٥٧٤٦٨ - ٠٦ ص.ب: ٩٢٧٥٦٣ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail:dar-alaalam@hotmail.com al_aalam@yahoo.com

الإهداء

إلى روح والدتي التي رحلت في بواكير طفولتي إثر مخاض عسير... إلى روح والدي المسن الذي لم يألُ جهداً في البحث عني في كل مكان، جزاه الله خير ما جوزي والد عن ولده..

إلى التي أضاءت مقبلات أيامي، وأعطت للأيام بعضاً من المعاني الجميلة، وقبل هذا وذلك صارت أماً لأولادي...

إلى صاحب الأيادي البيضاء، رفيق صدر شبابي، لم تبدله الأيام ضياء فرّاج..

إلى كل الذين التقيتهم وراء القضبان... هناك... في كل أفرع التحقيق... أخص منها:

فرع التحقيق العسكري بدمشق... فرع الأركان... فرع العدوي بدمشق..

إلى البائسين... المعذبين... الفاغرين أفواههم إلى السماء متضرعين... يجأرون إلى من لا تغفل عينه ولا تنام... تلهب السياط أظهرهم... سياط البعث... سياط الحقد المرضوع مع لبن الولادة... سياط البغي والكأس المترعة بالعدوان...

إلى الذين كنت محشوراً معهم في علبة سردين بكهف تدمر العسكري... إلى الآلاف الخمسة أو يزيدون – حتى يوم خروجي – الذين وارتهم أتربة الصحراء، شباباً في ريعان العمر، ذهبوا إلى ربهم ذنبهم أن قالوا ربنا الله!! أذكر منهم:

«هيثم يبرودي وهو وحيد أبويه، ملهم أتاسي، جمال خراط، مروان باشات، قاسم ططري، وفا أزرق، حسان مرعي، عبد العزيز عطار، شقيقه أسامه عطار، محمد بلال الخطيب، صلاح ذياب، والقائمة تطول..»

إلى هؤلاء وأولئك الذين لم أذكرهم هم عند ربهم أحياء يرزقون.. وإلى الذين خلفتهم ورائي.. ليس لهم إلا الدموع والابتهالات في عتمة كهف تدمر العسكري.

وإلى كل من سعى في طلبي والسؤال عني.. أخص هنا الحكومـة الأردنيـة، السـفارة الألمانية بدمشق، دائرة الطلبة الأجانب فـي جامعـة دارمشـتات، اتحـاد الطلبـة العـرب دارمشتات.. إلى كل هؤلاء وأولئك أبث حنيني وأشواقي.. وشكري وامتناني..

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا تأخر هذا الكتاب؟

لقد مضى على كتابة هذه الأسطر ما ينوف عن ربع قرن من الزمن، وفي هذه السنوات ظهرت إلى الدنيا دول واختفت أخرى، قامت حروب وانطفأت أخرى، مات فيها ظلمة وطواغيت، ونبت آخرون أشد ظلماً وبطشاً، وكنت أهادن الأيام، علّها تأتي بساعة هدنة وصفاء، ألملم فيها بقايا ما ترهل من عمري الفاني، أضمه إلى أيام ما زال فيها بقية من همة من جاوز الخمسين، وأسأل عن أحدٍ ممن خلفتهم هناك وراء القضبان، علّهم يسعفونني في أي إذن بنشر هذه الحكاية! إن كان في نشرها ما ينفعهم! وأنا مشفق لا أريد أن أتسبب في زيادة آلامهم!! لذا كنت كلما عزمت أمري، أعود فأتريث، ولعل خشيتي في أن يكون لنفسي نصيباً من شهرة لا أستحقها - أو إن شئت القول- لا أريدها أن تلبسني صيتاً، كان دافعاً آخر لعدم النشر، مع أنني صرت إلى شيء من الأمان الظاهر، الذي ما غدت معه أخشى الأيام على نفسي، سيما وقد دبت الحياة ثانية وأورقت، بعدما كادت أن تخبو وتنطفئ، وذلك في زوجة صالحة صابرة، وأولاد هم الآن في مثل عمري يوم اقتادوني إلى ظلمات تدمر، قد أورقت حياتي وأينعت بهم، وأسأل نفسي كلما عدت إلى هذه الأوراق أتصفحها مرة يحدوني الأمل، وأخرى فارداً فيها كفي على المنضدة، أعياني التفكير:

- هل ينفع نشرها الآن أو يضر؟

ولم يكن الله ليخيب لي رجاءً، أو يطوي دوني آمالاً، وما عز عليه أن يمد متمنناً عليّ من العمر آجالاً، ويحقق بحوله سبحانه وقوته من المعجزات أشكالاً وألواناً، ليغيب بإرادته من الظلمة والظلاّم أعتاهم جبروتاً، وأكثرهم نهباً لثروات العباد والبلاد، ولتنتهي حكاية أشدهم في زماننا على الرحمن عتياً، طاغية تونس، وطاغية مصر، وليبيا واليمن، وعما قريب سوريا و.. ولا يزال الحبل على الجرار.

لقد كانت بداية الإرهاصات في سوريا، وتحركات أهلها من المظلومين المقهورين

البسطاء، وأخذهم زمام المبادرة وقد كوتهم العبودية والأغلال التي قيدهم بها نظــام الطاغيــة الأسد، والذي ورثه صاغراً عن صاغر، قيدهم بها من الأيدي حتى ترقية الأعناق، لقد كانــت تلك التظاهرات التي بدأت بأبطال حوران في درعا والصنمين يواجهون بصــدورهم العاريــة رصاص الغدر وبطش آلة مَن لا يحتمل أن يرى في دنيا الوجود أحداً ســواه، لا يريــد هــذا النظام الطائفي المقيت أن يصدق بأن الزمان قد دار دورته الاعتياديــة، وأنــه تبــدل وتغيــر وتحول وتحور، وأنه على الباغي تدور الدوائر، وليسأل إن شاء التــاريخ، وليســأل طاغيــة تونس، وليسأل طاغية مصر، وليسأل مهرج ليبيا، ودجال اليمن فلعل بينهم من يخبره بأنه:

لكل شيء إذا ما تــم نقصــان ... فلا يغر بطيب العــيش إنســان

هي الدنيا كمــا شــاهدتها دول ... من سره زمن ســاءته أزمــان

لقد صار زادي في إعادة هذه المخطوطة إلى الدنيا بعد موات ناف علــى ربــع قــرن، مشفوعاً بتلك الجموع التي انطلقت في تونس الزيتونة والقيروان، آخذة في طريقها إلى الذروة مصر الكنانة مروراً بكل العواصم، كي تأخذ دمشق مرتبتهــا الاعتياديــة بــين أمــم الأرض وشعوبها في طلب الحرية والكرامة وكسر كل قيود الإِسر والتبعية..

خرجت درعا بريفها، كما خرجت حمص وحماة واللاذقية وبانياس ودير الزور وحلــب والقامشلي وإدلب والنبك حتى تدمر صاحبة السجن ذائع الصيت السيّئ الــذي نحــن بصــدد الحديث عنه، حتى هذه المدينة انتفضت، فأيقظت فيّ همة من أوشك القنوط أن يقتله، خرجــت هذه المدن والقرى بأطيانها وأريافها لتسأل عن الحق الذي أرادوا أن يغيبوه أجيــالاً، خرجــت لتعرف كيف أن دستوراً يتم تغييره في خمس دقائق ليكــون علــى المقــاس مــن التكييــف والتوريث!! كيف أن تغييراً بهذه السرعة عجز عن تغيير قانون الطوارئ وتبييض الســجون والمعتقلات من نزلائها والذي كبل الناس وأحصى عليهم أنفاسهم لزمن امتــدت ظلمــة ليلــه الكالح حتى جاوزت الخمسين سنة، قانون كهذا لا يحتاج إلى الإسراع، ما دام يــوفر للظــالم متعة تكحيل عينيه بالضحية المنصوبة على السفود، انتفض الناس فأضرموا في داخلــي نــار من ذاق الضيم ألواناً ثم واتته النخوة والشهامة أشكالاً، نخوة وشهامة كنت ولا زلت أراها نبتاً يستوي على سوقه في قول الحبيب عليه الصلاة والسلام: «إن الله قد تكفَّل لي بالشام وأهلــه»، وكان ابن حَوالة رجلاً من الأزد ومسكنه الأردن. وكان إذا حدث بهذا الحديث قال: وما تكفــل

الله به فلا ضَيعة عليه وفي رواية: «عليك بالشام فإنها صفوةُ الله من بلاده يسوق إليها صفوتَه من عباده».

ثم تكرّم علي أحد الأصدقاء مشكوراً، بإرسال بريد إلكتروني، يحتوي على أوراق سجلها أحد الذين كانوا معي، ما سمعت به قبلاً، ولا التقاني أو التقيته، فرأيته قد دوّن حكايته، والتي استمرت أحد عشر عاماً.. طابقت في معظم فصولها كل ما ذكرت، فكانت دافعاً آخر لي كي أقوم بدفعها هكذا دون رتوش إلى الطباعة... هكذا كما طلب إليّ أحد الأطباء الدعاة، حين استعار المخطوطة مني لعشرين ستة خلت، ليعكف عليها ليلتين مع شطر من نهار، يقرأ ويتأمل، ثم يطلب إليّ نشرها، كي يستفيد منها من شاء أن يستفيد، ولعلها تكشف جانباً من تعتيم متعمد عن حقبة من الزمن، أريدَ لها أن تبقى غائبة عن وجدان الأمة وحسها.. يتطاول فيها أبناء الخنا والمتعة في عملية اعتقال وتعذيب وصل إلى حد بتر الأيدي والأرجل وقصل الرأس عن العنق واغتصاب حرائر بناتنا وأمهاتنا وأخواتنا، تذكرت قوله هذا، وحكاية ذلك الشاب، وأفعال من وقفوا في كل تخوم الأرض يهتفون في صوت واحد:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

فمنهم من لبّى الله هتافه، ومنهم من ينتظر صادقاً مبتهلاً، فكان ذلك دافعاً آخر لي، ثم جاء التشجيع من صديق صدر الشباب، ألقاه في خريف العمر، لا تراه إلا ربيعاً متجدداً ضياء فراح، يد تمتد إليك من خلال الموج امتدادها للغريق، كل ذلك يدفعني أن أخرجها إلى النور، كي تكون وثيقة أريدها لله أولاً ثم للتاريخ، شاهداً على ما جرى في تلك الحقبة المظلمة من أيام الله ناصعة البياض، قد سودتها أفعال الثوريين من أبناء الفئة الإثنيةُ العنصرية الباغية في بلاد الشام، غير أن عزاءنا في كل ذلك قول الشاعر: "وعند الله تجتمع الخصوم!"

م. سليمان أبو الخير

دارمشتات ٢٠١١/٩/١١

الطريق إلى دمشق

كنت على وشك ترك مدينة دارمشتات الألمانية غارقة في هالة من الثلج، أواخر شتاء حلّ عام 1981 ثقيلاً قارصاً، لم يكن الفصل الدراسي الثاني قد أزف بالرحيل بعد، كنت يومها قد ولجت عالم الجامعة للتو بعدما انتهيت من أربعة فصول دراسية، واحد لتعلم اللغة الألمانية، واثنان للسنة التحضيرية، والرابع هو الفصل الأول في الجامعة، سأترك المدينة عما قليل، متدثراً بملابس الشتاء، مستقلاً عربة فولفو DL244، اشتريتها ببعض ما ادخرته من نقود، علني أبيعها بشيء من الربح، أرده على ما يلزمني من مصاريف للدراسة، إذ لم يكن لي يومها من معيل - بعد الله- إلا ما أكسبه من كد يدي، ككثيرين غيري ممن حلّوا تلك الديار.

لقد جاء شراء المركبة على عجل، وكان رفيق الدرب جاهزاً بمركبة أخرى، اشتراها لنفسه، لا أخفيكم القول بأنني كنت أتوجس خيفة أن يطالني سوء، فهذه هي المرة الأولى التي أسافر فيها مثل هذا السفر الطويل براً، ونحن نجدُّ السير عائدين بالمركبة، أوكلت لصاحبي شراء بعض المستلزمات للرحلة، جلست داخل المركبة أتقي البرد في انتظار عودته، عاد بالأشياء، وعاد معها بخبر ألقاه عليّ دون اكتراث:

- يبدو أن مجموعة إرهابية نجحت في الوصول إلى العطار، وقامت بتصفيته في مدينة آخن Aachen الألمانية؟!

مع أنني وجدت نفسي غير معني بالخبر، فأنا رجل على غضاضتي قد قطعت أشواطاً بعيدة في تجنب الجري وراء مثل تلك الأخبار، وها أنا ذا قد ركنتُ إلى شيء من دعةِ حياة، لا أطمع أن يعكر عليّ من صفوها أحد، فإن في الحياة أشياء جميلة - هكذا كان يخيل لي مع كل حذري - هي مطلب أساسي للروح والنفس، بعد أن أعيتني الأيام في الجري وراء المستحيل، فأنا فتىً نشأت نشأةً لم أكن لأحظى فيها حظوة غيري من الفتيان، ماتت أمي في صدر شبابها على أعتاب العقد الثاني من عمرها، كانت غارقة في مرض روماتزم المفاصل،

بالكاد أن تقف على قدميها، لا يروق ذلك - كما علمت لاحقاً - لوالدي رحمه الله، فهو يريدها أبداً قائمة بأمور البيت، وكم كان ذلك سبباً لنزاعاتٍ لا حصر لها، تنتهي بأمي إلى بيت أهلها أشهراً كثيرة،، ويمضي بنا أبي - أنا وأخي الذي يصغرني بعام - إلى بيوت أعمامنا، حيث صورة وجهها تضيع مني ومن أخي، في زحمة صور وجوه عماتي ونساء أعمامي، لطول عهدنا بهنّ في مدينة إربد!! لا أدل على ذلك من مناداتنا لها - في آخر مرة عادت فيها من بيت أهلها بعد اجتماع شملنا - عوضاً عن أمي تارة بالعمة وأخرى بالخالة!! فتتمتم بكلمات لم أكن لأفهمها وهي تضمنا ثم تجهش في البكاء.

لا أدري كيف جاءها المخاض الذي امتدّ لليلة ويوم بطولهما، وكنت يومها ابن سنوات خمس لم أجاوزهن، أفهم ما يفهمه ابن الخمس، أرقب جدتي - رحمها الله - من خلف الستار تلج الحجرة عند غروب اليوم التالي برفقة القابلة، بعد أن أعيتها ومن معها الحيلة في إنجاز المهمة - كما كانت تفعل معظم الأسر - دون الحاجة إلى قابلة، ولعل عجز القابلة في فعل أي شيء، وأمام أنين أمي - رحمها الله - الذي أخذ في الانحسار شيئاً فشيئاً، حتى لأخاله اختفى، جاء القرار المتأخر في ضرورة نقلها إلى المستشفى، لم يطل مكثها هناك، لقد جاء الغروب بعد يومين، غروب حزين لا أنساه ما حييتُ! على قارعة الشارع الرئيسي الوحيد آنذاك في مدينة "المفرق" توقفت مركبة، هبط منها والدي وبعض أخوالي، وفي حزن شديد قد لف المكان، ووجوه الرجال المتحجرة، تنبئ عما وراءها من سر، كان في البيت مجموعة من النسوة في انتظار ورود الخبر، من بينهن خالتي الوحيدة، وإحدى عماتي، جرت خالتي نحو الرجال، انهار خالي الأوسط حين رآها، وألقى بالفاجعة مجتمعة في كلمتين:

- ماتت زُهرة!

ثم اختفى صوته، وراح يجهش في بكاء شديد، في الوقت الذي رأيت فيه خالتي تترنح، قد عقدت الصدمة لسانها، ثم هوت على الأرض في غيبوبة لا تحير معها أي حراك، سرى في المكان هرج ومرج، وعلى صوت البكاء والعويل، ودق الصدور ولطم الخدود، جاء الجيران والأقرباء من كل حدب وصوب، وامتلأ صحن الدار بالنساء والرجال كلهم بين نائح ونادب!

في هذا الجو الكئيب زجي جثمان أمي داخل الحجرة، بانتظار مراسيم الصلاة والدفن! أما أنا ويا ويح أنا من أنا! فقد أدركت المأساة مبكراً، لا أصدق بأن أمي ماتت، ولا أصدق بأنني لن أراها ثانية بعد اليوم؟! وأني لأرثي لذلك الطفل الصغير، الذي هو صورة مصغرة يومها عني أنا، وقد لذت في حجر جدتي لأمي أبكي، وبكلماتي البريئة أهيج من حولي من البواكي:

- من يغسل ملابسنا بعد اليوم؟! من يطبخ لنا؟! من يقوم بتحميمنا؟!.أسئلة كثيرة رحت أرددها حين راحت جدتي – رحمها الله – من خلال سحائب دموعها ترده، وهي تضمني إلى صدرها: أنا.. أنا.. أنا سأفعل لكم كل ذلك!

ذقت طعم اليتم باكراً، وألفيت الطريق مملوءاً بالأشواك على مد البصر، ولم تكن الرعاية التامة لترافقني على الرغم من أنه لم يمض وقت طويل حتى تزوج والدي، وتأرجحت في معترك الحياة، ما بين جدتي التي سعت جاهدة للإبقاء عليّ أنا وأخي في حضانتها، وإصرار أبي الذي مضى بنا دون أن يلتفت إلى بكائها متوسلة إليه أن يبقينا معها تشتم من خلالنا رائحة ابنتها التي عاجلتها أقدارها إلى غير رجعة!

لا أنكر – أقولها منصفاً – أن أي من أفراد أسرتي كانت له عليّ يد، أو سبق معروف في توجيهي إلى أي فج من فجاج الدين، فلقد نشأت في بيئة محافظة، تلبس فيها المرأة الحجاب لا لأنه شعيرة دينية يجب مراعاتها والتمسك بها، والتفاني من أجل الإبقاء عليها، بل كان العيب كل العيب في خروج المرأة كاسية حاسرة، ومع أنني عشت طفح صباي ملازماً للفقر، فإن ذلك لم يمنعني عن مجموعة من الأصدقاء في مراحل الدراسة الأولى من الأثرياء، مما كان له أكبر الأثر في تكويني الذي جعلني لسنوات طويلة بعد اغترابي أعيش ديمومة من العناء، يرّحَ بي وَنَاهَا، أنشد من خلالها الارتقاء إلى مصاف لداتني وشباب جيلي، حيث النعمة التي كانوا يتمرغون فيها، أرقبها وأنا أمصمص شفتي في أسى، أدرك من خلاله عجزي التام في أي مجاراة لهذا الواقع الأليم، وهذا حديث قد يطول مقامه لست الآن بصدد الخوض فيه.

- في المساء الذي سبق يوم السفر أخذت أتصفح صحيفة صدى دارمشتات "Darmstädter Echo"، عثرت في زاوية من زواياها على الخبر، وكان مقتضباً، مفاده

أن مجموعة إرهابية كانت تنوى تصفية العطار، فلما لم تعثر عليه في البيت مسرح الجريمة، اكتفت بقتل زوجته ولاذت بالفرار حال أي نذل جبان! لقد كانت قراءتي للخبر تلك جريمة لم تغفرها لي العصابة الحاكمة في دمشق، على مدار خمس سنوات دفعتها من أشواط عمري الأولى وزهرة شبابي!!

وأنا موغل في تدوين هذه الحكاية بكل جوانبها الاجتماعية والإنسانية، وقبل أن أتجاوزها إلى ما بعدها، تلمست قلب أبي - رحمه الله - هائماً فيما بعد، قد قطعوا عنه كل الأخبار، لا أنا مع الأموات فيناله أجر العزاء فيّ، ولا مع الأحياء فيكون له الاستعانة بالله والصبر الجميل، وأقف لأوازن بين أبي الذي لم يسعفه القدر في أخذ قسطه من العلم وملكة الكتابة، والشيخ علي الطنطاوي، فأثبت هنا للشيخ رحمه الله حديثاً، لعله يكون لسان حال كل الآباء والأمهات، في حديث يذكر فيه ابنته المغدورة أعلاه، بعد أربع سنوات على رحيلها يقول:

(إن كل أب يحب أولاده، لكن ما رأيت، لا والله ما رأيت من يحب بناته مثل حبي بناتي، ما صدقت إلى الآن وقد مر على استشهادها أربع سنوات، وأنا لا أصدق بعقلي الباطن أنها ماتت، إنني أغفل أحياناً فأظن إن رن جرس الهاتف، أنها ستعلمني على عادتها بأنها بخير لأطمئن عليها، تكلمني مستعجلة، ترصّ ألفاظها رصّفاً، مستعجلة دائماً كأنها تحس أن الردى لن يبطئ عنها، وأن هذا المجرم، هذا النذل.. هذا.. يا أسفي، فاللغة العربية على سعتها تضيق باللفظ الذي يطلق على مثله، ذلك لأنها لغة قوم لا يفقدون الشرف حتى عند الإجرام، إن في اللغة العربية كلمات النذالة والخسة والدناءة، وأمثالها ولكن هذه كلها لا تصل في الهبوط إلى حيث نزل هذا الذي هدّد الجارة بالمسدس حتى طرقت عليها الباب لتطمئن فتفتح لها، ثم اقتحم عليها، على امرأة وحيدة في دارها فضربها ضرب الجبان، والجبان إذا ضرب أوجع، أطلق عليها خمس رصاصات، تلقتها في صدرها وفي وجهها، ما هربت حتى تقع في ظهرها، كأن فيها بقية من أعراق أجدادها الذين كانوا يقولون:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا نقطر الدما

ثم داس الـ... لا أدري والله بم أصفه، إن قلت المجرم، فمن المجرمين من فيه بقية من مروءة تمنعه من أن يدوس بقدميه النجستين على التي قتلها ظلماً ليتوثق من موتها، ولكنه فعل ذلك كما أوصاه من بعث به لاغتيالها؟؟

داس عليها برجليه ليتأكد من نجاح مهمته، قطع الله يديه ورجليه، لا، بل أدعه وأدع من بعث به لله.. لعذابه.. لانتقامه.. ولعذاب الآخرة أشد من كل عذاب يخطر على قلوب البشر.

لقد كلمتها قبل الحادث بساعة واحدة، قلت: أين عصام؟ [يقصد عصام العطار زوجها].

قالت: خبَّروه بأن المجرمين يريدون اغتياله وأبعدوه عن البيت.

قلت: وكيف تبقين وحدكِ؟

قالت: بابا لا تشغل بالك بي أنا بخير، ثق والله يا بابا أنني بخير، إن الباب لا يفتح إلا إن فتحته أنا، ولا أفتح إلا إن عرفت من الطارق وسمعت صوته، إن هنا تجهيزات كهربائية تضمن لي السلامة، والمسلِّم هو الله.

ما خطر على بالها أن هذا الوحش، هذا الشيطان سيهدد جارتها بمسدسه حتى تكلمها هي، فتطمئن، فتفتح لها الباب.

ومرّت الساعة.. فقرع جرس الهاتف.. وسمِعْتُ من يقول: كلِّمْ وزارة الخارجيّة.

قلت: نعم.

فكلمني رجل أحسست أنه يتلعثم ويتردد، كأنه كُلِّف بما تعجز عن الأداء به بلغاء الرِّجال، بأن يخبرني.. كيف يخبرني؟ ثم قال: ما عندك أحد أكلمه؟

وكان عندي أخي. فكلمه، وسمع ما يقول ورأيته قد ارتاع مما سمع، وحار ماذا يقول لي، وأحسست أن المكالمة من ألمانيا، فسألته: هل أصاب عصام شيئاً؟

قال: لا، ولكن..

قلت: ولكن ماذا؟

قال: بنان.

قلت: مالها؟

قال: وبسط يديه بسط اليائس الذي لم يبق في يده شيء..

وفهمت وأحسستُ كأن سكيناً قد غرس في قلبي، ولكني تجلدتُ وقلت هادئاً هدوءاً ظاهرياً، والنار تضطرم في صدري: حدِّثني بالتفصيل بكل ما سمعت، فحدثني.

وثقوا أني مهما أوتيت من طلاقة اللسان، ومن نفاذ البيان، لن أصف لكم ماذا فعل بي

هذا الذي سمعت.. كنت أحسبني جلْداً صبوراً، أَثْبَتَ للأحداث أو أواجه المصائب، فرأيت أني لست في شيء من الجلادة ولا من الصبر ولا من الثبات) انتهى حديثه.

هذا غيض من فيض كثير كُتب عن تلك الحقبة المزرية التي ما زالت تبعاتها تتوالى دون انقطاع، حيث ارتهنت الأمة بمقدراتها مجتمعة للخبثاء من الغرباء دون اختيار أبيض لأسود، وليته كان أسوداً لكنا اكتفينا واحتسبنا، لكنه جاء أسودَ سواد القير الموغل في الدكنة المطلية بالعتمة ملأت بطن الأودية والروابي وقمم الجبال، فأنت رهن الاحتباس على أفضل الأحوال، لا تسمع ولا تبصر ولا يسمح لك بالنطق فتنطق.. أوضاع ليس لها من دون الله كاشف!

كنت أرقب مدينة "دارمشتات" من خلال مرآة المركبة – وهي تطوي بي الأرض – تبتعد من خلفي، وفي مسمعي صدى لحديث جرى بيني وبين أحد الأصدقاء:

– لا حاجة لك أن تسافر إلى سوريا، فهناك يعتقلون على الشبهة، لا تنس تردي العلاقات بينها وبين الأردن.. ابحث عن أي مورد رزق آخر..

ظلت هذه الكلمات تلاحقني كتوارد خواطر مخيفة مرعبة على امتداد الطريق المترامي على مد البصر، مع أنه لم تواجهنا أية مشكلة حقيقية تُذكر، ولم يطل مكثنا عند الحدود النمساوية، ولم نخضع لأي نوع من أنواع التفتيش، إلا أنني كنت خائفا لا أنكر ذلك!

في "جراس" المدينة الجامعية النمساوية قضينا أولى ليالي السفر، وعند المساء طفنا أرجاء المدينة، شاهدت في طريق سيرنا أرتالاً من بائعات الهوى تملأ حياد المكان فسقاً وفحشاً، وصحت من أعماقي في قرف يبعث على التقزز:

– متى تطهر الأرض من خبث هذا الصنف من البشر، تجار هذا الصنف من الرقيق.. متى؟!

صبيحة اليوم التالي تركنا لعرباتنا العنان، وما هي إلا ساعات حتى استقبلتنا الحدود اليوغسلافية، بالكاد أن تنجو هناك من طمع رجال الجمارك وجشعهم، ففي المركبة التي كان يستقلها رفيق دربي عثروا على بعض قطع غيار السيارات، كادوا أن يعطلوا بسببها رحلتنا، تنازل عنها لهم غير نادم! المهم أن تنجو!

وأنت تجتاز في "يوغسلافيا" تلك الروابي والسهول الممتدة، تكاد تأخذك الحسرة

ويعتصرك الألم.. هنا كانت للمسلمين يوماً مرابط خيول ومواطن أقدام!

ما زال الطريق يشق يتعرجاته تلك الروابي والسهول داخل جمهورية بلغاريا، وما زالت تلك السراويل السوداء والطرابيش الحمراء تشدك إلى ماض قريب، كان للمسلمين فيه رجال عشقوا الموت فوهبت لهم الحياة!.

وهنا لا بد وأنا بصدد الحديث عن هذا الموضوع، أن أنكر للتاريخ في بضع كلمات فداحة المأساة التي كان مسلمو بلغاريا يتعرضون لها، فلقد كانوا يجبرون على التخلي عن امتداد ماضيهم، متمثلاً ذلك في استبدال أسمائهم وأزيائهم الموروثة بأخرى ثورية تقتلعهم من جذورهم الإسلامية، وإلا طالتهم أقسى العقوبات، كان من تبعات هذا القرار، نزوح مئات العوائل عن ديارهم وموارد أرزاقهم إلى تركيا المجاورة، فراراً بأنفسهم ودينهم تحت سمع وبصر كل دنيا لجان الحضارة وحقوق الإنسان، دون أي اعتراض أو احتجاج!!

استقبلتنا الحدود التركية بطوابير طويلة من صفوف السيارات الممتدة حتى الحدود البلغارية، مئات المركبات، وأكوام من البشر يقفون في العراء، بانتظار أن يتكرم عليهم أحد الموظفين في إنهاء أذونات دخولهم إلى البلاد، وما زادني عجباً وتهكماً فوق عجبي وتهكمي على ما أرى، يقيني بأن الانقلاب العسكري - الذي جاء قبل أيام قليلة- جاء بزعم القائمين عليه للقضاء على هذه المظاهر الفاسدة وإعادة البلاد إلى نبع العلمانية الأتاتوركية التغريبية الأولى، وهذه هي الضمانة الوحيدة لدولة العسكر في جز الأمة من امتداداتها الإسلامية!

لقد بدا موظفو الحدود وكأنهم ممسكون بزمام الأمور، بدا ذلك من خلال أكواب الشاي ولفائف السندوتشات، يتناولونها أثناء الدوام الرسمي، أمام أعين الجموع الغفيرة من البشر المترجية المتمنية أن تنتهي من يوم الحشر هذا..

بعد ما زاد عن ست ساعات من الانتظار، ونحن في زحف بطيء وصلنا أخيراً إلى نقطة الحدود، وانتظرنا بفارغ الصبر قدوم رجل الجمارك، لكن انتظارنا كان ضرباً من العبث.. ثم خطرت لي فكرة أبرزت من خلال جواز سفري طرف قطعة نقد ورقية تركية من فئة المائة ليرة، ثم رحت ألوح بالجواز في الفضاء الممتد بيني وبين أقرب موظف جمارك، ما إن أبصر النقود حتى اختطف وثائقي وراح ينهي المعاملة، ولما تبين أنها مئة ليرة لا تزيد خاب ظنه، أعادها لي مشفوعة بسيل من الشتائم التي لم أفهمها في ثورة غضب عارمة

أستعدتها أمام عشرات العيون التي كانت ترقبنا!

في "إدرنة" أولى كبريات المدن التركية على الطرف الأوروبى، وفي أحد فنادقها رديئة الخدمة، أغريت الحارس الليلي في البقاء بجانب السيارات حتى الصباح، في مقابل علبة من التبغ أخذها مقدماً، على أن يأخذ أخرى في الصباح قبل أن نغادر، إن كان كل شيء على ما يرام، فالفقر والجوع علامات مقروءة على كل الوجوه هنا، والمقاهي تضج بالناس على اختلاف مشاربهم، لا سيما العاطلين منهم عن العمل، وهم كثر، وحين سالت أحدهم عن سبب مكوثه الطويل في المقهى للمقامرة ولعب الورق؟! أجابني وهو يهز رأسه في أسىً وحسرة باديتين في لهجة تدل على أصول عراقية كردية:

- يا معود (عزيزي) أكو (هناك) جهال (أطفال) أريد أجيب إلهم لقمة العيش، هَمْ (ها نحن) نلعب نتسلى، وهَمْ نكسب!

لم يكن بالإمكان تضييع المزيد من الوقت في "إدرنة"، فقد غادرناها ضحى اليوم التالي بعد أن أعطيت الحارس الليلي علبة السجائر كما وعدته!

في "أنقرة" العاصمة التركية، بقيت أياماً في ضيافة بعض معارفي من الطلبة الذين يدرسون في جامعتها الأمريكية، وما شاهدته فيها من المفاسد غني عن الذكر، هذا لم يمنع في المقابل من مشاهداتي لكثير من الأصالات الخالدة الباقية، دلت بشكل أو آخر على أن هذا الشعب الأصيل المغلوب على أمره – كبقية شعوب هذا الشرق البائس- قادم إلى الدنيا ثانية مع غبش الفجر.

واصلنا السفر إلى أنطاكية، في إحدى محطات البنزين على يمين الطريق الرئيسي تناولنا كوبين من الشاي، وحين هممنا بالانصراف اقترب مني رجل ملتحٍ في الخمسين من عمره، تصطحبه زوجته الغارقة في جلبابها، وأطفالهم الثلاثة، وفي أدب جم، والابتسامة تعلو محياه سأل إن كان في الإمكان أن أحملهم معيَ إلى مدينة "قونيا"، لم أكن اعلم أين تقع! أفهمته أنني في الطريق إلى أنطاكية، ابتسم وسألني الصحبة حتى مفرق طريق يقربه من مقصدة؟ أومأت له بالموافقة.

أخذ مكانه بجانبي، فيما اندفع الصغار مع أمهم لاعتلاء المقعد الخلفي، لم يتوقف على امتداد الطريق من إبداء حماسه للإسلام، وأمنيته أن يختم الله له بالشهادة في القدس على ثرى فلسطين!

على مفرق "قونيا- إنطاكيا" هبط مع أفراد أسرته مصحوباً بالسلامة، فيما رحت اختلس إليهم النظرات من خلال مرآة السيارة حتى التهمهم الأفق البعيد فلم تعد عيني تقع لهم على أي أثر.

وصلنا في وقت متأخر من الليل إلى الحدود، وهناك في "باب الهوى" نقطة التقاء الجيوش تعرضنا لعملية تفتيش دقيق، لم يكن بحوزتنا ما يبعث على القلق، فملابسي لم تتجاوز غياراً أو غيارين، ولمدة غياب لن تزيد عن أيام ثلاثة.

ابتلعت ريقي وأنا أقدم جواز سفري، في الوقت الذي راح ضابط الجمارك ينقل نظراته بيني وبين صفحات الجواز، لم يلبث أن مهر الجواز بختم تأشيرة الدخول، ومن خلال كوة في الواجهة الزجاجية دفعه لي، تنفست الصعداء وأنا أجتاز البوابة، وفي الجمارك حصلت على سمة دخول للسيارة لم تزد مدتها عن خمسة عشر يوماً.

حمدت الله في الظلام على حسن الختام، وأنا أطوي الأرض إلى حلب وجهتي الأولى، وعلى المدخل الشمالي للمدينة استوقفتنا دورية للمخابرات مدججة بالسلاح، أحاطوا بنا وراحوا يدققون أوراقنا الثبوتية، وأعادوا تفتيش المركبتين، بالكاد أذنوا لنا أن نواصل إلى حلب، كانوا يصرون أن نمضي إلى دمشق! الوقت ليل ونحن مجهدون، نحتاج لقسط من الراحة قبل أن نواصل، وهذا ما شفع لنا عندهم.

بدت حلب كالنائمة الخائفة، أو المهجورة، فالطرقات خالية إلا من بعض المارة الذين ألجأتهم الحاجة القصوى للخروج في هذا الوقت الموبوء بالخوف والحذر، والمحلات التجارية قد أغلقت أبوابها على غير عادة، فحلب كما أعرفها مدينة لا تعرف النوم.

رحنا نفتش عن مطعم، وبعد جهد جهيد عثرنا عليه، وكان أقرب منه إلي الحانة منه إلى المطعم، ما أن دلفنا حتى عبقت أنوفنا بروائح الخمر، تنبعث من أرتال السكارى الذين راحوا يترنحون! هؤلاء الوحيدون الذين بإمكانهم أن يواصلوا الليل في ظل دولة القهر والعهر! دولة الأفخاذ الجبلية المنصوبة! أما الشرفاء فقد التهمتهم السيارات السوداء.. القادمة مع غبش الظلام.. والسرايا المختلفة.. ومظاهر التسلح التي ما فتأت تزرع الرعب في كل مكان!

تناولنا العشاء على عجل، حاولنا الاتصال بأحد المعارف، رد والده على الطرف الآخر من الهاتف معلناً صعوبة حضور ابنه في هذا الوقت المتأخر من الليل، تركنا له اسم الفندق

ورقم الهاتف على أن يلحق بنا ابنه في اليوم التالي باكراً قبل أن نتابع إلى دمشق، وفي الفندق تهالكنا على الأسرة في إعياء شديد ثم رحنا نغط في نوم عميق!

بكرنا في اليوم التالي إلى إحدى المقاهي، تناولنا بعض الحلوى واحتسينا كوبين من القهوة، وقرابة العاشرة حضر صاحبنا، اصطحبنا معه إلى بيته، وأقنعنا بالبقاء سحابة يوم الجمعة في ضيافته، فهو يوم عطلة رسمية ولن يكون بمقدورنا مزاولة أو إنجاز أي عمل، كانت زوجته تقوم بإعداد وجبة الغداء في الوقت الذي راح يطوف بنا على معالم المدينة، كان الخوف بادٍ على وجوه الناس في كل شارع وزقاق، وفجأة صاح صاحبنا في ذهول:

– يا الهي نسيت اصطحاب بطاقتي الشخصية!

حاولنا أن نهدئ من روعه، وأخبرناه بأننا نحمل جميع أوراقنا الثبوتية، وأنها تجزيء في التعريف بنا جميعاً، كاد أن يبكي وهو يردد:

– هل تعلمون ما يعني عدم عثوري على البطاقة؟!

وتابع في هلع يشبه الانهيار: هذا يعني أن زبانية النظام سيقودونني كالشاة عند أول حاجز عسكري، إلى المجزرة، البطاقة هنا هي طوق النجاة، هي عصب الحياة وإكسيرها!

لقد عشت ومررت بدول شرقية وغربية، لا أتذكر يوماً أنني احتجت فيها لإبراز بطاقة، باستثناء معابر الحدود.. فأي دولة تلك التي لا يأمن مواطنوها بوائق عسكرها ومخابراتها، ويشاء الله أن يعثر المسكين على البطاقة، كي يعثر على ذاته التي بعثرها الخوف والهلع..

خلفنا حلب ترزح في أغلالها، تعج بالعسكر والدوريات المترصدة المتصيدة، غادرناها في صبيحة اليوم التالي على عجل، وبين حلب وحماة استوقفتنا حواجز كثيرة، كانت حماة تعج بالحركة، وبدا الناس كأنهم على برميل من بارود عما قليل سينفجر، تقرأ ذلك في الوجوه، وبدا العاصي ذلك النهر الخالد خلود المدينة، لسان حاله يحدثك عن تتار وبرابرة وطغاة كثر مروا به، انحسروا انحسار الملح في الماء وبقي جارياً يردد ترانيم الانطلاق والحرية.. وأنا أجتاز الطريق الذي يقسم المدينة إلى شطرين، بعد أن استوقفني أحد رجال الشرطة راجياً أن أحمله معي إلى دمشق، كنت حذراً في التحدث إليه أثناء الرحلة، مع أنه لم يتوقف عن الكلام، خاض في كل شيء، تكلم بمرارة عن سوء الأوضاع وعن الغلاء والراتب الذي لا يكفي لأسبوعين، وكيف أنه يتوق إلى ذلك اليوم الذي يصبح فيه خلف الحدود كي يتحسس آدميته المهدورة صبيحة كل رتل عسكري ينتظم فيه!

و..أمام كل حواجز ميليشيات الدولة العنصرية، كان عليه أن يبرز أوراقه الثبوتية، وكانوا يسألونني في كل مرة عن سبب اصطحابي له معي؟!

لم تكن دمشق أقل سوءاً من حلب، وصلتها بُعيد العصر، وفي بيت من بيوت الشيخ ركن الدين بمنطقة الأكراد نزلنا ضيوفاً، في المساء أردنا أن نمر بأسواق المدينة، فنصحتنا سيدة الدار ألا نفعل، وإن كان لا بدّ فعلى أن نبكر في العودة، وفي أسى قالت: صدقني يا بنيّ، لقد ألقوا القبض على جارة لنا لأنها شتمت الغلاء علانيةً وشتمت من كان السبب في رفع قيمة السلع، والمواد الأساسية، في أحد المحلات التجارية! مضى على غيابها بسبب هذه الكلمات ما يزيد على ثلاثة أشهر!

بدا العجوز صاحب البيت الذي جاوز السبعين من عمره وهو يعتلي سريره، معتمراً غطاء رأس مستدير في وقار لا تعهده إلا نادراً في كثير من الناس، بدا حانقاً من هذه الأوضاع التي لا تبعث على الطمأنينة، أدار المذياع في حذر شديد، وراح يستمع إلى الأخبار من عمّان، فهي محطة الأشراف الوحيدة التي يثق بها من بين كل محطات العالم حسب زعمه! والمحطة الوحيدة التي تقوم بتعرية النظام الطائفي العنصري، وفضح جرائمه على رؤوس الأشهاد..!!

أمضيت أياماً ثلاثة في دمشق، وقفت فيها على أسواق بائرة كاسدة، وتراجع عجيب غريب في قيمة الليرة السورية أمام العملات المتداولة الأخرى، فالفقر يلف البلد، والاقتصاد في الحضيض، والفئة الحاكمة متخمة من كثرة النهب والسطو الذي يتم بلا رقيب أو حسيب، والعاصمة تخالها قد تحولت إلى ثكنة عسكرية، فأينما يممت وجهك لا ترى إلا العسكر، ومليشيات المخابرات والسرايا والقرايا كما يقولون!!

أمام أحد أكشاك بيع الصحف، شاهدت اثنين من المخبرين بلباسهما المدني، يقتادون شاباً في العقد الثاني من عمره، ووالده قد خرج من داخل الكشك يجرى في إثرهم وهو يصيح مشدوها من هول ما يرى:

- إلى أين تمضون به؟!

وتأتى الإجابة دون أن يلتفتوا:

- خمس دقائق سؤال ويعود!!

بقيت فيما تلي من أيام أحابي الزمن كي أعثر على إجابة عن سر الدقائق الخمس تلك، حتى قيلت لي، فارتعدت لها فرائصي، انكويت جرّاءها حتى اكتفيت، وعانيت من الظلم إلى أن أتخمت!

يصعب عليّ التكهن في الجهة التي أخذوا المسكين إليها، وإن كنت أتمنى له السلامة، إلا أن شعار هؤلاء الطغاة الذي خبرته في مقبلات أيامي، كان ولا يزال، أن الداخل عندهم مفقود، والخارج إن كُتب له الخروج، فهو ولد مولود!!

بعت السيارة في اليوم الثالث من قدومي، وقمت بإسقاط الملكية، والتنازل للمالك الجديد داخل السفارة الألمانية بدمشق، وقيل لي بأن الثمن الذي قبضته كان بخساً، ولم أندم، لأنني كنت على عجل، ولم أنس أن أصطحب معي في طريق العودة، مجموعة من الألبسة الشرقية، وطبل اشترط عليّ بعض الزملاء أن يكون من جلد السمك الخالص، بالإضافة إلى عباءة، وغادرت قافلاً إلى ألمانيا بسلام.

عود على بدء

ثانية إلى دمشق

مضت أيام قليلة على عودتي من سوريا، وفتحت الجامعة أبوابها، وجاءت الأيام رتيبة لا جديد فيها، وبدا الفصل الدراسي مثقلاً بالمواد، وكان علينا أن نقوم بثلاثة رحلات علمية لمادة "الجيولوجيا"، وقبل أن نقوم بالرحلة الثالثة بأيام، جاءني بعض الأصدقاء، أقنعوني بأن أعيد الكرّة ثانية، والسيارة مرسيدس SEL280 كاملة التوابع والتجهيزات، من صنع نفس العام الذي ما زلنا نمخر عبابه. وعدتهم أن أدرس الموضوع، على أن أرد عليهم في اليوم التالي.

عكفت على ترتيب حجرتي التي انتقلت إليها للتو في المدينة الجامعية، وكنت من حين لآخر أتوقف لاستقبال بعض القاطنين في نفس الدور من الجيران الذين كانوا يفدون للتعرف.

في المساء خلوت بنفسي لبعض الوقت، ما لبثت بعدها أن أخذت قراري بالسفر، على أن يكون يوم ١٩٨١/٥/١٣ هو يوم الانطلاق، وعلى ألا تتجاوز الرحلة أسبوعاً من الزمن، وبذلك أضمن العودة قبل موعد الرحلة العلمية الثالثة، قصارى القول انطلقت برفقة زميل رحلتي في المرة السابقة والذي وُفّق في شراء سيارة مشابهة.

استهليت وصولي إلى مدينة "جراس" النمساوية بمهاتفة أحد الزملاء، كنت قد ائتمنته على حجرتي التي لم أكمل فيها تثبيت الأرفف، رجوته أن ينجز ذلك إن أمكن، وأن يقوم بفرش قطعة السجاد. وجاءني صوته وكأنه من أعماق التاريخ:

- صارت الحجرة جاهزة، لن تستطيع التعرف إليها متى رأيتها!!

هكذا جاءت العبارة.. لن تستطيع التعرف إليها.. ومن كان يدري، فلعلني فيما يلي من الأيام لن أعود إليها على الإطلاق! من كان يدري؟

بدأت الأجواء الشرقية في التلألؤ وأنا أجتاز الحدود اليوغسلافية، كنا بصدد البحث عن محطة بنزين، في المحطة التي عثرنا عليها استوقفتنا الشرطة، ومضوا بأوراقنا الثبوتية

يطوون الطريق إلى خارج العمران، ونحن في أثرهم، حتى إذا ما خلا المكان ألا منا ومنهما، وكانا اثنين، توقفت سيارتهما، وهبط أحدهما وبقي الآخر منكباً على أوراق بين يديـــه، لكأنـــه يعكف على تحرير محضر ضبط باسمينا!!

حين أقبل الذي هبط باتجاهنا سأل عن حرف "D"، كان عادة ما يلصـــق علـــى مـــؤخرة السيارات الألمانية، وأوهمنا بلغة ألمانية ركيكة كان يتحدث بها، أن موعدنا غداً في المحكمـــة بسبب هذه المخالفة!

لم نكن بحاجة إلى مزيد من النقاش، فقد اختصر المسافة بيننا وبينه حين سأل فجأة:

- كم ستدفعون؟! فكروا جيداً وإلا فالمحكمة غداً في "ماربورو"!

لم نكن ندرى أين هي "ماربورو" تلك التي يخيفنا بمحكمتها.. ونحن غرباء..

همست موجهاً القول لصاحبي:

- ندفع. ثم التفت إلى الشرطي متسائلاً:

- كم تريد؟

في لهجة من ظفر وقد لمعت عيناه:

- أنتم تحددون!

تقاسمنا ما نملك من مبلغ زهيد كان بحوزتنا من النقود اليوغسلافية معهم.

- المبلغ جدُّ قليل!

أخرجنا عشرة ماركات، وفي لمح البصر صارت بين يديه.

- هذه لي وماذا لزميلي؟

دون أن نتشاور:

- عشرة أخرى!

وهو يأخذها، سأل بلغة رديئة:

- هل تحملون ساعات؟

ظننته يسأل عن الوقت. فأجبته مستغرباً، فقد كان يحمل في معصمه ساعة!

أعاد السؤال ثانية وحين فهمنا ما يريد أجبناه بالنفي.

تركنا يوغسلافيا خلفنا، تغط في نيران تطهير عرقي، نبصره تحت الرماد حمياً قليل سيشتد أواره، كي يأكل الأخضر واليابس، ومضينا لا نلوي إلى بلغاريا.

في مدينة "بلفديف" البلغارية توقفنا أمام أحد المحلات التجارية، اشترينا منه بعض الأطعمة، ثم جلسنا داخل مركباتنا، ورحنا نجتهد عبثاً كي نركن إلى شيء من الراحة غير أن شدة البرد ألجأتنا إلى أحد الفنادق الخاصة بالسياح!

كان المظهر الخارجي للفندق ينبئ عن رقي وفخامة، أما الداخل..

رحت طوال الليل أتقلب قد جفى النوم عيوني، ولم يسعفني ما بي من تعب وإجهاد على إغماض طرفي، فصرير السرير المتأرجح من تحتي استمر في إرسال أنغامه النشازة دون توقف عند كل حركة حتى الصباح.

عند انبلاج الفجر رحنا نبحث عن الحمام والماء الساخن، وليتني استمريت في البحث، فأمامي رحلة بيات شتوي سوف يتعذر علي الوصول فيها إلى الماء أشهراً وأياماً كثيرة، كما سيلحق فيما يلي من هذه الفصول!!

كانت تباشير صيف عاصمة الخلافة العثمانية حارة، مع أننا كنا في شهر مايو أيار، وبدت مدينة الألف مئذنة ومنارة، لكأنها عروس تتزين لليلة زفافها، كانت ليلة جميلة تلك التي قضيناها هناك، حيث غادرناها مبكرين على عجل مصطحبين معنا شاباً أرمنيا كان يأمل اللحاق بأهله في الاتحاد السوفيتي عن طريق سوريا، لتعذر حصوله على تأشيرة سفر في تركيا.

ودخلت في خصومة مع رفيق رحلتي، هو يريد التأني وأنا كالبارود أريد أن ننطلق دون توقف، سيما وقد صادف وصولنا إلى اسطنبول انفجار أصاب ليلتها "مكتب الطيران الإسرائيلي" وسط المدينة، أمام إصراري غادرنا، كنت على عجل، هكذا نحن دوماً نجري إلى أقدارنا المكتوبة بأرجلنا!

جاوزت الساعة منتصف الليل ونحن الثلاثة منكبون عند آخر رجل شرطة تركي يجلس في آخر نقطة تركية عند الحدود السورية، وقد بدا عنيداً وحيداً، لديه من الوقت ما يكفي للمناورة في ابتزاز الشاب الأرمني مبلغاً من المال، في مقابل السماح له بالمغادرة، مصطحباً معه ما يملك من نقود! ومما أذكره من حديث رجل الشرطة، قوله:

- أن هذا المبلغ الذي هو في طريقه إلى خارج البلاد يشكل خطراً حقيقياً على اقتصاد الدولة، لذا يجب مصادرة المبلغ بالكامل!

أسقط في يد الشاب المسكين، وراح يتوسل، ورحنا نلح بدورنا على رجل الأمن هذا، أن يغض الطرف ويأذن له بالعبور، لكنه هدد بلغة عربية رديئة باتت أقرب منها إلى العبث:

- أنتو روحوا... وهذا بيظل (يبقى) هون؟!

تدخلنا ثانيةً وأبدينا شيئاً من اللين للتفاهم، ووعدناه على المكشوف بمبلغ من المال رآه زهيداً!

تركنا صاحب العلاقة يتولى المساومة معه بالتركية، فهي لغة يجيدها الطرفان لا نفهمها، وتم أخيراً الاتفاق، لكنه جاء مخيباً لكل أمل، فقد اتفقا على اقتسام المبلغ!.

عقد الاتفاق لساني عندما فهمت، ثم رحت أضرب كفاً بكف، وأنا أنظر إلى الشاب، وهو يعد الدراهم على ذلك الحريص جداً على اقتصاد الأمة، فهو معاذ الله بنواياه الحسنة لا ينوي نهب أي شيء، هو سيردها إلى خزينة الدولة، بدليل إيصال القبض الذي لم يقم بتسليمه لصاحب العلاقة البائس!

خمس دقائق

نقطة التفتيش عند الحدود السورية خاوية على عروشها، فكل شيء ساكن هنا سكون المقابر، باستثناء عواء بعض الكلاب الضالة بين الفينة والفينة، فالانقلاب العسكري الوليد، والذي قاده الجنرال التركي العلماني "كنعان افرين" قائد الجيش آنذاك على حكومة الائتلاف المنتخبة، والتي كان يقودها أجاويد زعيم حزب الشعب، ونائبه الإسلامي "نجم الدين أربكان" زعيم حزب الرفاه، أعلن الأحكام العرفية في تركيا، بالإضافة إلى منع التجوال بعد الثانية عشر ليلاً، بذلك الانقلاب أراحوا الطرف المقابل من إستقبال وافدين جدد، حيث الحدود قد أغلقت أبوابها، وأوصدت نوافذ تخليص أوراق المسافرين.

ترجلنا في نقطة الحدود بـ"باب الهوى"، تابعنا السير على الأقدام لمسافات طويلة داخل الحدود علنا نعثر على موظف ينهي لنا معاملات الدخول، ولما لم نصادف أحداً قفلنا أدراجنا إلى مركباتنا، حيث قضينا بداخلها بقية ليلتنا، ولم نعدم شيئاً من برد الليل الذي كنت أحسه يخترق العظم مني، ومع ذلك لا أدري كيف سرقني النوم فنمت، ومع اشتداد حرارة الشمس التي راحت تخترق زجاج السيارة بأشعتها الذهبية أطل علينا يوم حزين!!

سرت في المنطقة حركة بطيئة خاملة، وتقدم مني أحد رجال الشرطة هو أول من تقابله هنا، قام بتفتيش السيارة على عجل، ثم استأذنني في استخدام المذياع لسماع نشرة الأخبار، وسألته عن دورة مياه؟! قادني إليها وعاد لمتابعة بقية الأخبار، انتهيت ورجعت كي أهيئ نفسي للحصول على إذن دخول البلاد المنكوبة، سوريا الصمود والممانعة والتصدي!!!!

تركت الرجل يتابع نشرة الأخبار، ويممت وجهي شطر الخدمات الخاصة بإنهاء المعاملات، وأمام شباك خاص بـ"الأشقاء العرب"! سلمت جواز سفري ووقفت أنتظر إنهاء المعاملة.

شعور غريب هذا الذي يصاحبك وأنت واقف أمام شباك من شبابيك تدقيق أوراق الثبوتية في عالمنا العربي! يسري فيك تيار الخوف عند كل التفاتة شرطي، وتبتلع ريقك

بصعوبة عند كل سؤال، فأنت أبداً في وضع المتهم حتى تثبت الإدانة عفواً البراءة! ولا أدري كيف قفز إلى خاطري أن ليتني ما حضرت، وتمنيت لو أنني على الأقل سلكت طريق الساحل حيث مدينة "كَسَب"، وجرى في ذهني شريط سريع وأنا على مفرق الطرق، أحدهما يمضي بنا إلى مدينة "كَسَب"، والآخر إلى "باب الهوى" حيث القدر المتربص هناك، وقفت، ووقف صحبي معي طويلاً، أي الطريقين نسلك؟ فقد انعدمت أي إشارة مرور تدلنا على الطريق الصحيح الموصل إلى "كَسَب"، ورحنا نتخبط خبط الأعشى فارقه دليله، هائمين على وجوهنا، وفي مسمعي حديث أدلى لي به أحد المسافرين:

– خذوا حذركم جيداً، ففي "باب الهوى" دورية لمخابرات محافظة إدلب العسكرية، تعتقل الناس دون تمييز، سيما الأردنيين منهم!

ولما استيأسنا من العثور على من يدلنا في هذا الوقت المتأخر على الطريق، وصار الوصول إلى نقطة الحدود هو الأجدر أن نفكر به، عندها جاء قرارنا أن نواصل إلى باب الهوى.

انتبهت من شرودي هذا على ضابط الجمارك يقترب مني في يده جواز سفري، تعلو شفتاه ابتسامة لا أنساها ما حييت، ولو كانت لي ريشة رسام ما أخطأت تصويرها ما امتد بي العمر وتراخى بي الزمن! وعلى غير العادة ناداني:

– سيد سليمان أبو الخير!

ولم ينتظر أن أجيب، تابع قائلاً:

– تفضل معي.

و كما لو أنه يبتلع ريقه، أردف قائلاً:

– (خمس دقائق)!

انتابني دوار، ولا أدري كيف قفزت صورة الشاب إلى مخيلتي، ذلك الشاب الذي اقتادوه من أمام كشك بيع الصحف في دمشق، وأبوه يجري في إثرهم، يسأل كالمشدوه:

– إلى أين تمضون به، إلى أين؟!

وتأتيه الإجابة في صفاقة:

- خمس دقائق فقط..

لا أدري كيف قفزت تلك الصورة إلى السطح، وجاءني صوت الضابط من خلال ذهولي وشرودي:

- تفضل معي، من المؤكد أنك لم تتناول طعام الإفطار بعد، وأنا أفهم ماذا يعني كوباً من الشاي في مثل هذا الوقت المبكر من النهار.. جميل أن يدعوك أحد في هذا الوقت..؟؟

كان يتحدث بهدوء ما يسبق العاصفة، وكانت لهجته تنبئ عن أصله، فقد كان علوياً صرفاً، وحين اقترب مني رفيق رحلتي يسأل عن سبب جلوسي هنا؟ أجبته باللغة الألمانية وقد بدأت أتلمس الكلمات في صعوبة متناهية، قد امتقع لوني وكساني شحوب البؤس الذي عما قليل سألجه:

- أعتقد إنهم يعتقلونني! إذا ما وصلت دمشق سالماً، أرجو أن تفعل شيئاً من أجلي، ولا تنسى أن تبلغ أهلي بذلك؟!

بفطرة شرقية، وبنظرة غير المصدق سأل:

- ولم كل ذلك؟!

لم أجب، لأنني حتى يومي هذا لا أعلم سبباً قاطعاً لكل ذلك الذي حصل، غير أنني أشرت له على عجل بضرورة الابتعاد!

كان ضابط الشرطة ذاك مربوع القامة، يتربع فوق شفته العليا شارب مسبسب، وفي جسمه سمنة زائدة لا تخطئها العين اكتسبها من رزق حلال! وقد سرت في وجنتيه حمرة واضحة دلت على أنه هجين من بقايا الأوروبيين!

كانت اللحظات عصيبة تلك التي لحقت، تذكرت فيها أحاديث صاحبي الذي خلفته هناك وراء الآلاف من الكيلومترات:

- إياك أن تسافر! فالبلد تحكمه عصابة، وهو غير آمن، أطعني لا تسافر.. إنهم يعتقلون الناس على الشبهات!!

فأكاد أرثي لحالي وقد فاتت الفرصة، ثم أجتهد في إقناع نفسي قائلاً:

- أنا أحمل التبعية الأردنية، ولا علاقة لهم بي، وأنا أعْرَفُ الناس بنفسي، فلا طيف لي

أو أي لون سياسي!! فلمَ الخوف والوجل؟؟

ما كان كل ذلك ليبعث الطمأنينة في نفسي التالفة، وما كان ذلك ليشفع لي – في مقـبلات أيامي التي ترادفت في ذلك البلد المخطوف– عند أي كان ممن ترادفوا على امتهان كرامتنـا حتى النخاع، وذلك ما ستلمسه أو ستلمس بعضه عزيزي القارئ فيما سيلي من الصفحات!

حضر سائق سيارة أجرة على عُجل مشتملاً بلثام، دار بينه وبين الضابط حديث لا أذكر منه غير جملة "زبون جديد!!"، لعلني كنت أنا المقصود، غادر السائق لبعض الوقت، وبقيـت مع رجل الشرطة يعللني بالصبر حيناً وبالسؤال عن دراستي وتجارة السيارات أحياناً، إلى أن عاد سائق سيارة الأجرة مصطحباً معه مجموعة من المسلحين، كانت ملابسه الرثـة لا تنبـئ عن كونه من رجال المخابرات، لكنه قد يكون نوع من أنواع التمويه التـي يمارسـها أراذل الناس من المخبرين، وقد سرت فيه همة رجال العصابات وهو يقوم بمساعدة المسلحين الـذين انكبوا عليّ، فقيدوني، ثم اقتادوني بأعقاب البنادق إلى داخل سيارة الأجرة.

كنت مشحون الصدر، وفي رأسي همّ الذي تقطعت به كل أسباب النجاة، وما عاد لي من حيلة أدفع بها هذا الظلم الغاشم الذي هدّ أركاني من غير ما سبب، وفي المقعد الخلفي جلـس عن يميني أحد المسلحين، وعن يساري آخر.. ومضت السيارة تطوي بنا الطريق في صـمت شديد أسكنني مزيداً من الرهبة والخوف، ولم يمض وقت طويل حتى توقفت السيارة، والتهمنا مبنى منعزل على الحدود، لم يتجاوز أثاثه مقعداً ومنضدة.. وهناك دفعوني إلى داخل حجـرة خالية كانت ملحقة بالمبنى! ولم ينسوا أن يدنسوا مساحة المكان بتعليق صورة صـاحب كـل نياشين الانتصارات الكرتونية في التشرينين والجولانين، فرعون صغير مـن فراعنـة هـذا العصر المقصوص، صورة الوافد من قرية القرداحة!!

جردوني من كل أوراقي وممتلكاتي، سلبوا حتى النقود، وأي شيء يسلبون إن لم يسـلبوا النقود، لقد سلبوا كل شيء.. وكيف لا يكون ذلك؟ فهم الأبطال الذين شـهدت لهـم سـاحات الوغى في تحرير حلب وحماة وحمص ودمشق، ومدن سورية كثيرة أخرى من أهلها العزل.. أما لبنان فالباع فيه طويل وكل شيء هناك مستباح..

بعد أن جردوني من كل شيء، أودعوني غرفة حقيرة قذرة، فيها نافذة صـغيرة عاليـة يطل منها بصيص من نور ضئيل، كانت الحجرة جرداء لا أثاث فيها، سوى مغسـلة تبعـث

على الاشمئزاز في النفس، شعرت بالغثيان وهم يدفعونني إلى داخلها، وكان عرقي يتصبب، وتدبت نفسي في حبائل قدري العاثر، فتهالكت على الأرض افترشتها، ثم أجهشت في بكاء القانط اليائس، وأنا أدير نفس السؤال:

- لِمَ كل هذا..؟ دون أن أجد له إجابة، ويرتفع ضغطي، وما هي إلا لحظات حتى تأخذني غيبوبة، أفقت بعدها مسلوب الإرادة، فبالكاد أتحامل على نفسي حتى أصل إلى المغسلة، فأتجشأ ما بقي في معدتي من بقايا طعام، وبدا ريقي جافاً فيه طعم المرار، وقد مضى عليَّ الليل بطوله وصدر نهاري الجميل الواعد هذا، دون أن يدخل جوفي شيء من طعام سوى رشفات من كوب الشاي الذي قدمه لي سيادته آنف الذكر.

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا على هذا الحال، فقد جردوني أيضاً من ساعة معصمي، ورجعت أسأل ثانية:

- إلى أين؟

وقمت أذرع الحجرة على ضيقها ذهاباً وإياباً، لا يفارقني التفكير في المصير المجهول الذي سآلو إليه، وعاودتني صورة سوداء داكنة، وشعرت بالدوار والخوار يجتاحني ثانية، فعدت أفترش الأرض ساندا ظهري إلى الحائط، ومضت بي الهواجس حتى طرق مسمعي صوت زميل الدراسة على الهاتف كفأل شؤم:

- صدقني لن تستطيع التعرف إلى حجرتك في ألمانيا عندما تعود، لن تعرفها.. لن تعرفها..

وراحت هذه العبارة تتكرر في مخيلتي، حتى تلاشت كل أسباب النجاة من أمامي، ولم يبق لي إلا صورة هذه العبارة الممسوخة تأتيني لكأنها من أعماق الزمن.. لن تعود.. لن تعرفها.. لن تعود.. لن تعود..

سرت جلبة في المكان، ودار المفتاح، وسُحب المزلاج، واندفعت البوابة الحديدية، ظهر من خلفها ثلاثة من المسلحين، وأنا واقف أرقب، أشار عليَّ أحدهم بأن أتقدم، ثم راح يعيد لي بعض أوراقي وأشيائي دون أي تعليق، قادوني إلى خارج المكان، حيث السيارة التي قادتني بدورها إلى قدري واقفة، قد أحاط بها فريق كامل من المسلحين الذين ناف عددهم عن العشرة، كلهم متربص ينتظر!

فتشوا السيارة بدقة متناهية، وهذه هي المرة الثانية التي تُفتش فيها، طلبوا مني إفراغ الحقائب، كنت أحمل معي حقيبتين للشاب الأرمني قد مُلئتا بالهدايا، وحين سئلت عما بهما؟ لم يكن لديّ أي فكرة، كنت أتمنى لهما - الأرمني والعراقي- السلامة، غير أن الإصرار في العثور على إجابة؛ كل ذلك مجتمعاً كان سبباً في استدعائه للمثول بدوره أمام المخابرات ليُسأل عنها وعن علاقته بي!

استدار لي رئيس الدورية فجأة، وفي لهجة ساخرة سألني:

- مرة واحدة تتحول من تجارة الفلفو إلى المرسيدس، ومرسيدس 280SEL ماركة حديثة أيضاً؟!

واقفاً أرقب وأسمع ما يدور حولي في صمت، وعلى جهاز اللاسلكي يتنادي رئيس الدورية على سيده في الطرف الآخر:

- حاضر سيدي، المدعو سليمان في قبضتنا الآن، يوجد برفقته شاب عراقي وآخر تركي!

وجاء الجواب من بعيد:

- ائتني بهم جميعاً!

دق قلبي، وأدركت بأن الحكاية ستأخذ أبعاداً جديدة، وأذهلتني نبرة القوم الصارمة في اقتيادي، وجاؤوا برفاق دربي وما هي إلا برهة من زمن حتى انتظمنا القيد الحديدي ثلاثتنا!

دارت في مكتب التخليص الجمركي خصومة بين سلطة الجمارك ورجال المخابرات العسكرية، وفي إصرار قال الموظف الجمركي:

- يجب إنجاز معاملات دخول السيارات أولاً!

وفي صرامة العسكر وبحرص المنتفعين المتسلقين قال رئيس الدورية:

- سوف تأذن لنا بالمرور الاستثنائي هذه المرة لأسباب أمنية، ستبقى عندك أوراق السيارات لتنهي المعاملات كيفما شئت..

قاطعه موظف الجمارك قائلاً:

- أمامكم المدير، يمكنكم أن تتفاهموا معه..

أخيراً، أقبل المدير هائجاً كثور انفلت من عقاله:

- لقد تسببتم لي في الكثير من المشاكل، يجب أن يأخذ القانون مجراه، ولا يمكن بحال من الأحوال أن نسمح بمرور السيارات قبل إنهاء المعاملات اللازمة لذلك!

وفي نبرة كساها التهديد قال رئيس الدورية:

- إن أمن البلاد فوق كل قوانين الدنيا!

سرعان ما سرت أصداء هذه العبارة في ما بقي من نفسي التالفة، وتساءلت عن مدى الخطر الذي يهدد به أمثالنا البلاد، واجتمع عليّ شعور الخوف واليأس والأسى، وبات الأمل في النجاة يتراجع لحسابات أخرى في طريقها للاجتماع على صدري المتهالك، فأنا لا زلت رهن عالم الغيب، وحين رحت أبحر في أمواج الغد، ألفيتني أستسلم لقضاء الله وإرادته، وما هي إلا لحظات حتى تنفستُ نفساً عميقاً ثم أتبعته بزفرة اختلطت بترديدي:

- إنا لله وإنا إليه راجعون!

كان الخوف بادٍ على زملائي، لا سيما الشاب الأرمني، والذي كان بدوره كأطرش يساق في زفة عرس، فهو لا يعرف اللغة العربية أولاً، ولا يدري ما الذي يدور من حوله، حظه العاثر ساقه كي يكون برفقتنا، وهذه التهمة تكفيه، بقي طوال الطريق صامتاً، فقد كانت الفاجعة أكبر من أن يتصورها أي أحد منا!

لم يأذن المدير أن نعبر قبل إنهاء المعاملة، وبعد أخذ ورد تم الاتفاق على حل وسط - هكذا قالوا- نقوم بتسديد بوليصة التأمين، ثم يُخوّل أحد المخلصين الجمركيين بإنهاء المعاملة في الوقت الذي نمضي فيه إلى فرع التحقيق العسكري بـ "إدلب"، وهناك سيتم الاتفاق على من سيعود لإنهاء المعاملات.

وأنا أهم بالتوقيع على الاستمارة، سألني المخلص الجمركي عن سبب اعتقالنا؟ زممت شفتاي وقلبت كفاي مبدياً له عدم معرفتي للسبب.

قال مُطَمئناً:

- لا عليكم، ربما تشابه في الأسماء، ولعل الحل يكون في دمشق بمشيئة الله! لستم أول من يقع في مثل هذه الإشكالات، سيعتذرون منكم حين تتجلى لهم الحقيقة، وسيطلق سراحكم بعد ذلك، كي تعودوا مكرمين معززين!

مكرمين معززين.. كلمات جميلة، كم انتظرت الأيام طويلاً أن تفصح لي عن مكنون فحواها، كنت غريباً، لا أنكر صادقاً أنني ناصبت هذا البلد العداء يوماً من الأيام، وعلى أي حال فقد دفعت مبلغ بوليصة التامين وافياً، ووجدتني بعد بعض الوقت محشوراً مع زميليّ بين مجموعة من المسلحين داخل السيارة، تنطلق بنا باتجاه مدينة إدلب.

تركونا لهواجسنا داخل السيارة المنطلقة، لكأنها سيارة نقل الموتى، ولم تفلح بعض الأنغام الرديئة، التي راح رئيس الدورية يرددها طوال الطريق مزهواً كصياد عائد بالجائزة الكبرى، من شدّ إنتباهي إليه، أو انتشالي من عالم الغيبيات والأوهام التي رحت أغرق فيها، وفجأة انقطع عن الغناء ليلقي إلينا بالبشرى:

– سوف يتم تغيير هذا الطريق بآخر عريض، سيكون حسب المواصفات العالمية، لعلكم تستخدمونه في رحلاتكم القادمة!

هل ستجود الأقدار برحلة قادمة؟! متى ستكون؟! هل سيكتب لنا الخلاص كي ننجز عملاً كهذا في يوم من الأيام؟ وهل سيبقى لي في الحياة بقية من العمر كي أخرج أنا على وجه الخصوص إلى الدنيا؟ كي أبصر ثانية إن كان بقي فيها شيء من بصيص نور وضياء؟ هل سأعود لأرى أنه ما زال يدب على أديم الأرض أحياء طيبون لم يفقدوا آدميتهم وإنسانيتهم بعد..!

اعترض طريقنا جرار زراعي، كان الأمر سيبدو طبيعياً لو أنهم أرادوا ذلك، وكان بالإمكان أن تمضي الأمور بسلام، إلا أن رئيس الدورية اندفع بسيل جارف من السباب المقذع لصاحب الجرار، وكنا في سيارتين، سيارتي وسيارة صاحبي التي كانت تجد السير في إثرنا بداخلها بقية عناصر المخابرات.

تأخرت السيارة الثانية في اللحاق بنا، مما اضطر رئيس الدورية لإبطاء السرعة وهو يقول:

– لا أعتقد أن أحداً من عناصرنا سيبخل في عمل "اللازم" لسائق الجرار!

كان عمل "اللازم" كما أبلغنا فيما بعد، مجموعة من الصفعات والركلات لسائق الجرار جزاء جريمته تلك!

لا عجب في ذلك أو غرابة، فهم يعتقلون للشبهة، ويقتلــون لمجــرد الشــبهة، وأن آلاف الحكايات التي حُكيت لي عن هؤلاء الأبطال، والتي شاهدتها لخير دليل قاطع على ذلك، ومـــا سأرويه لك عزيزي القارئ في الصفحات التالية سوف يقطع لديك الشك باليقين على ما ذهبت إليه في هذه الفاجعة التي طالتني كما طالت الآلاف.. من الأبرياء غيري!

بين الحدود وإدلب

كان الانتظار في باحة "الفرع العسكري" بإدلب طويلاً مريراً، هكذا خُيِّل لي، وكلما هجم الخوف زاد شعوري بطول الوقت، وسألت صاحبي العراقي الذي ترك معي على انفراد بمراقبة أحد أفراد المخابرات:

– في اعتقادك لماذا اعتقلونا؟

في حذر شديد:

– لعل صلاتك ذات يوم في مقر "جمعية الطلاب المسلمين" هي السبب، ولعل مشاركتك في فعاليات "اتحاد طلاب فلسطين" في ألمانيا هو السبب!

أدركت ثانية بأن رحلة العذاب قد تطول، لكن ما هدأ روعي هو كوني أحمل جنسية أخرى، وليكن ترددي على كل جمعيات الدنيا واتحاداتها، فما الذي يضير سوريا بأي حال من الأحوال؟ ولو كنت ممن يشكلون الخطر الداهم، فهل يتجاوز جزائي أكثر من الطرد خارج الحدود، ومنعي من دخول البلاد؟

رأيت "عاصي" ضابط التحقيق المحترف لكل أطياف الإجرام وألوانه، والذي عرفته فيما بعد، حدثني عنه طويلاً أبناء محافظة إدلب وأريافها، الذين ذاقوا على يديه من العذاب ألواناً ومن الإذلال أشكالاً، رأيت هذا الجلاد وقد بدا كحمل وادع حين أشار عليه صاحب رتبة عالية بأن يمضي بنا إلى "الندوة" مطعم الفرع العسكري هناك، كي يقدموا على حد زعمه واجب الضيافة.

كان كثيراً على الندوة أن تكون خاناً من الخانات تعلف فيها الحيوانات، فقد كان الذباب يملأ أرجاء المكان، والقاذورات تسد عليك حاسة الشم والذوق معاً، وقد بدا السيد القائم على الإدارة قذراً يملأ النفس تقززاً وقرفاً، قدم لنا شيئاً من المرطبات، كنت في إعياء شديد، ومع أنني لم أتناول العشاء بالأمس، ولم أتناول الإفطار لهذا الصباح، فقد كانت نفسي طافحة آزفة، وكان القلب عامر بكل أسباب الفجيعة، لذا هجرتني الشهية فلم أشرب شيئاً.

في رحلة العودة إلى الحدود لجلب أوراق السيارات، وفي أثناء وقوفنا أمام أحد المطاعم، أدركت أن صاحبه يشتري شرور هؤلاء الأراذل بملأ بطونهم دون أن يأخذ منهم أي مقابل، سألت أحد رجال المخابرات وهو يقدم لي لفيفه من "السندوتش" إن كان يعلم سبباً لاعتقالنا؟

هز رأسه ولم يزد على أن قال:

– شبهة في الأسماء، لن تتعدى ذلك!

لقد بدا من خلال لهجته أنه من أبناء "الملة الحاكمة" فهذا الجهاز، جهاز المخابرات موقوف على هذه الطائفة، ولم يجد الرجل حرجاً في أن ينقل لنا سبب تأخره عنا في رحلة القدوم عند سائق الجرار، فقد أعلمنا بأنه هبط من السيارة "ليسلقه – على حد قوله– كم كف على صرماية وجهه"، ولم يخب ظن رئيس الدورية فقد تأكد لي بأنهم عملوا للسائق "اللازم"..!

يصعب عليّ وأنا أستمع إلى هذه التصرفات أن ألتمس عذراً بأي لون من الألوان، كان ذلك عذراً مباحاً أو دون ذلك لأحد ممن حكمنا طوال نصف القرن الأخير المنصرم فيما اقترفت أيديهم ضد البلاد واجتماع خلق الله من العباد.

إن الإذلال الذي مورس على الناس طوال تلك الحقبة من الزمن الغابر المقصوص لم يكن له من أي مبرر أو أي معنى إلا مبرراً واحداً ومعنىً واحداً، هو شيء يشبه الانتقام لأحقاد دفينة رضعها القوم مع حليب أمهاتهم، حقداً يشبه حقد اللئام إذا لاحت لهم الفرصة من التمكين، وقد كان لهم ذلك، على أن سنة الله اقتضت غير ذلك، وإلا لما كان لقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي معنى من المعاني التي تبعث على الأمل في التغيير أو التبديل.

أوشكت الشمس أن تتوسط كبد السماء، ونحن في انتظار المصير المجهول، وعلى الحدود جلست أرقب من خلال النافذة الحركة الدائبة المتلاطمة، وكأنني أرقب آخر خيوط الحرية قبل أن تجر ذيولها لتختفي وراء الأفق والقضبان، فيخطفها شيء يشبه الانتحار.

حين عدنا إلى الفرع العسكري بإدلب مصحوبين بأوراق السيارات كاملة، كانت الشمس لاهبة والقلب فيه اجتماع الحسرة لا بعضها، رحت أقلب البصر في الحديد الذي كان في الانتظار، وما كان لي من سبيل سوى التجلد رغم الأذى، وهم يسوررون أيدينا بالقيود، ربطونا إلى بعضنا البعض، وهكذا صرنا ثلاثتنا في القيد، ولم يظهر "عاصي" ضابط مخابرات منطقة إدلب شيئاً من الامتعاض وهو يرسلنا إلى المجهول، وبدا ذلك الضابط السفاح موغلاً في الكيد

والشماتة وهو يسير بمحاذاة السيارة التي تقلنا وفي نزاهة العاهر قال:

- إنها ضرورات أمنية، نرجو عدم المؤاخذة..! ففي دمشق سيكون لكم موعد مع العدالة! لن يظلم أحد هناك، سيطلق سراحكم، لا أشك في ذلك.

سارت بنا العربة، وكأنها في رحلة الموت، تشق بنا زحام المدينة اللاهية، ولم يكن لي من بد على الطريق الذي طال، أن أستأذن رئيس الدورية المرافق في قضاء حاجة، وتركني في القيد أعالج أمر نفسي، ولا أدري كيف انقضى الأمر!

لم يكن في الرحلة ما يبعث على الراحة أو الطمأنينة، وكانت السيارة العسكرية التي تقلنا من نوع رديء، وشعرت برائحة "الكاوتشوك" التي بدأت تنبعث من أسفل مقعدنا الخلفي تملأ المكان، لم أتكلم، ورجوت في نفسي لو أن الله ينفذ قدره في هذه اللحظة، وتحترق المركبة بنا جميعاً، ولا أدري لماذا رافقني هذا الخاطر!

الحواجز المسلحة على امتداد الطريق من الصعب أن تلمّ بتعدادها، فهي كثيرة يصعب حصرها، ونحن نجتاز الحواجز، حاجزاً إثر حاجز، ومع أنه كانت تتقدمنا سيارة من الأمام قد ضاقت برجال المخابرات المدججين بكامل سلاحهم، وسيارة أخرى من الخلف، مع كل ذلك كنا نجبر عند كل واحد من هذه الحواجز على التوقف للتفتيش، ولم يتوقف تبادل الإرسال اللاسلكي على امتداد الطريق، وكان في جله مختصاً بنا، توقف الموكب الذي كان يضمنا بسيارات ثلاث، هي سيارتي وسيارة صاحبي، بالإضافة إلى نصف المصفحة العسكرية التي تقلنا.

مدخل حماة يضج بالحواجز، كل المدينة تحولت إلى ثكنة عسكرية، ما عادت تلك المدينة التي مررت بها قبل ما يقرب من شهر، وبدا يومها أنها كانت تضج بالحركة، رأيتها في هذه المرة وقد لفها صمت المقابر، لا حركة فيها، قد أغلقت متاجرها وحوانيتها وانقطعت من دروبها الأرجل؛ ونضبت الحركة إلا من العسكر، وخيّل إلي وكأن المدينة مقبلة على فجيعة لا يعلم مداها إلا الله.

ما إن تجاوزنا حماة مستقبلين مدينة "حمص" الغارقة في أحزانها، حتى توقفنا على أحد الحواجز، أصبحت رائحة السيارة لا تطاق، ومع أن رجال المخابرات حاولوا إصلاحها، إلا أن ذلك لم يأت بكثير فائدة، ولم يفلحوا في وقف العطب، فقد استمر الاحتراق، لهذا نقلونا جميعاً إلى داخل سيارتي، وقبل أن ننتقل إليها أبقونا لبعض الوقت في إحدى الحجرات، وبداخلها تبادلت الحديث مع صاحبي العراقي، وأعدت عليه السؤال ثانية، وكم تمنيت لو أنني لم أفعل:

- لماذا الاعتقال؟!

فأجاب في براءة الجاهل:

- ربما لأنك كنت تتردد في المناسبات على "جمعية الطلبة المسلمين"

وأسأله في شيء من الغباء والذهول:

- وماذا أقول إن سألوني عن ذلك؟

- قل لهم بأن ذلك كان في سنوات خلت، والآن لا علاقة لك بهم.

ربما كنت يومها مقتنعاً بهذه الإجابة، ومع كل هذا فقد كنت أشعر بالخوف، وفي لغة من يريد أن يسري عن نفسه قلت:

- لا عليك سأتجلد للضرب حتى العظم، فإن الضرب للرجال!

وضحك صاحبي وضحكت، وكنت أظن ذلك شيء من المزاح، غير أنني أدركت مع الأيام وكأنها دعوة صادفت في السماء ساعة استجابة، فاستوجبت مني دفع الثمن بعد أيام، وكان الثمن غالياً، بل غالياً جداً.

خلفنا وراءنا السيارة المعطلة، ولما علم رئيس الحاجز بأنني المطلوب الأول، أجبرني على الهبوط لأجلس بين زميلي العراقي والتركي، ولا أنسى تلك النظرات القاسية الثاقبة الغريبة التي راح رئيس الحاجز يمطرني بها، وبدا حاقداً يتطاير الشرر من عينيه، ولعله غمغم في شتمي بكلمات لم أكن لأفهمها، فأغضيت طرفي، والتزمت الصمت، فأنا الآن أفهم الوضع تماماً في بلد العسكر والعجائب!.

استأذنني أحد عناصر المخابرات في أن يستخدم مشطاً خاص بي كنت أضعه على "تابلو" السيارة أرجل به شعري، فلم أمانع، وما أن انتهى من ترجيل شعره حتى أودعه جيبه الخاص، ثم نظر فرأى "علب السجائر وكنت يومها أدخن، فاستولى عليها دون أي استئذان، وكانت لي "نظارات طبية شمسية" لم يجدوا حرجاً في ابتزازها، لم أقل شيئاً، فقد كان ما بي أكبر من كل الأشياء.

حتى تلك اللحظة لم نسمع من عناصر المخابرات المرافقين ما يعكر علينا صفونا، حتى أن الكثير من بينهم كانوا يتمنون لنا فرجاً عاجلاً، في الوقت الذي كانوا يسرقون فيه كل شيء، ومن يدري كم هي الحفلات التي شاركوا فيها، في جلد الناس وتعذيبهم، فهم ولا شك جلادون محترفون، يعشقون الشر عشقهم الحياة، ولم يعد الآن غريباً بالنسبة لي بعد هذه

السنوات العجاف ما رأيته من هؤلاء المجرمين، سيما وقد وصلنا دمشق، تحولت تلك الخراف الوديعة طوال الطريق إلى ذئاب كاسرة، كشفت عن الوجه الآخر من العدوانية والافتراس، ظهر ذلك واضحاً جلياً في تلك اللهجة التي تغيرت في عجلة لم تكن متوقعة!

كان يخيل إليّ أن الناس جميعاً يشاركوننا المأساة، قرأت ذلك في حماة، ولم تتبدل الصورة كثيراً في حمص التي عبرتها داخل سيارتي التي يقودها الآن غيري، عنصرين من عناصر المخابرات، في الوقت الذي بدت دمشق فيه غارقة في حلم الحياة وكأنها تنتظر معجزة من السماء!

تجمعت أفراد المخابرات في دمشق، تلك القادمة معنا من إدلب، وتلك التي في الأركان حول السيارتين، وأمرونا في غلظة بأن نهبط، وكانت اللهجة قاسية قذرة، تجمعت فيها كل معاني الوقاحة والسباب، وصاح العنصر المهذب الذي كان يستأذنني طوال الطريق في استخدام المشط تارة أو تجريب النظارة الخاصة بي تارة أخرى إلى أن استولوا على كل شيء، صاح هذا العنصر وآخرين:

- بسرعة اهبطوا.. يا عرصات.. يا أبناء..

قدمت لنا قبل أن نهبط عصبات صنعت خصيصاً من الجلد توضع على الأعين، عوضاً عن النظارات تحجب عنا رؤية الناس والنور، وأمرونا بالسير، ورحنا نتلمس دربنا بصعوبة، ونحن نهبط درج ينتهي بنا إلى قبو لا يعلم عمقه وبعده إلا الله.

صاح أحد عناصر المخابرات ثانية وهو يهوى على وجهي بلطمة فيها قوة الجسم مجتمعة:

- إن شاء الله تكون الليلة من نصيبي..!!

وشعرت بالخوف ثانية يهزني من رأسي حتى أخمص قدمي، ومتى فارقني الخوف حتى يعود إلي ثانية، وتفحصت هذه العبارة، وما تنطوي عليه من معانٍ، ورافقتني في تلك اللحظة صورة هزيلة وضيعة، فقد كنت أقرأ الكثير أيام العناء عن أساليب المخابرات، فرثيت ثانية لنفسي، ووجدت سؤلاً يجول في خاطري، فلا أجد له جواباً:

- إذا كان لهم عليّ دين ينوون استيفاءه في هذه الليلة، أو في ليال أخرى فما ذنب العراقي والتركي؟

وفي زاوية من زوايا البهو، أمرنا بالتوقف، وجوهنا نحو الحائط، وكلما مر بنا عنصر

من تلك النئاب، ما كان ليبخل علينا بلطمة من يده، أو ركلة من قدمه، ولا أدري كيف هوى علينا أحدهم بسوط كان في يده! وكتمت عندها صرخة كادت أن تفلت مني وتجلد بقية الشباب، وسألت الله أن تكون هذه هي أكبر مصائبي! وأن يكلأني بعينه التي لا تنام، وأن يحرسني بركنه الذي لا يرام! وتقدم مني أحد العناصر، أزاح عني "العصبة" سمح لي أن أضع نظارة أخرى كنت أحتفظ بها داخل السيارة للطوارئ فقد سرقوا كما أسلفت النظارة الأصلية، ثم عاد وانتزعها، وهو يقول خسارة تتكسر، وراح يجرب عضلاته المفتولة، وما هي إلا لحظات حتى كنت ملقى على الأرض، لم ينجُ منا -نحن الثلاثة- أحد، كانوا ينهالون علينا بالضرب كلما تذكرونا، أو صادف مرور عنصر من عناصرهم، وما هي إلى ساعات قليله وكأن الزمن قد اجتمع فيها، حتى اقتادونا إلى داخل حجرة بداخلها مكتب وسرير، أمرنا بالجلوس على السرير وكنت ارتدي "جاكيتاً" أعجب به أحد عناصرهم فاستولى عليه أيضاً، بعدها انهالت علينا الصفعات واللكمات، إضافة إلي أكوام من السباب البذيء المرتب، وبعد قرابة ساعة من الخوف والذعر الذي لفنا، شعرت بدوار وحاجة للقيء، ما لبثوا أن اقتادونا بعد مشادة دارت بينهم فمن قائل يقول: إننا مطلوبون لفرع التحقيق العسكري، إلى قائل يقول: بل لفرع أمن الدولة، وآخر إلى الأمن السياسي.. الفرع الخارجي، وأخيراً رسى المزاد علينا في سوق النخاسة، بأن ننتقل إلى فرع التحقيق العسكري كما علمت فيما بعد.

معصوب العينين، قد شدوا وثاقي في القيد الحديدي بداخل سيارة مغلقة، دون أن ينقطع الضرب بكافة أشكاله، راحت السيارة تطوي بنا الطريق إلى جهة لا أعلمها.

جلسوا عن يميني ويساري، من فوقي، ومن أمامي، ومن خلفي وعلى صوت الصفعات، شرعوا في الطلب، كانوا يطلبون مني أن اعترف بتهمة لم يوجهوها لي بعد، كانوا يطلبون لي أن أعترف فقط، وحين أسأل بماذا؟ كانوا يجيبونني:

- أنت تعرف..!!

فرع التحقيق العسكري

كان في أذني صفير إثر لطمة.. وعيني مطبقة.. وفي رأسي صداع.. وأنا أهبط الدرج في طرف لا أعلمه من أطراف دمشق، وبصعوبة كنت أتحسس دربي إلى داخل دهليز مظلم، وسمعت ديني، وخالقي يُشْتَمُ لمرات عديدة، فأستغفر في أعماقي، وأدعو.. وكان أنفي ينزف وفي حلقي جفاف.

لم يكن هذا المكان الذي يعبق برائحة الرطوبة أفضل من الأركان، فقد استقبلوني "بالكابلات" و"الكرابيج" وهددني أحدهم بقوله:

- إن "الخازوق" و"بساط الريح" بانتظارك!!

عبث الخيال عندي بهذه المسميات، وذهب بها شرقاً وغرباً، وتذكرت ما رووه لنا عن محاكم التفتيش، و"سجن الباستيل" في فرنسا، وأبو زعبل واللومان في مصر، وقلت في نفسي:

- تلك بداية محنة، إن صبرت عليها، فهذا معناه بلا شك بطولة!

وكما هو الحال في الأركان، فقد التهمني بهو طويل تملأ العفونة أرجاءه، ويملأ الرعب فيه أركان كياني، وعلى شبك حديدي أمرنا بالتوقف، ولم يفارقنا الضرب طوال فترة التوقف، وفي زحمة الزمان والمكان، نادوا علينا فرداً فرداً.

كان المكتب الذي أُمِرْنا بدخوله مكوناً من منضدة وسرير نوم، على السرير جلس بعض العناصر، يرتدون بدلات رياضية كتب عليها بأحرف لاتينية بارزة "Adidas" اسم شركة أجنبية، وجلهم يدخن "ماربورو" السجاير الأجنبية أيضاً، هؤلاء أدعياء الوطنية والتقدمية!

فتشني أحدهم بدقة، ثم أمرني بخلع نعلي، أجرى عليه فحوصات دقيقة، ثم أمرني بخلع أربطته، وأشار إلى سلة المهملات حيث ألقيتها هناك، ثم أمرني بخلع حزامي فكان، وأمرني بإنزال بنطالي ففعلت، ثم أمرني أن ألبس..، أمّا الحزام فأخذوه.

قال أحدهم بلؤم بارد وهو يمسك بقلم يدوّن على كومة من الورق جمعها على المنضدة أمامه:

– كم تملك من النقود؟

أجبت في غير اكتراث:

– بقيت كلها على الحدود!

ثم نظر إلى معصمي فرأى الساعة:

– اخلع هذه الساعة!

خلعت الساعة، وهل يضيرني خلعها ما دمنا نخلع كرامتنا في كل يوم ألف مرة ومـرة، فمثل هذه الأمكنة لا معنى للكرامة فيها، حتى السجّان يقيني أنه خلع كرامته منذ صـار مُلْكَـاً لهذا النظام، زمن الكرامة ولّى، صار بعيد المنال، وصار بالنسبة لي ورائـي هنـاك خلـف الحدود!

استلم بطاقتي الجامعية، وبطاقة حساب جاري، وإجازة سياقة، ودفتر ملاحظـات دوّنـت فيه عناوين وأرقام هواتف، وبيان فيه بوصلة السيارة وكذلك دفترها والمفاتيح، بالإضافة إلـى مجموعة من النقود المعدنية الألمانية، وحقيبة ملابس، أودعت جميعها داخل حقيبة الملابـس، وسُجّل في دفتر الأمانات فقط حقيبة جلد، ولم أستوفِ منه إيصالاً بهذه الأشياء لأن ذلك كـان ممنوعاً في دولة قامت أركانها على اللصوصية والنهب!!

كنت أبحث عن سبب وجيه لكل ما فعلوه ويفعلوه، وعن كُنّة هذه التصـرفات وعلتهـا، وكان دأبي أن أعيد السؤال مراراً وتكراراً فلا أحير له جواباً!

تركوني أعود ثانية من حيث أتيت، وجهي إلى السياج الحديدي المصنوع علـى شـاكلة الشبك، وراعني وأنا أعبر البهو إلى حيث كنت، أن أرى رجلين يقودهما أحد الجلاديـن، قـد حلقت رأسيهما، وربطت أيديهما، وعصبت أعينهما، قد أمسك أحدهما بقفا الآخر، قـد حنيـا ظهريهما اتقاء السوط الذي بيد الجلاد، ما انفك يهوي به على كل مكان بلا هوادة أو رحمـة، وهما يصرخان، لا أدرى سبباً لذلك وقد ظهر عليهما إعياء شديد، قد لبسهما البؤس والشـقاء، بدا ذلك في تلك الثياب الرثة التي تعلوهما، ولا أدري كيف التهمـت بوابـات جانبيـة كـلا الرجلين فلم أعد أراهما وإن كان صراخهما ما زال يتناهى إليّ!

أمام بوابة – لعلها من بوابات غرف التحقيق– جيء لي ولزميلي كلٌ على انفراد بكومـة من الأوراق، طلب إليّ أن أسجل سيرتي الذاتية، وألفيتها تافهة، وتافهة جداً، ليس فيها شـيء

جدير بأن يدوّن، وقلت ما عساهم يستفيدون من كل هذا؟

عرّجت على بواكير صباي، وشطراً من صدر شبابي، وفي أسطر مقتضبة سجلت سبب قدومي إلى سوريا، وأعلنت بأن لي معارفاً من العرب الذين يدرسون معي أو يعملون في تلك الأصقاع البعيدة في أواسط أوروبا، وسجلت بناءً على طلب من المحقق تلك الأسماء، والتي أعتقد استحالة مرور أصحابها من سورية تحت أي ظرف من الظروف، ساقوني قبيل المغرب إلى الدور الأول، مربوط العينين، مكبل اليدين، وشعرت بأني أمشي على واثر من سجاد، وطرق سائقي إحدى البوابات، ثم قال أحدهم من الداخل:

- نعم.. ادخل!

قال سائقي وكأنه يريد أن ينتهي من مهمته:

- سيدي المطلوب بالباب!

وفي لهجة المعتد بنفسه:

- دعه يدخل!

- لعله كان رئيس الفرع ولعله كان ذا رتبة عالية، دلني على ذلك ما شاهدته من تحت عصابتي من وثارة المكتب الذي هو فيه، بادرني وقد أصبحت الآن بين يديه:

- انزاح إلى اليمين خطوتين وابق واقفاً باستعداد!

لم أناقش في ذلك، على جهلي بالأوامر العسكرية، ورحت ألبي ما طلبه مني، وبعد برهة من الصمت جاءني صوته، وقد بدا التصنع واضح فيه:

- هل أنت بعثي؟

- لا.

وفي لهجة الواثق:

- لدينا ما يؤكد أنك منتمٍ لحزب البعث؟!

وفي إصرار المتقزز:

- لم أكن، ولا أعتقد بأنني سأكون بعثياً يوماً من الأيام!

وفي اقتضاب:

- انزل الآن، واكتب لنا قصة حياتك ثانيةً، اكتب لنا الصدق، فنحن نعرف عنك كل شيء..

جاؤوني بالورق ثانية، وفي إحدى الزنازين التي لا تتجاوز المترين في نصف المتر قد تركوا لي فيها "بطانيتين" هما دثاري وغطائي أغلقوا عليّ الباب ومضوا، ومنذ تلك اللحظة لم يبقَ لي من أمل في رؤية رفيقا رحلتي، وثارت في نفسي وصدري زوبعة من الذكريات، اختلط فيها الحزن والجزع، وتذكرت أهلي وأصدقائي، فلذّ لي أن أبكي، وأنا جالس على البطانيتين كل الذي تركوه لي، ممسك بالورق والقلم لا أدري ماذا سأكتب، زارتني رحمة ربانية، فإذا بالنوم يختطفني ورحت أغط في سبات عميق.

لا أدري كم من الزمن مضى وأنا نائم قبل أن استيقظ، فـ"الزنزانة" الرطبة تقع على عمق لا أدركه تحت سطح الأرض، والإضاءة فيها رديئة، وأنا وحيد بلا مؤنس، ولا من يعلمك بالوقت، فلقد جردوني من الساعة كما سبق وذكرت، لكنني استيقظت على أصوات أولئك البؤساء الذي عرفت بعضهم فيما بعد، يجأرون إلى رب السماء، يشكونه جور الإنسان والسلطان، وتمنيت لو أنني نمت نوم أهل الكهف، الذين لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً!!

حين فتحت عينيَ، أبصرت كومة الأوراق ما تزال أمامي، ولقد شعرت بالاستغراب لتركهم إياي نائماً كل تلك الفترة دون أن يوقظوني، وجاءني أحد السجانين يطلب إليَّ في غلظة إنجاز الأوراق، فشرعت أدوِّن لهم ما سبق لي وأنْ دونته في المذكرة الأولى، ولما انتهيت دقت البوابة السوداء المطلية بالقار الداكن، حضر السجان، هددني وهو يتناولها قائلاً:

- يا ويلك إذا ما كنت كاتب كل شيء!

أطبق "الزنزانة" بمزلاج من الخارج ومضى.

كان يوم اعتقالي هو يوم الاثنين، ومن حديث يتداول بين السجانين تأكد لدي بأنني الآن أعيش يوم الأربعاء، وبذا يكون قد مضى على اعتقالي ثلاثة أيام، في منتصف ليلة هذا اليوم الأخير، وفي إحدى "الزنزانات" المجاورة ألهبوا ظهر أحدهم وربما كل جسده بالسياط والعصي والكابلات، وقد كان يأتيني صراخه عالياً مدوياً، فيراودني خاطر:

- سيأتيني الدور! فأشعر بالرعب يكتنفني ويهز كياني!

وأخيراً جاء دوري، وقفوا بباب "الزنزانة"، ثم اندفع الباب وإذا بي أمامهم وجهاً لوجه، قال أحدهم في ازدراء:

- سيارة المرسيدس ذات النمرة الألمانية هي لك!.. أليس كذلك؟!

قلتُ والخوف يكتنفني:

- نعم.

في ثورة غضب وصفع ولطم وركل، قد رافقته زوبعة من السباب، شتموا أهلي، ديني خالقي - سبحانه عما يقولون علواً كبيراً -..

- حاولت فتح المؤخرة يا ابن.. فلم تفتح، أين المفتاح؟

وأنا منكمش على نفسي أتقي بيداي هذا العدوان الغاشم أجبت:

- بمجرد فتح الباب الذي على طرف السائق تفتح كل أبواب السيارة!

تركوني أعالج أمر نفسي، وعدت ثانية إلى هواجسي وظنوني:

- أيطول بي المقام هنا؟!

وأعلل نفسي حين أهتف بالسؤال، فيأتني الجواب:

- بالتأكيد لن يتجاوز يوم الجمعة!

وقبل الجمعة، وفيما أنا غارق في صمتي، أحتسي شوربة من العدس، قد قدموها لي على أنها وجبة العشاء، وكانت خليطاً من عدس وحجارة، وقد فرغت منها لتوي، وفيما أنا شارد أتذكر الأحباب والأصحاب، أتتني أصوات خطوات تسير في البهو الطويل، بدت تقترب مني، فلذت أدعو وأتلو المعوذات، وفجأة فتحت البوابة السوداء وأطل وجه قبيح، غريب كل ما فيه حتى لهجته:

- "هنت"! أي أنت..

وأنا واقف باستعداد أجبت:

- نعم أنا..

- ألقى إليّ عصبة وقال ضعها على عينيك واتبعني!

وضعتها كما طلب ورحت في أثره، يرشدني بسوط في يده إلى الطريق، وبعد أن هبطنا

درجتين في نفس البهو سرنا قرابة دقيقتين ثم توقفنا، وسمعت صوتاً يقول:

- خذه إلى غرفة التحقيق المقابلة.

اجتهد المحقق كي يبدو خلوقاً مثقفاً! وهذا ما أكده لي بنفسه فقد أعلن لي بصراحة:

- يا سيد.. نحن معشر المحققين نفهم الأصول، فأنا حقوقي وأعلم بأنك لست سورياً، وبالتالي لا تخضع لقوانيننا، كل ما نريده منك أن تساعدنا في التعرف إلى الجهة التي أرسلتك إلى سوريا؟

وبدا السؤال سخيفاً، ولم أزد على أن أجبت:

- أنا يا حضرة المحقق، لا انتماءات سياسية لي.. ولم يقم أحد بإرسالي!

قاطعني قائلاً:

- بدايةً لا تبشر بخير، لا حاجة لكل هذا اللف والدوران، فنحن نعرف عنك كل شيء.

- ما دمتم يا حضرة المحقق تعرفون عني كل شيء، فلم تسألني إذاً؟

وفي تصنع مفضوح:

- لأننا لا نريد أن نظلم أحداً! نريد أن نتأكد فقط!

وكما لو أن الفرصة جاءت مواتية ملائمة:

- من أي شيء تريد أن تتأكد؟

- هذا ما ستقوله أنت لنا؟

كنت ما زلت أسمع صدى العويل والصراخ يتردد في جنبات سجن التحقيق العسكري من الغرف المجاورة، يخالطه صوت ما فتئ يكرر مع كل سوط يهوي:

- أقسم لك يا سيدي لا علاقة لي.. والله يا سيدي لا علاقة لي.. والله يا سيدي لا علاقة لي..

وشعرت جفافاً في حلقي، وتحاملت فسألت عن ماء؟!

- أريد شربة ماء؟

- بعد أن تعترف لنا!

- بماذا؟

– أنت تعرف؟

– لو كنت أعرف لقلت!

– بعد قليل ستعرف، اخلع حذاءك، وادخل في الدولاب "العجلة"؟ ومن أسفل الغطاء الذي كان يلف عيني رأيت حذاءه الملمع، ولم يكن بوسعي أن أرى أكثر من ذلك، فهذا هو المستوى الذي يسمح لنا أن نرقى إليه هنا.

طرحوني أرضاً بعد أن خلعت نعلي، وفي لمح البصر كنت في الدولاب رأسي باتجاه فخذاي، وراحت مجموعة من الجلاّدين يتناوبون عليّ.

اختلط صراخي بصراخ غيري من البائسين المعذبين، بكيت ما شاء الله لي أن أبكي، وصرخت ما شاء الله لي أن أصرخ، ووجدتني بعد فترة من العذاب الذي لا يطاق أردد العبارة التي سمعتها من صاحبها الذي لا أعرفه ولم ألقاه.

– أقسم لكم أنه لا علاقة لي، أقسم لكم أنني لا أدري بماذا سأعترف!

وأنا غارق في الدولاب، غارق في الدماء من رأسي حتى قدمي، قد أطبقت عيني أو بالكاد، وأنا أصرخ من ألمي، ومن أعماق أعماقي، صاح بي المحقق:

– والآن، أما زلت مُصراً على الإنكار؟!

وسقط على رأسي سوط..

– سأعترف..!

توقف الضرب وانفض الجلادون من حولي، لكنني ما زلت في الدولاب، وجاءني صوت المحقق ثانية:

– هيه، ليتك رضيت قبل أن تتبهدل، الآن أفضل؟! هيا قل!

– ناشدتك الله يا حضرة المحقق، أناشدك بكل غالٍ عليك ونفيس أن تخبرني بماذا أعترف؟!

انهال عليّ صفعاً، واندفع شاتماً:

– يا.. ما زلت تبغي المراوغة، وفي كلمة واحدة أشار:

– صفّوه!!

- اجتمع الجلادون عليّ ثانية، وألحوا في الجريمة، هند صراخي، ورحت في غيبوبة، ولمّا أفقت كنت ما زلت في "الدولاب" ورأسي إلى فخذي قد غمرتني المياه بللت كل جزء من جسمي، كنت أظنهم سيكفون عني، ولكن الذي راعني وبعث الرعب في فرائصي أن الجلادين واصلوا التنكيل بي دون توقف وعلى كافة الأوجه، ورحت في غيبوبة ثانية، ولما أفقت لحظتها تركوني أعود إلى زنزانتي على هذا الحال.

- وأنا جالس في تلك الزنزانة أراقب نفسي وأشرف عليها بنفسي، تذكرت أولئك الذين طواهم الموت، وندبت قدري لو أن لي نصيباً فأكون قد انطويت معهم، لقد خلفوا في نفسي حسرة، ليتني ألحق بهم من لحظتي هذه، فأجهشت في البكاء، وما زادني مرارة، أن هؤلاء الجلادين ماضون في برامجهم حتى الإتيان على حياتي، فأرعبتني فكرة الفناء هذه، ولأول مرة أشعر برهبة الموت وحاجتي للزاد، ورحت ثانية أفتش في نفسي عن هذه الغيبيات، ومن خلال دموعي وآلامي وإرهاقي بدأت أستسلم لقدر الله النافذ، وزارني النعاس فلا أدري كيف نمت.

رحت في الأيام التالية أفتش في أرجاء المنفردة عن شيء أشغل به نفسي، وقمت أذرعها بصعوبة ذهاباً وإياباً، ويذهب بي الخيال سبلاً شتى، فإذا بي خارج لتوي من هذا المكان الظالم أهله، وإذا الناس من حولي من أصدقاء وأقرباء ومعارف أقص عليهم ما أصابني، ثم لا ألبث أن أجتهد في ترجمة هذه الحكاية إلى الألمانية، فقد يطلب إليّ يوماً من الأيام أن أتحدث، وشعرت بحنين دافق إلى الدنيا فردتني وحشة العزلة ونفسي الضعيفة اليائسة التي لا حول لها ولا قوة إلى واقع لا دخل لي في تغييره، وراح الأمل يخبو في نفسي يوماً تلو يوم، حتى تلاشت كل الآمال.

لم يتأخروا عليّ كثيراً فقد جاؤوني أخيراً في ظهيرة يوم تالٍ، وبدا السجان الذي قادني إلى حيث مكان قد علقت عليه الطماشات (عصبة العين)، كما يسميها أصحاب السجن والسجان، بدا السجان هادئاً، أمرني بأخذ واحدة لأربط عينيّ بها.

- كان فيه - أي السجان - شيء من اللطف وكان اسمه خالد كما عرفت فيما بعد مجند مكلف تحت طائلة خدمة العلم، لم يضربني طوال الطريق إلى غرفة التحقيق كعادة غيره، ولما وصلنا، اكتفى بأن أشار إلى غرفة التحقيق ومضى.

كنت خائفاً، فلا شيء يملأ المكان هنا سوى الخوف، وكانت رجفة الخوف ما زالت تلفني، فقدماي منتفختان، وكل شيء في جسدي فيه تورم، وعين مطبقة، وقصارى القول أنا مسخ من صورة البشر، ولم أكد أصدق نفسي بأنني مشيت من زنزانتي إلى حجرة التحقيق سيراً على قدمي، وأنا الذي كنت منتصف ليل خلا قد عدت إليها زاحفاً تارة، ومتهادياً على الجدار تارةً أخرى.

جاء المحقق بعد طول انتظار وكأنه من خلق جهنم، وعلى غير عادته اكتفى بالصفعات والركل!!

- والآن.. أيها الحقير.. ألا تريد أن تصون نفسك، ستموت ببطء، فكّر جيداً..!

- حسناً يا سيدي، لقد فكّرت، وأريد أن أصون نفسي!!

وفي لهفة الكلاب الضالة راح يعوي:

- حقاً، بماذا فكّرت؟!

أجبت في تهالك:

- أن أضع توقيعي على بياض، ثم تكتبوا ما تشاؤون..!!

جرت جلبة في المكان، وشعرت بدخول شخص ثالث علينا، وسمعت همساً وهمهمة، ثم قال أحدهما للآخر:

- هذا هو.. اسمع ماذا يقول! وتابع.. يدّعي هذا الحقير بأننا نلفق للناس التهم!

وسأل الآخر:

- حقاً ما يقول سيادة المحقق؟

وفي استنكار أجبت:

- لم أوجّه أي اتهام، غير أنكم تضطرونني لإعطاء مثل هذا الصك عنوةً، فأنا لم أعد أطيق!!

لا أدري أيهما الذي صفعني، حتى كدت أن أسقط لهول هذه الصفعة، وفي اعتقادي أنها جاءت من يد قد دربت على الصفع طويلاً، فقد هوى بها على وجهي بإتقان محكم، ثم تلتها مجموعة من الركلات صرت بعدها إلى كومة أتلوّى على الأرض!

أشار المحقق على أحد السجانين بأن يعود بي إلى الزنزانة، بعد أن أعطاني مهلة أخيــرة للتفكير، ولم ينس أن يتوعدني:

- غداً نتفاهم، سننسيك الحليب الذي رضعته!!

الاتهام الباطل

كانت دورة المياه مطلباً لا يمكن الاستغناء عنه، ضرورة من ضرورات البشر الاعتيادية، باتت في هذا المكان شغلي الشاغل، فشعورك بالانقباض وامتلاء المثانة بالبول إلى الحد الذي لا يمكن معه الانتظار، يدفعك عنوة إلى دق البوابة السوداء مرات عديدة، وحين تلح عليك الأزمة إلى الحد الذي ما عاد يجدي معها أي صبر، في الوقت الذي اندفعت سيول من الشتائم تأتيني من بعيد:

- يا حمار يا ابن الحمار.. يا ريت أمك ولدتك خنزير، ألا تدري بأن وقت الدورة لم يحن بعد؟!

وأردد بيني وبين نفسي.

- غفرانك ربي، ما عدت أحتمل، وهل هذه العادة عند هؤلاء تُؤَدَّى على توقيت "بج بن" مع نشرات الأخبار!

وتزداد المثانة انتفاخاً بازدياد كمية البول، فأصرخ بسيدي السجان ثانيةً، ومن شق الباب يصفعني، ثم يُحكم الإغلاق وينصرف، وأخيراً ماذا أفعل؟!

هل أبول على نفسي؟! ولعلّ نقاطاً أو شيئاً من الرذاذ قد سرى عنوةً إلى الملابس، فالتفتُ يميناً ويساراً، فلا أرى إلا القصعة التي يقدمون لي فيها الطعام، وأتردد في استخدامها، ثم أدقُّ الباب للمرة الثالثة، وتأتي الإجابة في عاصفة من السب والشتم:

- يا عرص.. يا حقير.. يا.. يا.. والله لأذبحك.

ويشرع في عملية الضرب العشوائي، حتى خُيِّل إليّ في إحدى المرات أن عملية التحقيق أخفُّ وطئاً.

ما أن يغلق الباب وينصرف الجاني، تكون الأحوال قد بلغت أقصى درجات التأزم، ولم يعد من مفر من اللجوء إلى قصعة الطعام، أتناولها فأبول فيها!! وحين يفتح الباب إيذاناً بالفرج، أتسلل ومعي الوعاء فأتخلص مما فيه في دورة المياه، فلا يتسنى لي غسله لضيق

الوقت المتاح لنا، فأكتفي برشة بالماء!!

فترة الذهاب إلى دورة المياه، لا تتجاوز دقيقتين يقف أحد الجلادين في أول الدهليز المؤدي إليها في يده "كرباج" وعلى المدخل جلاد آخر، فتأتيك الضربات من كل مكان ذهاباً وإياباً.

في تلك المنفردة التي أصبحت كل دنياي، أثاثها لم يتجاوز بطانيتين، إحداهما تحتي والأخرى فوقي، وأنا أهتز فرقاً وبرداً، فالحجرة رطبة، على بعد أمتار تحت الأرض في دهليز يحرك الخوف والرعب فيه كل ركن من أركانه، فيها المنامة بلا "وسادة"، فأستعيض عنها بالحذاء أتوسده، وفيها الطعام الذي أكاد أقسم أن الكلاب تعافه، وهي بالتالي حجرة الراحة - إن شئت أن تسمي ذلك راحة - كل ذلك صار يجتمع في قصعة الطعام، ففيها الأكل وفيها المبولة، وإن كنت لاحقاً صرت أتعمد تأخير الأكل والشرب إلى ما قبل فتح الأبواب بقليل اتقاء لتلك الظروف المعقدة الطارئة!

وأنا ضائع في ظلمة من نفسي، وظلمة من بصري، عارياً كما ولدتني أمي، واقفاً أمام جلادي، لا ينقطع يسألني بصرامة:

- لقد تركنا لك مجالاً واسعاً للتفكير، وأنت على علم تام بأننا نعرف ما نريد، فأرح نفسك وأرحنا؟

ومن خلال خوفي وفرقي:

- سأفعل ما تطلبون!

- حسناً.. إذاً هات ما عندك، وبما أنني أحب المكاشفة الصريحة أريدك أن تخبرني عن علاقتك بالمخابرات الأردنية؟!

كان السؤال أكبر مني فآثرت الصمت، ثم عاد فكرر السؤال:

- ما علاقتك بالمخابرات الأردنية؟!

قلت في ذهول:

- لم تكن لي علاقة بأحد ولن تكون!

- سوف تدفع ثمن هذا العناد باهظاً، ما زال دور الحسنى بيننا قائماً: فكر بدرس أول أمس!

- أقسم لك يا سيادة المحقق بأن لا علاقة لي.

وفجأة سقط عليّ الكرباج، وكأنه سقط من أحد الأطراف البعيدة، فشعرت باللهيب يكوي جلدي العاري، ولا أدري كيف ملت على الأرض فمالوا عليّ، صراخي يطاول عنان السماء:

- يا رب! يا من ترى؟!

أفقت من غيبوبتي عليهم وهم يحشرونني داخل الدولاب، وأيقنت أن اليوم هو يوم مصرعي، وتجلدت فسألت:

- لماذا كل هذا؟!

- ستعرف لماذا أيها العميل الحقير.

سقطت كلمة عميل في سمعي وكأنني أسمعها لأول مرة:

- عميل لمن؟!

وفي صرخة مدوية:

- عميل "لعصابة الإخوان"، ولم تأتني بقية العبارة، فقد اختلط عليّ تعاقب الجلادين بصوت المحقق.

كان الضرب هذه المرة أشد عنفاً وإيذاءً، دارت بي الحجرة، وضاق النفس الذي كان يتردد بصعوبة، وفي ثوان كنت أشرف على عالم آخر، فقد خطفتني الغيبوبة عنوة، يصعب تحديد كم بقيت على هذا الحال، وحين أفقت كانت المياه تغمرني من رأسي حتى أخمص قدمي، وشعرت بقشعريرة مريرة تهزني، وعاد الضرب يتجدد، صراخي يخرج من أسفل جوفي، وخطفتني الغيبوبة ثانية، وشعرت بالمياه تغمرني من جديد، وقلت أتجلد لتدفق الماء، على ألا أعود إلى الكرباج والضرب، ولما لم أفق، جاؤوني بمادة الأثير "السبيرتو"، ومع أنهم صبّوا (دلقوا) في أنفي ما سد عليّ نفسي، مع كل هذا لم أفق، وسمعت صوت المحقق يصيح بهم:

- دعوه.. وهيئوا سيارة!

ولما جاء سؤال أحد الجلادين:

- لماذا يا سيدي؟

أجاب الجلاد المحقق.

- لنأخذه إلى المستشفى!

ولما بدؤوا بسحبي توقفوا عند سلالم الممر قال أحد الجلادين موجهاً الكلام لي:

- يا عرص.. يا حقير.. هذا الوقت هو وقت راحة بالنسبة لنا، نريد أن ننام، أفق لقد تجاوزنا منتصف الليل بساعة ونصف.

ولما لم أفق، ولم أجب، قال سجّان آخر:

- ما رأيك أن نعالجه، كما عالجنا بالأمس فلانة!! وذكر اسماً لفتاة لم أعد أنكره، كانت هذه الكلمات تقع عليّ وقع الصاعقة، وطفحت إلى واجهة الذكريات شقيقتي، فكتمت صرخة كادت تفلت مني غصباً!!

ورد الآخر بعد أن شتم الدين والرب قائلاً:

- وهل تجرؤ على مثل هذا الفعل أمام سيادة المحقق؟!

قال الآخر في اطمئنان:

- وما المانع.. ألم أفعله مع فلانة تلك؟!

- تلك كانت امرأة؟

وانقطع الحوار بينهما بعودة المحقق معلناً في صوت أجش:

- السيارة جاهزة!

جروني إلى داخلها جراً، ما لبثت تجتاح بنا الطريق إلى جهة سمعت أحدهم يهمس للآخر:

- مستشفى المزة.

لم يتأخروا بي طويلاً في المستشفى، فبعد الرجاء الحار ألا يؤاخذهم سيادة الطبيب عن هذا الإزعاج في هذا الوقت المتأخر من الليل، أبدى الطبيب اهتماماً فأسرع بوضع غطاء "كمامة" الأكسجين على فتحتي أنفي وفمي، وألفيتني بعدها بدقائق أفتح عيناي وقد رفع عنهما الغطاء، فلا أرى فوق رأسي سوى الطبيب، قد كسا شفته العليا شارب ضخم بمزيوله الأبيض الناصع هذا كل ما أذكره، ثم قام أحد الممرضين بإعطائي إبرة في صمت دون أن ينبس ببنت شفة، بعدها أودعت السيارة ثانية تأتيني الشتائم من حيث أدري ولا أدري!!

في فرع التحقيق تركوني وحيداً في الدهليز أعالج الوصول إلـى غرفتـي الانفراديـة، دمائي تسيل، قدماي منتفختان، ولا زالت رطوبة المياه تكسوني، لـم يبخلـوا علـيّ بـبعض الركلات التي كانت تصادف أحياناً بعض المناطق الحساسة مني.

لم يزرني النوم في هذه الليلة، وكلما هممت بإغماض طرفي زارتني صورة تلك الأمسية التي استمرت قرابة ثماني ساعات دون توقف، ولم أجد في نفسي شهية لتناول طعام العشـاء الذي تركوه لي عند البوابة السوداء، حساء عدس تعافه الكلاب - أي والله - تعافه الكـلاب كما أسلفت.

بقيت طوال الليل أحاول بإمكانياتي المحدودة والمحدودة جداً، وبما توفر لي مـن بعـض ملابسي، إيقاف نزيف الدماء التي ما توقفت عن الجريان من قدميّ المتفسختين وبقية أطرافي ورأسي دون جدوى.

لم يتأخروا عليّ، فقد جاؤوني في اليوم التالي، أجبرني الجلاد عاقل - ولقد قالوا قـديماً بأن لكل من اسمه نصيب، غير أن هذا النصيري المعتوه الذي لا يجيد حتى الحديث، لم يكـن له من اسمه أي نصيب -، أجبرني بسلطان الدولة التي كان يمثلها على أن أقف بكامل قـامتي تحت لهيب السوط، وأن أحث الخطو إلى حيث "الطماشات" فيلبسني واحدة أحزم بها عينـاي لأقف بعد ذلك وجهي إلى الحائط بانتظار سيادة المحقق.

هل جربت الخوف يوماً؟ هل زارك القلق حيناً؟ إذا جربته وزارك فأنا غنيٌ عن الزيادة، إن جنة الدنيا التي يمكن أن تعد بها بائساً خائفاً محروماً، لن تساوي شيئاً فـي مقابـل أمـان واطمئنان تهديه إليه، فكم هي الحياة تعيسة إذا سلب الأمان منها، وحكم الخوف فيهـا قلـوب البشر.

لست من الذين درسوا علم النفس، وإن كنت لا أنكر فعل هذا العلم في مثل هذه الأماكن، وإلا ماذا كان يعني إجباري على خلع ملابسي وامتهان كرامتي؟ ماذا كان يعنـي أن تكشـف عورتك كيوم ولدتك أمك؟ وأن تضرب على كل مكان وبلا أن تراعي أبسط حقـوق الحيـوان في اجتناب الضرب على المناطق الحساسة، ناهيك عن حقك أنت كبشر؟!

ماذا كان يعني أن يؤتى بالزجاجات الفارغة، يهددونك بالجلوس عليها؟! وأنا الذي كنـت أظن ذلك لا يتعدى نوعاً من أنواع الابتزاز والترهيب، من أجل انتـزاع مـا يريـدون مـن

اعترافات، وكنت لا أصدق كل ذلك، لو لا أن تقابلت في مقيلات أيامي بمن فُعِل بهم كل ذلك وأكثر، أذكر منهم الأخ محمود عاشور رحمه الله، ورفع درجاته في عليين، وأخ آخر من أبناء الشام كان ممتحناً صابراً محتسباً كل ما اجتمع عليه من أمراض كان من أشدها هبوط مزمن في الشرج إلى أن ذهب على أعواد المشانق إلى رحمة الله التي وسعت كل شيء.

جاء المحقق أخيراً، طلب مني أن أخلع كل ملابسي، ومع كل قطعة كنت أخلعها كنت أشعر بالحرج الشديد يكتنفني، وأجد السوط أهون عليّ من هذا الفعل الشائن بكل المعايير، ولم يترك لي سوى الشيء الذي بات يغطي عورتي، ولقد أشار عليّ مرة بخلعه، لكنه عاد وعدل، وتركني زمناً طويلاً على هذه الصورة، عيناي معصوبتان واقفاً أمام مكتبه، أشعثاً أغبراً، قدماي لا تقويان على حملي، وفي كل ناحية من نواحي جسدي تورم، وإحدى عيني لا تزال مطبقة.

جاء صوته كصفير القطار على غير ميعاد، فبعث الروع في نفسي الهالكة، وفي مثل فحيح الأفعى قال:

– مد يداك وتلمس ما بجانبك؟!

مددت يدي فتلمست العجلة، ثم حزمني سوط كأنه الصخرة هوت على ظهري، فصرخت بأعلى صوتي، صاح بي:

– أليس من العيب عليك كرجل أن تصرخ؟!

ولما لم أجب، أردف قائلاً:

– ما زلنا في أول الطريق، وما درس الأمس إلا مقدمة بسيطة، يبدو أنك لم ترعوي، فما زال أمامنا مشوار طويل.

ووقعت هذه العبارة في نفسي موقعاً كاد يذهب بما تبقى عندي من معنويات إن بقي عندي منها شيء!

ثم قال:

– في هذه المرة.. سنتحدث وأنت راض.. إن شئت عن علاقتك "بالإخوان المسلمين".. وإلا لنا حساب آخر!!

قفز قلبي إلى حنجرتي، ولم أجد ما أقول.

- ما زالت لديك فرصة للنجاة، أنت الجاني على نفسك إذا ما التزمت الصمت.

وفي كلمات مرتجفة خائفة:

- أقسم لكم.. أنه.. لا.. علاقة لي.. وأنتم على يقين من ذلك..

وفي عاصفة من الغضب اندفعت سمومه:

- هذا الأسلوب لا يجدي.

وعاد صوته ثانية ليضيع في زحمة الأسواط والعصي والدولاب.

كنت مجهداً لا أقوى على شيء، صحت من خلال الآلام التي ما عادت تطيقها الجبال: سأعترف لكم بكل شيء.

- دعوه.. وانفض الجمع من حولي.

- قل وانجُ؟!

وأنا مُزجى على الأرض قلت:

- سلني لأجيب؟

- ماذا تعرف عن الإخوان، وعن العطار؟

- كل ما أعرفه أنني قرأت في أحد الصحف الألمانية أن هناك شخصاً بألمانيا يُدعى العطار، ولا أذكر كيف ورد الخبر!

صفق بيديه وهو يصيح جذلاناً:

- مرحى.. مرحى.. تابع.. هذا جميل جداً.

قلت في تردد:

- هذا الخبر يقرأه كل عابر سبيل، هذا الخبر لم يكن مقصوراً عليّ.

- بدأنا من جديد.. ما زال الدولاب حاضراً، وأبو علي واقفاً فوق رأسك.

هكذا كان يسمي الجلاد كما يحلو له.

قلت:

- هذا كل ما كنت أعلم.

ولفني سوط.. فصرخت:

- كما تريدون.. اسألوني؟!

- متى رأيت العطار أول مرة؟

- لم أره قط.

ولفتني أسواط سريعة:

- أجب متى رأيته أول مرة؟

- لا أذكر ذلك.

حاول أن تتذكر على عجل!

- سأحاول.

- أجل متى؟

- كان ذلك في منتصف السبعينات.

- أين كان ذلك؟

- في فرانكفورت بألمانيا الغربية.

- جاء من مدينة "آخن" إلى مدينة "فرانكفورت"؟!

- لعله كذلك.

- لماذا جاء إلى "فرانكفورت"؟

- لا أدري.

- انتبه جيداً إلى ما سأقول، لا يأتي إلى "فرانكفورت" إلا لأمر مهم، وإذا أردت أن تخلص نفسك فاذكر هذا الأمر، وإلا الأدوات بحوزتنا، والتي نستطيع من خلالها نزع الاعتراف منك، صدقني لن نستورد شيئاً من الخارج!

- والله يا سيدي لا أدري.

ولا أذكر كيف مال الجلادون عليّ، فملت تحت سياطهم التي بدأت تلهب ظهري وكل

جسدي، وصحت من أسفل نعالهم:

- اتركوني لقد تذكرت.

صاح:

- قل وانجُ؟!

- تذكرت، كان مريضاً وقد حضر للعلاج.

- أين التقيته؟؟

- في المستشفى.

- من رأيت في زيارته؟

- لم أر أحداً.

- أنت أردني الجنسية، لا يهمنا أمرك ولسنا مخولين في استبقائك في السجن، إذ ليس من حقنا أن نوقف رعايا دول أخرى، لذلك أريدك أن تختصر الطريق، فحدثني عن أولئك الذين جاء العطار لملاقاتهم في "فرانكفورت"، والسبب الحقيقي الذي جاء من أجله.

- والله لا أدري إذا كان هناك سبباً غير هذا أو إذا كان هنالك أناس جاء لملاقاتهم.

كدت ألفظ أنفاسي حين أطبق عليّ أحد الجلادين، يريد إعدامي كما أمره سيادة المحقق، وكم هي الحياة تافهة تلك التي كنت أرجو الظفر بها:

- حسناً ما دام الأمر كذلك فسأذكر لك السبب.

اجتمع الخيال والخوف، وبدأت أكذب، وأقسم اليوم على ذلك، فلكل امرئ طاقة من تحمل العذاب، وأعترف اليوم بعد أن مضى كل إلى سبيله أن لدى الإنسان طاقة من التحمل تفوق طاقة الحمار، غير أنه لكل شيء نهاية، وقصارى القول لم تعد لديّ أي طاقة لتحمل المزيد، ورحت أعلل نفسي بأن كثيراً من ملفات القضاء قامت على الأكاذيب بنية النجاة، وما الذي أنا فيه إلا واحدة من تلك المحن التي يصعب دفعها بغير الكذب، وقد كان مطلوباً مني أن أفعل ذلك بإلحاح، جاء الحال مترادفاً من الجلاد بالدولاب والسوط والعصا، يتبع بعضه بعضاً، ويا له من شعور غريب، فنسجت لهم تلك القصة:

- كانت هناك في المدينة - مدينة فرانكفورت - غيرة بين امرأتين كما هي الغيرة بين

كل نساء الأرض، وكانت هذه الغيرة بين زوجتين لرجلين من أتباع العطار، تحولت إلى شجار ووصلت العداوة إلى الرجال فجاء العطار للإصلاح..

قاطعني سائلاً:

- من هما؟ ما اسمهما؟

- لا أذكر.

وتحت صرامة الكرباج والعصا..

قلت بأنني غير متأكد واخترت اسمين من هذه الأسماء، وزعمت أنني كنت بين الحضور.

- جميل، ما هذه الكلمة التوجيهية التي ألقاها هناك؟

- لم يلق أي كلمة توجيهية!

- لماذا؟

- لأنه كان مريضاً، فلم يقو على الحديث!

- حسناً كل ما ذكرت حتى الآن، اذكر اسم الشخص الذي نظمك في هذه العصابة؟!

واخترت اسماً زعمت أنه هو الذي نظمني.

- هل هو سوري؟

- لا، أردني.

- أين كنتم تلتقون؟

- في مبنى خاص بالكنيسة!

وكادت كلمة الكنيسة تأتي بالكارثة من جديد!

- كنيسة يا حقير.. أتريد أن تتطلي علي هذه الحيلة؟ هذا الكلام من بدايته حتى الآن جانب الصواب، ولم تذكر شيئاً يبدي حسن نيتك في التخلص، هذا الكلام لا يعدو أن يكون خليطاً من الأكاذيب، لم تذكر لي ما يبدد الشكوك من حولك..

أقسمت الأيمان الغلاظ على ما أقول، مع أنني كنت على يقين أن هذا الذي قلته لم

يتجاوز ضروب الخيال، سوى ذكر الكنيسة التي لم يصدق بها الباحث عن الحقيقة!

- من هو أول شخص أخذك إلى ذلك المكان؟

- نفس الشخص الذي ذكرته آنفاً.

- من رأيت هناك؟

ذكرت من الأسماء شرقاً وغرباً، وتجاوزت أسماء كان يساورني اعتقاد مرور أصحابها بهذه البلاد المغتصبة يوماً من الأيام، ولم يكن ذلك من باب الخوف عليهم فحسب، بل من باب الخوف علي أيضاً، فمن يدري إذا ما وقع أحدهم في أيديهم؟ أي باب هذا الذي سيولجني فيه؟!

- حسناً من الذي كان يترأس اجتماعاتكم؟

وذكرت له اسماً شاء الله أن ينفعني في مقبلات أيامي، يوم أن أذن الله أن أقف في المهزلة التي كانوا يطلقون عليها المحكمة!

وكاد اسم رئيس الجمعية أن يعيد فتح ملف التحقيق من جديد، إذ أنه على حد زعم المحقق اسمٌ لا يملكه إلا نصراني، ولا أذكر كيف تجاوزنا هذه العقبة، مع أنني ضربت حتى التهمتني الغيبوبة لأكثر من مرة.

- هل أنت على بيعة للعطار؟

- لا أدري ماذا تعني هذه الكلمة؟!

- لا تحاول التملص.

ثم أشار عليّ بأن أرتدي بنطالي فقط، وأن أجلس على الأرض.

- والآن أجب؟

- على أي شيء؟

- هل بايعت العطار؟

- لا أفهم ما تعني؟

ما زال ظهري العاري يشهد على آثار جريمتهم، حين قذف بكلمة ثم دوّت فرقعة السياط من جديد: ستفهم ما أعني!!

- فهمت يا حضرة المحقق.

- ماذا فهمت؟

- أن أبصم بأصابعي الخمسة!!

قام من خلف مكتبه، وسار باتجاهي، لطمني بكفه نافرة العروق، ثم سأل:

- ماذا تعني بأن تبصم بالخمسة؟

- على بيعتي للعطار.

- على أي شيء بايعت، وكيف كان ذلك؟

- بايعت على أن أقبل بفتاة يزوجوها لي، وحمل البيعة رئيس الجلسة.

- لم تبايع مباشرة؟!

- لا.

- هل قرأت بياناً صدر باسم العطار؟

- لا.

وراح يكرر عبارته الممجوجة الرديئة:

- ما زال الكرباج سيداً مؤدباً، ألا تسمع صوته في حجرة التحقيق المجاورة، هذه المرة سنأتيك ببساط الريح!!

ومن خلال خوفي أجبت:

- أذكر أنني قرأت له بياناً وُزّع في فرانكفورت!

- ماذا قرأت فيه؟

- كان يندد باتفاقيات "كامب ديفيد"!!

ضحك، وارتفعت قهقهته تملأ ضيق المكان:

- تريد إلباسه ثوب الشرف والوطنية، كان البيان يدعو الشعب السوري للثورة والتظاهرات ضد سيادة الرفيق المناضل قائد الثورة، أليس كذلك؟

- كما تريد!

- هل دعوت أحداً للتنظيم؟ أو بلفظ أدق، هل قمت بتنظيم أحد؟

- لم أفعل ذلك!

- فكر جيداً!

- أذكر أن هناك شاباً جاء من الأرض المحتلة، دعوته لزيارة مكان اللقاء..

قاطعني:

- هل لبّى الدعوة؟

- لم يفعل.

- لماذا؟

- لأنه سافر بعد ذلك إلى جهة مجهولة.

- هل كنت تقرأ مجلات دينية؟

- لا يوجد هناك مجلات يمكن قراءتها.

- غير أنك لا تستطيع أن تنكر مجلة الرائد، والتي تصدر عن العطار في "آخن"؟!

- كنت أراها أحياناً.

- ومجلة النذير؟

- معلقة على لوحات الجامعة، يقرأها كل من يمر بمكان الإعلانات في الجامعة.

- من كان يأتيك بها من أفراد التنظيم؟

- أحياناً كان يأتيني بها "ناصر س.".

- هل هو سوري؟

- لا، من الأردن.

- هل سبق لك أن نظمت في الأردن؟

- لم أفكر بذلك يوماً من الأيام.

- أين كنت تسكن قبل أن تذهب إلى الجامعة بـ"دارمشتات" والتي ذكرت اسمها في التقرير الذي سجلته بيدك؟

- كنت أسكن في مدينة تسمى "افنباخ".

- هل يوجد فيها مسجد؟

- نعم، تابع للأتراك.

- هل زرته بدعوة من التنظيم؟

- لا، ولكنني زرته للاطلاع فقط، وكان ذلك لمرة واحدة.

- هل تعرف أحد من سكان أم الفحم في الأرض المحتلة، من القادمين مباشرة إلى ألمانيا؟

- لا أعرف أحداً.

- من كفر قاسم؟

- لا.

- ما هو البرنامج الذي كان يُدرّس في الكنيسة؟

- قراءه بعض الآيات من القرآن، تفسير، وشيء من الفقه.

- هل سبق لك وأن قمت بإعطاء بعض الدروس؟

- مرة واحدة عن الحركة الصهيونية.

- هل تعرف الدكتور الفاضل..؟

- لم يسبق لي أن سمعت بهذا الاسم.

- هل قرأت مجلة الدعوة؟

- أين تصدر المجلة، ومن الذي يشرف عليها؟

- هذا يعني أنك لم تقرأها؟

- لم أسمع بها إلا منك الآن.

- هل قرأت بياناً للعطار يدعو إلى حمل السلاح ضد الحكم القائم في هذا البلد؟

- على حد معرفتي أن العطار يتزعم جناحاً لا يؤمن بالعنف!

- أيها الغبي هذا نوع من التكتيك السياسي!

- أنا لا أستطيع أن أحكم على الظاهر، ولقد قرأت في النذير بياناً يندد بالعطار، ويسمه بالتخاذل!

- هذا كلام للاستهلاك المحلي!

ثم سادت فترة صمت قطعها بسؤاله:

- هل قمت بزيارة المركز الإسلامي بـ"آخن"؟

- ظروفي المادية، والوقت لم يسمحا لي بذلك، فـ"آخن، Aachen" تبعد عن المدينة التي أقطنها ما ينوف عن"200" مائتي كيلو متر.

- متى كان آخر لقاء لكم؟

- لقد كان آخر عهدي بهذه الجماعة عام 1979م حين انتقلت إلى "دارمشتات" حيث انقطعت عنهم، وتفرغت لدراستي، ولم يعد لي بهم أي صلة تُذكر.

- هل لديك ما تضيف؟

- نعم.

وبدأ عليه اهتمام زائد:

- أي شيء بقي عندك لتضيفه؟

- متى ستطلقون سراحي؟

- في غضون الأسبوع الجاري، ولكن بقي هناك أمر..

- وما هو؟

- أن تسجل لي هذه المعلومات التي أوردتها الآن بخط يدك!

- لا أذكر منها شيئاً، أرجو أن تساعدني في التذكر!

- لك ذلك.

وقبل أن أنصرف، سمح لي أن أرفع الغطاء عن عيني.

كان شاباً في العقد الثالث من عمره، مربوع القامة، لا هو بالطويل ولا بالقصير، لونه

يضرب إلى البياض، وفي وجهه حمرة، حليق الذقن والشارب، قد بدا الاهتمام واضحاً في هندامه، أنيقاً في مظهره، على عكس ما يحمل في داخله من الحقد تماماً، في سذاجة متناهية قلت له وقد رأيته منفرج الأسارير يقطر سماً:

- إذا ما تم الإفراج عني، فلك عندي هدية!

- وما تكون هذه الهدية؟

- هدية طالب ما زال ينظر إلى المستقبل، ولي عندك رجاء آخر أن تتأكد من هذه المعلومات التي حملتني على الإدلاء بها غصباً.

- نحن لم نغصبك على شيء، كل ذلك تم بمحض إرادتك، ومع هذا سأتأكد من كل ذلك بنفسي، فهذا واجبي!! هذا واجبي لا أستطيع التخلي عنه!!

- أنا لا أناقشك في واجبك، ولكن الواجب يحتاج إلى شيء من الإنصاف، أملي أن تبحث وتتأكد!

- نحن لا نظلم أحداً، وبالمناسبة هل أنت متزوج؟

- لا.

- إذاً كيف تعيش هناك بلا امرأة؟

وكانت فرصة بالنسبة لي ظننت أن فيها حبل النجاة، أبعد من خلالها صفة التدين عني، والتي صارت في هذا الزمن الرديء المقصوص سبة تفضي إلى حبل المشنقة فقلت:

- عندي صديقة!!

- تعيشون معاً؟

- نسكن متجاورين في المدينة الجامعية.

يبدو أنه مضى عليك زمن طويل دون أن تلتقي بصديقتك تلك، لذلك أنصحك بالتعويض!!

- وكيف ذلك؟

- في الحجرة المجاورة لزنزانتك حجرة مليئة بالبغايا، إذا كانت لك فرصة لا تفوتها!

كنت أعلم يقيناً ما يعني، وكنت أسمع أصواتهن تتناهى إلى مسمعي طوال الفترة

الماضية، وكنت أدرك أي الحرائر هنّ، ومن أي البيوت جلبن عنوة إلى المعتقل، ولقد عشت ليلة تالية، قد جفا الكرى فيها عيناي، أتقلب على القاع العاري، ينبعث إلي صوت إحداهنّ عالياً مدوياً، قد اقتحم المحقق الجزار عليها زنزانتها يطلب إليها أن تعترف، فإذا لصوتها المنتهي إليّ صدىً يبعث في نفسي الخربة نداء الثأر المتبدد في الصحراء بلا مجيب:

رب وامعتصماه انطلقت ملء أفواه الصبايا اليتم

لامست أسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصم

ورحت أُفتش في دفاتر ذاكرتي وأوراقها عن موقف واحد ألتمس لهؤلاء السادة الجاثمون على صدورنا من خلاله العذر الذي يتركني في مصف المنصفين، إذ لا ظلم من طبعي لأحد، وكم تمنيت لو أن سيادة المحقق أسعفني بموقف شريف واحد لهم، حتى يكون له على فضل الإسعاف زيادة، وليته فعل، ولكنه أبى إلا أن يكون لصاً في أثواب اللصوص، وردني الأثر إلى حقيقة مفادها أنه إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت!!

أدركت مع توارد الأيام أن هذه العصابة الإثنية الطائفية تمارس جرماً ثأرياً، تتجاوز من خلاله حق الجوار والمواطنة، وذلك في اعتداء سافرٍ على أدق وأخص ثوابت الشعب السوري الأبي، بدءاً ببيع جزء من الوطن حقيقة لا مجازاً، ورهن البقية الباقية للغرباء، مروراً بكل أطياف الفساد والقهر والعبودية، انتهاءً في استباحة نسائنا وأخواتنا وأمهاتنا وبناتنا، يتجرأ هؤلاء العلوج في جرهنّ من خدورهن إلى ظلمات السجون والمعتقلات كي تبدأ هناك آلاف الحكايات، التي لم يتسنَّ إماطة اللثام عنها بعد، حكايات لئن لم يبق للنظام من الرذائل، فيكفيه هذه الرذيلة، كيلا تقوم له بعدها قائمة من قوائم الكذب المدجن.

انتهاء المرحلة الأولى
في فرع التحقيق العسكري

تدثرت بالصبر، إذ لا ثوب غيره هنا يمكن للمرء ارتداءه، وبقيت الغرفة الانفرادية الموحشة الصماء التي لا تزيد عن مترين طولاً، ونصف المتر عرضاً، هو كل ما أملكه في لحظتي تلك من الدنيا، وبقيتُ الساعات الطوال بانتظار أن يفتح الباب عليّ ولو لدقائق، وبقيت أستجدي النوم الذي ما كان يزورني إلا لمماً، أن يعاودني ولو ضيفاً على ندرته لمرة، كي يوقظني صوت التعذيب من الحجرات المجاورة، وكانت حجرات التحقيق المكتظة بالمتهمين تعج بالصراخ والعويل، وأفتش في خبايا نفسي عن الثوار وأصحاب الثورات، فتنمو في قرارة نفسي آيات من اليأس والقنوط القاتلين!

ومن خلال نافذة صغيرة في البوابة السوداء للحجرة التي جعلوا منها مأوى لي، رأيت مالكاً الجلاد - والذي صار اسمه في فرع التحقيق العسكري بدمشق رديف الرعب والخوف والهلع- رأيته لأول مرة، وسمعته يحادث نزيل المنفردة المقابلة لي تماماً على الطرف الآخر من البهو، ويناديه برتبة عميد، وهي رتبة عسكرية، يسأله عن دواء سيجلبونه له على حد زعمهم، فالعميد مصاب بداء القرحة، غير أن وقتاً طويلاً لم يكد يمضي حتى كان العميد هذا كومة من مسخ البشر، خليط من لحم وعظم ودم، ممدداً على الأرض قد سكنت فيه كل حركة، فسألتُ نفسي في صمت المتحسر:

- هل هؤلاء القتلة من بني البشر؟ في اعتقادي أن في الغابة من هم أرحم من أولئك؟!

مع الأيام أصبح فتح البوابة من الأمور التي لا أتمناها، سيما فترة الظهيرة والمساء، حيث الذهاب إلى "دورة المياه" ويا لسوء طالعك إذا ما تأخرت عن الدقيقة المقررة، دخولك يبدأ بالعد التنازلي من الرقم "10" عشرة وحتى الرقم "1" واحد، وما بين الرقمين وجب عليك الانتهاء من زيارة دورة المياه، والعودة منها، مصحوباً بالسياط تلهبك ذهاباً وإياباً.

لم أستطع العثور على حل مريح للمثانة التي كانت تمتلئ بالبول، ولقد استمررت على

التبول في "القصعة" التي كانوا يقدمون لي فيها الطعام، حتى أذن الله لي بالرحيل.

ولا زلت أذكر عملية إسهال صاحبتي ليلة بطولها، ولما لم أجد ملجأ دققت الباب، سألت الجلاد بالله الذي يستر عليه أهله، في أن يأذن لي بالذهاب إلى دورة المياه، ليلتها سهرت المنفردات المجاورة على فرقعة السياط التي استمرت في الانهمار زمناً وكأنها زخات المطر المنهمر، فانشغلت بعدها بجروحي على ما بي من علة، وطفقت طوال الليل أسأل عن الشهامة، عن الكرامة، عن الأخلاق مجتمعة؟ فأطرقت إلى سر هذه المعاني في تلك الحياة الزاخرة الهادرة بكل غريب وعجيب، وأدركت مع الأيام بأنها كلمات جوفاء لا معنى لها، ولا بدَّ لكل لغة من لغات الأرض من هذه الكلمات، لتدل على أن هنالك عالم آخر فيه من هذه الصفات التي ربما لم يخلقه الله بعد، ولم يكن لي من بدٌّ كذلك إلا أن أجلد نفسي التي قضت عمرها تجري وراء هذا السراب الخادع الكاذب!

مرت الأيام ثقيلة عليلة، ليس لي فيها من بصيص أملٍ أهوّن به عن نفسي، وزارني طيف في غفوة تمنيت ألا يتجاوز أضغاث الأحلام، قد جاءني فيه أحد الجلادين، ملوحاً لي بكرباج في يده، وبيده الأخرى منفردة الأصابع ملقياً بالبشرى، بأن مدة بقائي في السجن لن تنقص عن عدد أصابع يده، وطفقت طوال المنام أفاوضه، رضيت منه بخمس من الأيام، هز رأسه بالنفي، ثم خمس من الأسابيع، من الأشهر، وهو يكرر النفي، مضى في سبيله ثم التفت ليلقي بالفاجعة في مدة حجز لن تقل عن "خمس سنوات"، بعدها انطلق دون أن يلتفت.

عندما استيقظت على جلبة الجلادين، وهم يقومون بتوزيع الطعام الذي كانوا يسرقونه على شحته وقلته، تنكرت المنام، فغرقت في الرثاء لحالي، وما زلت بها على هذا الصورة، حتى رقَّتْ فمالت نفسي الراثية إلى البكاء، فتركت لها العنان دون أن أقاوم، فبكيت حتى عبلا نشيجي، وضاقت يدي على قلة حيلتي، وما زلت أقلبها وأنا على هذا الحال، حتى أسلمتني إلى الخوف الذي أشغل فكري بما هو آت من قادم فظيع.

وأنا أهمُّ بتناول ما يسمى طعام الإفطار جاءني الجلاد على غير انتظار، وكان ذلك يوم اثنين ولعله يصادف يوم الرابع والعشرين من شهر "مايو" عام واحد وثمانين وتسعمائة وألف، قذف لي بغطاء العين، وطلب مني أن أتبعه، وكانت الصرامة بادية في لهجته، ولم يبخل كالعادة، من إتحافي بسيل من الشتم والركل حتى انتهى بي إلى غرفة التحقيق.

لا أدري كيف أصف شعوري في هذه اللحظة، لعلهم تكشفوا الحقيقة، فجاءوني مبكرين بالبشرى، لكنني كنت خائفاً ترتعد فرائصي فرقاً، وكما عودوني، وجهي على الحائط بانتظار مجيء المحقق.

تسللت الرؤيا التي رأيتها بالأمس القريب إلى ذاكرتي، فكدت أسقط على الأرض!!

ويطل المحقق أخيراً، وما أن أخذ مكانه خلف مكتبه حتى بادرني بالسؤال:

- من الذي أرسلك بالسيارة؟

- شاب إيراني من أصل كردي عراقي!

- ما هو الهدف الذي جئت من أجله؟

- جئت بها مقابل أجر آخذه، بعد أن أقوم ببيعها.

- ما هي انتماءاته السياسية؟

- لا أعلم بأن لديه انتماءات سياسية.

- ماذا تعرف عن الشاب العراقي الذي جاء بصحبتك؟

- لا أعرف عنه شيئاً، سوى أنه أيضاً من أصل كردي.

- كيف تعرفت إليه؟

- تعرفت إليه في الحرم الجامعي، فهو يدرس في نفس الجامعة التي أدرس بها.

- إن التفاصيل التي أدلى بها لنا، تدل على أنه يعرفك معرفة جيدة، وقد أفادنا عنك بالكثير، فلماذا لا تنوي التحدث عنه؟

- لو كنت أعرف عنه شيئاً لتحدثت!

- ما زال لديك الكثير الذي لم تقله!

- يا سيادة المحقق، يبدو لي أنني تحدثت بما فيه الكفاية وزيادة، صدقني بأنني أُجبرت على التحدث عن أشياء لا أتصور حصولها حتى في الخيال.

- لنعد إذاً ثانية، ما الهدف الذي جئت من أجله؟

- أنتم تعلمون يقيناً بأنني حضرت في المرة الأولى، التي بعت فيها سيارة الفلفو، وبقيت أياماً ثلاثة في ضيافة أقرباء هذا الشاب العراقي في دمشق، ولقد واصلنا ليلنا عندهم بنهارنا،

يمكنكم أن تتصلوا بهم، وتسألوا إن سبق لنا أن توجهنا لهدف يمكن البوح به؟

- لا تكثر الكلام، من تعرف من الناس داخل سوريا؟

- لا أعرف أحداً، وأقسم لك أنني لا أعرف أين أتجه في هذا البلد لو أُطلق سراحي، أنا غريب، أبحث عن لقمة الخبز التي أُجبرت على أكلها مغموسة بالدم!

- يبدو أنك لم تتعظ بدروس الماضي، من تعرف داخل سوريا؟

حاولت دفع هذه التهمة بشتى الوسائل، لكن ذلك لم يكن ليمنعهم من إعادتي إلى جولة جديدة من العذاب، ولم أجد في نفسي الطائحة تحت وطأة الآلام رغبة في الحياة، وصحت تحت السوط وكابلات الكهرباء التي كانت تنحط على جسدي المتفتت بدمائه الجارية، صحت بالجلادين:

- أنتم تريدون قتلي، هذا الأمر لا يطاق، يا إلهي..

وجالت بخاطري صورة أحد الأصدقاء من أبناء مدينة حلب، وتخيلتهم قد جاؤوا به في اليوم التالي، ليضعوه في الصورة التي أنا عليها الآن، فأغمضتُ عيناي المقفلتان وأنا أردد بيني وبين نفسي، لو قطعوني إرباً لن أبوح بهذا الإسم، هم على كل حال مزقوني، فعلامَ الخوف؟! تجلَّد، وكما لو أنني أخذت قراري الذي جاء متأخراً، تجلَّد، وهل بقي بعد الذي قلت يا صاح، ما تقول..

لا أدري كيف توقفوا، ولا أدري متى توقفوا، لكن الذي أدريه أنهم كفوا عني أخيراً..

صاح بي صوت لا أعرف مصدره:

- قم واقفاً، حاول أن تراوح في مكانك؟!

شرعت أراوح مجبراً في مكاني، وكانت الدماء تبدو من أسفل غطاء العين قد ملأت أرجاء الحجرة، وأبصرت ساقي من أسفل غطاء العين المطبقة، والتي بالكاد أن أبصر من خلالها، رأيتها عارية تماماً من الجلد!! ولم يصرفني عن هذا المنظر المريع إلا سؤال المحقق:

- لقد حضر العطار عام 1980 إلى "فرانكفورت"، حيث ألقى هناك محاضرة، ما الذي قاله في المحاضرة التي ألقيت في حرم الجامعة هناك؟

- لا أذكر بأن العطار حضر في هذا العام.

- للمرة الأخيرة، لا تناور!

لا أعلم ما يريدونه من وراء هكذا أسئلة، وما زادني تخبطاً في مجاراتهم عند كل سؤال يطلبون مني الإجابة عليه، هو جهلي بخبثهم، وانعدام تجربتي، بالإضافة إلى عدم التقائي بأي من الموقوفين ممن يسبقوني - كغيري ممن كانت له فرصة الاطلاع وأخذ الحيطة والحذر - وإلا لكانت النجاة بالنسبة لي صبر ساعة، لكنه قدر الله الذي ما كان له إلا النفاذ، وله الحمد على كل حال، لذا كنت أجد في اختصار الإجابة ما يفي بدفع الضرر الآني إلى المجهول الذي لا يعلمه إلا الله فأقول:

- تذكرت، حضر، ولم أستطع الاستماع لمحاضرته، فقد كنت منشغلاً بالامتحانات.

وأكتفي بهذه الإجابة، وإني لأقسم بعد انقضاء هذا العمر المرير البائس، بأنني لا أدري إذا حضر العطار يوماً من الأيام، أو ألقى محاضرة في جامعة من جامعات أو جامع من جوامع "فرانكفورت" بالذات، ولله المشتكى من كذب هؤلاء وفجورهم، لا سيما إذا كانت تدعم فجورهم وكذبهم قوة بغي وعدوان غاشمة.

تركوني أعود قبيل الظهيرة إلى حجرتي، بقي الباب الأسود المطلي بالقار مسدوداً عليّ فترة الأسبوعين التاليين، أما صاحبيْ قضيتي التركي والعراقي، فلم أعد أسمع عنهما شيئاً طول هذه الفترة.

كنت أدخن، قد مضى عليّ في هذه العادة حتى يوم اعتقالي قرابة الخمسة أعوام، ولقد جردوني من كل شيء، من السجائر والنقود- ويا لهف نفسي!!- لقد جردوني من الكرامة، فلا أسفاً على الرخيص ما داموا قد مضوا بالغالي النفيس، فما قيمة أي شيء، بل أي شيء كان إذا فقد الإنسان حريته وكرامته!!

كنت من وقت لآخر أستمع إلى رجاء النزلاء في الغرف المجاورة يتمنون على السجان أن يأتيهم ولو بأعقاب السجائر، وكان بعضهم يفعلها، ونادراً ما كان بعض السجانين يفعلون ذلك، والبعض الذي يمتلك السجائر كان يسأل عن النار التي جردوه منها أيضاً، لم أقدم على أي شيء من ذلك، مع أن نفسي كثيراً ما كانت تتوق إلى ذلك وتتمنى.

طال عذار وجهي ونبت، وتلبّد شعري وتشابك، وكانت رائحة العرق المنبعثة مني تبعث

عليّ الاشمئزاز والتقزز، وصار في حكم المسلّمات هنا أن لا شيء يبعث على الراحة أو الاطمئنان، وجاءني أحد السجانين ذات مساء، ودون طلب مني فتح عليّ الباب، وقادني إلى دورة المياه، حيث أعطاني بعض الوقت لأغسل نفسي، كان الماء بارداً، برودته لم تقف حائلاً دون تناوله، لقد وجدته أفضل حمام أتناوله على مدار عمري، فجلست في هذه الليلة أشكر الله هذه المنة التي لم أنتظرها، وما كنت أتوقع حصولها، ثم جاشت نفسي بالبكاء فبكيت!

جاءني الحلاق ذات صباح، ومن خلال فتحة الباب، يسألني:

- أتريد أن تحلق؟

أجبت بالإيجاب، ولما سألني إن كنت أملك نقوداً، أجبته بالنفي، سد الفتحة وانطلق إلى الغرف المجاورة.

عليك دفع خمس ليرات أجرة حلاقة!

كان الجلاد مالكاً يمر بنا كل مساء ليُدوّن الحضور، وكان يتم ذلك من خلال نقرة ينقرها بقلمه على الباب، فعليك أن تصيح من الداخل معلناً وجودك، والذي كان يهالني سؤاله كم العدد؟ أي عدد الموجودين داخل هذه الأمتار القليلة، فأهتف من أعماقي يا إلهي، وهل تتسع هذه الحجرات لأكثر من واحد!

في أخريات أيامي في هذه الحجرة، زارني طيف منام جديد، مفاده كما لو أنني كنت أهوي على حافة بيت عالٍ نحو الأسفل، وفي منتصف المسافة صار خلل في البناء، انحرفت بموجبه الحافة إلى شطرين متباعدين، وكان النتوء الذي صار في الوسط، ينبئ بأنني سأهوي بعد قليل في الهواء، وحين صرت أهوي، أبصرت في أسفل البناء رجلاً كان يعمل في مدينة "دارمشتات"، المدينة التي كنت أدرس فيها، فصحت به ليدركني، ففعل الرجل إلى أن وصلت إلى بر الأمان، وفي المنام أدركت بأنني سأعود بعد زمن لا يعلمه إلا الله إلى المدينة، لأرى أن كل معارفي قد رحلوا عنها باستثناء هذا الرجل الذي سيكون في استقبالي، في الصباح الباكر، جمعت هذا المنام إلى سابقه، وأسلمت أمري إلى قدري بانتظار ما سينفذ بي!

في أحد الأيام من أخريات شهر أيار "مايو"، الشهر الذي اعتقلت فيه، قادني أحد الجلادين بسوط في يده، يلهب به ظهري إلى حجرة من حجر التحقيق، وهناك طلب مني أن أضع توقيعي على ما لم يصدر عني من الأعمال أو الأقوال! وقفت أمام المحقق دون عصبة

العين هذه وكان برفقة المحقق رجل آخر، لعله متدرب جديد، بدا لي من الغباء بمكان، قد خرج لتوه من صالون الحلاقة، لشدة اهتمامه بترتيب شعره، وشاربه الأشقر المسبسب فوق شفته العليا، وحذاءه الملمع، حيث جلس واضعاً ساقاً على ساق، ولم يكلف نفسه كبقية المحققين خلع جاكيته الأسود "السموكن"، بدأ حديثه بمحاضرة طويلة عن الوطنيات والأخلاق، وسألني مستغرباً:

- كيف تقبل لنفسك كشاب مثقف ومتعلم الانخراط في صفوف هذه العصابة الإجرامية العميلة؟

ولم يكن ينتظر مني جواباً، لكنه توقف ليسألني عن أصلي. هل أنت أردني بالأصل أم فلسطيني؟

قلت بإيجاز:

- فلسطيني!

عندها نحا بالحديث منحاً جديداً:

- أنا أعرف الكثير من الفلسطينيين، ولي من بينهم أصدقاء كُثُر، كلهم منشغلون بقضيتهم المركزية، فما الذي دهاك لتنحو هذا المنحى؟ فأنت تعلم بأن سوريا هي البلد الوحيد، الذي يقف بحزم في وجه كل المخططات التصفوية التي تريد أن تطال هذه القضية!!

وقطع المحقق هذا الحديث بقوله:

- ابدأ بتبييض أقواله، فأنت ولا شك تملك خطاً جميلاً!!

شرع هذا بتدوين أقوالي، وبدا لي أنهم كانوا يدربونه على كيفية إجراء التحقيق كما أسلفت!

كنت طوال الوقت أصحح لهم صيغة الإجابة، فقواعد اللغة كانوا لا يجيدونها، فلم أجد في نفسي غضاضة من أن أرتب لهم حتى تلك الأكاذيب التي يدينونني من خلالها، وفي ختام التحقيق دوّنت اسمي وتوقيعي بعد أن سجلوا لي عبارة مفادها، أن هذه الأقوال أُخذت بمحض إرادتي وبأريحية تامة دون إخضاعي لأي ضغوط جسدية أو نفسية، فانظر - يا طويل العمر - إلى هذه الصفاقة الواضحة، وكدت أضحك ولعلني فعلت ذلك في أيام قادمة كلما تذكرت هذه الصفقة الرابحة الخاسرة!!

يوم السابع عشر من اعتقالي تماماً، ولعله يوم الخامس من "يناير حزيران نفس اليوم الذي اجتاحتنا فيه إسرائيل حتى العظم، جمعونا نحن الثلاثة العراقي، التركي، وأنا، وبعد أن سلّمونا ودائعنا، شرع بعض الجلادين في توجيه التهاني لنا بالفرج الذي منّ الله به علينا، وشعرت بنشوة لم أعهدها في نفسي، حتى كدت أن أبوح بها لصديقي العراقي، لكنني كتمت ذلك إلى ما بعد، وبدأت أمنّي نفسي بلقاء الأصدقاء والأهل، وما عساني سأتحدث لهم، أيام من العذاب حفروها على شغاف قلبي، لا أعتقد بأنني سأنساها ما حييت!

لكن الأمل بالفرج ولقاء الأهل والأحبة سرعان ما تلاشى، ولفنا وجوم قاتل، فلقد أصبحت أيدينا في القيد الحديدي من جديد، وعصبة العين عادت ثانية لتحجب عنا أنوار الدنيا، وكأنها القدر الذي لن يفارقني حتى آخر أيام معتقلي!!

حين ركبنا السيارة المغلقة، لم تفارقني طوال الطريق صورة هذا الشاب العراقي الذي جردوه حتى من شعر رأسه، وبدا لي نحيلاً هزيلاً وكأنه استعار ملابسه التي يرتديها من رجل بدين، واختلطت المشاعر عندي وتباينت، فلم أعد أدري أيّنا كان الأجدر بالرثاء؟!

فرع العدوي بدمشق

هذه دمشق ثانية بشوارعها وأزقتها غارقة في اللهو والبيع والتجارة، كانت أصوات الباعة في الطرقات تصل إلينا، وكانت المدينة وكأنها في يوم البعث، جلبة وحركة، لا أعتقد جازماً بأن أحد من أهلها كان يدري بنا.

وكانت السيارة تطوى بنا الطرقات في سرعة غير معهودة في تلك المدينة المأهولة، وقد أجبرنا على إنزال رؤوسنا إلى ما دون حافة المقاعد، كي لا يرانا أحد من قطيع البشر اللامبالي، اللاهي العابث، وكدت أرثي من هذه اللفتة التي جاءت في غير مكانها.

– ماذا يجرى لو رآنا أحد على هيئتنا تلك؟ لا أعتقد بأن أحد سوف يعبأ بنا، فضلاً عن التحدث بشأننا، ومن نحن حتى تتجافى الأمة عن جنباتها من أجلنا.

أخيراً وصلت السيارة، تهادت في طرق مجهولة، على الأقل بالنسبة لي، كل شيء من حولنا غارق في الظلام، سوى قعقعة السلاح الساهر في أرجاء المكان، قد ضاق على المسلحين لكثرتهم.

ساقونا بعنف إلى دهليز تحت الأرض، لعلني لا أبالغ إن كنت يومها أقول بأنني عددت ما يزيد عن العشرين من درج السلالم التي هبطتها، متلمساً طريقي بصعوبة رغماً عن العصبة التي ما زالت تغطي عيني.

في ممر صغير يطلّ على حجرة تسليم ما يسمى بالأمانات الذاتية، على يسارها تماماً تقع حجرة لبعض السجناء القضائيين، في الوقت الذي يطل فيه الممر على حجرة أخرى تسمى حجرة الصالون، على طرفها الأيمن دورة للمياه، وعلى الطرف الآخر حجرة "البوفيه" كما يسمونها، وهي عبارة عن حجرة يحضرون فيها وجبات الطعام الممسوخة، في هذا الممر الضيق استوقفونا لبعض الوقت، ريثما ينتهون من إجراء بعض الروتين لمن سبقونا هذا الصباح من المعتقلين، قبل إدخالنا إلى مكتب الأمانات، هناك تم استلامنا من الدورية التي جاءت بنا، وتم تبديل القيود وغطاء العيون، ثم نادوا علينا جميعاً، كي نخضع بعدها لتفتيش

دقيق، حدجني المجند السجان بطرف عينه وهو منكب على دفتر سجلات كبير، وبين يديه قلم حبر جاف، وفي يده الأخرى سيجارة من النوع المستورد الفاخر، راح يشتمنا وهو يعكف على تقييد أسمائنا، واستلام ما نحمل من أوراق ثبوتية خاصة بنا، غابت عنها الأوراق الخاصة بالسيارة، وساعة اليد، راح ينشغل في تدوين بطاقة الزج، ثم أمرنا - هذا الطفل الذي لم يُفطم بعد، ولم ينبت شعر وجهه بعد - بأن نخلع ملابسنا للتفتيش، بعدها اقتادنا إلى حجرة الصالون التي اصطفت في صدرها وعلى جانبها الأيمن الحجرات الانفرادية ببواباتها السوداء، في الوقت الذي أودع صاحبي العراقي المنفردة رقم "1"، طلب إلينا أن نأخذ أماكننا مستلقين على ظهورنا وعلى فرشات ما رأت عيني ولا أظنها سترى أقذر منها، بين أكوام من البشر المكدسة في غير ما حراك وكأنها توابيت قدامي الفراعنة المسندة!!

كانت هذه هي المرة الأولي التي ألتقي فيها البشر منذ اعتقالي، حيث المحقق والسجان مستثنيان من الانتماء للبشر، وإني يشهد الله لأربأ بالحيوانات أن أنسب أحداً من اجتماع النظام البعثي الأثني الحاقد في دمشق إلى أدناها في سلم الترتيب، لا إلى أرقاها، فالحيوان مأمون الجانب إن أشبعته، أما هؤلاء المجرمون القتلة فلا حد لإجرامهم ولا حدود لجشعهم وتعطشهم لرؤية المزيد من الدماء والمجازر.

لم يؤذن لنا بإزالة القناع الذي يغطي أعيننا، أو فك القيود التي تسور أيدينا، وكان المجند الحارس يقوم على الباب بمراقبتنا خشية أن يحدث أحدنا الآخر، ويا له من يوم أسود إن ضُبط أحد يفعل ذلك، فالحديث ممنوع بالمطلق، والحركة كذلك، ولم يعد لي في هذا المكان اسماً ينادونني به، فقد صاروا ينادونني بلغة الأرقام وصار رقم "11" أحد عشر، هو اسمي الجديد في فرع العدوي العسكري!!

استطعت مع الأيام وارتحال الوقت خطف الكلام في غياب الحارس لقضاء بعض حاجياته، وكنت أجدها فرصة مواتيةَ للتعرف إلى بعض النزلاء، وكان من بينهم مجموعة من ريف دمشق من منطقة تدعى كناكر وبدا لي أن صلة قربى تجمع بينهم، ثلاثة مدرسين لمادة اللغة العربية، وأما الرابع فخريج كلية شريعة، وهو ملازم مجند في أحد المطارات، ذكر لي بأنه يُعتقل الآن للمرة الثانية، فقد أوقفوه في المرة الأولى لما يزيد عن الشهر، ثبتت بعدها براءته وأطلق سراحه، التهمة الموجهة إليهم جميعاً في هذه المرة، هي تهمة الانتماء لحركة الإخوان المسلمين، وكان أحدهم لا يفتأ في كل مرة يذكرني بأنه ترك أباً مسناً وأطفالاً

وزوجة، وزروعاً استوت على سوقها قد حان أوان حصادها، فمن سيقوم بهذه المهمة الجليلة؟!

فألفت انتباهه دوماً إلى ضرورة الانشغال بنفسه، فأهله لن يعدموا فاعل خير – على شحته – يقوم بتدبير شؤونهم ريثما يمنّ الله عليه بالفرج!!

كان يقبع في زاوية من زوايا الصالون شاباً نحيل الجسم، أبيض البشرة، فارع الطول، بدت على محياه ابتسامة وهو يقدم لي نفسه قائلاً في همس شديد كي لا يسمعه الحارس:

– اسمي غسان، طبيب مجند برتبة ملازم، دمشقي المولد والسكن، أنتظر ترحيلي إلى سجن تدمر العسكري!

بهذه الكلمات المقتضبة عرّف عن نفسه، ولم أكن في وضع نفسي أستطيع من خلاله الاستزادة، لكنني اكتفيت بإخباره عن اسمي والبلد الذي أنتمي إليه، سألني ثانية:

– هل تصلي؟

كان كل شيء في هذا المكان يبعث على الريبة والشك، وقولك أمام أحد المخبرين الذين كثيراً ما كانوا يبثونهم بيننا بأنك تصلي كفيلة بأن تحملك في أيام مقبلة على دفع الثمن غالياً! ولم أجد من بدّ بأن أجيب بالنفي!

زادت ابتسامته انفراجاً وهو يخبرني:

– في هذه الأمكنة قد يخسر المرء دنياه شاء أم أبى، فلا أقل من أن يكسب آخرته، فابدأ من الآن، أجل من الآن قبل فوات الأوان!

في الطرف المقابل لي تماماً وبين "التوابيت" الممددة من البشر، رأيت رجلاً مسناً، أخبرني بأنهم جاؤوا به مع زوجته، مخلفاً الأخرى مع كومة من الأطفال في البيت لا حول لهم ولا قوة، والمشكلة التي لن يغفروها لصاحبنا ذاك، هي في شقيق الغالية هذه التي جاءت بصحبته، فقد أمضى في ضيافتهم ليالٍ ثلاث، دون أن يعلمهم بأنه من بين المطلوبين للمثول أمام قضاة الدولة العدول، الذين لا يظلمون أي عميل تثبت عمالته لـ"إسرائيل"، ولما تبين أن عمالة هذا المسكين هي لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن لا شيء يربطه بالأحباب في إسرائيل آثر التواري عن الأنظار مثله مثل الآلاف من البشر الأبرياء الذين لا علاقة لهم من قريب أو بعيد.

نادوا علي في اليوم التالي، وكان الرقم الذي ينادون به عليّ هو رقم "11" كما حدثتكم

سابقاً، لم يتغير عليّ شيء، فيداي مقيدتان، وعيناي محكمتان تحت الغطاء، مضوا بي إلى الطابق الأول، أدخلوني إلى حجرة رئيس الفرع، حيث كان في انتظاري.

اكتفى في هذه الجلسة بالسؤال عن أقربائي، بدءاً بي وانتهاءً بكل أعمامي وأخوالي مع كل أبنائهم، ثم أذن لي بأن أعود إلى الصالون دون أي أذى، فقد كان منظري الذي قدمت فيه من فرع التحقيق العسكري يغني عن أي مزيد، كما خُيّل لي، أو لعلني أردت أن اقنع نفسي بذلك ولو إلى حين.

طمأنت نفسي الغارقة بالتفكير إلى ما سيأتي في غدٍ قريب، وبدأت أوطنها على تحمّل العواقب وإن كانت مُرّة، وفوّضت إسلام الأمور إلى من لا تغفل عينه ولا تنام، وأبرمت أمراً قال به القدماء مفاده أن دوام الحال من المحال.

رأيت صديقي العراقي ذات يوم من شق المنفردة التي نسي الحارس أن يوصدها، فطمأنته إلى مجريات التحقيق، وأعلمته بأنه في عافية من كل تهمة، ولعلني فهمت منه هذا الأمر بالنسبة لي كذلك.

جاء اليوم الثالث على وجودنا في هذا المكان المكفهر الثقيل، فنادوا علينا جميعاً، وفي بهو صغير وقفنا بانتظار أن ينادوا على أسمائنا ولم يطل المكوث، فقد نادوا عليّ بدءاً، كنت أشعر بجفاف في حلقي، وصداع في رأسي، وبالكاد أن تحملني قدماي، صاح بي المحقق الذي جاءني صوته جديداً غير مألوف، صاح بي أن آخذ مكاني على مقعد ذكر لي بأنه موجود خلفي تماماً، وما أن التهمني المكان حتى بدأ أسألته:

- هل تريد أن تضيع "فرق عملة" بين النظامين الأردني والسوري؟

وسألت في استغراب:

- لم أفهم ما تعني!

وكرر:

- هل تريد أن تكون "فرق عملة" بين النظامين؟

ومع أنني لم أفهم العبارة أجبت:

= طبعاً لا أريد أن أكون "فرق العملة" هذه!

- إذاً، تخرج الآن لتناول كوب من الشاي، وتفكر جيداً!

في حجرة "البوفيه" الصغيرة، حيث مجموعة من الجلادين جلسوا هناك بعيونهم الجاحظة، وملامحهم القاسية، كأنهم القردة الممسوخة في أشكال البشر، جلسوا يتجاذبون أطراف الحديث ويثرثرون فخورين عن أساليب التعذيب الوحشية التي مارسوها مع بعض البؤساء من أمثالي، وأذنوا لي في إزاحة غطاء العين قليلاً كي أتمكن من تناول كوب الشاي، ولم يكن لديّ ما أمعن التفكير فيه في هذه اللحظة، ولا زلت أردد في نفسي سير المقولة الخالدة بأن دوام الحال أبداً هو شيء من المحال!!

أدخلت بعد ما يزيد عن نصف ساعة من الزمن تقريباً، وتناوب التحقيق معي رجلان من أشباه الرجال ولا رجال، أحدهما كان يتخذ أسلوب الترهيب والعنف، وأما الآخر فقد كان مرغباً لطيفاً ليناً، وفي كليهما باتت رائحة الابتزاز عفنة تزكم كل أنف سويّ، سأل الأول وقد بدا أدنى رتبة، لأنه كان يخاطب الآخر بلقب "سيدي":

- ما هو الهدف الذي كُلِّفت به في سوريا؟

- لم يكن هناك أي هدف.

- سيارة مرسيدس "sel 280" تأتي بها كل هذه المسافة بدون أي هدف، هذا مستحيل؟!

- السيارة التي جئت بها، ليست ملكي أولاً، ثم أن الهدف ذكرته سابقاً في مكان آخر - ولم أكن حتى ذلك الحين أعلم اسم المكان ولا الجهة التي يقع فيها فرع التحقيق العسكري هذا-..

- ماذا فعلت بثمن سيارة "الفلفو" التي سبق وبعتها في المرة الأولى؟

- استخدمته في إيفاء مصاريفي الخاصة بالإضافة إلى مصاريف دراستي الجامعية.

- مَن هو صاحب السيارة الأصلي؟

- الفلفو؟

- لا، المرسيدس؟

- شاب كردي يحمل التبعية الإيرانية.

- ماذا يعمل؟

- يدرس في كلية الآداب في جامعة فرانكفورت بألمانيا الغربية.

- مرة ثانية، بمن كنت ستلتقي في دمشق؟

- لا يوجد أحد أعرفه في دمشق يمكن أن ألتقي به.

وجاء صوت هادئ لطيف:

- يا سيد "أبو الخير" نحن نعلم بأنك قادم من طبقه كادحة، ولديك أهل وأخوة، وأقسم لك بأولادي، والذين هم أغلى شيء أملكه في الدنيا، بأننا لا نريد لك إلا الخير، وصدقني إن صدقتنا، صدقناك وعملنا على مساعدتك، نحن نسعى للتعامل معك بالإسلام النظيف، إسلام المحبة، إسلام الإخاء والوفاء، لا إسلام الإجرام والقتل والتنكيل..

وقطعت عليه حبل الاسترسال:

- يا سيدي، ليتني أكون على مستوى الإسلام هذا الذي تتحدثون عنه، صدقوني بأنه لاتجمعني أي علاقة بكل ذلك منذ ما يزيد على ثلاثة أعوام، ولا يوجد لي علاقة بأي أحد.

علا صوت من خلف المكتب:

- لا تفيد الحسنى معك!

وراح يوجه الحديث بعد ذلك لصاحب الصوت الهادئ:

- يا سيدي لا يجدي مع أمثال هؤلاء إلا العنف، هذا ما عرفناه عنه في فرع التحقيق العسكري، يكفينا ما قاله، إذا كان لا يريد أن يتعامل معنا "بالتي هي أحسن" حولناه بتهمة "الإخوان" إلى محكمة ميدانية بموجب المرسوم "٤٩" لتحكمه بالإعدام!

لم يفاجئني هذا الخبر فأنا أعلم بأن كل شيء وارد في دولة العسكر.

وعاد يكرر من جديد:

- ما هو الهدف الذي جئت من أجله؟

- لو كان هنالك هدف كما تقولون، يمكن أن أكون قد أتيت من أجله، لوجب أن يكون له من الأسباب المادية، ولو دليلاً واحداً ينبئ بذلك، لقد فتشتم السيارة بدقة، وخضعت وزملاء رحلتي إلى نفس التحقيق والتفتيش، وأعتقد بأن زملاء رحلتي- لا سيما العراقي حيث الآخر لا يتكلم العربية - أفادوا بما يبرأني من هذه الفرية، فلم كل هذا الإلحاح..

- أيها الحقير..

وترادفت على مسمعي سيمفونية الشرف والعهر الوطني المقيت:

- أنت تعلم بأن سوريا هي الوجه الوطني والوحيد، الذي يقف في وجه كل هذه الردة الرجعية، ونحن نعلم بأن "ملككم" قد لحق أو على وشك أن يلحق باتفاقيات "كامب ديفيد" كما فعل العميل أنور السادات، وهذه العصابة عصابة الإخوان المسلمين تعمل لإجبار سوريا على اللحاق بهذا المخطط، وهذا حلم سوف يموتون جميعاً قبل أن يدركوه!.. وأردف في تهكم:

- ملككم مطلوب لنا لنحاكمه على ما اقترفت يداه، ولما كان ذلك متعذراً علينا، فأنت الآن في مكانه!

تبسمت في مرارة وأنا أستمع إلي كل هذا الهراء الوطني الأجوف:

- لو كنت أدري يا سيدي بأنني علي هذا الجانب من الخطورة، صدقني لو كنت أدري لكنت احتطت لنفسي.

- ماذا تعني بهذه الحيطة؟

- كنت أسافر بالطائرة إلى الأردن دون المرور بسوريا مثلاً، كنت أسافر بالبحر، كنت آتي عن طريق العراق، هناك طرق كثيرة يمكن الحضور بها إلي الأردن، ولقد حضرت في المرة الأولى وسافرت، فماذا سجلتم عليّ من الأعمال المخلة بأمن البلاد، والتي يمكن أن أواجه بها في هذا المكان؟ اسمحوا لي أن أسال بدوري، ماذا تريدون من وراء كل هذا الإلحاح؟ والله هذا حرام فأنا طالب لا شأن لي بكل هذا الذي قيل ويقال.

دخل الصوت الهادئ من جديد، ليبدد بسمومه الناعمة أمل إنهاء هذه الجولة من التحقيق:

- أنت لا تنتمي إلى العطار فقط، بل لك صله جيدة "بعمر التلمساني"!

وسألت في صيغة المستنكر:

- من يكون هذا الأخير؟

- أنت كاللاعب على الحبلين!

واكتفيت بالصمت دون أن أجيب، وجاء صوت الجالس وراء المكتب وكأنه القنبلة:

- لأي التنظيمات الفلسطينية كنت تعمل؟

- كنت أعمل في اتحاد طلبة فلسطين.

- جميل هذا الحديث، ماذا كنتم تتبادلون في جلساتكم من الأحاديث حول سوريا؟

- لم نتبادل ما يضر بسوريا، ولقد أيدنا سوريا في الأحداث الأخيرة التي جرت في لبنان!

- هذا يعني أنكم لم تؤيدوا ما مضى من الأحداث؟!

- لم أقل ذلك!

- ما هي البيانات، أو المحاضرات التي أدليت بها عن أوضاع سوريا في اتحادكم هذا؟

- لم يسبق أن حاضرت في الاتحاد عن أي موضوع..

- لدينا إثبات يؤكد بأنك هاجمت سوريا في إحدى الجلسات؟!

- غير صحيح، وإذا كان ذلك كما تقول سيادتك، فلا داعي لمحكمة ميدانية، يكفي أن ينتهي الأمر هنا بمسدسك الخاص.

وصاح بأحد الجلادين:

- خذه إلى الدولاب!

لم يمهلوني لأسير على قدمي إلى هناك، فقد سحبوني إلى حيث الدولاب، وهناك حشروني بداخله حشراً، وفي دقائق كنت أدور مع الدولاب حيث دار، قدماي مرفوعتان في الهواء قد اجتمعت عليّ زبانية البغي، كبرهان جديد، يؤكد لي بأن في الدنيا جحيماً نصطلي به، يشبه في اعتقادهم كما كانوا يصرحون جحيم الآخرة الذي سيدخلونه بمشيئة الله لا محالة، يصطلون به جزاءً وفاقاً جراء ما اقترفت أيديهم من طغيان فاق كل تصور وتجاوز كل طاقات البشر، سيحرمهم الله بدعاء المظلومين جنة تسكن قلوبنا في الدنيا، سوف نراها رأي العين في الآخرة بإذن الله، وتجلدت تحت سياطهم، ولم أجد ملجأً إلا الله، أناجيه في ساعة العسرة هذه، ولم يكن ليصرفني عن هذا النداء شتمهم لإلهي الذي قالوا لي بأنهم لا يخافونه، وإذا كان بإمكانه فليأتي لنجدتي، وإذا جاء فسوف يضعونه مكاني!!. وقلت في نفسي: يا رب، إنك تسمع وترى، فاضت روحي من الألم.. ولم يكن للزمن حساب، فرحت أغط في غيبوبة لم أفق منها إلا على صوت الطبيب، والمياه تغمرني، أمرٌ تعودته في مرات سابقة.

وأجرى الطبيب الفحوصات كاملة، فأكد بأنني في وضع جيد، وبإمكاني أن أقف على قدمي، لكنني لم أقم ولم أقف، ولم أشعرهم بصحوتي، عندها صاح بهم الطبيب:

- أعيدوه إلى الدولاب، فهو ممثل - على ما يبدو - لن تنطلي ألاعيبه علينا!!

يا سبحان الله، حتى الطبيب، صاحب الرسالة الإنسانية، صاحب القسم القانوني، أين القانون؟ وأين القسم؟ بل أين الرسالة الإنسانية التي يحملها أمثال هؤلاء؟ أجلاد هذا أم طبيب؟!

عبارة استمررت في ترديدها عشرات المرات، ولن يفتأ لساني يرددها ما ضمني هذا المكان، وطفقت أبحث عمن أشكو إليه حالي، فردتني خبايا نفسي إلى سر ما قاله يعقوب الرسول عليه السلام:

- "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله".

راح الجلادون يسندون ظهري الممدد على الأرض ليعيدوه إلى الدولاب ثانية كما طلب الطبيب، صاحب الرسالة الإنسانية، ثم راحوا يتركونه في الهواء معلقاً، يختبرون من خلال ذلك غيبوبتي التي قال الطبيب أنها من ضروب التمثيل، وكلما تركوني معلقاً، تركت جسدي الواهن يهوي إلى الأرض دون أن أقاوم، ودخل المحقق على حين غرة، فأعلموه بأنني أتصنع الغيبوبة، عندها صاح:

- إليّ بجهاز الكهرباء؟!

جاؤوا به على عجل، ولم ترافقني في مرات سابقة هذه الطمأنينة التي رافقتني في هذه اللحظات، فبدأت أستسلم لقضاء الله النافذ، وما الأعمار والأرزاق إلا بيد الله، ولن يزور الموت نفساً إلا بعد استيفاء أجلها ورزقها، فعلام الخوف إذاً؟ وغبطت نفسي على هذه النعمة التي ركنت إليها في هذه الدقيقة.

وجيء بجهاز الكهرباء، طرفه الأول مربوطاً على سبابة يدي، وطرفة الآخر في فمي، وجاءت الصدمة الأولى، وكأنها المخدر يسري في الجسد عنيفا سريعاً، قلت نتجلد ونحتسب، ولما لم أفق أعادوها مرات ومرات، ثم كانت صعقة، جاءت كسيل شلال عارم شقت طريقها بعنف في أنحاء جسدي المختلفة، انتصبت على إثرها جالساً!!

قال الطبيب الذي ما زال واقفاً يتلذذ بما يرى:

- لن يفيدك التمثيل، قم وارتد ملابسك - فقد كانوا عروني منها - وحاول لبس حذائك، أو احمله في يدك إذا كنت لا تستطيع لبسه، بإمكانك أن تعود إلى الصالون، لا تنس أن تبدل ملابسك المبللة، فقد أصبح الوقت متأخراً، ولا مجال الآن لمتابعة التحقيق.

عوضاً عن تركي أمضي إلى الصالون، وجدتهم يدلفون بي الباب إلى حجرة التحقيق ثانية، ولم يأذن سيادة المحقق لي بالجلوس خشية أن أبلل المقعد كما زعم، وفي لهجة من يتشفى:

- والآن ألا تريد أن تخبرنا عن تلك المحاضرة؟

- أقسمت لك بكل عزيز، بأن شيئاً من هذا لم يحصل في أي يوم من الأيام.

- لدينا شريط مسجل بذلك؟

- هذا دليل قاطع، إن جئتني به فلا داعي لكل هذا النقاش.

كنت على يقين دامغ بأنه يكذب، مع أنه قام من مكانه متجهاً نحوي، وباجتماع قوة الجسد لطمني بيده، فسقطت على المقعد الذي كان يخشى سيادته أن يبتل بالماء، وفي حقد الذي لم يظفر بما يريد:

- لا تريد أن تعترف بذلك؟!

- لا أدري ما ذلك الذي يجب أن أعترف به، لقد صنعت لكم فرية الانتماء لـ"العطار" في فرع التحقيق العسكري، ولتكن هذه إن شئتم كذلك، رتبوا وأنا جاهز للتوقيع!

- هذا كلام لا يجدي عندنا، قلت لك بأن الدليل حاضر.

وصاح بأحد الجلادين:

- خذه لمدة عشرة دقائق إلى الخارج وائتني بمندوب السفارة.

وقفت في الخارج متحاملاً على نفسي بانتظار ما سيرتبونه لي، وتذكرت سنوات القحط في تيه هذا العمر المرتحل، وأبديت مرونة العازفين عن الدنيا، المقبلين على الله اللائذين بحماه، ومرت الدقائق وكأنها الدهر يتتابع مترادفاً، وأقنعت نفسي من جديد بأنني لن أكون من أول أصحاب البلاء ولن أكون آخرهم، وإذا كان الموت هو سبيل كل حي، فلِم لا نختارها نهاية مشرفة، نقبلها لأنفسنا، ويرضاها الله لنا؟!

وجاءني صاحب الصوت الهادئ، ليطلب مني بلهجة مدّعي الأبوة والحنان:

- بمقدورك الآن أن تهبط إلى الصالون لمدة عشر دقائق، فكر جيداً في الذي طلبناه منك.

ولم أكن أدري بأن هذه الدقائق العشر ستمتد في عمر الزمن إلى قرابة شهرين بلا انقطاع، أترك فيها بين المنسيين بلا سؤال أو جواب، أنشغل فيها بالناس - ممن يأتون أو يرتحلون في كل يوم- عن نفسي!

في اليوم التالي نادوا على اسم صاحبي العراقي، والشاب التركي، سألوهما عن أماناتهما، وعن شكل السيارة التي يملكونها، وهمس لي أحد الحرس بأنه الإيذان بالفرج لهما، ففاضت دموعي من الفرح، وإن كنت أدرك بأنني لن أكون رفيقهما في رحلة الفرج والعودة إلى المنافي في الغربة، ففي السجن طعم آخر لمعاني المنافي داخل الوطن هذا!

صار عدد النزلاء إلى التناقص، وصار في الإمكان إفراغ ممر في وسط الصالون يمكن عبوره بسهولة إلى دورة المياه، أو التحقيق بعد فترة من الازدحام والاكتظاظ، وخفت حدّة المراقبة، باتفاق صامت بين مكتب الأمانات الذاتية وبعض معارفهم من النزلاء، صار يُسمح لنا برفع غطاء العين فترات طويلة ما بين ارتحال دورية التفتيش القادمة من الطوابق العليا والتي تليها، ويتم هذا الأمر عن طريق إشارة خاصة "كلمة سر" نحتاط من خلالها لأنفسنا، بمجرد سماعنا لخطوات تهبط الدرج مقتربة، نسرع إلى تغطية أعيننا.

أطل علينا أحد السجانين بنفس جديد بعثه في أرواحنا التلِفة، فقد مر علينا بالتناوب بكوب من الشاي، فالشاي كما هو التدخين ممنوع، الشيء الذي يأذنون به فقط ثلاث لفائف من "السندوتش" الرديء، الذي بالكاد أن يقيم الأود، تُعطى لنا كجرعات من الأدوية، واحدة في الصباح، والثانية عند الظهيرة، وأما الثالثة فكانت تأتينا عند العشاء.

الفرق شاسع بين الحارس والسجان هنا في فرع العدوي – ذلك الفرع الذي تعرفت إلى اسمه بعد إطلاق سراح صاحبي رحلتي– فالحارس عليه مهمة الحراسة، وتنظيم إدخالنا إلى دورة المياه، وأما السجان فمناط به كل شيء، فهو الجلاد المحترف أولاً، والمحقق إذا ما دعت الضرورة لذلك أيضاً.

نادى فينا الحارس الدمشقي ذا الخلق الدمث:

– من يستطيع أن يروي نكتة؟

وبدأ بعض الشباب الدمشقيين في رواية سيل من النكات عن أبناء حمص وحماة، وكنا نضحك، وما كان يزيدني استغراباً أننا كنا نضحك من أعماقنا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أعثر فيها وسط هذا الحقد المتراكم، على شاب ما زالت فيه للإنسانية بقية، بعد أن عز عليّ أن أعثر عليها عند الطبيب، عندها رحت أواصل إرضاء نفسي المترعة بالهموم بالمثل السائر "إن خليت بليت".

كان أكثر الشباب بيننا حيوية شاب اسمه أحمد، طالب جامعي من أبناء دمشق، ما إن تعرف إليّ حتى استأذن الحارس في الانتقال إلى جواري، فأذن له.

مربوع القامة، أبيض البشرة، ذا سحنة عريضة، وجنتاه فيهما امتلاء وحمرة، وحيداً لأهله، والده سمان أي صاحب بقالة، قال لي بأنهم جاؤوا به من منطقة التدريب الجامعي، ولا يدري المسكين لماذا جاؤوا به، أخبرني بأنهم أخذوه إلى فرع التحقيق العسكري بحمص حيث ذاق من العذاب ألواناً، عاش أياماً طوالاً في ظلام دامس في زنزانته التي كانت تقبع تحت الأرض، وكان يشرف على التحقيق معه رئيس الفرع هناك، ممن عاث في الأرض فساداً وعدواناً، غازي كنعان وما أدراك ما غازي كنعان، وبعد أيام علِم المسكين بأنهم عثروا على صورته في البيت عند أحد المطلوبين، وكانت هذه الصورة كفيلة بأن توْرده موارد الهلاك.

حدثني عن الخطيبة التي ما زالت تنتظره في البيت، ولم ينس أن يذكر لي الطريقة التي تعرف من خلالها عليها، وكيف أن شقيقتها كانت تعتقد بأنها صاحبة الحضوة، وكيف أنه عانى كثيراً من جراء هذا الاعتقاد ولأيام طويلة.

حين أوشك الليل ذات يوم أن يخيم، وقبل أن يأخذوه إلى جهة لا يعلمها أو أعلمها أنا، رمى لي بخمسين ليرة سورية راجياً لي فرجاً عاجّلاً متمنياً عليّ ألا أنساه، وكنت أعلم بأنه لا يملك سواها، ولما ترددت في أخذها، قال لي بأنهم قد يأخذوه إلى جهة لا حاجة له فيها إلى النقود!

تلك كانت حسرة أخرى أتجرعها تضاف إلى مجموعة حسرات كثيرة مريرة بعضها مرّ والبعض عما قليل سيلي، وما عاد لأي شيء في نفسي طعماً مستساغاً أو لذة مستطابة، فهل أحسست يوماً بأنك خاوي بلا حياة؟ إن حياتنا خلفنا نبقيها لمن يأتي من بعدنا، ثم خيّم الظلام، وانتظرت عودته زمناً، انتظار المحب للحبيب، ولا زلت أنتظر حتى خبت صورته في زحام الصور التي تلاحقت، وخبا الأمل من كل ما يفرج أو يبعث على الفرح، وعدت مع الأيام لا أرغب حتى في الأمل أن يأتي لأي شيء ومن أي شيء.

أبداً هو نفس الفرع والمكان، لم يغيره الزمان لما ينوف عن الشهرين اللذين قضيتهما هناك، تحفه المخاطر من كل مكان، كرابيج وسياط، كابلات وماء وكهرباء، والملل لا حدود له، وحين كان يقبل الوافدون الجدد، كان يلفنا الخوف الشديد، فكل شيء من حولنا غارق في

الدماء والعذاب، ولم ينقطع فرع العدوي العسكري أيضاً عن استقبال الفارين من المجندين يومياً، وكانت الأعداد الضخمة التي يأتون بها في كل يوم، تدل على تردّي واضح في صفوف الجيش، ولقد قال لي أحدهم وقد تعرّض للضرب والإهانة لما يزيد عن ساعتين دون انقطاع، قال وهو يتجرع ذل الإهانة:

- يهينونا بهذه الطريقة الغاشمة، ويعرضوننا لخسف العذاب بالدولاب إلى ما يسمى ببساط الريح، نحن بحاجة إلى تحرير أنفسنا قبل أن نساق كذباً واستعراضاً من أجل تحرير الأرض، لقد قتلوا فينا مروءة الرجال ونخوة الشرف.

ولم يكن له عندي يومها من إجابة سوى قولي:

- كما تكونوا يولى عليكم.

لا أعلم سوى أنه من الأردن هكذا قالوا لي، جاؤوا به محمولاً على إحدى البطانيات، دماؤه تجري دون توقف، وقد بدا عليه آثار الإعياء والضرب المبرّح، كان يغط في غيبوبة لم يصحو منها، وحين كان الليل يمتد وكأنه جاء بلا بداية، كان لديه في هزيع الليل الأخير ما يكفي من الزمن لإسلام روحه في هدوء إلى بارئها، وبلا ضجيج أو بكاء حملوه إلى حيث هم يعلمون ولا نعلم، أغمضت عيناي لرهبة الموت، واسترجعت في داخلي بصمت شديد، ثم قلت في زفرة حارقة:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

حين أخذت الأعداد البشرية المتواجدة في الصالون تتناقص، برحيل أبناء كناكر وبعض أبناء حمص، بالإضافة إلى الطبيب غسان، جاءتنا وفود جديدة، ولعل أكثرهم رسوخاً في الذاكرة، تلك المجموعة التي جاؤوا بها من فرع التحقيق العسكري، كانوا ثلاثة تجمعهم صلة قرابة، أما الرابع فكان أحد معارفهم، وكان سبب الاعتقال كما جاء على لسان أحدهم:

- أن أحد الملاحقين من قبل أجهزة المخابرات، اقتحم عليهم محلهم التجاري أثناء فراره، وهناك قام بتفجير نفسه.

اثنان منهما إخوة، وأما الثالث فهو ابن عم لهما مصاب بشلل الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة، مصاب بقرحة في المعدة، شاهدته في طريقه إلى دورة المياه، يترنح كالمخمور، من شدة ما تعرض له من عذاب، تسيل دموعه على وجهه الصابر المحتسب، وبذا ازددت يقيناً بأن في هذا المكان من هو أشد مني بؤساً ومرارة.

فرغت المنفردات على أبواب قدوم شهر رمضان من ساكنيها، والناس يرحلون مع هبوط كل ظلام إلى غير رجعة، يمضون بهم إلى المجهول، فيمر بنا السجان عند المساء، ويشرع في ملء ما فرغ من المنفردات، وكانت المنفردة رقم "3" من نصيبي، على فرشة قذرة ذكرتني بتلك التي كانت في فرع التحقيق العسكري، تكورت بعضي على بعض، قد أسندت رأسي على يدي، أرنو من خلال نافذتها المطلة - من خلال البوابة السوداء- على الصالون، إلى ما سيأتي من قابل أيامي الكئيبة، ثم قمت أستعرض جدرانها الصماء وأرضها المقرورة القيعان، فأقرأ على جدرانها أسماءً كثيرة حُفرت بعناية لجمع من الأفراد مروا من هنا، البعض كان يحفر خطاً عن كل يوم كان يمر به في هذا المكان، بالإضافة إلى عبارات لضابط كبير لم يعد لاسمه مكان في الذاكرة، سجل عدد الأيام التي نافت عن مائتين وخمسين يوماً، ولم ينسَ قبل رحيله أن يدوّن رتبته العسكرية التي كان يحملها، فقد كان يحمل رتبة لواء ركن، كذلك آيات من القرآن، وعبارات عن الصبر والمجالدة، وأشياء كثيرة أخرى ما عدت أذكرها.

ما أن انتهيت من استعراض هذه القائمة من الأسماء التي احتواها المكان ردحاً من الزمان، حتى أطل أحد السجانين القساة العتاة من خلال النافذة، صاح من غير ما سبب:

- ليش عم تطلع فهني؟!

وحين لم أجبه فتح البوابة، جاءت ردة فعله قاسية عنيفة، لطمني على أنفي حتى سالت الدماء، مؤكداً لي بلغة الجبناء:

- قتلك لن يكلفني أكثر من هاتف، أخبرهم فيه بموتك، كي يحضروا لإخراجك من هنا..

لم يكن ذلك الذي ذكره لي محض ادعاء، فلقد عايشت أحداثاً كثيرة مماثلة في مقبلات أيامي، لم يزد رأس مال الضحايا فيها عن طرقة باب، يمضون بأصحابها إلى حيث ما لا يعلمه إلا الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لم تكن ليلتي لتنقضي بعد، حتى عاد الباب ليفتح من جديد، وأطل أحد الحراس ملاطفاً:

- أنت أيها الأردني البائس، سوف أقوم بنقلك إلى المنفردة رقم "4" لها نافذة تطل على الفضاء الخارجي يمكنك من خلالها أن تأخذ هواء نقياً، ولعلك تحظى بشيء من ضوء النهار.

ثم سمح لي بحمل صرتي والإنتقال، لساني يلهج له بالشكر والعرفان حتى فاضت مدامعي!

عصر يوم من أيام هذا العناء المترادف، راح صوت بكاء نسوي يملأ بؤس المكان، من منفردة لم يكن بإمكاني تحديدها، وهي تبكي أمام جلادها تارة تقسم أنها لا تعرف شيئاً، وتارة تنكر أن لها علاقة بأحد، وتأخذني المفاجأة حين أغلق المحقق عليها الباب ومضى إلى حين، تأخذني المفاجأة وهي ما تزال تبكي، سمعت أحد السجناء يهتف بصوت عرفت فيه لهجة أهل العراق، وكان يقبع في زنزانة بالقرب من زنزانتها يربت على جراحها بقوله:

– اصبري يا أختاه واحتسبي، فالسجون والشدة هذه الأيام للنساء!

كان المتحدث ضابطاً من ضباط الجيش العراقي، قد سئم الحرب، فجاء ملتجئاً إلى سوريا التقدم والحرية، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار!

وثانية أشرع في استعراض الجدران، اقرأ عليها عبارات قيلت في الصبر، وآيات من كتاب الله تخبرك عن البلاء، وما أعد الله لأهله الصابرين المحتسبين، وعبر نافذة في أعلى المنفردة، تطل على حديقة صغيرة، كنت أربط بطانيتي على قضبان النافذة، أعلقها كالأرجوحة، حيث أشرف من هناك على بيت كبير يقع على الطرف المقابل، قد اصطفت فيه الشقق، وأطلت من نوافذها رؤوس بعضَ النسوة اللاتي رحن يتجاذبن أطراف الأحاديث، وعلى الأسطح والبلاكين رأيت بعضهن يقمن بنشر الغسيل، أما أنا الوحيد هنا الذي كان يرى من غير أن يسمع، أو يحس به أحد، يلعق مأساته في صمت، أشعثاً أغبراً، قد انبعثت مني رائحة العفونة، كما لو أنني مطرود من كل أسباب النظافة والطهر، مهملٌ تماماً كمن ولج ماخوراً من مواخير البغاء، ضحية مجتمع من البشر، ناموا على الضيم واستمرؤوه لسنوات طويلة، ثم جاؤوا يمتشقون سلاحاً برته الفرقة وشتات الشمل، بأسهم بينهم شديد، بل هو فوق الشديد، قد ذهبت ريحهم، فكانوا كالأيتام على موائد اللئام، والأيام حبلى ديدنها أن تلد كل جديد!

ما أن تدب الحركة والأرجل في الصالون، حتى أنسل من على الأرجوحة التي حملتني شطراً من النهار، قبل أن يفاجئني سجان ساقل، فأطوي البطانية، وأستلقي على الفرشة آملاً أن يتحنن النوم فيخطفني، غير أنه المرتجى الذي صار عزيزاً في زمن عز فيه كل شيء.

حفرت على الحائط اسمي، ودوّنت اسم المدينة التي وُلدت فيها، وما أكثر الأسماء المحفورة هنا، وكان الأذان الذي يأتيني على مدار الأوقات الخمس هو أنيسي في غربتي هذه، ومع كل أذان كنت أغرق في الدموع والابتهالات.

لم يمضِ مزيدٌ من الوقت، حتى عاد الصالون فامتلأ من جديد، ومن أسفل البوابة، أصيخ السمع باهتمام شديد للنزيل الذي رأسه بالقرب من المنفردة التي أنا نزيلها، فأسأله:

- من أين جاؤوا بك؟

- من حمص.

- هل جاؤوا بك من حمص؟

- لا، أنا من أبناء حمص، هم جاؤوا بي من مطار بيروت.

- ما الذي ذهب بك إلى بيروت؟

- كنا ننوي الهرب بجوازات مزورة إلى الأردن!

- بهذه الثقة تحدثني، دون أن تتعرف إليّ؟

- لم يعد هنالك ما أخاف عليه!

راح عند الغروب في انشغال السجان عنا، يشرح لي ما جرى:

- لم تكن غلطتي، لقد تمكن أحد الإخوة من السفر دون خوف، لقد وهبت حياتي ودراستي الجامعية طواعية لله، أنا طالب في السنة الثالثة، يعز عليّ أنهم ألقوا القبض عليّ بهذه السهولة، كان من الواجب عليّ أن أموت قبل أن يقبضوا عليّ حياً، في الحجرة المجاورة لك تماماً يوجد أحد أفراد القيادة، ألقوا القبض عليه معي.

وراح يشق صمت الليل ترديد (ترجيع) أحدهم لأغنية حزينة، وزاد الترديد (الترجيع) أسى، ذلك اللحن الجنائزي الذي لم يبق على أحد منا إلا وبكى، في الوقت الذي كنت أغوص فيه في مرارتي وأشجاني.

لم يكن أحد ليأبه لذلك الشاب النحيل، الغارق بصمت في لجة من أفكاره، لولا لحيته المدببة التي كانت تتسلق فكه السفلي، رأيته من خلال البوابة التي نسيها السجان مشرعة بعد زيارة لدورة المياه، وحين أحس بوجودي سألته:

- من أي بلاد الله أنت؟

- من الأردن.

- من أين جاؤوا بك؟

- من الحدود.

- لماذا؟

- لا أدري، فأنا نصراني!!

وحين عرف السبب بطل العجب، طمأنته قائلاً:

- أن سبب اعتقالك هو اللحية، لا عليك، سيطلقون سراحك، احفظ عني رقم هاتف البيت عندنا، فأنا أيضاً من الأردن، وأمليت عليه رقم الهاتف، وكررته مراراً كي يحفظه، ثم أردفت قائلاً:

- إذا ما أطلقوا سراحك، أبلغ أهلي تحياتي، وأعلمهم بأنني بخير، وأنا لك من الشاكرين.

برحيله رحت أستعرض شيئاً من أيام خلت، طفل قد ركبت زورقاً عبثت به رياح عاتية، فعلوته مقلوباً، ماتت أمي فعرفت اليتم باكراً، وقست الأيام وشطيت في الكيد لي، فألفيتني متأرجحاً بين يتمي وقسوة واقعي، قد عشت القلق بكل أشكاله، عرفته حين هربت - وأنا طفل يافع لم يتجاوز عمري الخامسة عشر عاماً- حين هربت من البيت أجري وراء الحنان الذي رحل يوماً برحيل أمي، والذي فقدته مع نعومة أظفاري، ولا زلت أذكر كيف استقبلني حضن جدتي الدافئ، والدموع تترقرق في عينيها، قد تذكرت ابنتها التي هي أمي:

- لو كانت لك على الدنيا أماً، لملأت عليك الدنيا صراخاً وعويلاً!

كنت يومها كارهاً للبكاء والباكين، وما عدت أجد أن في الحياة ما يستحق أن نضحي أو نبكي من أجله، وكم هي المرات التي غرقت في صفحاتها أبحث عن الموت، وكانت تأملاتي على بساطتها تبعث في نفسي رغبة جامحة للانعتاق من كل القيود التي كانت تأسرني، وبالقدر الذي كنت أشعر فيه بالغربة بين أهلي، بنفس القدر كنت أتوق إلى الارتحال والابتعاد، ومع أنني ركبت الزورق وسط الأمواج مقلوباً، فقد شاء الله لي أن انجو، و ها هو الآن منكفئاً وسط لجة من أمواج عاتية، أمتطيه ثانية فهل ستكتب لي النجاة؟!

- ما من كاتب سجل شيئاً عن حياته، إلا ألفيته يحنّ إلى طفولته والاعتزاز بها، أما أنا فلا أعتقد أن لي في طفولتي ما يبعث على الحنين إليها أو ذكرها بأي شكل من أشكال الخير والاعتزاز!

هكذا أدرت الحديث مواسياً لأحد أبناء مضايا إحدى ضواحي دمشق، حين ألفيته يجول باحثاً في هذا المكان عن المهتمين اهتمام الأهل والأحباب، وألفيتني أندفع بكل خوفي فأعلن له بأننا نحيا في دنيا نصفها خراب نتجرعه في بواكير الصبا وصبدر الشباب، ونصفها الثاني نحياه بين الأمل والرجاء، حتى إذا أوشكت أيامنا على الاعتدال، أجبرتنا ظروف طارئة لا دخل لنا في ترتيبها أن نحيا هذا الشطر المتبقي من أعمارنا كأنصاف مشلولين أو مشلولين بالكامل، تماماً كسائق مركبة يعبر بها طريقاً عاماً، متلمساً القيادة بتؤدة المتأهب المترصد على أقصى اليمين، غير متجاوز السرعة المطلوبة، مستجلباً كامل حضوره البدني والذهني أثناء القيادة، وفي لحظة الانتباه هذه تأتيه مركبة أخرى مندفعة في الاتجاه المقابل كالقضاء المتعجل، ولا راد لقضاء الله، هكذا كنت أتصور دنيا العذاب الذي نحياه، وهكذا كنت أنفضُ عني بعضاً من منغصات الحياة.

ويُقبل رمضان ضيفاً، مع أن المكان أضيق من احتمال أي يوم جديد، ويمر مسؤول "البوفيه" يسأل عن عدد الذين ينوون الصيام، ولم يكن العدد ليتجاوز المتوقع، فقد جاء متواضعاً، وخاورت نفسي، هل أصوم جهاراً؟ هل أعلم السجان بنيتي في الصيام؟ فهذا بلا شك - إن تحقق - سيؤكد الاتجاه الديني الذي يريدون إدانتي به، وبين التردد والإقدام، أعلنت الوفود على مائدة الله، وليفعلوا بعدها ما بدا لهم، لم يعد هناك ما يمكن الخوف منه أو عليه، ثم لا ألبث أن أجيز لنفسي طرح السؤال التالي:

- هل نحن معتقلون في بلد إسلامي؟ وحين لا أحير إجابة شافية أهز كتفي، ثم أعلق في مرارة: رسمياً لسنا كذلك، فكل قوانين طوب الأرض الوضعية تنتظمنا، ولا أعتقد جازماً متيقناً أن أحداً من ساستنا لديه غيرة على الإسلام، ناهيك أن يسوسنا بشيء من الإسلام، نحن في بلد مسلم يغط فيه أبناؤه في سبات عميق، عميق بالكاد أن تلمح له أي نهاية، وألفيتني أسبح في أفكاري الوافدة، فأنا تائه على بوابة الخوف، كما تتيه العدوى بساكنيها على أبواب مدينة ما، في غمار تمدنها المزعوم، فلقد صار من المسلمات هنا أن الإنسان هو آخر مخلوقات الله في قائمة أدنى الإهتمامات بالمطلق، وقوافل الأموات التي ترتحل من الطوابق العليا إلى مثواها الأخير بالكاد أن يُصدق بأن لها عدد معلوم.

عادوا إلينا للتو بمجموعات جديدة تنتقل المأساة في وجوههم، ما فتأت الأيدي الغليظة تنهال عليهم ضرباً وركلاً مشفوعة بزوابع من الشتائم واللعنات، وكان بين الوافدين الجدد

رجلان من الأردن، جاءت بهم قوات الردع السورية من مطار بيروت بلبنان، ظهرت عليهما آثار العافية، أحدهما ملتحٍ، يقف السجان ببابه منتظراً أن ينتهي من تراتيل يتلوها في صلاته؛ بينما الآخر غارقاً في الأغلال، يستجدي السجان عطفاً في أن يوسّع عليه القيد الذي حزّ معصمه، وترك عليها الأثر، وحين يولّي السجّان بالأول إلى الطوابق العليا، أسأل ابن مضايا عن زوار المساء الجدد، فيخبرني بأنهما أردنيان قادمان من دول الخليج، يعملان هناك، جاءا لزيارة والدهما الذي كان يتلقى العلاج في مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت، ويطفح إلى الذاكرة صورة لفلم شاهدته يوماً من أيامي الخوالي، لروما وهي تحترق، ونيرونها قد مُلئ حقداً وغيضاً، فأدركت بالواقع المحسوس أن روما لا زالت تحترق ولا زال نيرونها يتلذذ بفعلته الشنعاء، وهو يعاقر الخمرة في خبث نصيري وضيع! ولم يطل مكوثهما في هذا المكان، نادوا عليهما تحت جنح الظلام، ذهبوا بهما إلى جهة مجهولة لا نعلمها.

هلّ شهر رمضان، وفي تلك الأيام الفاضلة، تعرفت إلى بعض الشباب الوافدين حديثاً، بعضهم من حمص كانوا قد جاؤوا بهم من بيروت وآخرون من دمشق ومن مدن كثيرة ليس بإمكاني حصرها الآن.

وسألني أحد الجلادين يوماً عن الحذاء الذي ألبسه وقد أُعجب به:

– من أين سرقته؟

كانت الفرصة مواتية لأن أتفحصه، فبماذا أجيبه، وهبني أجبت، وعلى ضجيج الواجب الذي كانوا يؤدونه في الممر الضيق على بعض ضحاياهم الغارقة في الدولاب والماء، خلعت الحذاء، وأنا أنتقي كلماتي:

– إنه لك، إن أتيتني بما يفي بالغرض!

وكانت اللهجة التي أجبت بها لهجة غريبة عن أهل المنطقة، وفي شيء من التراجع:

– أنا لم أطلب الحذاء. ثم أردف سائلاً:

– من أي البلاد أنت؟

– من الأردن.

تهللت أسارير وجهه وهو يطري الأردن:

– حيا الله الأردن وأهلها، ثم أخبرني بأنه عمل بالأردن سنوات لا يمكنه نسيانها، أنبتت

في حياته ثمار الخضرة والحياة، أياماً كانت العلاقات بين البلدين في مقياس درجات المودة فوق الجيدة، كان ذلك قبل أن يأتي لتأدية الخدمة الإلزامية، ولم ينس أن يقدم لي اعتذاره عن ذلك السؤال الذي حمل صيغة الاتهام لي..

لم يكن الاعتذار دائماً في هذه الأمكنة هدفاً مبذولاً ينظر إليه بعين الرضى، ولقد أمعنت الاستماع بعناية، عندما رحت أتأمل إنصافاً لبعض الظلم الذي حاق بي، غير أن هذه المعاني لم تعد بذات قيمة، ما دامت المسائل هنا نادرة التآلف في ذروة العقد وحلولها.

فماذا كانت تجدي في عرفي وعرف غيري كل كلمات التسامح هذه، ما دام العويل المنبعث من الأرجاء الأربعة يصم الآذان على مدار الليل والنهار، وما دامت رؤيا الدماء على كثرتها لا تبعث في النفس شيئاً من الرحمة أو الشفقة، وما دام الظلام الكالح رديفاً لتلك الأقبية الرطبة العفنة.

لقد كادت مجموعة من السجائر عثر عليها أحد الجلادين بين أمتعتي، كنت قد حصلت عليها من أحد النزلاء، تركت معه سهواً، وعند غارة تفتيش مفاجأة، كادت هذه السجائر تكون موضع بحث وإدانة، لا موضع اعتذار وتسامح، لكنهم اكتفوا بمجموعة من السياط ألهبوا بها ظهري العاري، فشتمت السجائر وكل من دخن السجائر!! فلا موطن هنا للتسامح، ذلك أن كل جلاد يكشف في مثل هذه المواقف عن الوجه الحقيقي الصفيق لا الوجه المزيف الملون.

وإني لأزدري بدقة تلك الأنفة الزائفة التي يدعيها ذوي الجاه في مثل تلك الأفرع التي تغص بالبائسين، وما تلك الحركة الغريبة التي سرت في الصالون ظهيرة أحد أيام رمضان، وصوت ضابط التحقيق المناوب الذي هبط من عليائه على غير عادة، يلقي بأوامره إلى السجان الجلاد بألا يدع لنزيل المنفردة رقم "5" أي متنفس لا إلى دورة المياه أو ما سواها إلا بعد أن يتصل به شخصياً في المكتب، وهذه إضافة أخرى يتعذر على الإنسان من خلالها أن يلتمس لمثل هؤلاء أكثر من الازدراء والتحقير!!

لم يهادني الفضول طوال الفترة التي أمضيتها في فرع العدوي، ولا في غيره من أفرع الاعتقال، ومن أسفل البوابة الداكنة رحت أسأل النزيل الجديد المتمدد على الفرشة الجاثمة أمام بوابة منفردتي، ورأسه تماماً أيضاً عند الوجه الآخر منها، بعد أن تعرفت إلى لغز اعتقاله الدفين، الذي لم يكن ليتجاوز ذل التشرد والهزيمة والضياع، فهو مجند في جيش

التحرير الفلسطيني، المدخر لتحرير فلسطين كما هو بائن من اسمه، والذي يعمل بإمرة سوريا، قذفته أقدار حبه للدين إلى فرع العدوي هذا، مع أن الأولى بهم أن يذهبوا به إلى فرع فلسطين، ولقد فاتني يومها أن أسأل نفسي:

- لماذا لم يذهبوا بي إلى فرع الأردن مثلاً؟

ولو فعلت وسألت لكان السؤل منطقياً وجيهاً، ما دام لفلسطين - قميص عثمان هذا - فرعاً، فما وجه الغرابة في أن يكون لكل دولة عربية أو إسلامية فرعاً للتحقيق خاصاً بها؛ نستثني طبعا دول الغرب وإسرائيل فهذه في كل الأحوال شعوبها مجبولة من طينة أخرى مكتوباً عليها: أن لا مساس!!

الصالون قد عاد ليضيق بنازليه، وعند عتبة المنفردة التي أنا نزيلاً فيها، رحت أدير مع صاحبي هذا حديثاً أسأله من خلاله عن نزيل المنفردة المجاورة لي رقم "5":

- ما سر هذه الحركة الغريبة؟ وما سر نزيل المنفردة المجاورة؟ وسر الاهتمام الزائد من ضابط لا يهبط إلينا من عليائه إلا لمماً؟

ورحت ألح في استشفاف مصير هؤلاء المظلومين من أمثالي، لأنني إذا ما عرفت بعض الحقيقة أغنتني عن الجري وراء كل ما هو غائب عني، ولعل من الإنصاف ما يدفعني لأن أبدأ بمقولة غيري، وهنا تبدأ المأساة.. فيعلمني صاحبي بأنهم تمكنوا من اعتقال أحد قادة الإخوان في حمص، وقد تم ذلك في مطار بيروت مع اثنين من زملائه، وكان هذا المعتقل الجديد هو الأخ دريد الطش رحمه الله.

لم تكن المنفردة رقم "5" من المنفردات الاعتيادية التي يمر عليها الناس دون أن يتركوا على جدرانها أو في أرجائها بعض بصماتهم، فقد تواردت على المنفردة وجوه كثيرة، وفي عودتي من دورة المياه في إحدى المرات، وفي غياب عين الحارس السجان، أبصرت كتاباً لكاتب افتتن الناس بكتاباته، قد سجل عليه بخط عريض "الأعمال الكاملة لجبران خليل جبران"، كان نزيل المنفردة الجديدة قد ذهبوا به إلى التحقيق، وبقيت بوابة المنفردة مشرعة بلا إحكام، في اندفاعة جرأة جاءت كلمح البصر اقتحمت المنفردة، وقمت باقتطاع نصف الكتاب، ثم تواريت به تحت بطانيتي أقرأه مرات ومرات، أقتل من خلال مطالعته بعض الوقت الذي طال ظلامه، واكتنفه الملل القاتل، ولم أكن يومها لأعثر فيما اقتطعته من الكتاب

على ضالتي، فبعض الرمد في العيون خير من اجتماع العمى، وكنت كلما فتحوا عليّ منفردتي، أقوم بإخفاء هذا المحذور داخل الفرشة التي يبدو أن عمرها قد جاوز ربع قرن من الزمان دون أن يعملوا على غسلها أو تبديلها ولو لمرة، وبقي الخوف رفيقي طوال الأيام التالية خشية أن تأتي كبسة تفتيش، تعيد إلى الأذهان ثانية قصة من السوابق التي لا أعتقد أن بوسعي غفرانها أو نسيانها، ولعل عثورهم على السجائر بين أمتعتي في وقت رحل، كان كافياً لأن يدل على دناءة مسلكيتي في مقياس السجن والسجان، ومهما قيل، فأنا الضحية التي يجب أن تفكر بالعواقب، وما الذي أبقوا عليه لي كي أمعن في أخذ الحيطة له، أو الخوف عليه، ومع كل هذا بقيت أنتفض عند كل حركة لمزلاج البوابة، لا زلت أعتقد بأنني سأنجو، فعناية الله أرجو أن تصحبني إلى أن يأذن لي بالرحيل عن هذا المكان.

لا زلت ممسكاً بتلابيب قلبي أتجسس الوافدين والراحلين، ويصدق حدسي في نيتهم إطلاق سراح أحدهم، وهو في طريقه إلى بيروت، فأعلمه برقم الهاتف لبعض الأصدقاء في ألمانيا، راجياً إليه إن أمكن أن يفعل المعروف أو بعضه، وكان صادقاً، ظل صامتاً، ساكناً محتسباً حتى ارتحل، ثم أذن الرحيل من جديد، كان ذلك يوم 14 حزيران "يوليو" 1981م، ساروا بنا ميممين وجوههم شطر فرع التحقيق العسكري ثانية، يرافقني في هذه المرة كل من سعيد والمجند الملازم المهندس زياد عجاج رحمه الله.

العودة إلى فرع التحقيق العسكري

كانت حفلة الوداع في فرع العدوي العسكري محتملةً إلى حد ما بالقياس إلى مرات سابقة، لكن العودة بنا إلى أي فرع من فروع التحقيق بحد ذاتها كانت تعني التعاسة بكل معانيها، وما كان عنفوان الشباب عندي ليعطيني العنفوان والتحدي الذي يرافق الناس في مثل هذه السن الفائرة المبكرة، وما كنت أجهله عن نفسي، وما أنا مقبل عليه من مصير مجهول، كل هذه الأشياء كانت تدعو إلى الرثاء.

ما زلنا في شهر الصيام حين رحّلونا، وقبل أن يقدموا لنا وجبة طعام الإفطار مساء ذلك النهار من عام 1981م، راح السجان يلقي عليّ سؤالاً:

- من أين جاؤوا بكم؟

وكما لو أنه لا ينتظر الإجابة، أو لا يريد سماعها تابع موجهاً حديثه إلي:

- لقد نجوت، وكُتب لك البقاء!!

ما عادت هذه السخافات لتحرك فيّ ينابيع الأمل في البقاء، ولو لم تكن ثقتي التامة بحرمة الفعلة، لآثرت الموت على سماع مثل هذا الهراء، غير أنني لم أجد أبداً من ضرورة لمثل هذا التفكير، أمام قتلة وهبوا أنفسهم للإجرام، ومع تقلب الأيام كنت كلما التقيت بهذه الوجوه - وقد علتها قتامة المظالم- كنت أردد سؤالاً لغيري:

- هل الانتحار من أعمال الشجاعة؟

وسؤال كهذا لا يطرح بطبيعة الحال إلا على الذين لم يقدموا على قتل أنفسهم، وإلا هاتوا لي منتحراً أعهد إليه بالإجابة!

أعادوا إلينا عند المساء أماناتنا، إذ لم يبق فيها أو بينها ذا قيمة يمكن الاحتفاظ به، ولم يتوقف المجند الملازم زياد عجاج رحمه الله عن التحدث في صوت حزين:

- نحن أغنام تساق بالمجّان بين ذئاب للافتراس، ومن ينجو، يمضون به إلى الجزار،

تجلّدوا يا شباب، أيام وتنقضي، لا تيأسوا، اجعلوها رحلة إلى الله!

همس سعيد الخياط في سخط وقد وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة في إحدى ممرات فرع العدوي في انتظار تحويلنا إلى عالم آخر لم يبوحوا لنا باسمه، همس في سخط:

- ليس من المعقول أن يذهبوا بي إلى تدمر، لقد مزقوني إرباً، لم يعثروا لديّ على ما يخولهم حق إدانتي.

راح السجان يحرر لنا هذا المساء محضر الترحيل، وحين حضر أحد أصحاب الرتب العليا سأل:

- هل ينقص أحدكم شيء من الأمانات التي كانت مودعة عندنا؟

كنت على استعداد لأسأل عن السيارة، فبعض الغباء قد يحضرني حتى في أحلك اللحظات، ولم يزد في إجابته أن قال:

- ستجدها أمامك في فرع التحقيق العسكري، هذه الأمكنة لا اتساع فيها للسؤال عن الأشياء الكبيرة.

بعد أقل من ساعة كنا داخل عربة الموت، أنظر بازدراء من أسفل غطاء العين، من خلوة شاخصة بالبؤس في طرف من أطراف المركبة، إلى طرقات دمشق المزدانة بالأضواء الصفراء الباهتة، ما لبث الموكب بعد بعض الوقت أن توقف، كان البناء الذي توقفنا بإزائه محكم الصنعة، قد لفته أشجار الصنوبر الشامخة، وكأنها – وهي تلقي بظلالها علينا تحت جنح الظلام الذي كانت إضاءة المصابيح المعلقة الحزينة تبدده – على وشك أن تبكي بدموع الراحلين، وهي تعطينا بصيصاً من أمل الخائفين الباحثين عن الأمان. يغريك المنظر الخارجي، فإذا ما ولجته، التهمتك كل الفواجع حتى النخاع، فتجربتي فيه ما تزال ماثلة، ولأسياد المكان عليّ أيادٍ سوداء قاتمة، وما كانت الآية، التي علقت في أعلى المكتب الذي ساقوني إليه، من غير أن أدرك سر اختيارهم لها، والتي كتبت بخط رائع جميل، دوّن فيها ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، إلا الحجة الدامغة التي زادتني يقيناً واقتناعاً بجرأة هؤلاء الظلمة على الله وخلقه، وما كنت لأبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بكل سوء، ورأيتني وأنا أستعرض معاني هذه الآية كواقف في حلبة ترويض، أسأل نفسي وقد اختلطت الأدوار عن الظالم والمظلوم؟ وحين يعجزني الجواب، لا أجد لي مانعاً من البكاء، من فرط مصيبتي وفجيعتي وعجزي.

أيدينا نحن الثلاثة مشدودة إلى الخلف مكبلة في القيد الحديدي، وغطاء العين لم يفارقها طوال الفترة التي تركونا فيها جالسين نفترش الأرض، غارقين في ظلمة البصر وظلمة المصير، حيث وجوهنا إلى الشبك الحديدي وكان أشدنا بلاءً في هذا الاستقبال هو الأخ زياد عجاج رحمه الله، حيث انهالوا عليه لكماً وركلاً بتهمة أنه كان يصلي، وجاء تفسير الجلاد محمد سالم كما لو أنه كان تأويلاً سماوياً لا لبس فيه، يؤكد فيه على أن الهيئة التي ضبط فيها زياد متلبساً في الجرم، كانت هيئة صلاة، ولقد تحول طوفان الاتهام فجأة إلى طوفان كراهية وحقد، ثم أصبح ناراً تحرق البريء زياد ولا تحرق الجلاد، لأن الجلاد كان شعلة من نار تحرق الأخضر واليابس، وحين راح يهجم على زياد هجوم العاصفة، كنت أستمع إلى سيل جارف من الشتم والسباب وخلط في غير اختيار، وكان يردد أثناء ضربه:

- كنا نظن بأننا تخلصنا من هذه الوجوه الزفرة، فما الذي عاد بك؟ أما زلت تدّعي الجنون؟ سوف نجعل منك نموذجاً لكل المجانين!!

أشياء كثيرة تبدلت هنا على مدار ما يقارب الشهرين من غيابي عن هذا المكان، رحلت وجوه وحلت أخرى، فلقد انتهوا منذ أيام كما علمت من بناء الملحق الغربي، وهو عبارة عن مجموعات جديدة من الزنازين، الشيء الوحيد هنا الذي لم يطرأ عليه أي تغيير أو تبديل هو البركان الذي ينشر الرعب في أرجاء المكان.

لن يكون بمقدوري في كل أحوالي، ما سبق منها وما سوف يتلو، وسوف يأخذني التعب إلى حد اليأس، وأنا أحاول وصف هذا المكان، فالظلام الذي يلف العين والكرباج والجلاد مع الدولاب، أدوات في معتقدي إنها كفيلة بالإجابة عن كل ما طرأ وما سيطرأ من استفسارات.

بعد أن عادوا فجردونا من ممتلكاتنا، نادوا علينا، ثم أمرنا بأن نهرول منفردين في أثر أحد الجلادين، لعله كان يومها مالك، وفي منعطف على اليمين من الدهليز الطويل، التهمنا عنبر المنفردات الجديد، أودعت المنفردة رقم "23"، وعلى جدارها حديث الطلاء سجلت بأعقاب السجائر التي عثرت عليها من نزيل سبقني إلى هنا، كان يبدو أنه يعدّ أيامه باستخدام هذه الأعقاب، فطريقة ترتيبها كانت تشي بذلك، وبرمادها سجلت بخط بارز عبارة تنبئ عن الضيق الذي يكتنفني: "دوام الحال من المحال"!! فهل كان بوسع هذه العبارة أن تلجم ظنوني وبواعث شكوكي؟! لا أعتقد بأن الوضع الذي كنت أحياه، والظروف التي تحيط بي كانت

لتدفعني إلى الإيمان بهذه العبارة على إطلاقها، فلقد كان الخوف المقرون بالجزع يقتلني على مدار اللحظات والدقائق، لا على مدار الليالي والأيام فحسب.

ودخل عليّ السجان خالد ظهر يوم من الأيام كي يأذن لي بالذهاب إلى دورة المياه، فرأى العبارة، مع أنني حاولت إخفاءها وراء ردهة المنفردة الوحيدة، فنصحني بإزالتها، خشية أن يراها سجان حاقد فيوردني دفين حقده دار الهلاك، وتمنى لو أنني فكرت قليلاً قبل أن أشرع في كتابتها.

في حجرة الذاتية "الإدارة" القريبة من الزنزانة التي أنا فيها سمعت المذياع عند الغروب يتلو ذات يوم – وكان الوقت ما زال وقت صيام – يتلو الآية الكريمة من سورة الشورى:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾.

صدمني الفشل، وأجهدني التفكير في العثور على كسب صالح ليداي، وغارت رغائبي في الدعاء بعمل صالح، وفي البعيد القريب كانت تغشاني أطباق من الضباب الداكن، تلقي على نفسي الخربة أسباباً مضنية لمزيد من الكآبة، هنا أدركت بأنني إلى عفو الله ورحمته راغب، وألفيتني أجثو في انكسار المقر قد ركبته الذنوب، واختلجت في نفسي أحاسيس البوار والخذلان، ولم تفارقني هذه الخلائط حتى فاضت مدامعي.

ومرّ بي الحلاق الجلاد يوماً، فقادني إلى صالونه، حيث هناك جزّ شعر رأسي، وأزال بشفرته عذار وجهي الذي نبت غزيراً، مقابل خمس ليرات، قبضها مقدماً، وما كانت هذه الحلاقة إلا تتويجاً للمأساة، وذلك بعد أن التقطوا لي صورتان على هيئة الأشعث الأغبر، تذكرك بعتاة المجرمين، اختاروا معها الزمان والمكان، فعلقوا لي لوحة على صدري كتبوا عليها بخط عريض اسمي ورقم التسلسل الذي يعطونه لكل نزيل في دفاترهم، ثم أخذت الصور.

على الرغم من رغبتي الجامحة في التحرر من كل هذه المآزق، إلا أنني كنت ألوذ بالصمت، وأراه كان يلفني حين كانوا يعودون بي ثانية إلى المتفردة، وكنت كلما سرت في العنبر حركة، أهب واقفاً بانتظار ما هو آت، وباختفاء الجلبة كنت أستشعر عودة شيء من الحياة، فأنا ساحياً ولو لبضع ثوان من غير عذاب ماديّ، ولو على أسوء تقدير، فمتى يتوقف العمر، عل في توقفه راحة من بعض هذا العناء، إن لم تكن راحة من كل عناء!!

بينما أحاول من شق البوابة أن أستعرض مصغياً لهذا الطارئ الجديد في العنبر، اندفعت البوابة، ليقف أمامي بائع السجن الجوال كي يسألني:

- هل ترغب في شراء شيء؟

لقد ترك الخوف رأسي ساكناً لهول المباغتة، قد فرت الكلمات مني، بالكاد أعثر على أي إجابة!

صاح في وجهي ثانية:

- هل أنت أصم؟

- ما لبثت أن عادت لي حالتي الطبيعية:

- أرغب في شراء غيار داخلي.

لم أكد استلمه، حتى عادت الأقدام تخطو باتجاهي، ورحت أرقب المكان بعين الحذر، رافقني شعور طفل صغير يرتعش عما قليل سيضرب على قفاه، ثم دوّى صرير المزلاج، واندفعت البوابة، واندفع من خلفها السجّان، وراح يسوقني حاملاً ذلي وشعثي بكرباج غليظ في يده، يهويْ على ظهري من غير ما سبب فأهوي، ثم أعود فاعتدل مترنحاً تحت لهيب السوط، وأنا أجدّ السير صراخي وعويلي يطاول عنان السماء، وأصل إلى العنبر المقابل وقد صار لي من دمائي النازفة كسوة حمراء داكنة، ثم راح الجلاد كمن مسّه الجنون، يفتح أبواباً ويغلقها دون توقف، إلى أن وصل إلى بوابة لمنفردة مزدوجة، تعلوها كوّة قد غطاها شبك حديدي بإحكام، ومن أحد جدرانها ينبعث ضوء باهت بالكاد يجاهد عتمة المكان، وضع قدمه في ظهري وراح يدفعني إلى داخل المنفردة بقوة.

تنفست الصعداء، بعد أن أحكم الجلاد البوابة، وراح يبتعد بخطواته، تقهقرت إلى داخل المنفردة، ومضيت أتلمس ما بها من خلال الضباب الهلامي الذي كان يحيط بعيني إثر ضربة كرباج سقطت على أم رأسي، فلا شيء فيها يمكن رؤيته بسهولة، سوى كومة من بقايا آدميّ من أبناء حماة، شاب ممزق الأطراف، أشلاء قد أحاط بها الظلام، وحين بدأ الضباب في التلاشي عن عيني، كنا نحن الاثنين، شبحان من البشر في قعر هذه البئر المنقطعة عن الدنيا.

كان قد غاص برأسه بين كتفيه، وبين خاصرته والفخذ رأيت جرحه الهائج فاغراً فاه من غيظ الصديد الذي فاض في تدفق محموم، ما أن رآني وأحس بي حتى نفر بصيوت الحمل

الوادع يساق إلى الجزار:

- لماذا..؟ لماذا..؟ لماذا؟

لم أدرِ ماذا أقول، في الوقت الذي كان يزحف باتجاهي على يده وركبته، رحت أنظر إليه بعين ملؤها الأسى، كان يجاهد في رسم ابتسامة، لم يبق لها في عرفي أي معنى، قال لي رغم الألم:

- لقد جاؤوا بي من لبنان، هنا سقوني العذاب ألواناً، جرحي خير شاهد على مأساتي!!

انحنيت قليلاً على الجرح أتفحصه، لقد اتسع حتى ليخيل إليّ أن أي رباط أو لفافة تضميد لن يكون بمقدارها أن تحتويه، كان التهاباً فظيعاً، قد اجتمع فيه الصديد اجتماع الطين في ثقب الطوب المعطوب، غير أن ما كان يبعث على الاشمئزاز والتقزز، تعمّده الدائم إلى مسح الجرح وتنظيفه بالبطانيّات التي كنا نستخدمها للنوم، وكنت ألتمس له الأعذار، فقد ضنّوا عليه حتى بالأربطة واللفائف، وما تراه على الجدران من بقع الصديد المتعفنة كان يبعث على القرف حتى الغثيان.

كان منتوف الريش طاوياً بلا زاد أو عتاد، ولم أجد من الغضاضة - ولله المنة أولاً وأخيراً - أن أؤثره على نفسي، فقد كنت أحسبها من شيم اللئام أن تتنعم بشيء تملكه، في الوقت الذي غيرك أحوج إليه منك، فرميت إليه بالغيار الداخلي الذي اشتريته لتوي، ثم بقميص من تلك التي اصطحبتها معي يوم قدومي.

لم تكد الأيام الأولى تنقضي، حتى لاحت في الأفق بعض متاعبي مع هشام، والتي كنت أجاهد نفسي في تجاوزها، كان ينام النهار فلا يستيقظ، وبذا لم أجد فيه شيئاً جديداً يؤنس وحشتي ووحدتي، وحين أقوم بمراجعته في ذلك كان يرد في عصبية مزاج بائنة:

- ارقد، حاج بقى (بمعنى يكفي)!!

فأجيب في مرارة:

- حين يضمني القبر، سوف يكون هناك مزيداً من الوقت للرقاد!!

أتذكر أنني كنت أبحث عن حذائي، كي أتخلص من حشرة بعوض أيقظتني من سبات نومي وسبات قيدي، كان السجن يضج بهذا النوع من الحشرات المزعجة، وحين كنت أعمل على قتلها، استيقظ صاحبي على هذه الجلبة، ليبادرني دون أي مقدمات بقوله:

– يا أستاذ!! قديماً كانوا يقدمون الذوق على العلم!!

ثم انكفأ دون أن يزيد بعد أن جر الغطاء على رأسه وراح يعلو شخيره، كان لهذه العبارة وقع الخناجر في نفسي، وتنكرت محنتي فآثرت الصمت، ولم أعلق. مثلما صدمتني عبارته تلك، جاءني سؤاله المرير بعد أيام، فيه اجتماع الاتهام والريبة عن السبب الذي دفعني للتبرع له "بالغيار الداخلي والقميص"؟!

– نحن نستدفئ بالهدايا، إذا ما علمنا بأنها جاءت من قلب صادق، فهل كانت تلك الأشياء التي أعطيتني إياها خالصة لوجه الله تعالى؟!

جاء السؤال مفاجئاً فيه اتهام لم أجد له ما يبرره، ولم يكن بودي أن أجعل من ردي تناطحاً، أكسر به القرن والرأس، بل أردته إجابة لفك تلك الوعكة المزاجية الممجوجة، ولم أجد مندوحة من التصدي لهذا الاتهام الذي جاء بائساً مريراً، فقلت:

– كي أستدر ثقتك، فإذا ما وثقت بي أدليت لي بمشكلتك، وبعدها أستطيع أن أستدرجك كي تدلي لي بالمزيد من المعلومات، أقوم بنقلها بعد ذلك للمحقق!! والحال عندك سيان في أخذ الحيطة والحذر، كان ذلك عندي أم عند المحقق.

ثم بكيت لقدري الذي رماني بمثل هؤلاء، وتمنيت من الله أن يهيئ لي من الأسباب ما أستطيع درء هذا الواقع عني ما استطعت، بل تمنيت لو أنهم عادوا بي إلى المنفردة، فهذا الحديث كان وقعه عليّ أشد من البقاء وحيداً بين جدران مهما ضاق عليّ اتساعها، فهي بلا شك ستكون أرحب من شريك يزيدك تنغيصاً فوق ما أنت فيه من تنغيص!!

مضى أسبوعان على هذا الحال، كنت أشعر بأنني مع صاحبي هذا كما لو أنني في زنزانة داخل زنزانة، ولم يعد يأتي الرجل بأي إشارة، فلعله فهم ما أعني، ولعله لم يفهم، فالأمر عندي سواء، غير أن الشيء الذي لن أنساه، هو انخراطي في بكاء مرير، تذبت فيه قدري الذي ساقني لمقابلة هذه الصور الداكنة من البشر، وتمنيت على الله أن يهيئ لي من الأسباب ما أستطيع من خلاله دفع هذا الشقاء الذي يجلبه حتى الأبرياء في مثل هذه الأمكنة، بل صارت كما أسلفت لديّ رغبة أكيدة في إعادتي إلى المنفردة التي ما عدت أريد أن أرى فيها غيري، ولم أفلح فيما تلا من أيام قليلة في العد، لكنها ثقيلة بطيئة في التحرك والتبدل، لم أفلح في نزع فتيل سخطي، مع أنه كان من الأجدى أن أنسى، فكم هي المصائب كثيرة، والتي

لا تكاد تخبو إحداها بأوارها حتى تنطلق أخرى أشد هيجاناً لا طاقة لي على تحمل تبعاتها! انتابني شعور بأنني ربما كنت ظالماً لهذا الشاب، في إعطاء حكمي هذا عليه، لكن الأيام كشفت لي فيما بعد بأن كل الذين التقيت بهم، كانوا لا يتجاوزون في نهاية المطاف هذا الحكم وزيادة!

في نهاية الأسبوع الثاني عادوا فنقلونا إلى منفردة جماعية، وها أنا ذا ثانية بين أناس لم ألتقيهم من قبل، ما أن دلفنا بوابة هذا المكان الجديد حتى هبّ الحضور لاستقبالنا، فتعانقنا وكأننا أصدقاء العمر نلتقي بعد طول غياب، وكان عدد الحضور لا يزيد عن تسعة أشخاص بمجيئنا صار العدد أحد عشر، ما لبثنا أن ضمتنا أُلفة عجيبة.

كانوا خليطاً من مشارب مختلفة متعددة، يحملون في صدورهم كل شيء إلا الضغائن والأحقاد، وكانوا جميعاً مذعنين لأقدارهم، يتلقون البلاء بصبر جمّ لا ينفذ، في هذا المكان تعرفت إلى المحامي رياض عدّاي "أبو صالح"، ابن مدير غرفة التجارة في دير الزور، جاؤوا به بحجة التوقيع على بيان أصدرته نقابة المحامين تندد بسلطة الفرد، وتطالب بالإصلاحات، وكان برفقته ممّن وقّع على هذا البيان، نقيب المحامين السوريين آنذاك زكريا عبد الجبار رجل قد جاوز السبعين من عمره، وفي المكان إياه تعرفت إلى الشيخ الدمشقي محقق الكتب عبد العزيز السيروان، والتهمة الموجهة إليه أن أحد تلاميذه تبيّن أن له علاقة بالإخوان، كذلك تعرفت إلى الشيخ الإدلبي موفق الشيخ إبراهيم، بالإضافة إلى ضابط أردني متقاعد هو فواز جميعان، أُفرج عنه بعد قرابة عام ونصف من اعتقاله، وعدد آخر من الشباب.

إن نسيت من الأشياء الكثير لا أنسى تلك الأريحية التي استقبلني بها المحامي رياض عداي، فقد قدم لي غياراً داخلياً و"بيجاما"، وكان من المدخنين فأشركني فيما يملك من سجائر، أما المبلغ الذي أعطاني إياه فلا أذكره، أسأل الله له خير الجزاء، كنت أعلم بأنني مهما بذلت من جهد، فسوف أبقى عاجزاً عن أن أفيه بعض ما قدم، كان نحيلاً ذاهباً في الطول، حتى لتخاله قائم على العظم والأعصاب والجلد، كان سريع الانفعال في عصبية ظاهرة، إلا أن جوانب جليلة تبدت في شخصيته الفذة، رجل يحترم نفسه، فاحترمه كل من كان حوله، وكان كثيراً ما يسألني علي صغر سني وقلة تجربتي:

- لماذا أجبرت الدولة الناس على الثورة؟ ما الذنب الذي جنيته أنت حتى يقوموا باعتقالك؟

فتأتيه إجابتي عفوَّ الخاطر:

- حين تقوم الدولة بسلب الناس كل ما يملكون، حين تسلبهم الأمن والأمان، ما الذي تبقيه لهم كيلا يثوروا؟

وهو يهز رأسه مبتسماً في تأمل مفرط كان يردد:

- لا عليكم لن يطول بكم وبنا المقام، غداً إن شاء الله مع تباشير الفجر يأتي الفرج!

أما موفق ابن محافظة إدلب فقد استمر في صمته لا يتكلم، وكان يرقبني غير مصدق، كما لو أنني الوحيد الذي تجشم عناء هذه المغامرة المذلة البائسة، وحين تجرأ أخيراً ونطق، سألني عن الفترة التي أعتقد تغيّر الأوضاع والأحوال فيها؟! كما لو أنني أرجم بالغيب، وما كان في اعتقادي أنه يقصد الفترة الزمنية التي سنقضيها وراء القضبان، كان يبدو - برأسه المستدير، والحمرة التي يضرب إليها لون شعره، وبياض جلده وعيونه القاتمة الحزينة، تهيم على محيّاه ابتسامة روحانية باهتة، وكان هزيلاً، مسلوب الإرادة، قد خضع لقضاء الله وقدره - كخارج لتوه من حلبة مصارعة خاسرة.

كان للقائي ببعض شباب الأردن حين قدومي إلى هذا المكان تخفيفاً لدواعي القنوط التي ملأت نفسي بالإحباط، وذلك حين التقيت بفواز جميعان ظهر ذلك اليوم، شعرت بنوع من التعزية والسلوان، كان طويلاً في غير قصر، قد ارتدى قميصاً تركه مفتوحاً ليكشف عن صدر بانت نتوءات عظامه، ضابطاً قد أعفي من كل المهام المطلوبة، أو في كلمة أدق، ضابط مُسرح من الجيش، بدت عليه علامات الجد والصرامة التي قلما تجدها إلا عند العسكريين؛ لقد نفض لي في جلسة امتدت إلى وقت متأخر من الليل قصة ماضٍ شابه كثير مما يصيب الشباب في سني مراهقتهم المبكرة، قضاه متنقلاً بين دمشق وبيروت، وإنني لأعجب لحالي اليوم إلى حد السخرية، وقد ذهبت بواكيري مع شهواتها ورغباتها، كيف كنت أصغي لمثل هذه الحكايات، ولا أكاد أجد لها وجه مقارنة مع عشرات، بل آلاف الفجائع التي لا تدخل في حسابات الأبرياء، لأنني تيقنت لاحقاً أن هؤلاء هم أهل البلاء، وأصحاب السبق والمبادئ، الذين تتعلق قلوبهم دوماً هناك، ولئن سألتهم إلى أين المصير؟ جاءتك الإجابة، إلى

اللهِ، إلى جنة عدنٍ عند مليكٍ عدل مقتدر!

كانت هذه الفترة تضج بعدد من المعتقلين الذين قدموا بهم من بناية سموها في ذلك الحين بناية القزّاز بدمشق، وحين وقفتُ على الحكاية، علمت بأن المخابرات رابطت في هذا المبنى أياماً طويلة، يمسكون بكل من يمر بالبيت، وزاد عدد المعتقلين الذين جاؤوا بهم من هذا المكان عن المائتين، فأقف من هذه الحكاية موقفاً عجيباً، وأعيد الاستفسار مرات عديدة، فلا أكاد أرى للعصابة الحاكمة أي وجه حق في احتلال البناية كل هذه الأيام، مخفية عناصرها خلف الأبواب، ليروعوا الأبرياء، ويقوموا بالتنكيل والاعتقال من غير حسيب أو رقيب!

انتفضت على جراحي الدامية، أنشغل بها عما سواها، وطفحت نفسي بنقمة عارمة على كل شيء، وعُرضت لي صورة والدي وإخوتي في رحلة العمر المرتحل، فأكاد أعض أصابعي ندماً، وتمنيت لو أن للزمن دورة إلى الوراء، كي أعود وأختار، ثم راحت الليالي يطوي بعضها بعضاً، أرقب وجه فواز المستطيل كصفحة بعضها مكتوب عليها، وبعضها بانتظار الكتابة، وأستمع إلى جلبة الأصوات المستغيثة في الدهليز المعتم، وهي في الطريق إلى المجهول، جلبة بالكاد أن تتوقف ولو لبعض يوم، وأنا واقف أودع بعض الراحلين، فيلازمني شعور المخنوق بعد أن اكتنفته الأحزان السّرّمدية التي لا تنتهي.

خفت أن يأتيني الدور يوماً، فيلتهمني المجهول الذي يلتهم كل هؤلاء، وجعلت بقية الأيام أمعن التفكير في هذه النازلة، فأرى أولها العذاب وآخرها العذاب وأوسطها العذاب، حياة عجيبة تلك التي نحياها، نبدأها بشد القماط وننهيها بشد الرباط!

منذ ذلك الحين بدأت أستمع إلي ما يروى لي عن قوافل الترحيل إلى تدمر، ذلك السجن الأسطورة، وكانت أيامي التالية أيام توديع للراحلين إلى هناك.

تمتّنت العلاقة بيني وبين فواز، فكلانا من الوافدين على هذا البلد المضياف، ولكم جلسنا معاً نرتب مستقبلات أيامنا إذا ما جاء الفرج، ومع مُضي الأيام أصبحت أعي يقيناً بأن بقائي في هذا المكان قد يطول، وذلك الذي لم أستطع يومها أن أبوح به لأحد!!

كانت حجرتنا هي المكلفة بأعمال "السخرة" حيث كان يقوم أبو عبدو وهو من حلب بمساعدة آخر في توزيع وجبات الطعام بين الزنازين، وكثيراً ما كان يأتينا بأخبار بعض المعتقلين الجدد، من ذلك عودته لنا بفتوى من الشيخ هاشم المجذوب أحد كبار علماء دمشق

المشهورين بالتقوى والصلاح، الذي دست المخابرات من يستفتيه في الطائفة "العلوية" فلما أجاب الشيخ السائل، لفقوا له تهمة ساقوه بموجبها فيما بعد إلى "كهف تدمر العسكري"، عاد لنا أبو عبدو بفتوى الشيخ هاشم المجذوب وكان الوقت ما زال وقت صيام يفتي لنا بإجازة تبادل صدقة الفطر فيما بيننا.

لم أشأ أن أكون أنانياً في العمل التطوعي "أعمال السخرة"، والمكلفة بها الحجرة الجماعية التي نأوي إليها، والتي كان يرأسها القادم من بناية القزاز المجند أبو عبدو الحلبي، بالوجه الذي تساوى مع بقية الوجوه في الشحوب، والأعين الزائغة، وروائح العرق الفائحة من الأجساد المنهكة تكتم الأنفاس من كل ناحية، ومن حولنا رجالات المخابرات الغلاظ القساة الذين لا يرحمون بسياط التعسف، يحملونها في أيديهم، يذيقوننا بها أشد أنواع التنكيل، ناهيك عن أقذع الشتائم، في هذه الأجواء الموبوءة بكل شر، فلم أشأ أن أكون أنانياً في المساعدة في عمل سخرة تنظيف الأواني، وكان أبو عبدو يشارك أيضاً كما أسلفت في توزيع الطعام على الزنازين في مختلف العنابر، ومن هناك كان يأتينا بالجديد من الأخبار.

يرحل رمضان، ويحل العيد الأول، ومع التكبيرات التي كنا نهمس بها همساً، كنت أشعر بأننا أموات في صورة الأحياء، في كل زاوية من زوايا الحجرة انفرد كل بنفسه يبكي ويبتهل، وكان اليوم بالنسبة لي خليطاً من الأحزان والذكريات، لا حاجة كي نسأل إن كان للعيد شيئا من البهجة؟ أو أن أحداً من المسلمين في خارج هذه الأمكنة لديه إحساس العيد وبهجته؟ فأكاد أمزق شفتي ندماً تارة وأسفاً تارة أخرى وأنا أهز رأسي مردداً:

– هل أحداً من الناس يدري، أو يريد أن يدري، بأن هناك بؤساء غيبتهم سجون الظالمين، أو طوتهم أتربة هذه الصحاري المترامية المقفرة، فركونهم إلى الجهل بهذه الأمور يضفي عليهم راحة - ولو مؤقتة- لا يريدون أن يستيقظوا منها، حتى يأتي دورهم، عندها يدقون كفاً بكف، متبرمين بهذا الأمر الذي آلو إليه، قد أخذهم الندم، حين لا ينفع الندم، ليتنا عملنا ولو شيئاً، ثمّ تطوف بي الخواطر الدافئة في غير ما فائدة، إلى حيث الأحباب والأصحاب الذين خلفتهم هناك في "فرانكفورت" و"دارمشتات"، وحجرتي البهيجة التي حنت عليّ بؤسيّ وشقائيّ ولو لأيام، فترة يحسبها المرء من الزمن المقصوص، وأتذكر صباحي على طرف الهاتف الآخر يأتيني صوته وكأنه ينعى لي الحرية.. "لن تعود".

كنّا نكبّر تكبيرات العيد في أصوات مبحوحة مخنوقة، فيها إختلاط الدموع والأشواق والحنين.

مساء العيد، حيث النهار لم يبرحنا بعد، حصلت قصة طريفة، كان الشيخ السيراون مريضاً، وكان كلما مر الممرض بنا رمى له بقرص من الأسبرين، يرمي لنا بالأقراص المسكنة في قرف زائد، ونظرة تكبّر تستشعر معها الذلة والضعة، وكان الممرض الجلاد يأمرنا بتناول الأقراص تحت إشرافه، طلب إليّ الشيخ أن أحتاط له بقرص، أحاول إيهام الممرض بأنني تناولته، أخفيه داخل ثيابي بطريقة ما، إذ أن قرصا واحداً لا يكفي لتسكين آلام الشيخ، وكانت الخطة، فأتسلم القرص، لكن الممرض في هذا المرة كان يتبعني بطرف حاقد خفيّ، فيصر على تفتيشي، ويكتشف عدم تناولي للقرص، ويقف أبو صالح ومعه بقية الحاضرين يستجدون الجلاد العفوّ عني، فاليوم هو يوم عيد، والصفح من شيم الكرام، كانوا كمن ينفخ في قربة مثقوبة، فقد زاد ذلك الجلاد إصراراً على تلقيني درساً لا يُنسى، وأترك بقية الحكاية كي يحار فيها أصحاب الحجى، فما هو آت أعم وأغم.

استشعرت الفجيعة، كنت يائساً، أرقب ما حولي في ذهول وأسى، وجاءت قائمة طويلة من الأسماء لتُتلى علينا عندما حلّ الظلام، تماماً كما يفعل اللصوص، وقمت مع من قام نودع أحد الشباب من أبناء حلب، كان اسمه أحمد، هذا كل ما بقي في ذاكرتي من اسمه، وكانت الفرصة جدُّ ضيقة، بالكاد أن تظفر بكلمة وداع، فُتح لأحمد الباب، وخرج إلى حيث غيبة لا أظن بأنني سألقاه بعدها، وهمس موفق في أُذني وقد بدت الدمعة مترقرقة في عينيه:

- دفعة جديدة إلى تدمر!!

* * *

ماذا كان يعني أن تلتقط بيدك شيئاً من طعام ساقه الله من غير قصد منك إليك؟ اسألوا بالله عليكم طوب الأرض إن كان ينطق، اسألوا بالله عليكم شجر الأرض وحجرها وبشرها، فلعلها إن لم تجبكم جهاراً أجابتكم اعتباراً، وإلا فاسمعوا الحكاية:

في إحدى المرات أثناء فتح الحجرة علينا كي نقوم بغسل الأواني التي نستخدمها للطعام، وبعد الانتهاء من قضاء الحاجة في دورة المياه، وككل الأيام شرعنا في ذلك اليوم نقتسم البؤس اقتساماً حقيقياً، حمل كل منا نصيبه دون أن يجأر بالشكوى، أو أن يبدي أي شكل من

أشكال التذمر، ولو شئنا فعل ذلك فلمن بعد الله نشكو؟ في طريق العودة إلى المهجع الذي يؤوينا، حانت من موفق الشيخ التفاتة للحجرة المجاورة، فإذا بيد أحدهم تقذف لنا ببعض الأطعمة، عبر نافذة صغيرة في الباب، وحين همّ موفق في التقاطها، صادفت ذلك مرور مدير السجن، وهو ضابط شركسي ينادونه أبا نزار والذي كان الدهن فيه يتراكم بعضه فوق بعض، فشاهد موفق وهو يهم بالتقاط الأطعمة، فانظر يا رعاك الله إلى محاسن الصدف، وعلى رأي من قال رُبَّ صدفة خير من ألف ميعاد، لقد دفع موفق ثمن هذه المصادفة غالياً، وأدركت أن البلاء يساق مترادفاً لا يدفعه سوى القدر، نعم وأيم الله لقد سارت هذه اللحظات كسابقاتها وما يليها عوجاء فيها كل الاعوجاج، ليس فيها موطن لغير الدموع والعويل والصراخ، وكان لا بدّ من نازلة، وكيف تكون النوازل؟!

لم يطل الانتظار، حين اندفعت البوابة، وأطل من خلفها المعتوه محمود عاقل، ولو دُعيت إلى محكمة لأدلي فيها بشهادتي لأقسمت غير حانث بأن محمود عاقل هذا ليس له -شهد الله- من اسمه أي نصيب، لقد نزل هذا الجلاد المعتوه الذي سلطوه وابن عمه المعتوه الآخر علينا، نزلا مع الأسف الشديد بسياطهم وعصيّهم على زين شباب مهجعنا موفق ضربوه ضرباً مبرحاً حتى وكأنني كنت أستمع إلى عظامه ووقع تكسرها تحت لهيب العصيّ والسياط، دون أن أمتلك أو يمتلك غيري الجرأة في قول كلمة كفوا يا أبناء الفجور!!

لقد كانوا ممعنين في طيش عجيب، وكل شيء هنا عجيب، وكانت رعونة الجلادين تأتي كالزوابع، إلى الدرجة التي كنا نقضي بعدها الوقت الكئيب منطوين على أنفسنا، أما هذه الحادثة، فقد تركت كل منا مستلق على بطانيته، في ركن من الأركان الأربعة للمهجع الذي ثبتنا في سقفه ملابسنا المبللة، بانتظار تجفيفها، غارقاً - على الأقل أنا - في تأملاتي بانتظار الأمل الخادع الذي قد لا يأتي بل لعله لن يأتي.

لعل أشد ما كان يبعث على الألم، ذلك النقاش الذي يدور بلا مبرر بين أبو صالح رياض عدّاي، والشيخ السيروان، كان لهما طبعان ناريان، الشيخ السيروان ذا الطبع الناريّ الموقوت، أما الأستاذ عدّاي فذا طبع ناري مستمر، كانا يلتقيان على نقاش مسألة من مسائل الفقه التي أجهدت جهابذة الفقهاء، وكان لكلٍ منهما موقف ورأي يتعصب إليه، فإذا ما حمي وطيس النقاش، ألفيت شراراً ودخاناً يتصاعد من كليهما، ليحرق كل شيء، وغالباً ما كان ينتهي إلى شجار وقطيعة، وكثيراً ما كنت أتدخل للإصلاح بينهم، مستغلاً علاقتي الطيبة بكليهما.

لم تطل هدنة الأيام كثيراً، وأطلت المأساة من جديد، وتكشفت كل الخبايا، وأسرع البغاة فرفعوا السلاح من جديد، ومتى نكسوه حتى يرفعوه، ويطل مساء قاتم مظلم، وتتشط في الدهليز حركة، تنشط الغربان في تلاوة قائمةً من الأسماء، ونعق الدعيُّ في المساء، لتتم فجيعتي الأولى بحق في هذا المكان، فنادوا على موفق، وكنا نظن في البداية بأنهم سيخلون سبيله، لكننا فوجئنا بترحيله إلى تدمر، ذلك السجن الذي ما زال بالنسبة لي سراً غامضاً، وبذلك أكون قد ودعت أحب الموجودين إلى نفسي، وكان مساء رحيله حزيناً، حتى كنت لأخاله قطعة انتزعوها مني انتزاعاً.

ركنت إلى هذا الواقع الجديد، وشرعت أوطن نفسي على شيء من الأنس بوجود هذه الوجوه من حولي، وكان أكثرنا حركة ونشاطاً شاب فلسطيني قد جاؤوا به من الحدود الأردنية السورية، جاء مع زميلين له للالتحاق بالمنظمات الفلسطينية، وقد مضى على اعتقاله قرابة العام، وشى به مخبر كان ينزل في ضيافته في منطقة حوران، وكان ماهراً في تشكيل أحجار الشطرنج من العجين، الذي كان يستخرجه من لب أرغفة الخبز، ولم يكن هناك صحافة أو كتب، ولا ورق ولا أقلام، لقد كنا محرومين من كل حق مدني أو إن شئت أي حق من حقوق الحيوان، فكنا نقضي سحابة يومنا بممارسة هذه اللعبة، وكان المقابل الذي ألعب معه دائماً هو عبد الرحمن العطار من مدينة الميادين بشمال سوريا، كان آخر من تعرفت إليه في هذا المهجع، لم يتجاوز العقد الثالث من عمره، بشارب يتربع تحت أنف أشم، ووجه أبيض ممتلئ مستدير، وعينان واسعتان فيهما براءة ووداعة، مربوع القامة، يعمل في تجارة الأقمشة، قد اتخذ محل إقامة في منطقة الميادين بشمال سوريا، وكان المسكين مصاباً بكسر في ساقه، لم يتركوا له مجال نزع القضيب المعدني الذي تركه له الأطباء حتى يتماثل للشفاء، ومع قسوة الظروف التي كنا نمر بها، فقد كانت تغمره ساعات من السعادة والطمأنينة، ما كان بإمكاني أن أعثر لها على أي إيضاح أو تفسير، إلا أنه سر يهبه الله لمن يشاء من عباده الصالحين.

غير أن هذه السعادة لم تدم طويلاً، والأقدار تحتفظ لنفسها دوماً بالخواتيم، ولها الظفر والغلبة في نهاية كل مطاف، فقد أطلت علينا محنة جديدة، وذلك عصر يوم من الأيام – كان جو المكان خليطاً من الحر والرطوبة– جاءنا نائب مدير السجن أبو منهل في ذلك اليوم، وفي كلمات مقتضبة ألقى إلينا الأمر بأن ينهي كلاً منا علاقته بالآخر، ونهيئ أنفسنا للارتحال!

رافقني إحساس مضطرب مشوش غامض، اشتبكت فيه الزفرات الحارقة بالحسرات المحبطة، وكنت كالمحموم أهذي، كانت الدموع خير رسول يرسله كل منا لأخيه، ونحن نتوادع، في الوقت الذي تنحيت فيه جانباً بقفاز جميعان، طالباً منه أن يسامحني فيما إذا بدر مني ما يبعث على الإساءة، وأن يستر عليّ أي تقصير بدر مني عن غير عمد، ثم شددت على يده وطلبت منه أن ينقل خبري إلى أهلي، إذا ما فرّج الله عنه، فشدّ على يدي بدوره وهو يردد: "سوف تبقى في ذاكرتي أبدَ الدهر.. لن أنساك ما حييت"، ولم أنس أن أودع بقية الحاضرين، وشكرت لأبي صالح حسن صنيعه معي، ودعوت الله أن يجمعنا لقاءً خارج هذا المكان الظالم أهله، علني أقوى على رد بعض الجميل، وجاء السجان فاقتادنا، وانشغل كل منا بنفسه، في الوقت الذي التهمنا الدهليز، كان يلح عليّ سؤال في انتظار الإجابة، ترى أين ستكون المحطة التالية؟ ومن عساني سألتقي؟!

المهجع رقم "٦"

في فرع التحقيق العسكري، وعلى اليمين مباشرة، بعد أن تتجاوز غرفة الإدارة بأمتار لا تزيد عن العشرة، تقع مجموعة من المهاجع على طرفي الدهليز، يشرف كلٌ منها ببوابته على البوابة المقابلة في الطرف الآخر، ومن بين هذه المهاجع كان المهجع رقم "6"، سبقني إليه عبد الرحمن العطار دون علمي، كان مكتظاً بالبشر، ما أن دلفته حتى خُيّل إليّ بأنني أدلف حماماً من الحمامات العامة، أو مستشفى من مستشفيات أصحاب العاهات الناجين من حرب لم تضع أوزارها بعد.

كان المهجع مستطيلاً بحجم حجرتين متوسطتي المساحة، لا يتجاوز الأربعين متراً مربعاً، يأوون إليه كما تأوي القطعان إلى حظيرة الجزار، يتزاحمون بين مستلقٍ وواقفٍ وجالس، كما لو أنهم في محطة القطارات، بانتظار مجيء القطار كي يقلهم إلى المجهول، غير أنه لا يأتي، وكان عددهم يتجاوز المائة والخمسين، أكوام من البشر على وجوههم صفرة الموت، لا يكاد أحدهم يخلو من عاهة من العاهات، رؤيا الصديد والدماء صارت مألوفة وما عادت تبعث على الغثيان، ومع كل هذا لم تكن البسمة لتفارقهم جميعاً حين شرعوا في استقبالي، وفي الركن الأخير من صدر المكان، رأيت أكثر المتضررين قد افترشوا الأرض لا يقوون على الحراك، ومع أنني تعرضت لأصناف عدة من ألوان العذاب، إلا أنه من الحماقة بمكان أن أتجرأ هنا للقيام بعقد موازنة بين ما حل بي، وما رأيت من الوضع المأساوي لهؤلاء المساكين.

كانت المأساة تلفني كما كانت صرة أمتعتي تلف ما تحوي من الملابس، وبالقرب من البوابة التي أحكموا إغلاقها خلفي، جلست واضعاً الصرة تحتي، ذاهلاً عن كل ما حولي، قد شرد فكري وغيبني إلى حيث لا أدري، ومن بين هذه الجموع سمعت من ينادي عليّ باسمي، كادت الأرجل المزدحمة أن تدوسني حين سرت في المكان حركة مفاجئة، ما لبثت أن اشرأبت الرؤوس صوبي، وسرى همس بين الجموع كمن لا يصدق، ينقله الذي بجواري لمن يليه:

– أردني!! أرنني!!

فاضطررت للوقوف، لأنني صرت بينهم كمن هبط للتو بالمظلة من كوكب آخر!! ثم ما لبث اسمي أن تردد، وراح صاحب الصوت يقترب مني، شاقاً طريقه بصعوبة وسط الزحام، متخطياً بالحذر وشق النفس الأكوام البشرية المتراكمة بعضها فوق بعض، ما أن انتبهت حتى وجدته بجانبي، كان عبدَ الرحمن العطار فتعانقنا من جديد كما لو أننا ضعنا زمناً ثم التقينا، وهنأ كل منا صاحبه بالسلامة، ثم قادني بدوره متخطياً في حذر أكوام البشر المزدحمة ثانية، وهناك قدّم لي ابن قضيته شكري الشيخ موسى من أكراد الميادين، يعمل أيضاً في تجارة الأقمشة، لا زلت أذكر تلك الابتسامة النورانية المشرقة التي استقبلني بها، كان في مثل سني، متناسق في كل ما حباه الله من خَلق وخُلق، أجمل ما فيه تلك البساطة العفوية، وذلك الجلال الذي يكلل وجهه الأسمر، لا تعرف الأحقاد سبيلاً إلى قلبه، متعلق بالله، لسانه ذاكراً لا يفتر، بسيطاً في كل أموره من غير تعقيد، منذ أن التقيته ارتفعت بيننا وشائج من المودة والاحترام، حتى أنني لأذكره في كل صلاة وابتهال، سائلاً الله له ولجميع المظلومين المعذبين في الأرض الإنصاف والفرج، ولأمثاله الخير الجزيل مِّن غير انقطاع.

وأنا واقف أمام البوابة، شكري من أمامي، وعبد الرحمن عن يميني، الزمن مر ونحن على هذا الحال، إذ أن الشعور بفقدان الزمن في هذه الأمكنة شيء لذيذ ممتع، أبصرت رئيس المهجع واقفاً بجواري يذكرني بنفسه، فأعود برأسي إلى الوراء، كما لو أنني أبحث عن صورته بين صور كثيرة، بعضها اندثر فلا أثر له في الذاكرة، وبعضها ما زال خالداً باقياً ما بقيت، ثم صحت وكأنني عثرت عليه:

– آه.. يا لمحاسن الأقدار أأنت كسكين؟ ثم تعانقنا.

لقد كان اللقاء الأول في فرع العدوي، وكان سبب الاعتقال كما ذكرت حينها أن أحد الفارين من مطاردة المخابرات، فجّر نفسه داخل المحل الذي يعملون فيه، مصحوباً برفقة أخ يكبره، وابن عمه المريض الذي لا يستطيع تناول كل الأطعمة، فالمسكين مصاب بقرحة المعدة. ويحدد لي رئيس المهجع مكان المنامة، وكان النوم بالتناوب، ثلاثة نتناوب على مساحة لا يزيد عرضها عن شبر وإصبعين، يقف الأول على قدميه لمدة ساعتين، وعند قدميه يجلس الثاني فترة الساعتين، في الوقت الذي يجتهد فيه الثالث استدراج النوم فترة الساعتين

تلك، على جنب واحد دون أن يكون له أي فرصة في الحركة، فلا مجـال للحركـة والتقلـب لضيق المكان، وكان رفاق المكان يضحكون وهم يذكرونك قبل النوم، بوجوب أن تنـام إلـى جنبك كحد السيف بقولهم: "سيِّف كيِّف"، ثم على النائم أن يستيقظ ليقف، ولينام الجـالس عنـد رأسه، كي يتسنى للواقف أن يجلس، وهكذا دواليك مع بقية النزلاء على مدار الليل والنهـار، هؤلاء الذين تراصوا عن يمينك وشمالك كما لو أنك محشوراً وإياهم داخـل علبـة سـردين، فالوضع هنا يذكرك بيوم المحشر!!

أخذت أمور الحياة هنا تبين وتتضح بالتدريج، وألفيتني أضيق ذرعـاً بالسـجناء أحيانـاً كثيرة لا بالسجن نفسه، أعني بذلك هذا الذي يحيط بي من أرضه إلى سمائه، فأعتزل الكثيـر من الورى، وأقلل التحدث إليهم، يدفعني إلى ذلك كثرة انتشار العيون بيننا من المخبرين، ثـم جاء من بعد ذلك شتاء كالح حزين، زادت فيه وطأة المخبرين، وهـذا مـا أدى بـدوره إلـى انحسار الثقة ليحل مكانها وجوب توخي الحيطة والحذر، يدفعني لكل هذا ما رواه لي بعـض الذين التقيتهم في غفلة من خفافيش الظلام، كيف أن مخبراً، استطاع استدراج أحد الأبريـاء، ليعيد فتح ملفه من جديد، ولينتهي به المطاف إلى حبل المشنقة!

هكذا كان الحال والمآل، فالتعذيب لم ينقطع، ورؤية العائدين من مكاتب التحقيـق كانـت مريرة، وأصوات الاستغاثة التي تطاول عنان السماء، ما عادت تخمد أو تسـتريح، وإن كـان ولا بد، فللإغماءة ضاق صبر الاحتمال بها ذرعاً، وإلا فالموت الذي يمضي بالبائسـين إلـى رحمن رحيم، يشكون له بطش الطغاة المتجبرين، وظلم العتـاة المتـألهين، وامـتلأت الأيـام بالمهلكات من النذر، وصرت إلى ضيق لا يعلم مداه إلا الله، وبين مدٍّ وجزر كنت أدرك بـأن الدنيا خارج هذا المكان ما زالت عامرة بالحركة، وقد ظل الناس يواصلون حياتهم الاعتياديـة رغم كل المآسي، وكان لهذه الجموع من حولي التي التقت رغم أنفها على غير ميعاد، الأثـر الأكبر في تبدد اليسير من الخوف من نفسي التالفة رغم قراري في اعتزال الكثير من الخلـق، وما بعض القصص التي كنت أطلع عليها بين الحين والآخر، إلا المخدر الذي كان يسري في بدني، ليسلمني إلى الصمت المطبق في معظم الأحيان متجرعاً طعم العلقـم المـر الـذي لا يطاق، والذي كان بدوره على مرارته يأتي أحياناً سخيفاً مضحكاً في آن معاً، ولعل طرفاً مما سأذكره تباعاً يدلل على هذا الذي ذهبت إليه.

فُتحت بوابة المهجع ذات يوم، وما أكثر ما كانوا يفتحونها على مدار الليل والنهار، وكلما فتح الباب لذنا إلى الدعاء المأثور "اللهم إنا نعوذ بك من كل طارق، إلا طارق يأتي بخير"، فُتحت البوابة، اندفع – مجبوراً في غلظة اعتدناها من الجلادين لكل وافد جديد – رجل قد شارف على الستين من عمره فارع الطول، يهتز منه الصدر والأرداف مع كل حركة يتحركها، عريض المنكبين، تزين وجهه لحية بيضاء، فيها شيء من وقار، وإن كنت أعتقد بأنها طالت عن غير قصد، وأُدخل معه شاب، قيل بأنه ابن أخته، متوسط الطول، بدا شارداً مشتت الفكر، له شارب طال في غير انتظام، وما أن استقر بهما المكان، حتى عرّف الرجل المسن عن نفسه باسم أبو عناد، أما الشاب فلعلة كان يُدعى شلاش، كانا من شوايا حمص.

لم أكن في وضع يأذن لي بالسؤال، لكن الحكاية ما برحت أن جاءت من غير ما طلب، وكانت طريفة، وأي حكاية من حكاياتنا لم تكن طريفة! لقد استمعت إلى هذه الحكاية عشرات المرات، لكثرة ما كررها الخال – المندهش المشدوه المبهوت مما وقع – على مسمع كل من حضر أو وفد، من الأجاويد كما كان يقول.

خف زحام المهجع قليلاً، بعد أن طوى المجهول مجموعة من المُرحّلين، الذين مضوا بهم عصر يوم من الأيام، وصار بالإمكان أن يتحرك الناس، ويهجع من شاء لفترة أرحب وأوسع، وإن كانت إلى حين، وجاءت جلستي من غير قصد إلى جوار أبو عناد، قد اختفت جلبة الباكين المتضرعين، بعد أن أجهدهم طول الخوف والعناء، فاختطفهم النوم، أسند أبو عناد ظهره إلى حائط دورة المياه، وأنا جالس أمامه قد أتيحت لي فرصة فَرْدَ ساقي للمرة الأولى، ربما منذ دخولي إلى هذا المكان، ورفعت الأخرى، مكوراً يدي التي أسندتها إليها تحت ذقني، وأنا مصغٍ وكأنني التلميذ في حضرة المؤدب، ثم نادى على ابن أخته، وحين حضر التفت إليّ قائلاً:

– اسمع يا ولدي، أنت على الحياد، سأروي لك قصتنا، أنا وابن أختي هذا على أمر عجيب، احكُم – طال عمرك – بما تراه عدلاً، واسمع بعد ذلك من ابن أختي، قد تفيدني شهادتك عند المحقق.

مفاد القصة أن شلاش هذا وهو ابن أخت أبو عناد، ظهرت فيه بوادر رجولة مبكرة، من نشاط في العمل، واعتماد على النفس في كسب لقمة العيش، بما يشبه العصامية، مما كان له

أطيب الأثر عندي، والعهدة على ذمة الراوي أبو عناد، يضيف قائلاً:

- أخذت أرقب الأيام، وأرقب اندفاعته الحيوية، إلى أن جاءني ظهر يوم من الأيام يرجوني العثور له على شريكة العمر، ولن أثقل عليك بنيَّ في الحديث، سعيت له بالزواج من أجمل بنات العشيرة، وأحسنها خلقاً وسيرة، ولم يزل حبل الود والوفاء بيننا موصولاً، إلى أن ساقته المخابرات بتهمة تهريب وتجارة الأسلحة أثناء غيابي في رحلة من تلك الرحلات، التي أغيب فيها أياماً في تجارة لي، وفوجئت عند عودتي بالكمين الذي نصبوه لي على حين غرة، ولما التقيت هذا العاق في فرع التحقيق العسكري بحمص علمت منه بأنه كان يعمل دون علمي بتهريب السلاح، ولما اشتدوا في تعذيبه - حسب زعمه- اعترف بالتهريب والاتجار، وحين طلب منه ذكر أسماء الذين اتَّجر معهم، أو باع لهم، لم يبق أحداً من أهل قريته إلا وأورد اسمه، سواء من باع له أو من لم يبع له.

وقطعت حديث أبو عناد لأسأل شلاش عن سبب اعترافه على هؤلاء جميعاً؟ فأجاب بلهجة بدويه صرفة:

- ذبحوني يا خوي!!

لم تنتهِ القصة بعد، فقد سألوه عن مجموع الأسلحة كاملة تلك التي باعها، ولعل ذاكرتي لا تخونني إن قلت بأنه اعترف بحيازته لقرابة "500" خمسمائة قطعة سلاح، بدأ يوزعها يميناً وشمالاً على أهل قريته، حتى إذا ما انتهى من التوزيع، بقي خمس وعشرون قطعة لم يستطيع أن يسندها لأحد، تركوا له مهلة يوم ليفكر ويتذكر، وفي اليوم التالي تفتقت عبقريته عن ذاكرة طيبة، فأخبرهم بأنه باعها لوالدته، ولم يترددوا في إحضارها من حمص حيث جرى معها تحقيق صارم. كان الخال أبو عناد يهدده دائماً بالثأر، ويسأله عن الذنب الذي ارتكبه حتى يقابل بنكران الجميل هذا.

أذكر مرة أنني كنت جالساً أستمع إلى حوار يجري بينهما - الخال وابن الأخت- أنهاه الخال بقوله:

- يا ناكر الجميل، ألم أسعَ في تزويجك من أجمل فتيات العشيرة؟ أقسم بالله إذا دهاني شر، لأجعلنَّ أولادي يقطعون رأسك هذا الذي تحمله بين جنبيك، والذي لا يحوي إلا التبن (علف الحيوانات)، ثم لأجعلنَّهم يبدلونه لك برأس بغل. يومها كنت أضحك ملء فمي، وأبكي ملء قلبي.

أعياني التفكير وأنا أجري خلف تفسير واضح لمثل هذه الظاهرة غير الاعتيادية لوضع هؤلاء البشر، وخفّت الأيام عني من لأوائها، وذلك بالألفة التي نشطت في الأيام اللاحقة بيني وبين الأستاذ عبد الباقي حسين، وهو نحيل فارع الطول، قد سقط شعر رأسه، من أكراد القامشلي، قد أنهى دراسته الجامعية في كلية الشريعة، كان مثقفاً واسع الاطلاع، وكان يومها يحضّر لرسالة الماجستير في الفلسفة، هادئاً مجيداً لفن الكلام، يعمل في الشركة المتحدة للتوزيع والنشر، وكان مقرها يومئذ في بيروت، قدموا به من هناك، وكانت التهمة الموجهة إليه إخوانية، لعلاقة تربطه بصاحب الشركة السيد دعبول والذي يزعم الحاكم بأمره بأنه من أقطاب الأخوان، ولقد تعرّض الأستاذ عبد الباقي لوجبات وحشية من التعذيب، كسرت أضلاعه، وشجَّ رأسه، علمت بأنهم جروه في هزيع ليل خانق إلى حجرته المنفردة، قد غاب عن الدنيا لشدة ما ضُرب وعُذّب، وقد غاص في دمائه التي راح يتخبط فيها، ولمّا استيقظ في اليوم التالي من غيبوبته، حاول أن يحرك أطرافه، أخذته الفجيعة، لقد ذهبوا بساقه التي تعطلت تماماً تحت لهيب السياط!!

لزمت مجلسه الذي بالكاد أن ينفض، أو أن يخلو من محب، ويمّمت وجهي إليه، جسم عليل، ورأس متوقد سليم، كان بدوره يرغب في مجالستنا، ولم يألُ جهداً في إسداء النصح لنا، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، يحذرني دائماً من غفلة الحديث فالمكان موبوء بخفافيش الظلام، لا سيما حين فشت يومها فضيحة شخصيتين لمخبرين، الأول من دروز سوريا ويدعى عادل، بدا لي بأنّه كان يعمل جاهداً للتخلص من تهمة انتمائه للبعث اليميني، وكانوا يطلقون عليه اليمين العفن، كان عادل يمشي بأذنه بين الناس، ومع أنه أقام الشبهات حول نفسه، إلا أن جبنه هذا وتخاذله في الوشاية بالأبرياء لم يكن ليشفع له عند الجلاد، فقد كان يُضرب من غير هوادة، وكان يعود محمولاً على البطانية، قد تغيّرت كل معالم وجهه وتفسخت قدماه، عند كل جلسة تحقيق، بعدها يشرع في تلاوة سورة طه، ولم أكن يومها لأفهم سر قراءته لهذه السورة التي كان يحفظها عن ظهر قلب، ودارت عليه دائرة السوء، بانتهاء مكائده، فألحقته الأيام بتدمر غير آبهين بكل ما قدم من خدمات.

كان عليّ أن أوازن بين حياتي كمعتقل لم يُبتّ في أمري بعد، تأخذني الريبة في كل شيء يدور من حولي، مع أنه لم يعد هنالك ما أخاف عليه، ومعتقلٌ يرى ما حوله من فتية في

مقتبل العمر يساقون إلى الجلاد بلا أدنى خبرة عمّا يدور، فأجدني قد ألممت بخبرة خمسة أشهر، أستطيع من خلالها أن أبدي بعض النصح، وكلما دخل فوج جديد من الوافدين كان الدوار يأخذ بي إلى منتهاه.

ثم قادتني الأيام كي أتعرف إلى وافدين جديدين، أحدهما جاء مدفوعاً بركلةٍ عصر يوم من الأيام، وحين أخذ مكانه بجانب البوابة واضعاً صرة ملابسه على الأرض أمامه، نحيلاً طويلاً، في رأسه الصغير استدارة، قد كست وجهه التجاعيد، تدور عيناه في محاجرها في تحفز من أُخذ رغم الحذر، تعرف إليه بعض الحضور في تحفظٍ تام، وحين حانت فرصة همس في أذني أحدهم:

- فلان.. من أشهر لصوص دمشق!!

لقد فسحوا له المجال ونال شيئاً من الاحترام، وصار مع الأيام النديم المقرب ممن آلت إليه رئاسة المهجع، وكان لماضيه الذي بدأ يتلألأ، سبباً في صعود نجمه سريعاً في دنيا مهجعنا!!

* * *

أما الوافد الجديد الثاني فكان يُدعى هيثم خطّاب من كرناز التابعة للصقيلبية من ريف حماة، وكان الوحيد الذي تنبأ لي مبكراً بالترحيل إلى تدمر، مبنياً ذلك على حدسه الذي لا يخيب والذي بالكاد أن يرقى إلى حد اليقين، مع أنني لم أدلِ له بأي حديث عن مجريات التحقيق معي!

كان حريصاً على ترتيب ملابسه مرتين في الأسبوع، يخبرني بأنهم يذهبون به إلى المحكمة تارة، وتارة كان يدّعي بأنهم يأخذونه إلى حجرة الزيارات لملاقاة أهله هناك، مع أنه لم يعد يوماً بما يثبت زعمه، كبعض الهدايا التي عادة ما يعود بها الزوار، وكان ذلك مدعاة للشك والريبة، وهذا ما كان يستدعي أخذ الحيطة والحذر من أي حديث يجري معه، وما أكد على ما ذهبت إليه، تلك العلاقة الطيبة التي بدت تربطه ببعض الجلادين، كالمعتوه عاقل، زد على ذلك أنه كان من القلائل الذين سمحوا لهم بإطالة شعرهم، وكان من أسباب حزني، تلك العلاقة التي راحت تجمعه بحسين بطحيش من الباب بحلب؛ حيث كان الأخير يقوم بتحفيظه بعضاً من سور القرآن الكريم، وما زال حسين يجتهد في تحفيظ هيثم، حتى جاءني يوماً، وأنا

في حضرة الأستاذ عبد الباقي، ليلقي إلينا خبراً يقيناً، استقاه من مصدر مُوثوق. يفيد بما لا يدع مجالاً للشك، صدّق ما ذهبنا إليه من عمل هيثم مخبراً، يتقصى أخبار الأبرياء، ويطلب إلينا حسين النصح في التصرف، هل ينقطع عن تحفيظه؟ هل يستمر؟ وكان الرأي أن يستمر في التحفيظ، من باب دفع الضرر المقدم على جلب المنفعة، ولأن في الانقطاع جلباً للشكوك والظنون، وهما أمران أضيق من أن يحتملهما المرء في هذا الجو الموبوء بالفجائع!!

هذا ما فعله حسين، لم يبدل ولم يغيّر، ولا زالت الأيام بيننا، حتى نادوا عليه مساء يوم حزين، فانسلّ من بيننا كمن يقوم على عجل لأمر أهمه، في طريقه إلى تدمر، منذ ذلك الحين لم تقع عيني له على أثر، لقد بقي هيثم يحفظ ويصلي حتى غادرنا الأخ حسين إلى تدمر، بعدها تحوّل هيثم إلى شيطان فيه تمرد شياطين الأنس مجتمعة، فانقطع عن كل بادرة خير، انقطع عن الصلاة، فلم أراه بعدها قائماً.

وشاءت الأقدار أن ألتقي في هذا المكان ثانية بمحمد خالد العبده ابن مضايا من ريف دمشق، وقد كنت التقيته في فرع العدوي، بالإضافة إلى السيد أبو عمر الديركي والذي أخبرني بأنهم جاؤوا به برفقة زوجته من "العدوي حيث كنا سوية هناك، وأفراد آخرين من كناكر قاموا بترحيل بعضهم بعد أيام قليلة من وصولي إلى سجن تدمر العسكري.

ألحقوني منذ اليوم الأول من وصولي بإحدى مجموعات الطعام، فالناس هنا موزعين إلى مجموعات، كل مجموعة لها أوانيها الخاصة قصعات لا يزيد عدد أفرادها عن العشرة، وكانت مجموعتي تحوي كل من "عبد الرحمن العطار، شكري الشيخ موسى، الأستاذ عبد الباقي حسين، سمير طحان، وهو طبيب من اللاذقية، وكان يرأس المجموعة، بالإضافة إلى محمد خالد العبدة، وعدنان بيرقدار، نكوان كركتلي، وآخرين كثيرون"، منهم من رحل إلى تدمر، ومنهم من بقي ينتظر مصيره المجهول.

كما كان المكان مكتظاً بالبشر، فقد كان مكتظاً بنوع من أنواع الجرذان الغريبة، حين رأيتها للمرة الأولى حسبتها فصيلة من فصائل الأرانب، وذلك لكبر حجمها، كانت مزيعة، ولقد برعت في كيفية تصيدها والإمساك بها، كلما سقط من السقف واحداً منها، وهذا ما كنت أقوم به على أكمل وجه تجاه النزلاء هنا، وكان المهجع يحتوي على جهازي سحب وطرد للهواء، أحدهما يقوم بسحب الهواء إلى داخل المكان ويسمى "شفاطاً"، والآخر يقوم بطرده إلى

الخارج وكان يسمى "طارداً"، وكانت هذه الأسطوانات معلقة في أسفل السقف، نقوم بنشر ملابسنا التي نغسلها عليها كي يتسنى لها أن تجف، كان لهذا الجهاز الساحب الطارد، أكبر الأثر في إعطاء هذه الجموع من البشر أمل استمرارية الحياة، وكان توقفه عن العمل يعنى لنا الموت والفناء، وهو يعمل بالكهرباء، فإذا ما تعطل التيار الكهربائي عن العمل، أصبنا بضيق التنفس وبالإجهاد الشديد الذي يكاد يذهب بالأرواح، ومن أصابه الشك في ذلك، فليسأل أتربة دمشق وضواحيها عن تلك الجثث الطاهرة، التي أرسلها انعدام وصول الأكسجين، وضيق المكان، في غفلة من الناس والزمان إلى حيث لا رجعة، وفي هذه الأسطوانات وبينها كانت تعيش هذه الجرانين، تتحرك بحرية في الأعلى، متساوية بحرية هؤلاء الجراذين من الجلادين الذين يدبون على قاع الأرض خارج المكان، في الدهليز المقابل ذي البوابات السوداء الكابية المطلة على المهاجع والزنازين المنفردة منها والمزدوجة، وبين هذه الأسطوانات كنت أقيم جسراً صغيراً من فردة نعل، أتركه موصولاً من أحد الأطراف ومعلقاً من الطرف الآخر، على شكل حرف "H" بالإنجليزية، وذلك لإيهام الجراذين بأنها جسر يمكن عبوره إلى الطرف الثاني، وحين يجتمع ثقلها في الطرف غير معلق، كانت تسقط، بعدها كنا نقضي عليها، والمضحك المبكي هو رؤية هؤلاء البائسين المتفسخة أقدامهم، وقد أجبروا على الوقوف، وهم يجرون مذعورين، قد أنستهم مناظر تلك الحيوانات وهي تزحف بدورها مذعورة جراحاتهم وأقدامهم المتفسخة، فارين يرجون السلامة، تماماً كما يفرون من بطش الجراذين من الجلادين خارج هذه البوابة السوداء، حتى يتم لي إلقاء القبض عليها، وكم كانت هذه المناظر في مثل هذه الأجواء الحافلة بالشقاء الدائم تبعث على الضحك والأسى معاً!!

ثم أطلت ليلة لا زلت أذكرها، سرت في السجن جلبة غريبة وشرعت أبواب تفتح وأخرى تغلق، وبدأ الصراخ في الممر الضيق يملأ فراغ المكان، صراخ وأسواط وجلد، أفواه تجأر، وجلادون قتلة يشتمون ويضربون بلا هوادة، في يد أحدهم قائمة بأسماء يتلوها، وجاء دور بوابتنا، فنادوا على مجموعة من الشباب، كان من بينهم شكري، عبد الرحمن، حسين بطحيش - رئيس مجموعة الطعام التي أنا فيها-، سمير طحان، أبو مصعب مدرس من اللاذقية، الدكتور محمود أبو صالح من حلب، ثم أمروا جميعاً بإنهاء علاقتهم بالمهجع، وتحضير حاجياتهم، وكانت تلك هي أول رحلة جماعية تراها عيني إلى تدمر، وأظنك يا

صاحبي في غنىً عن معرفة حالي، وأنا أودع الجميع، لا زلت أذكر عشية أن نادوا علي عبد الرحمن العطار، وشكري الشيخ موسى، الذي أسرني تماماً بمعروفه، ولقد كساني الحزن الشديد، وهو عاكف أمامي مع عبد الرحمن قبل الرحيل بساعات قليلة. قد جمعوا كل ما يملكون من نقود، بطبيعة الحال يومها لم أكن أملك شيئاً، ومع رفضي الذي لم يجدي، أصروا أن نتقاسم المبلغ بيننا بالتساوي، علماً أنهم لم يتوانوا دائماً عن دفعهم لكل فاتورة كنا نقوم بشرائها للمجموعة، وكانوا يدفعون حصتي دون أي منّة يتركون لي بعدها أي شعور يبعث على الدونية، بالإضافة إلى المداراة الواسعة التي كانوا يكلئونني بها أثناء وجودهم معي، وهذا ما زاد من لوعتي على فراقهم إلى درجة أنني بكيت، وبقي هذا الشعور رفيقي لزمن طال كلما لاح لي طيف أو خطر لي خاطر من ذكراهم.

لقد قُدّر مجموع هذه الدفعة بقرابة المائة، أعد لها زبانية السجن حفلة توديع عامرة بكل أصناف التعذيب، كان الجلد جماعياً، فيأتي الصراخ جماعياً، تعلو الاستغاثات، ثم تعود لتهبط رويداً رويداً إلي أن يخيم صمت، لا تلبث أن تخرقه السياط من جديد، وكان الضرب عشوائياً وعلى جميع أطراف الجسم، ومن بين الأصوات المستغيثة؛ كان يأتي صوت أحدهم مفجعاً بما للكلمة من معنىً:

– يا إلهي راحت عيني.. يا إلهي انطفأت عيني!!

كانت هذه الرحلة بمثابة المسمار الأخير الذي يدق في نعش روحي القانطة البائسة، إيذاناً في تهيئة نفسي إلى أيام لا يعلم سرها إلا الله، ولقد خلعت عليّ هذه الرحلة عقدة كنت في غنىً عنها، لقد خلعت عليّ وضعاً تخاذلياً عجيباً، لم أعد أملك معه الجرأة في ترديد التهمة التي وجهوها لي حتى بيني وبين نفسي المتهاوية.

كمية الطعام التي يقدمونها لنا قليلة رديئة، بالكاد أن تسند أصلابنا المتداعية، يتناوبون علينا بالرز والبرغل، أما اللحمة فقد صارت شهوة، وغالباً ما كان السجانون يسطون عليها فلا يصلنا منها شيء، وكنا نفر من كل هذا العناء إلى الصيام، وبذا يجزئ عن كل ذلك وجبة واحدة نأخذها آخر النهار، ولعلني أزيدك من الطنبور نغماً حين أعلمك بأن البيض صار من الأطعمة النادرة، والتي لا نراها إلا على فترات متباعدة، أذكر أن تلك الحسناء البيضاء كانت توزع على ستة من أفراد المجموعة، لكل منهم السدس، وقد تسألني كيف كنتم تقتسمونها!!

فأخبرك خبرة العالم الداري، بأنّ القسمة كانت تتم بالخيط، في غاية الدقة والمعايرة، طبعاً مع المسامحة بين المتقاسمين!!

أما الزيارات فمعدومة، وقليلون من أبناء الذوات هم الذين كانوا يحصلون على هذه الحظوة، لذلك كنا نواجه شحاً في النقود، ومن أراد الحصول على بعضها كان يتوجب عليه أن يعمل في "سخرة تنظيف الأواني"، تتناوب عليها المجموعات، وكان هناك من النزلاء من يستنكف عن القيام بهذا العمل الذي يجد فيه نوعاً من الدونية، فيؤثرون دفع خمس ليرات لمن يقوم بأداء هذا العمل من بعض الشباب عوضاً عنهم، وما أكثر ما قمت بهذه المهمة، حيث كنت أدرأ من خلالها عن نفسي ذل الفاقة والحاجة، والتي كنت أمقتها منذ سني شبابي المبكر.

لم أعدم برحيلهم خيراً، فلقد استأنست بقدوم السيد زهير دهموش من أبناء دير الزور وكان قادماً في زيارة من السعودية، قضاها في دهاليز التحقيق العسكري تحت طائلة استقبال مهيب كاد ينتهي به إلى سجن تدمر، وإن كان قد زارها مع إحدى الدوريات كي يقابلوه هناك بابن خالته الذي برّأه بدوره من التهمة الإخوانية الموجهة إليه، وليتم إطلاق سراحه بعد قرابة الأشهر الثلاث، مخلفاً لي كل ما يملك من ملابس ومال، بعث لي بها مع أحد السجانين، إلا أن رئيس المهجع الجديد أبو حسن وهو مساعد كان قبل اعتقاله يعمل في الشرطة، ولديه الخبرة الجيدة في جني المال الحلال! وهو من أبناء منطقة الباب بحلب، استولى على الملابس والمال عنوةً دون أن أراجعه في ذلك..!! وإن كان هذا لم يرق لبعض الشباب الذين ذهبوا ليكلموه في هذا الأمر، فرفض أي نقاش، وهدد وتوعد، وإن كنت اليوم لأجدني مدفوعاً لمسامحته من أعماق قلبي، بالرغم من كل ذلك، فقد كان طيباً على جشعه، فلم أسجل عليه أنه تسبب في إيذاء أحد من الشباب.

لعلهم قبل ذلك بأيام قد أفرجوا عن السيد كسكين رئيس المهجع السابق، مضوا به قبيل عصر يوم من الأيام بقليل، وسط شائعات قوية مفادها عدم علاقته بأي تهمة، من تلك التهم التي وُجهت إليه، ومع أنني كنت على يقين بأن تهمة كونه من منطقة الميدان بدمشق كانت كافية في نظر العصابة الحاكمة أن توردهُ لسنوات موارد الهلاك، تلك المنطقة التي أقامت ليل الدولة ولم تقعدها طوال فترة الأحداث التي شهدتها سوريا، أجل الميدان الذي يضج بالرجال، أي وأيم الله إنهم لنعم الرجال.

ليس من الإنصاف أن أتحول عن مقامي هنا، قبل أن أعرج فأنوه بإجلال إلى أبو أردان من إدلب، ذلك الشرطي الذي حمل على ظهره عبء السنين، لا أبالغ إن قلت بأن السيد أبو أردان هذا كان من أشد الناس بلاءً، يُعذب في كل جلسة تحقيق حتى نظن بأنه شارف على الموت، جلده العاري المصبوغ بالحمرة ودماؤه التي ما انكفأت تنزف، تذكرني بالأضاحي أيام الأعياد، سوف تبقى في ذاكرتي وأنا أشاهده محمولاً إثر كل عملية تحقيق على البطانية، لا موضع في جسمه تُرك من غير أثر للهيب سوط أو وقع كرباج وعصا، كان يُضرب حتى يشارف على الموت، يريدونه أن يُثبت في حيثيات التحقيق تسلمه لحقيبة مملوءة بالأسلحة والذخيرة، وأنه شريك في هذه التهمة مع أحد الشباب، ولله در الرجل كم صمد واحتسب، وكم عانى من أجل هذه الفرية، وما زالوا به حتى نقلوه إلى إحدى المنفردات وحيداً ليس له بعد الله من معتني، وبذا صار أبو أردان شيئاً من حكايات البؤس المضافة إلى عالم التغول اليومي الذي يمارسه صنف من البشر ماضون في إعلان الحرب على الله وخلقه، ومضى الرجل من دنيا وجودي، غير أن ذكراه باقية، وإلى الله المآب وعنده الملتقى والحساب.

ويطل يوم جديد مشفوعاً بقدوم أسامة محمود أردني من أصل فلسطيني، طالب يدرس في العراق، أهله المقيمون في الكويت ما زالوا في الانتظار لعلها سنة التخرج الأخيرة، يبزغ في سماء دنياهم، نجم أسامة الذي يرجون ويأملون، غير أن اجتياح إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢، لم يبق أمام الغيارى من شباب هذه الأمة أي خيار آخر، فجاؤوا على عجل تدفعهم النخوة، متطوعين للدفاع عن الأرض والعرض، وكان أسامة واحداً من هؤلاء، إلا أن دولة الصمود والتصدي والممانعة، تلقفته غضاً ندياً قبل أن تطأ أقدامه الميدان، فساقوه مخفوراً من الحدود العراقية السورية، بعد إنزاله من الباص الذي كان يستقله مع ثلة من زملائه في نقطة الحدود بأم الشامات.

وفي فرع التحقيق العسكري سيئ الصيت، أذاقوا المسكين من أصناف العذاب، ما دفعه للكفر بكل الثوريين في العالم، وكانوا يطلبون إليه أن يعترف بتوقيعه على بيان أصدره اتحاد طلبة فلسطين يندد باحتلال الجيش السوري لمخيم تل الزعتر بلبنان، مع أنه لم يكن عضواً في الاتحاد عند تحرير القوات السورية الغازية لمخيم تل الزعتر من سكانه الفلسطينيين البسطاء الفقراء المسحوقين! وحين استقر به المقام بيننا، هز الأستاذ عبد الباقي رأسه أسفاً وهو يقول:

- لم تعد وحيداً!

لقد بعث قدومه -على ما فيه من مأساة كنت لا أتمناها لأحد - راحة في نفسي، فقد امتدت بيننا قصة إخاء ومودة، وعرفت بأنه من مواليد مدينة نابلس بفلسطين، وأنه يدرس الاقتصاد وإدارة الأعمال في جامعة الموصل بالعراق، ما أراحني وأثلج صدري شروعه في تأدية الصلاة، هكذا بالفطرة وبعفوية تامة، وحين رحنا نمضي سحابة يومنا معاً، نتناول الأحاديث، نجلس ونأكل معاً، وكلانا يتمنى للآخر فرج الله القريب، عندها قال ابن مضايا:

- حقاً لا يحن على العود إلا قشره!

لم يعلق أي منا، غير أن الأستاذ أضاف:

- هي الأرواح جنود مجندة.

فتح الباب يوماً وأطل من خلفه وجه السجان المكفهر، لا تدري أهي سجية وُلد بها، أم حق مكتسب حازه مع الأيام، وطول الدربة، ثم صاح بصوت أجش:

- أين النعيمي؟!

جرى أبو محمد حافي القدمين باتجاه الباب وهو يرتجف:

- نعم، سيدي، أنا النعيمي!

صاح الجلاد:

- البس نعلك واخرج مهرولاً!

لبى مطيعاً والخوف يلبسه:

- حاضر سيدي.

وحين أغلق الباب، جاء صوت السجان كالرحى:

- بسرعة يا ابن الـ....

في الوقت الذي أخذت خطى أبو محمد في الابتعاد، لفت الأستاذ انتباهنا إلى ضرورة الدعاء لأخينا بالثبات، بينما راح البعض يتلو سورة يس على نية أن يخفف الله عن أبو محمد.

* * *

- هنالك أناس لم يقوموا بتسديد ما عليهم تجاه فاتورة السخرة بعد!

ثم أردف متابعاً:

- فالذين لا ينوون المشاركة، عليهم دفع الخمس ليرات كي نوكل الأمر لمن لديه الرغبة في القيام بهذه المهمة.

هكذا قالها أبو حسن شاويش المهجع في حزم، وكأنه يقولها للمرة الأخيرة، وقد نفذ صبره!

ورد أبو نعيم - أحد نصارى حلب، ممن شرّفوه بمشاركتنا هذه المحنة! بسبب سيارة مشحونة بعجلات كاوتشوك، كان ينوي تهريبها، والعهدة على ذمته كما روى- في سخرية وهو جالس، مادّاً ساقيه، ساندا ظهره إلى الجدار، وهو يتابع خيط دخان نفثه من سيجارته التي ما زال ممسكاً بها بين السبابة والوسطى:

- لا أحد ينوي الدفع، وفي يقيني أن الجميع لديهم القدرة على القيام بهذه المهمة!

ولم يزد أبو حسن أن قال:

- نأمل ذلك إن شاء الله!

لم يعدم أبو نعيم المال الكافي، كان يشتري به من يؤدي له أو عنه ما يريد من مهام، داخل ضيق المكان، أو خارج رحبته، ولم يطل به المكث، فقد تم الإفراج عنه لاحقاً، فالتهمة لم تكن تستحق المزيد من التحقيق والتدقيق، ما دامت في إطار الفساد العام، الذي يلف البلاد من أعلى هرم السلطة، إلى الدرجات الدنيا منها، وكان الله في عون البلاد والعباد!

عاد الباب ليُفتح من جديد، ولتداهمنا الوقائع، فالقادمون بهم من إدلب وريفها كجبل الزاوية مثلاً، كانت مناظرهم تذكرك بالمسلخ (مكان ذبح المواشي)، بالكاد أن تظفر بينهم على رجل معافى، لقد رأيت بينهم من سُلخت ساقه، تركوها بلا علاج، وكثيرون هم الذين سرت في عظامهم الغرغرينا دون أن يدركوهم بالعلاج المناسب، ولعزيزي القارئ دعوة إنسانية لزيارة هذه المناطق من مخلفات الحرب الكونية، كي ترى ذلك مجسّداً في عبد الباقي، وحمود، وآل الرضوان، وأبناء آل الصغير، وكثيرون تضيق بهم مساحة السجلات، واسأل هناك عن سفاح الإجرام في تلك النواحي إبراهيم العاصي والذي ما فتئ كل من أقبل من هناك يروي لك المآسي عن جرائمه التي لا أعتقد بأن الأيام ستقوى على دملها أو نسيانها.

في حماة معمل الكاوتشوك لصناعة إطارات المركبات، لا زلت أذكر كيف أنهم أدخلوا علينا كبير المهندسين هناك، شاباً حموياً كان يعمل في إدارة المعمل، ولم يطل به المقام بيننا، ليلة واحدة يتيمة أخذوه بعدها في اليوم التالي إلى حجرة التحقيق، ليعودوا به بعد أقل من ساعتين كالجثة الهامدة، يتردد فيه النفس بصعوبة، بالكاد أن أتعرف عليه، قد اصطبغ جلده العاري من أعلاه إلى أدناه، بحمرة داكنة، ودماء موغلة في الزرقة محصورة بين اللحم والجلد، وتبلغ المأساة ذروتها، بتوقف التيار عن الإرسال، وبتوقفه توقف الشفاط عن ضخ الهواء، وكأنه يأبى إلا المشاركة الصامتة في إضفاء جو الأسى على رحيل المهندس، فقد توقف القلب عن إرسال النبض، وتوقفت الرئتان عن إرسال أي نفس ينبئ عن أي بصيص للحياة، مات في صمت كما دخل علينا في صمت، ووقفت أشرف على تلك الجثة المزجاة أمامي، أنكره قبل ليلة يُعلمني بأنه مهندس يعمل في حماة، ولم يكن في الوقت متسعاً كي نسأل عن اسمه، حقا إن للموت رهبة، ولم أكد أصدق بأنه مات، كان كالحلم، كما لو أنه نائم بعد قليل سنوقظه، هكذا بكل بساطة قتله الإجرام العنصري الفاشي، ولمّا توقف تردد النفس، وأزف الرحيل، دققنا الباب، مضوا به بعدها إلى جهة لا نعلمها، غير أن الظنون باتت ترجح عند البعض بأن أتربة جبل قاسيون ربما كانت أحنّ عليه وأرأف من هؤلاء الطغاة، ولعلها كانت آخر مثوى يضمه في هذه الدنيا الفانية.

إن توقف التيار الكهربائي وانقطاعه هو الموت المؤكد لنا، وما أكثر ما كان الشفاط يتوقف عن ضخ الهواء، ولك أن تتصور وضع قرابة المائة والخمسين من البشر في حجرة لا تزيد عن الأربعين متراً مربعاً. ثلاث أيام بلياليها، نتناوب على ثقب الباب لأخذ نفس من الهواء الذي أعطاه الله للناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، من غير أن يسألوه، حتى هذا الحق البسيط، ما كنت أعتقد أن هناك من يعمل على حرمان الناس منه!!

لم أكن أنا الغريب الوحيد عن هذا المكان، كان معي خليطٌ من البشر، منهم من جاء من العراق، هؤلاء المساكين الفارين من ويلات الحرب الدائرة مع إيران، تجصبد في طريقها الأخضر واليابس، كانوا يعتقدون بأن لهم في سوريا مأوىً يقيهم سوء طالعهم، فإذا بهم كالمستجير من الرمضاء بالنار!!

إضافة إلى لبنانيين كان جلهم من طرابلس، تلك المدينة التي لم تخلُ من عبث حكام

الفصل العنصري في دمشق، وأتراك، وإيرانيين، وذكر لي بأن بعض الشباب جيء بهم من أفرع كانت تحتوي على معتقلين مسلمين من مختلف البلدان العربية والأجنبية.

الليل والنهار آيتان لهما ضوابط خارج هذا المكان، فالشمس بأشعتها تبدد ظلام الليل، والليل بحلكته يمحو آية النهار، أما هنا فليل سرمدي يبدد سكونه صراخ البائسين في قعر الدولاب (إطار المركبات الخارجي)، وتجاهد ظلامه المصابيح الباهتة المعلقة في أركان المهجع، كنا لا نعلم الليل من النهار، ولولا وجبات الطعام – والتي نادراً ما تأتي في موعدها – لاختلط الأمر علينا، لا أدل على ذلك من مرة قمت فيها من نومي على عجل، قد انتظم بعض الشباب في صلاة مكتوبة – لم يكن الأمر الظالم قد صدر بعد بمعاقبة من يصلي – فأسرعت إلى دورة المياه حيث توضأت ولحقت بالجماعة، ناوياً صلاة الفجر، ولكن الذي أيقظ الاستغراب في نفسي أنني أدركت معهم ثلاث ركعات، واعتقدت بأن الإمام قد سها في الصلاة، وما أن انتهوا من صلاتهم حتى سألت عن السبب فأخبروني بأنهم صلوا العصر!! ولم أعلق حيث أعدت صلاتي ثانية، بعدما تبين لي بأنني نمت بعد صلاة الظهر مباشرة.

لقد مضى زمن طويل في تحضير بعض الأعمال التي شغلتني عن الكتابة، فلم أستطع طوال قرابة الأشهر الخمسة بعد خروجي من تدوين حرف واحد، واليوم وأنا أعود ثانية لأتذكر المحنة القاسية، أكاد أرثي لهؤلاء الذين خلفتهم ورائي دون ذنب جنوه، أو جرم ارتكبوه، ولا زلت أذكر حلول رأس السنة الميلادية، فأصوات الرصاص نستمع إليها من خلف القضبان تلعلع في الخارج، وإني لأعجب لهذا القدر، كيف أن أُناساً في خارج هذا المكان يفرحون ويقيمون الاحتفالات والأعراس، بينما هنا للمآتم والتعازي سرادقات على الدوام منصوبة ما كانت لتهدم في يوم من الأيام!!

قليلون هم الذين كانوا يعودون إلينا ساعين من غرف التحقيق سيراً على الأقدام، لا أملك إحصائية وافية عن هؤلاء الذين ذهبوا ولم يعودوا، والعدد كما سبق وذكرت، أوسع من أن تحيط به دائرة ذاكرتي التالفة، وأغلب الظن أن لجبل قاسيون أو أطراف أخرى من ساحات المدينة المقفرة فضل إيوائهم تحت حنايا أتربتها.

كانت قائمة أو لوحة الحضور تمر بنا مساء كل يوم، وكان نائب مدير السجن، ذلك الحاقد المدعو أبو منهل هو صاحب هذه الوظيفة، وإن غاب فمالك أو أحد معاونيهم، وقلما

مرت تلاوة القائمة دون الانفراد بأحد الشباب أو أكثر، لتنفيس أحقادهم الطافحة، على أن العذاب الجسدي والنفسي الذي كان يقع علينا لم يكن له أي حدود، ولا نكاد نتجاوز وضعاً مأساوياً حرجاً، حتى نتأهب لاستقبال آخر، آهل بأصناف الإهانة والإذلال، وكانت المهاجع تتعرض بين حين وآخر إلى غارة تفتيشية مفاجأة، نُجبَر قسراً وظلماً تحت لهيب السياط والركل بالأيدي والأقدام على أنحاء مختلفة من أبداننا الهزيلة، على ترك أمتعتنا والانتقال إلى حجرة مقابلة، يتعرض بعدها المهجع إلى تفتيش دقيق، ليضبطوا "رقية" قد سُجل عليها بعض الآيات القرآنية، لقد عشنا فترة عصيبة، كان الخوف يلفنا جميعاً، ولما لم يتعرفوا إلى صاحب الرقية، هددونا جميعاً بالضرب الموجع، ثم أذن لنا أن نعود إلى مهجعنا.

فتحت البوابة يوماً، دلفها الجلاد المعتوه عاقل وكنت أظنهم قد جاؤوا به من أحد المصحات العقلية، كان لا يجيد حتى مجرد الكلام، أمرنا بالوقوف مدة ساعتين على قدم وساق، لم يكن بوسعنا أن نعارض، وكنا مجبرين على الخضوع، فنحن في الزمن الرديء، في المكان السيئ، للمعتوهين فيه سطوة وصولة. ثم عاد قبيل الظهر يسأل عن شيخ نظيف؟ كما قال، ولم يجرؤ أحد على الإفصاح عن نفسه، وبقي يسأل ويكرر معلناً بأن قصده شريف، فلديه أسئلة دينية تحتاج إلى بعض الفتاوى، ولما لم نَجد من دفع الضرر بُدّ، تقدم له أحد الشباب، كان يعمل إماماً للمسجد الكبير بالقامشلي، سجّل عاقل اسم الإمام، ثم التفت إلى رئيس المهجع متوعداً محذراً:

- هذا الشيخ يجب أن تبحث له عن مكان بالقرب من الباب، وإياك أن توجه له أي إزعاج.

كان النوم بالقرب من الباب أمنية كل النزلاء، لأن جوف المهجع يعج بالهواء الفاسد المضغوط، ثم عاد عاقل ذلك الأبله بحق هذه الكلمة وما تعني، فأقال رئيس المهجع ليعين مكانه الشيخ، غير أن الشيخ اعتذر عن قيامه بهذا الواجب!!

بقدر ما كنا نعاني من لؤم هذا المعتوه الأحمق، وبقدر ما كان يوقع من عذاب وأذى يتلذذ في ممارسته علينا، بهذا القدر وزيادة كنا نرثى لتلك البلاد التي يتحكم فيها أمثال هؤلاء!

بحق الأقدمية تقرر نقل مكان منامتي في اتجاه الباب بالتدريج، غير أن الوضع الجديد لم يرق لأقدم جار لي في المنامة محمد العبدة، لا يريد لهم نقلي من جواره، ليحل غيري هناك، فهو يُكنّ لي من المودة والمحبة، ما لا يمكن التفريط بها، حتى لو كان ذلك في الانتقال لبضع

خطوات، حين جاء شاويش المهجع أبو الحسن لترتيب الأمكنة، رفض محمد العبدة، وعمل على إقناعي بالبقاء إلى جواره، ويصيح أبو الحسن وهو مساعد قديم في الأمن العام.

– سوف يصبح صفوان جارك القادم، قُضي الأمر!!

بقي المكان المجاور لمحمد أياماً فارغاً، وأصبحت جاراً لفواز جمّال أياماً أخرى وبحكم الجوار علت بيننا بعض أواصر الصداقة، وفتح لي صدره، فعلمت بأنهم جاؤوا به لأيام خلت من منطقة ظهر البيدر بلبنان، منتزعينه من ثكنته العسكرية التي كان يؤدي فيها الخدمة الإلزامية، وهي المرة الثانية خلال فترة وجيزة التي يتم فيها اعتقاله. لقد صمد مع شريكه في التهمة أمام ما وقع عليهما من عذاب، وتكلل الصمود بالإفراج عنهما لاحقا كما علمت.

تعرفت في الأيام التالية إلى السيد خالد الرضوان مهندس مكانيك، يعمل في أداء الخدمة الإلزامية برتبة ملازم، كان أسمراً، إذا ما قمت بسبر أغواره ظننته صارماً في كل أموره، حتى لتخاله لا يعرف الابتسام أو الضحك، عيناه فيهما عمق المأساة، لا تبصره إلا محمولاً بين غرف التحقيق ومكان المنامة، لو وُزعت السياط والعصي التي سقطت على جلده وأم رأسه على مدينة بأكملها، لنال كلٌ منهم نصّيبه غير منقوص، مصابٌ بشلل خفيف لحادث سيارة تعرض له أيام الدراسة، يعيش بكليةٍ واحدة، متزوج وله – كما الآلاف هنا – أطفال صغار، بانتظار عودته سالماً كما هم بانتظار عودة آبائهم كذلك سالمين، لا يفتر الجلادون عن طلبه مرة على الأقل كل أسبوع يعودون به محمولاً على البطانية، أُغلق ملف التحقيق معه على تهمة مضحكة، مفادها أنه انقطع عن أسرته الإخوانية منذ منتصف الستينات وعلى وجه التحديد عام 1965 م، لم يشفع له هذا الانقطاع الذي مضى عليه خمسة عشر عاماً أمام إصرار الطواغيت على إرساله إلى سجن تدمر الصحراوي، ولعل إصرارهم هذا كان مبعثه، أن شقيق خالد رضوان والذي يُدعى وليد رضوان كان من قيادات الإخوان في منطقة إدلب، والذي علمنا فيما بعد، بأنهم أعدموه في السجن الصحراوي إياه بتدمر!!

لم يكد ينقضي شهر على آخر رحلة إلى تدمر، حتى جاءتنا قائمة جديدة، رحل بموجبها كل من السيد محمد خالد العبدة، وشاب معرّاوي يدعى سمير برفقة شقيقه، وجميع أبناء كناكر، ومجموعة لم أعد أذكر أسماءها من مناطق حلب وريف إدلب، وبعد أيام نادوا على اسم رجل نصراني متهم بالتهريب أشرت إليه سابقاً من سكان حلب يدعى أبو بشار حيث نقل إلى سجن القلعة المدني، ومن هناك قيل لي بأنهم أخلوا سبيله.

يوم التاسع عشر من تشرين الثاني "نوفمبر" نادوا على اسمي، فارتديت ملابسي على عجل وأنا أرتعد فرقاً، ترى إلى أين؟ وعلى الطرف الآخر من امتداد الدهليز، قادوني دون أن يضعوا لي غطاء العين، وهناك رأيت المحقق واقفاً بانتظاري، وجه إليّ سؤلاً واحداً لم يزد عليه:

– الدكتور مصطفى السروجي لماذا لا يعود إلى سوريا؟

زممت شفتاي، وهززت كتفاي، مبدياً جهلي بالأسباب التي تمنعه من الحضور، وبجرأة لم أعهدها في نفسي سألت:

– لقد مضى ما ينوف عن أشهر خمس، كانت كافية للتأكد من كل ما قيل عني ودُوِّن، وكنت أعتقد بأنكم ستخلون سبيلي على أي حال كان.

قاطعني دون أن يلتفت:

– عد إلى مهجعك الآن.

رضيت من الغنيمة بالإياب، لم يضربني أحد على غير العادة، وفاضت مدامعي وأنا أرى شباب المهجع يزحفون لاستقبالي مهنئين، شاكرين الله على السلامة وحسن الخاتمة.

أعترف اليوم وقد مضت رحلة الأيام مخلفة وراءها جبالاً من المآسي، قد كان هذا آخر سؤال يُطرح عليّ فيها قبل أن أترك مدينة دمشق مجبراً، بأنني كنت مغبوناً في هذه الصفقة الخاسرة إلى حد الغباء، لكنه القدر الذي ما كان له من دافع، ولا زلت أذكر السيد موفق وقد نفضت إليه بحكايتي، وما صدر عني من اعترافات كاذبة، لا زلت أذكره يطلب مني إلى حد الرجاء والتمني، أن أدق الباب طالباً مقابلة المحقق لأنفي وأكذّب ما أدليت به سابقاً جملة وتفصيلاً، حتى لو أدى ذلك إلى تعرضي لمزيد من التعذيب، وذكّرني بأن تجلدي وصمودي سوف يدفع عني رحلة تنتهي بي إلى سجن تدمر العسكري سيئ الصيت، وأيام حالكة سوداء قد تنتهي بي إلى حبل المشنقة بموجب المرسوم الجمهوري رقم "49" والذي ينص على إعدام كل من تثبت له صلة من أي شكل كانت بالإخوان المسلمين.

لم تكن الجرأة لتصحبني في دق الباب، سيما والصراخ من غرف التحقيق يتوارد علينا دون انقطاع، وبالكاد أن أتخيل دورة لهيب السوط ولسع الكابلات من جديد، والذي قد يأتي على حياتي في أي لحظة هوس جنوني يزهو بها الجلاد، فآثرت الاستسلام للقدر حتى ولو كان الموت هو الخاتمة، ومن منا لن يموت!

رحت أشغل نفسي عن التفكير بحكايتي في الاستماع إلى حكايات الوافدين، عن سير التحقيق معهم، وكانت لعبة الشطرنج هي التسلية الوحيدة التي كنت أدفن نفسي فيها كلما تسربت إليّ الأفكار السوداء التي كانت تقض مضجعي وتطرد النوم عن عيني.

كانت رؤيتي لبعض الأحداث يقومون بترحيلهم إلي تدمر، لا لسبب اقترفوه، إلا انتماء آباءهم أو أحد أقربائهم لجهة من الجهات السياسة، فليس لأحد الحق في ممارسة السياسة هنا في سوريا سوى الحاكم بأمر الله من الفاطميين الجدد وأبناء القبيلة. ما زاد في يقيني أن ترحيلي إلى هناك ما هو إلا مسألة وقت ليس إلا!

المهجع رقم "٥"

مرت أيام المهجع رقم "6" موغلة في الرتابة والملل، لم تنقطع تأوهات المعذبين وأنات الجرحى، وكان الدواء على ندرته شحيحاً إذا ما منّوا به، ولم يأذنوا لنا برؤية الفضاء الخارجي ونحن نزلاء الظلم والظلام إلا مرة واحدة عند غروب شمس يوم من الأيام، وذلك بالخروج إلى سطح الأرض، عبر سلالم حديدية تنتهي إلى باحة تذكرك بحلبات الترويض في حدائق الحيوانات، وكنا نسير مترادفين في صمت المراسم الجنائزية، قد آذنتنا الشمس بالمغيب للتوّ خلف جبل قاسيون، قد أشرفت علينا أنوار الجبل شاحبة باكية، تبعث في النفس زوبعة من الحنين والذكريات، ولأول مرة يأتينا صوت الأذان عذباً ندياً بعد أشهر نافت عن الثلاث، وكأنه يبكي صوت بلال لأول مرة يملأ به سمع الدنيا ووجدانها من وهاد مكة والمدينة، فتجول بخاطري خلائط من المشاعر والأحاسيس، وتمنيت أن يطول بنا البقاء، غير أن صوت أحد الجلادين جاء لينتزعنا من كل هذه التخيلات، كي يعيدنا إلى واقعنا المؤلم المرير حين هتف بنا:

- الكل على المهجع يا عـ...

كانت رؤيا المصابين الذين خلفناهم في المهجع، ممن لا يقوون على الحركة أو المشي، تبعث في النفس مكامنها، ولقد جلست عند رأس أحدهم أرثي لحاله المتهالكة، وأحسست بالكبت ينزع بي إلى خبايا جوانحي، ففاضت مدامعي، ويا لطول فيضانها.

لم تمضِ أيام قليلة على رحيل عام ووفود آخر جديد، والناس ولْهى لسماع كل جديد، فالإشاعات ملء السمع والبصر، عن قرب عفوّ عام قد يصدره النخاس عن الموالي البائسين، حتى أطلت علينا مجموعة من الأخبار، جاء في أحدها، أن مجموعة من شباب القوات المسلحة المصرية، على رأسهم شاب يدعى خالد الإسلامبولي تمكنت من الإطاحة برأس صاحب مبادرة ما سُمي يومها باتفاقية كامب ديفيد للسلام مع إسرائيل أنور السادات، وذلك يوم عرض عسكري مهيل، كان الرجل يحتفل فيه بمناسبة حرب رمضان التي مهدت له عقد تلك الاتفاقية التي خرمت الأمة من كل حقوقها الثابتة والمكتسبة، وأدخلت البلاد والعباد في منزلقات خطيرة من التيه والضياع!

على كل حال أفضى الرجل إلى ما قدم، وقال بعض البؤساء من الحاضرين، لعلها إرادة الله تتحقق من خلال قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وابتهلت في سريرتي، أن يقيض الله لطاغية سوريا من يريح الأمة من غمّه وهمّه.

أما الأخبار الأخرى، فقد جاءت مخيبة للآمال، مزيداً من الاعتقالات بين صفوف الأبرياء، وتلتها مجموعة من الأحداث، أذكر منها حادثة مجلس الشعب، ثم مبنى خاص – والعهدة على ذمة الراوي – بالخبراء الروس، وتوجت بحادثة الآمرية العسكرية للطيران، والتي أودت كما ذكر شهود عيان بحياة عدد كبير من ضباط جهاز المخابرات العنصري، وروى بعض الوافدين لنا عملية الآمرية العسكرية للطيران على نحو من ضروب البطولات الخارقة، وذلك أن سيارة عسكرية كان يقودها ضابط برتبة عالية، تبين فيما بعد بأنه كان من أفراد تنظيم الإخوان، وما كانت البزة التي يرتديها إلا لتيسر له دخول مبنى الآمرية، كان يقود سيارته بسرعة فائقة، في الوقت الذي كانت تندفع سيارة أخرى في أثره، لم تتوقف عن إطلاق الرصاص من مدفعها الرشاش، موهمة بذلك حراس الآمرية بالخطر الذي يلاحق الضابط، قائد المركبة الأولى، إذا لم تفتح له الأبواب دون اعتراض أو تلكؤ!!

قاد هذا الشاب سيارته متخطياً بها درج السلالم الذي ينتهي إلى مبنى آمرية الطيران، في الوقت الذي انشغل فيه الحراس بمعالجة المركبة التي لاذت بالفرار، والتي كانت تطلق النيران في الهواء، كان هذا الشاب يترجل على عجل من سيارته، ليتسلق درج المبنى من الداخل، مقتحماً بعد ذلك مكاتب كبار الضباط الواحد تلو الآخر، متمكناً من قتل بعضهم قبل أن يتنبهوا له ويقتلوه، في نفس الحين الذي هرع فيه معظم العاملين إلى النوافذ والبلكونات، لمشاهدة ما يجري في الخارج، وما أن اكتظت الردهات بالضباط والجنود، حتى دوى انفجار السيارة الملغومة والمتوقفة على الدرج أسفل المبنى، محدثة خسائر مادية وبشرية فادحة.

كان لهذه الحادثة بالإضافة إلى حوادث أخرى، ردة فعل بالغة القسوة على المعتقلين داخل السجون عامة، وعلى شباب منطقة الميدان بدمشق خاصة، فالشاب الذي قام بهذه العملية كان من منطقة الميدان، ومن شباب جامع الغواص الذي يقوم بتخريج حفظة القرآن،

كنت خائفاً، ولم أكن الوحيد، وجاء منظر الغداء مصدقاً لمخاوفي، فقد جاء شخيخاً رديئاً، وحين فُتح الباب جاء فتحه مصحوباً بكل ألوان التنكيل، وكانت مجزرة سقط على إثرها الكثيرون من النزلاء يتخبطون بدمائهم وهم بين الحياة والموت.

أقبلت الأيام حبلى بكل جديد، فإذا المهاجع تزداد اكتظاظاً على اكتظاظها، وإذا بلفيف من شباب الميدان يملؤون علينا المكان على امتلائه، وإذا السوط والجلاد بالمرصاد، وإذا الدنيا تلتئم بلؤمها وأوحالها، وإذا نحن ثانية في الطحن من غير رحى.

فيما نحن نتشاجر على مكان النوم الذي بالكاد يكفي لتضع جنبك كحد السيف كما أسلفت، علمنا بإخلاء المهجع رقم "5" من نزلائه، من غير أن ندري الأسباب، ولا إلى أين مضوا بهم، وفيما نحن على هذا الحال، جاءنا أبو منهل ذلك السفاح نائب مدير السجن، طلب إلينا أن ينهي كل منا علاقته بالآخر والاستعداد للرحيل، ألقى بهذه العبارة ولم يزد، ثم انصرف.

تملكنا الخوف، وفزع كل منا لمن حوله، ودبت في المهجع حركة الرحيل والوداع، ثم ما لبثت أن عصفت بالمهجع تكهنات من التعليقات والافتراضات، وفاضت أنفسنا الغارقة في الذهول بكل ألوان التحسر، والقليل منا هم الذين كانوا يتوخون الخير من وراء هذا الإجراء، وكانت لنا أسبابنا، إذ أن أخبار المجازر التي أقاموها في حلب وجسر الشغور، بالإضافة إلى مجزرة تدمر، لم تكن أخبارها لتذهب من الذاكرة بعد. ولا أدري كيف تذكرت أحلامي في هذه اللحظة، فكانت على تعثرها تبعث في نفسي شيئاً من الطمأنينة التي تفيد بأنني سأعيش، وسأخرج يوماً إلى الحياة والنور، وإن كنت سأقضي أياماً قد تطول.

وبعد عشر دقائق قلت أو زادت، أقبل السفاح يحمل بين يديه سجلاً كبيراً، ما أن فتح الباب حتى اشرأبت الأعناق، وساد صمت، وراح ينعق كغراب وقف على الخراب:

- سوف نقوم بفرزكم على المهاجع كل حسب تهمته!!

سرت في المكان زفرات من الارتياح، وتنفس الحضور شيئاً من الصعداء، في الوقت الذي راح الجلاد يتلو فيه الأسماء، مقرونة برقم المهجع الذي سيتم الانتقال إليه.

نادى على أسماءٍ كثيرةٍ إلى أن جاء دوري فحملت صرّة ملابسي، وأمرت بالوقوف في البهو الطويل، حتى ينتهي سيادته من فرز المجموعة التي سترافقني إلى المهجع رقم "5".

وجاءت المجموعة على النحو التالي:

خالد رضوان الرضوان، عبد الباقي حسين، هيثم خطاب، الدكتور يوسف حميدي، نكوان كركتلي، محمد دمياطي، بالإضافة إلى لفيف آخر من النزلاء لم أعد أذكر أحداً منهم،

قادنا بعدها أحد الجلادين إلى المهجع رقم "5"، بدا خالياً إلا من مجموعة صغيرة من النزلاء أذكر منهم: عبد السلام تسقيّة من أبناء حلب، يوسف زين العابدين محامي من أبناء اللاذقية وآخرين.

لم يكن المهجع رقم "5" على كبير اختلاف من المهجع رقم "6"، فالبوابة السوداء تحمل نفس الطلاء القاري الداكن، وقبالة البوابة حين تدلفها على الشمال مباشرة تقع دورة المياه قد أرخينا على مدخلها ستارة، نستر من خلالها عورتنا عند قضاء الحاجة، أو تناول استحمام لم يهنأ فيه أحد منا بالماء الدافئ، ناهيك عن الساخن لغسل ملابسنا، لا خيار لنا، فالماء البارد هو قدرنا هنا صيف شتاء، وفي نهاية الركن الغربي كان هنالك منعطف نحو الداخل أطلق عليه بعض النزلاء اسم المستوصف، كنا نؤوي إليه المنكوبين من ذوى الاحتياجات الخاصة، هؤلاء الذين فقدوا بعض أطرافهم من شدة التعذيب، أو الذين صارت الحركة متعذرة عليهم لشدة ما لحق بهم من أذى وتقرحات والتهابات في شتى أنحاء أجسادهم، قد تُركوا من غير حسيب أو طبيب، كذلك كان يأوي إلى ذات المكان الوافدون الجدد، كي يتدرج بهم الانتقال بعد ذلك حتى يأخذوا أمكنتهم عند فتحة البّاب، هذا إن طال بهم المقام، والانتقال مرهون بالأقدمية، فصاحب الحظوة في هذا الزحام من كان له عند طرف البوابة موطن قدم أو مقام، وفي أسفل السقف وعلى موازاته تماماً كانت تقع "شفاطات الهواء" من وإلى الداخل، ولولاها بعد الله لانعدمت الحياة تماماً هنا، إضافة إلى عدد هائل من النزلاء الثقلاء، لقد كان المكان يضج بالمئات من الجراذين.

توافدت علينا الجموع من البشر الغارقين في ذهول من يساق إلى الموت، جاؤوا بهم من مهاجع شتى، وصار المكان أشبه بالحظيرة، السلخ والذبح والتقطيع والعلف والدماء والثغاء والخوار والرفث والدماء والصديد والجروح والقروح، بالإضافة إلى العوراء والعرجاء والصماء وما في قاموسك من مترادفات على هذا النحو عرفتها أو هي في الطريق إليك لتعرفها في المنظور من المستقبل أو البعيد، كل ذلك صار في عين المكان من الشاهد والمشهود، وصار للمكان لون من الطيف واحد، لون الإخوان المسلمين ومن ناصرهم أو تعاطف معهم، وكذلك بعض المندسين من عيون الفاطميين الجدد، ومما زاد في شقاء المظلومين وبؤسهم هنا، أن هيثم خطاب أمسى رئيساً للمهجع الجديد! ولم يكن لأحد هنا

الخيار في تعيين أو اختيار أحد سواه، فقد جاء تعيينه من سلطات عليا لا طاقة لنا في الاعتراض عليها، وصار ما بيني وبينه مع الأيام يصدق فيه قول الشاعر:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدواً له ما من صداقته بدٌّ

لذا صار لا بد من الذي ليس منه بد، سايرته اتقاءً لشره عن العباد، ورحت أخفف ما استطعت من سطوة تلك النفس الخبيثة التي كانت بين جنبيه في إيصال الأذية إلى الناس، وما زادني سر اندفاعه في التقرب إليّ إلا ريبةً وخشيةً، وكنت يومها - عافاكم الله- من المدخنين، ألفيته يغمرني بهذا النعيم الميئوس من نوال الأجر عليه، في كرم زائد لم يكن له عندي ما يبرره، ولم يكن بوسعي أن أرفض منه ذلك لعلتين إحداهما أقبح من التي تليها، رغبة في الكيف أولاً، والظن الذي رجح عندي في قدرته على إيصال الأذية إلى من أعلن عليه الحرب ثانياً، وجاء توزيعنا على ما يسمى بالقصعات (مجموعات الطعام)، فكان نصيبي بطبيعة الحال مع رئيس المهجع، والتي حوت كل من: السيد عبد الباقي حسين، خالد الرضوان، نكوان كركتلي، وفي هذا المكان تسنى لنكوان أن يلتقي بأخيه مرهف كركتلي وهو طالب بكلية الآداب بجامعة حلب.

لم يعد بوسعي الآن أن أتذكر متى وكيف نفضت للأستاذ عبد الباقي حكايتي، فهاله ما سمع، وكان يستمع إليّ ساهباً بالكاد أن يصدق، ولم أنتظر منه أي تعليق، فقد جاءت نظراته الزائغة لتغني عن كل تعليق.

حين قمنا بتشكيل مجموع الطعام طلب إليّ الإشراف على إدارتها، فرفضت ذلك واعتذرت، وحاول الأستاذ عبد الباقي إقناعي في إدارتها بقوله:

- ما المانع من الإدارة، وقد كنت تدير المجموعة في المهجع رقم "6"!

- اجعلوا الأمر لغيري، فأنا لا أرغب في تكرار التجربة ثانية!

حين لمس إصراري على الرفض أعلن عليّ القطيعة فلم يعد يكلمني إلا لمماً.

* * *

أبو زهيّان فلاح موغل في السذاجة وطيبة القلب، ومع علمي ويقيني أن ما سأرويه عنه تباعاً، ما هو إلا نوع من الإسفاف الذي انزلق إليه الظالمون من القرامطة الجدد، أزعم جازماً أن الرجل أمّيّ لم تسرْ به قدم إلى أي مدرسة أو دار تعليم أياً كان اسمها أو مستواها،

كان يعمل في الزراعة، وتربية المواشي، جاؤوا به من ريف حماة، مكتنز البنية مربوع القامة، في امتلاءة تنبئ عن بساطة في العيش وراحة في البال، قدموا به للتو من المستشفى حيث كان يعالج من آثار التعذيب الآدمي لا الوحشي، فالوحش إن شبع أمسك، أما هؤلاء فليس لهم من دون الله من ممسك أو ملجم.

لقد ماريسوا عليه كما ذكر لي لاحقاً من العذاب ألواناً حتى أماتوه ثم عملوا على إحيائه من جديد، وكان من غُلبه يتساءل:

- لمَ كل ذلك؟

أنكر طلته البهية علينا حين دلف الباب بلحيته الكثة التي طالت في غير انتظام، صاح به هيثم:

- متي اغتسلت للمرة الأخيرة؟

ويجيب بنفَس مقطوع، وعينان زائغتان:

- منذ ما يزيد عن شهر ونصف!

لم يبدل هيثم لهجة الصريخ هاتفاً:

- إلى الحمام، اخلع جلاّبيتك، وليتبرع له أحدكم بغيار داخلي، وبشيء من الصابون!

في لمح البصر خلع أبو زهيان الجلاّبية، فإذا به عارياً من غير شيء كيوم ميلاده الميمون، فضج الجمع بالضحك، وجرى آخرون بالبطانيات يسترون عورته.

بعد الاستحمام، جعله الله حماماً هنيئاً، جلس البائس يروي لي كيف سحبوه من حضن زوجته قبيل الفجر بقليل، لم يمهلوه كي يرتدي ثيابه، كانت الجلابية أقرب شيء إليه، اندس فيها على عجل، مضى به زوار الفجر ما بين ركل وصفع لا يلوون على شيء.

في قسم التحقيق واجهوه بالجرم المشهود، لقد أقدم على بيع قطعة سلاح لمجهول لا يعلم عنه شيئاً، تبين فيما بعد أنه عضو في جماعة الإخوان المسلمين.

أيام قليلة ويُدعى أبو زهيان إلى التحقيق، ويبادره المحقق بالسؤال عن قطعة سلاح أخرى زعم المحقق أن السيد زهيان الابن البكر لأبي زهيان اعترف بأن والده باعها لمجهول آخر!

أنكر أبو زهيان التهمة، وحين أوشكوا أن يضعوه تحت السوط والجلاد، أجاب بعفوية:

- إذا كان زهيان ينسب إليّ هذه الفرية، فإني أشهدك يا سيدي، بأن زهيان هو ابن راعي الغنم عندنا، هذا الولد المفتري ليس من صلبي، لا يُعقل أن يكذب ولدٌ على أبيه، لعنة الإنس والجن على زهيان.

لم يتمالك المحقق نفسه من الضحك، وحين همّ بصرفه، التفت أبو زهيان إلى المحقق وبنفس السذاجة أردف قائلاً:

- هل تنوون إخلاء سبيل زهيان؟

وفي صرامة يجيب المحقق:

- هذا شأننا، نفعل ما نريد، ثم لماذا تسأل؟

وبنفس البلاهة:

- أرجوك يا سيدي لا تخلوا سبيله قبلي، هذا الغاق يريد الإيقاع بي كي أبقى أنا وينجو هو، وإذا ما نجى، انفرد بقطيع غنمي، فباعه بأي ثمن، فيمضي بالدراهم يبذرها هذا اللص على رغباته ونزواته.

منذ ذلك الحين لم يعد اسم أبو زهيان يتداول في أروقة غرف التحقيق، وبذا طويت الصفحة، كي تليها صفحات أخرى لأبرياء آخرين دون أن يئن الأوان كي تنطوي!

هذا غيض من فيض البؤس الذي جنح بالأمة إلى الإسفاف حتى القاع، يُعتقل أبو زهيان لأنه باع قطعة السلاح التي كان من المؤمل أن نحرر بها الجولان، ولولا هذه الفعلة الدنيئة لما تقهقرنا في كل الحروب، ولك أن تضحك ملءَ فيك، أو أن تبكي - إن شئت - ملء كل جارحة من جوارحك، حين أسرد عليك حكاية طريفة ظريفة، فقد جاؤوا بنزيل من البادية، وكالعادة مارسوا عليه كل أسباب التنكيل، يريدون منه أن يعترف بجلب مناشير (بيانات) من العراق تندد بالنظام، لقد قاسى الرجل طويلاً إلى إن انهار واعترف بجلب المناشير، وحين سُئل عما فعل بهذه المناشير؟ جاءت الإجابة المضحكة المبكية:

- لقد نشرنا بها الأشجار!!

لم تكن لديه القدرة على أن يدرك معنى آخر للمناشير غير أنها تنشر الأخشاب، ومع كل هذا واصلوا اعتقاله وامتهان كرامته، هذا إن كانوا قد أبقوا له على أي شيء منها!

لعبت الرؤى والأحلام دوراً بارزاً في إدارة دفة الحياة اليومية لهذا السجن الظالم أهله، وكانت الرؤيا التي رأيت فيها مناداتهم على الأستاذ عبد الباقي لإخلاء سبيله، وقصصتها على إمام المسجد الكبير في مدينة الحسكة، كانت هذه الرؤيا حديث الساعة لأيام تلت، واستوجبت منا الاستغراق في الابتهال والدعاء بأن يمن الله علينا بالفرج جميعاً، وقال بعض المفرطين في التشاؤم والقنوط لعله أمل إبليس في الجنان!

استفحلت الحياة هنا وما عاد الوضع يطاق في اجتماع مصيبتين معاً، التعذيب النفسي والبدني الذي يمارس علينا بأشكاله، وضيوف لعل الحاجة ألجأتها إلينا، الجرذان التي راحت تتكاثر منغصة علينا آخر فتيل للحياة، بالكاد تصدق أنها جرذان، هي في علم الله في حجم ذكر من الأرانب بالغ راشد، وتجرأ البعض فضجوا إلى السجان بالشكوى، وما هي إلا أيام حتى أمرنا بنقل أمتعتنا إلى مهجع صغير، ريثما ينهون تجديد طلاء المهجع رقم "5"، ويسدون المنافذ التي يتوارد علينا منها الجرذان، ولم يكن بإستطاعة المكان الجديد أن يستوعب نصف عددنا، كان غاية في الضيق، حتى تمنينا في ساعة ذروة من الازدحام والضيق، العودة لمشاركة الجرذان رحابة المكان الذي خلفناه وراءنا، إذا ما قورن بما نحن فيه، ومع هذا كنا مجبرين على الصبر والإحتساب، فهي من أيام الابتلاء التي تضاف إلى ما قبلها وما سيليها من ذلك الشقاء السرمدي الذي لا يمكن أن يُنسى ما امتدت بنا الأعمار على الإطلاق.

ويطل عصر يوم جديد، وتدب في المكان حركة وتزاحم أرجل، وينادى على الأسماء في دفعة جديدة إلى مجاهيل تدمر، وكان من بين هذه الأسماء اسم الدكتور يوسف حميدي من أبناء دير الزور، كان دمثاً، سريع البديهة، ليّن الجانب، نحيلاً في غير ضعف، أسمر البشرة، مبتسم المُحَيا، كان له مع عبد السلام تسقيّة، والأخير من شباب حلب الأقحاح، كان لهما من اللطائف والطرائف ما يذهب عن الأنفس بعض همومها، أذكر حديثاً دار بينهما، قال فيه عبد السلام متهكماً بلهجته الحلبية الأصيلة:

- يا لسواد وجهي منك يا دكتور!

ويسأل الدكتور في استغراب:

- ولم لا قدر الله؟!

ويرد عبد السلام ضاحكاً وهو الصادق:

- أثناء تفتيش ملابسي، لم أتمكن في نهاري هذا من قتل أكثر من خمسة وثمانين قملة!

عندها كنا نضحك ملء الفم، وإن كنا نبكي ملء القلب على هذا الحال المزري الذي آلنا إليه.

نادوا على يوسف حميدي مجرداً من أي لقب، وهو الذي استعد منذ أيام لحدس جال بخاطره بأنه سيرحل، فقد عمل على تهيئة ملابسه وقص شعره، وخفف شاربه، فهذه من الميزات التي تستحق مزيداً من التعذيب والأذى في قوانين السجن والجلاد هناك في سجن تدمر، كان برفقته في هذه الرحلة المحفوفة بكل ما لكلمة الرعب والخوف من معاني، لا من معنىً واحد، طبيبان من ريف إدلب، أحدهما كان يكنى بأبي ياسر، وهو طبيب متخصص، والآخر طبيب أسنان، بالإضافة إلى الأستاذ سامي الغمر، قد جاوز يومها الخمسين من عمره، وعدد آخر من أبناء حلب وحماة وإدلب، أذكر منهم عارف الحمود وممدوح درويش رحمهما الله نحسبهما عند الله أحياءً يرزقون، كذلك بعض الأحداث ممن لم تتجاوز سني أعمارهم السادسة عشر، لقد أقاموا لهم حفلة توديع في البهو الممتد بين المهاجع، لم يدخروا فيها وسعاً من ممارسة كل أنواع القهر المجبول بكل أنواع الإجرام والتعسف والخسة.

تم إعادتنا بعد قرابة الأسبوعين إلى مهجعنا السابق، وقد بدا فيه كل شيء جديداً لمّاعاً، يومها وقف مدير السجن أبو نزار - عريض المنكبين ضخم العنق متخماً إلى حد يوشك فيه أن ينفجر - بعدها يتلو علينا تعاليمه التوراتية بصرامة في ضرورة المحافظة على نظافة المهجع، وعدم خدش الجدران بسخافة حفر الأسماء عليها، ونقش عبارات الاستفزاز، ثم هدد وتوعد وما زال كذلك إلى أن أدار لنا ظهره وانصرف.

بعد الانتقال إلى المهجع بأيام قليلة، توافدت علينا وجوه جديدة، أذكر منهم المهندس المعيد في جامعة اللاذقية بشير الحجي، وبطل سوريا في الكاراتيه لسنوات عدة الشاب الدمشقي محمد حنينة، وماهر الطنطاوي ابن الأستاذ عبد الغني الطنطاوي شقيق الشيخ العلامة علي الطنطاوي، وابن خالته المحدث محمد بهاء الدين الخطيب، والذي أعلمني بأنه

إعتقل برفقة أخويه، محمد بركات الخطيب، ومحمد بلال الخطيب، والأخيران أعدما فيما بعد في سجن تدمر العسكري عليهما رحمة الله.

بقيت تلاحقني أمنية أن يصفو ما بيني وبين الأستاذ عبد الباقي، واجتهدت لذلك غير أنه لأسباب لا أعلمها تجاهل وانصرف، وفي ظهيرة يوم تُلي نادوا على اسمه في قائمة إخلاء السبيل، فودع الجمع على عجل، ثم التهمته الأيام، فأويت برحيله إلى الأحزان، ولبستني وحشة المكان، فلم أعد أرى إلا ثقل المأساة وفداحة الخطب الجلل.

بغياب الأستاذ عبد الباقي زادت جسارة هيثم رئيس المهجع، وزاد تطاوله على خلق الله من البائسين، كما لو أن وجود الأستاذ عبد الباقي بيننا كان صمام الأمان الذي بقي هيثم ملجوماً به، فلما مضى الرجل إلى سبيله انفلت هيثم من عقاله كالثور الهائج لا يلوي على شيء.

لعل من الغريب العجيب أن يتم تعييني نائباً له في إدارة المهجع، جاء ذلك على غير توقع، إثر آخر استدعاء لي صبيحة يوم تلا الإفراج عن الأستاذ عبد الباقي، فقد اقتادوني معصوب العينين إلى الأدوار العليا، هناك كان رئيس الفرع مظهر فارس في انتظاري، ما أن دلفت بوابة مكتبه الوثير واستقر بي المقام، حتى أشار عليَّ أحدٌ ما بالجلوس، ونبهني إلى كنبة تقع على مرمى خطوة ورائي، فجلست محاطاً بكل هواجس الخوف والهلع، ثم رنَّ في صمت المكان صوت كأنه فحيح الأفعى:

- يا سيد سليمان أبو الخير، مع كل ما ثبت عليك من اعترافات، إلا أن هذا لا يعني أن ننكر أن في داخلك جانباً من جوانب الوطنية، لا بد من استنهاضه.

لا أدري إن كان يقرأ ما يقول من خلال قرطاس أمامه، أم أنه كان يقول هذا الكلام الموزون عن ظهر قلب، ثم أنهى كل ذلك بقوله:

- لك أهل وأحباب تتوق إلى لقياهم، ونحن لا نريد لك إلا كل خير.

كدت أن أقاطعه لولا وحشة المكان وانقطاع الظهير، لأسأله الاختصار في كلمة واحدة ما المطلوب؟! لكنني أفقت عليه، وقد رق فحيحه إلى حد الرجاء:

- أقسم لك بأولادي، والذين هم أعز ما أملك في هذه الدنيا، وبالقرآن والإنجيل، بأنني صادق فيما أقول، فسوريا هي البلد الوحيد اليوم، الذي يقف في وجه الصهيونية والإمبريالية

والرجعية، وأنت الفلسطيني المثقف الذي يعلم يقيناً كيف تخلى عنكم القاصي والداني، ولم يبق لكم إلا حضن سوريا الدافئ، ساعدنا كي نساعدك!

وأنا على ما أنا عليه من هواجس الخوف والهلع، ابتلعت ريقي في صعوبة من جرى شوطاً طويلاً، ثم راح يبحث عن شربة ماء، غير أني بدلاً من أن أطلب، رحت أسأل:

– وهل بقي عندي شيء كي أساعدكم؟

وكما لو أنه أمسك بطرف الخيط:

– لا نشك بأنك تعرف الكثير من الشخصيات هنا في سوريا، من أولئك الذين لهم ارتباط بالعطار، أو أولئك الذين كان يلتقيهم في ألمانيا، أنت تعرف الكثير الكثير، لكنك ما زلت تكابر، سوف أعطيك كومة من الأوراق، إذا أردت النجاة لنفسك، فما عليك إلا الاجتهاد في خط كل ما تعرف.

ضغط سيادته على الجرس إعلاناً بانتهاء المقابلة، ودخل الحاجب، فأمره باقتيادي إلى حجرة من حجرات التحقيق، ثم أمره بأن يوفر لي المكتب والورق اللازمين للكتابة.

عادت لتصطف في نفسي أنواعاً من البؤس التي اعتقدت بأنني خلفتها ورائي في فرع العدوي، شعور تتحكم فيه الأنانية في أعلى المراتب على سلم الأولويات عند هؤلاء الناس، ووجدتني معزولاً في كل أحوالي، بلا دفاع أو سلاح، ولم يكن أمامي إلا أن أسجل أي شيء، أي شيء مهما كان تافهاً، فلعل وعسى، وفي حجرة الإدارة أطل أبو منهل برفقة الأوراق، قدمها لي مصحوبة برقم قياسي على درجات سلم الأنانية إياه:

– اكتب كل الذي تعرفه، ودع كل عيون الأمهات تبكي، على ألا تبكي لأمك عيناً!

تماماً كما قال جدهم الأول: "إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر"!!

وأنا أجد السير في إثره إلى إحدى غرف التحقيق، استأذنته في جلب علبة التبغ الخاصة بي، فأذن لي، تعمدت دخول المهجع مصحوباً بالأوراق لغاية في نفسي، أرويها لك عزيزي القارئ تباعاً.

ما أن فتحت باب المهجع بنفسي، وما أن دلفت البوابة في يدي كومة الأوراق والقلم، حتى ساد صمت، واشرأبت الأعناق، الكل ينظر إليّ مستغرباً متعجباً، أيقنت بأن الريبة والظنون قد صاحبت الجميع، وكان أكثر المرتابين على وجه التحديد هيثم رئيس المهجع،

وهذا ما أردته يقيناً، أردت أن أُدخِل الروع والخوف لهذه النفس الخبيثة ولو إلى حين، ولعلني أفلحت إلى أبعد ما رجوت من هذه الخطوة، التي أردتها محسوبة لله، علني من خلالها أدفع عن الناس من أذاه ما استطعت!!

خلاصة القول، في حجرة التحقيق التي تركوني فيها وحيداً، طفقت فيها على تدوين خطاب موجه إلى إدارة السجن متمثلة في رئيس الفرع والذي لعله هو الذي قابلني، متمنياً عليهم في البداية، أن يكونوا قد تكرموا في تدقيق الأقوال التي أدليت بها غصباً آنفاً فيما مضى من الأيام، وأكدت فيه بأن سوريا هي البلد الوحيد الذي ما زال القلعة الشامخة في وجه إسرائيل!

وقلت في نفسي لعلها فرصة أخيرة، أجتهد فيها للنجاة، فدوّنت استعدادي لخدمة هذا البلد المتدثر بكل أسباب الوطنية، غير أن ما يبعث على الأسف هو أنني لا أعرف أحداً داخل هذا القطر المعطاء، يمكنني أن أدوّن اسمه أو أن أدل عليه، وأعلنت بأن بقائي في سوريا لن يفيدهم بشيء، وأن الأمل المرجوّ هو السماح لي بالعودة لمتابعة دراستي، ثم ذيلت الخطاب بتوقيعي وقمت بتسليمه بعد ذلك.

من أجل هذه القصة التي لم أبح بها لأي كان، اجتهد هيثم وسعه في أن أكون نائباً له في إدارة شؤون المهجع، لا بل رجاني في أن أقبل ذلك!!

أمعن الرجل في إيصال الأذى للناس، وما عاد يقيم وزناً لأحد من أولئك الذين كانوا يشاركوننا شرف الذل والمهانة على أيدي زبانية البعث في سوريا الثورة، والذي جعل لهيثم وأمثاله سطوة الحَمَل الذي علا سطحاً من الأسطح، فلما مرَّ به الذئب راح الحمل يشتمه ويسبه، فرد الذئب قائلاً: "مكانك الذي يشتمني لا أنت"!!

لم يكن أمامي إلا إشغاله عنهم، ومحاولة التأثير عليه ما استطعت، وهالني مع الأيام ذلك الصلف الذي كان مدفوعاً إليه، وذلك التواطؤ الذي شارك فيه في فتح ملف جديد لأحد أبناء حماة البررة، كان شاباً يُدعى أبو صالح جريئاً في نقده لهيثم، وكان يصلي بالناس جماعة، أمرٌ لم يكن ليروق هيثم، ويبوح لي أبو صالح ذات يوم في غياب عين الواشي عنا، بخبر مفاده أن الحقارة وصلت بالمولى رئيس المهجع إلى رفع تقرير إلى أسياده يثبت من خلاله انتساب أبو صالح إلى أحد التنظيمات الإسلامية المحظورة.

في أيام تالية خلوت بهيثم، فانبسطت معه في الحديث، ومما قلته له على غير توقع منه:

- إن بعض هؤلاء الناس سيخرجون إلى الدنيا يوماً، إن لم يخرجوا جميعاً، وأخشى ما أخشاه عليك عملية ثأر وتصفية حسابات، والأيام دوالي، فخذ الحيطة والحذر، وإياك وطول الأمل، فأنت كالمنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أُبقي و..!!

كان لَمقدم دفعة جديدة وقعها السيئ علينا جميعاً، لا سيما الشاب صلاح من سقطاء مدينة إدلب، من شبيبة كتائب ثورة البعث، قدموا به برفقةِ خالٍ له، اجتمعت فيه أردأ الصفات، ما كاد ينسى الناس هيثم وقرف هيثم حتى أتاهم صلاح، ولقد ذكر أحد الإخوة ممن لم أجرب عليه الكذب قط بأنه استدرج صلاح يوماً، حتى أقر له بأنه - أي صلاح- في الدعوة الأخيرة التي اقتيد فيها لمقابلة مدير الفرع، طلب إليه هذا الأخير رفع تقرير وافٍ عن سير الحركة في المهجع، وكان لصلاح بعض الأقرباء بيننا، فقام بتدوين كل ما رأى وسمع دون استثناء أي شيء، أو أي أحد من أقربائه، ولعل ذلك كان سبباً في التعجيل بترحيل الكثيرين، لا سيما من أقربائه، ومن الناس الذين لم يكن التحقيق قد أُقفل بتوجيه أي اتهام محدد لهم بتقريره، أُلحقت بهم تهم أوجبت الترحيل إلى تدمر، وكان من لطف الله ألا يطول مكث صلاح بيننا، فقد أُفرج عنه وعن خاله بعد أيام كي يواصل رحلة العمل الصالح في مكان آخر، هم بلا شك حريصون في المحافظة على أمثال هؤلاء من أصحاب الخبرات والثروات الوطنية!!

كان من بين الذين استقبلناهم في تلك الدفعة آنفة الذكر، كل من شاهر شموط وزياد بالإضافة إلى محمد خير دبورة، وجميعهم من منطقة الميدان بدمشق، كانت تجمعني بهم علاقة طيبة، وصارت لنا مع الأيام القليلة التي قضيناها سوياً شيئاً من الذكريات والتي تعدتنا إلى كل من عبد السلام تسقيّة وأحمد سراج الدين.

كانت إدارة السجن تستدعي بين الفينة والأخرى كل من شاهر وزياد، لتعرض عليهما بعض الصور لبعض المطلوبين أو بعض الذين صاروا كما كان يقال عند ربهم أحياء يرزقون، من أبناء منطقة الميدان، ولقد ذكر لي أحدهم بأنهم حين كانوا موقوفين في الطوابق العليا بالقرب من غرف أفراد السرية العسكرية التي كانت تقوم على حراسة المبنى، هناك كانوا يشاهدون أحياناً، ويستمعون إلى صوت الممثل السوري الناقد دريد لحام يدخل على الزبانية من الضباط دون إذن أو تكليف، فازددت عندها اعتقاداً بأننا أبناء سوق عظيمة، هذه

بضاعة أغلت قيمتها الأمانة، وهناك أخرى أردت قيمتها الخيانة، وشتان بين هذه وتلك، كي نفهم حكمة الباري!

أُخلي سراح أحمد سراج الدين، ثم تلاه بعد أيام إخلاء سراح إمام مسجد الحسكة الكبير بعد أن ثبتت براءته، وسُمح له بمقابلة أخيه قبل إطلاق سراحهما بأيام، فأثلجت هذه الخطوة صدري، وأبكتني في آنٍ واحد، أما الفرح فليس له من معنى إلا الفرج الذي مضى بهم جميعاً إلى الدنيا والحرية والضياء، سائلاً الله لهم جميعاً الثبات، وأما البكاء فلعل أسبابه ما عادت خافية عليك عزيزي القارئ، فأنا باقٍ مع من بقي وما أكثر من بقي!!

كنت أعتقد دوماً أن من أدنى واجبات الدولة أياً كان نظامها أن تحمي مواطنيها، سيما البسطاء من عامة الناس ودهمائها، ناهيك عن الأبرياء منهم، حتى بموجب تلك الأحكام العرفية التي تُسيّر بها البلاد منذ استلام البعث العنصري مقاليد الحكم، في انقلابات وحركات تصحيحية متتالية، لقد كانت الأحكام العرفية أبداً في عرفهم، ضرورة من ضرورات المرحلة، على اعتبار أن البلاد في حالة حرب وتحرير، ويقيني أن التحرير وقيام نار عدن رديفان لمعنىً واحد، لن يكونا بحال من الأحوال على أيدي هؤلاء الأوباش من البشر، ويزداد يقينك في حق هذه الدولة إن جاز لنا القول أن نقول بأننا هنا أمام نمط جديد غريب عجيب من أنماط الدول الكرتونية، فمتى كان الحق لبشر أن يَحتجز مواطنيه لأكثر من ستة أشهر، وأي دستور هذا الذي يخوّل لهؤلاء الإبقاء على الأبرياء هذه المدد المتفاوتة من الارتهان التعسفي دون المحاكمة، أو توجيه أي تهمة محددة، ويزداد عجبك حين تتلفت باحثاً عن منظمات حقوق الإنسان، هل ترى منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟

لقد كان من حق كل متهم أن يطالب بالإفراج الفوري أو الانتقال إلى محكمة، أياً كان نوعها شريطة أن تتوافر فيها بعضاً من مقومات المحاكم، ولِمَ كل هذا التعجب؟ وأنا اليوم على وشك الانتهاء من شهري الثامن غريباً عابر سبيل منقطعاً عن أهلي وأصحابي وأحبابي، لم يتركوا لأهلي سبباً من أسباب التواصل معي، ولم يتركوا لغيري فعل ذلك من مواطنيهم، إن هؤلاء تبلدت أحاسيسهم، فما عاد يحرك فيهم بكاء أم على اختفاء ولدها، أو نواح زوجة وأطفالها على ضياع معيلهم، ما عاد اجتماع ذلك كله يحرك فيهم أي نوع من أنواع

الأحاسيس أو المشاعر، إن هؤلاء فقدوا مع الأيام أمام تلك المناظر كل المقومات الدنيا من الشفقة والإنسانية على حد سواء.

لقد مضى عيد الأضحى قبل أشهر قليلة، كانت أيامه حافلة بألوان شتى من المآسي، لقد تركونا ليلة العيد نلملم جراحنا النازفة، إثر جولة من زبانية المبغى، لم يبقوا معها على أي منا سليماً معافىً، وكأنهم كانوا ينوون تذكيرنا، بأن اليوم هو يوم عيد، يوم فرح ولبس الجديد! ومع أن اليوم لكثير منهم كان يوم عطلة رسمية، إلا أنه كان لمن بقي في الخدمة، يوم من أيام العقلانية والمنطق العلوي العنصري اللئيم، في الانتقام والأخذ بالثأر، وممن؟ ولأي سبب؟ أي والله على الأقل الانتقام مني أنا!! لأي سبب كي يبطل العجب؟!

وإني لأحدث نفسي بعد انقضاء كل هذا الزمن الذي كان يعبق بالمأساة، فأقول:

– لقد نلت أيها الحالم كل ما تستحق، بمجيئك بحثاً عن المال وموارد الأرزاق، في بلد العسكر، فأضعت الدليل وركبت الصعاب، أما كان الأجدر بك أن تبقى في جامعتك حيث طوق النجاة والمستقبل الذي خلفته هناك. فأرد رداً من أعيته الحيلة، وقَصُرت به المكيدة:

– أيها الأبله أما علمت بأنه إذا وقع القدر عمي البصر؟

ما عاد في الزمن بقية، وألقى هيثم بالخبر، وكأنه آخر سهم في كنانة أحقاده:

– يبدو لي بأن ترحيلك صار قاب قوسين أو أدنى، فاحتط لنفسك!!

وفجأة حل عصر يوم كئيب من أيام يناير، سرت في الدهليز جلبة، وعلا صراخ، دوّى صفير ولف المكان نفير، وجاء دور بوابة المهجع الذي حنَّ على بؤسي أياماً، وليت عصر ذلك اليوم لم يحلل، وليت البوابة ظلت عصية فلم تُفتح.

الوداع في الطريق إلى تدمر

لا فائدة تُرجى من تذكر صغائر ما مضى في جنب ما هو آت، فظلمة المكان وظلمة الليل الذي سيحل بعد قليل كفيلة بطمسها ولو إلى حين، غير أن اهتزاز الأحداق بدموعها على مقربة من نياط القلب عندما تدنو من الحناجر فرقاً وخوفاً، من يقوى على طمسها أو يقدر على التخفيف من لأوائها؟!

ما إن فتحت البوابة وأطل البغاة كالغربان من ورائها حتى خيل إلي أنها عمّا قليل ستقف على الخراب لتنعق، ومع إطلالتها تدثر المكان بصمت شديد، ومد الحضور أعناقهم بانتظار ما هو قادم.

كانت القائمة طويلة، وما شغلني عن طولها هو ورود اسمي على رأسها، ما عدت أعبأ بما يتلى فيها من الأسماء، فلقد شغلني من نفسي شاغل، وما عاد الزمن ليسعفني كي أنتبه لأحد ممن تصدر معي من الأسماء، وكأنني لا أسمع إلا ترداد اسمي، كما لو أنني أسمعه يُتلى لأول مرة، فاليوم هو يوم حشر، أجارني الله وإياكم من يوم الحشر، الكل منهمك في الاستعداد، ومن حولي من الوجوه من لا يملك لي حولاً ولا قوة، فأدركت بأنني ذاهب إلى خصم غاشم، إلى مكان يحكمه المكر والخديعة، وكل أسباب الرذيلة، إنهم هناك كما هم هنا قادرون على ارتكاب كل شيء، ومن أجل لا شيء، لا تتعجل فالقصص التي ستأتيك ستنسيك كل الصفحات التي قرأتها من قبل، فما مضى ما كان إلا شيءٌ من المزاح.

ألقى إلي هيثم بكلمة وداع لم أجد فيها أي درجة من درجات حرارة الوداع، لا بل كان فيها نتن الشماتة باجتماعها، وارتفعت درجة شكوكي بأن يكون هو الذي رجح كفة إرسالي إلى تدمر، وإلا أي وحي هذا الذي هبط عليه لينبئه رحيلي إلى تدمر قبل الأوان، وما كانت الخمس وعشرين ليرة سورية التي ألحقني بها قبل الرحيل، لتترك له عندي ما يعذره، وألقيت عليه نظرة الاحتقار والازدراء الأخيرة، وإن كانت ساورتني الشكوك بأنه لم يفهمها، وعدت فانشغلت بنفسي عمن هم حولي، وجاءني محمد بهاء الدين الخطيب ذلك الحدث الذي هو في

ثوب الكهول من رجاحة عقل وتفكير، جاءني بالكنزة الوحيدة التي كان يمتلكها، ألقاها إليّ وانا أهم بالمغادرة القسرية:

– خذها علّها تقيك شر البرد، وشر السوط.

طفحت نفسي المترعة بكل معاني الدفء والحنان والشكر والامتنان، وجرت دمعة جاهدت نفسي على حجبها، لكنها غصبتني فجرت بلا استئذان.

كان شتاء عام 1982 قارصاً، وكانت الملابس التي نمتلكها بالكاد أن تستر عوراتنا، فالكثيرون جاء بهم زوار الفجر بقمصان نومهم، أو ثيابهم الداخلية، ولا زلت أذكر أحد شباب دمشق من أصل فلسطيني وقد عادوا به ليلة دُخلته، لم يمهلوه حتى يلبس ثيابه، فقد اقتادوه كما لو أنهم وقعوا على صيد ثمين، يخشون أن يفلت منهم، وكانت الزيارات بطبيعة الحال ممنوعة، ولذلك خضعنا لحالة تقشف شديدة، وإني كلما تذكرت محمد بهاء الدين أمعنت له بالدعاء وأجزلت له بالثناء، فقد رافقتني كنزته سنواتي التالية، كما لو أنها العهدة التي كنت أخشى ضياعها، لقد كانت وقائي الذي تدثرت به من برد الصحراء، وترسي الذي طالما وقاني من حر السياط والكابلات.

سرعان ما امتلأ البهو بالمرحلين، ولم يضيعوا وقتاً، فقد شرعوا في شد الأغطية على أعيننا، في الوقت الذي لم يتوقف انهمار آلة عذابهم علينا، فأنت بالكاد أن تحملك قدماك فرقاً من وقع سياطهم وكابلاتهم وعصيهم، لم يتركوا مكاناً إلا وضربونا عليه، مع أننا لم نكن نرى ما حولنا، إلا أن المكان كان يضج بالعشرات من الجلادين، كلهم في تسابق مع الزمن لأخذ الأجر فينا، ولكي لا أنسى للتاريخ، أذكر منهم أبو منهل نائب مدير السجن، ذلك القرمطي الحاقد السفاح، الذي ما فتئ بلسانه البذيء السليط يتحفنا بما طفحت به دورة فمه من المجاري كلما واتته الفرصة، وما أكثرها، والذي جاء يسألني يوماً عن عنوان المستشفى الإسلامي في الزرقاء، فأعتذر له لعدم علمي بالعنوان يقيناً، وكان بينهم أيضاً محمد إبراهيم وعاقل المعتوه، وأحمد سالم وأحمد غانم وكلهم قرامطة من طائفة النظام في منتهى القسوة والتجبر، أما الرقيب مالك فقد كان لحوحاً لجوجاً حاقداً ليس لقسوته ولا لبطشه حدود، بالإضافة إلى آخرين كثيرون من حطب جهنم، ويقول لي أحدهم وهو يلطمني ويشد وثاقي:

– أنت الأردني، مواطن صاحب الجلالة، أيام سوداء بانتظارك، يا عكروت!!

ثم راحوا في شد وثاق كل اثنين منا معاً، وكانت الأغلال في الأيدي ابتداء، ثم في الأرجل تباعاً، وهكذا أُحكم القيد. لا تلح عليّ في السؤال عن مشاعري يا صاحبي، فأنت هنا كمن يسأل غريقاً يصارع الموت عن درجة حرارة المياه التي يهوي فيها! غير أنــي فوضــت فــي هــذه اللحظات أمري إلى الذي إليه يرد الأمر كله من قبلُ ومن بعد، الله الذي يتولى الصابرين.

أمرونا بافتراش الأرض جاثمين، وطأطأنا الرؤوس إلى الأذقان، اتقاء السياط أن تصــيب أعيننا، فهم غير عابئين بنا، لا يهم أين ينزلون بسياطهم، ثم عادوا إلى تــلاوة قائمــة الأسـماء للمرة الأخيرة، فإذا بها كما لو أنها أطول مما تخيلت، وحفظت منها اسم الملازم رضوان خالد، والسيد عبد السلام تسقية، عبد الوهاب الخطيب، معلم من أبناء إدلب.. وآخرين زاد عددهم عن الأربعين، وكان الرحيل في يوم ماطر بارد من شهر كانون الثاني "يناير" عام 1982.

ما أن انتهت إجراءات الفرز، حتى أمرنا بالوقوف، ثم ساقونا مثنى مثنى، مكبلــين فــي الأغلال، مصحوبين بكل أدوات التنكيل، تسقط علينا بشكل عشوائي من غير تمييز، وكانــت قمة العدل أنها كانت من غير تمييز، إضافة إلى أفواههم التي نضحت بكل الشتائم التــي لــم تستثنِ حتى الذات الإلهية، ونحن نجأر إلى الله بالصــراخ والعويــل، ســاقونا إلــى الطــابق الأرضي حيث أمرنا هناك بتسلق السلالم المؤدية إلى سيارات الترحيل، وكانت السيارة التــي أقلتني برفقة صاحبي المربوط معي في القيد – والذي لم أتبين مَن هو، ولم يكن في الإمكــان أن أسأل عن اسمه – من نوع "زيل" أو ما يسمونها سيارات نقل اللحوم، ومع أنها كانت بــلا نوافذ، فهي مغلقة من كل الجوانب، فقد أُمرنا بتخفيض رؤوسنا طوال الرحلــة إلــى مــا دون مساند المقاعد، فيما لو كانت مساند المقاعد موجودة في الأصل، وما هي إلا برهة من زمــن حتى تحرك الركب، وكانت العتمة الدامسة الناقعة في الظلام قد أطبقت على المكــان، ومــن بعض الشقوق في المركبة كانت تتسلل إلينا بين الفينة والفينة بعض خيــوط أنــوار المدينــة اللاهية، فقد كانت المدينة تعج بالحركة التي كانت تتبعــث إلينــا ونحــن نجتــاز كــالأموات شوارعها وأزقتها.

لم ينس رئيس الدورية صاحب لهجة أهل حوران أن يتهددنا ويتوعدنا بــالثبور وســوء عاقبة الأمور إن بدت منا أي بادرة تخل بأمن الرحلة في نبرة من بــدا أن لــه عنــدنا ثــأراً عظيماً، وذكرنا بضرورة عدم فتح أفواهنا بأي بنت شفة لأي سبب من الأسباب.

في ذيل السيارة جلس الحرس مدججين بأسلحتهم، ما أن خلفنا المدينة من ورائنا، واختفت الجلبة وسكن كل شيء من حولنا، حتى عادت السياط لتعلن حضورها، ولم يبخلوا علينا بما تجود به قريحتهم من نضح قاموس الشتائم المقذعة، والتي لا تصدر إلا عن السوقة من أولاد الشوارع.

في الرحلة التي استمرت إلى ما قبيل الفجر بقليل، أصاب بعض المرحلين دوار وغثيان، وتقيأ من لم يتمالك نفسه حيث هو جالس، من غير أن ينبس ببنت شفة كما أمر رئيس الدورية، وبال البعض في ثيابه، أيضا من غير أن ينبس ببنت شفة، ومن كان يجرؤ أن ينبس!!

لقد كان الموكب رهيباً، من المؤكد أن حراسة كانت في المقدمة وأخرى كانت في المؤخرة، نعم كان موكباً محفوفاً بكل أشكال الإرهاب.

ما زاد في الرحلة من المآسي التي استحالت إلى ضرب من ضروب المهازل، طلب بعض الجلادين إلينا أن نشرع في الغناء، ولما لم نستجب، شرعوا في ضربنا بقسوة، وهم يسألون عن صاحب صوت جميل، حين اشتد التنكيل تبرع بعض الإخوة – من بيننا ممن آتاهم الله مزماراً من مزامير داوود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – بحداءٍ حزين، كادت قلوبنا من فرط تأثرها مما تسمع أن تنفطر.

لم تنقطع الإشارات اللاسلكية طوال الطريق، فقد كان الموكب يتوقف بنا أحياناً كثيرة، لانتشار الحواجز، حواجز التفتيش على امتداد رحلة هي للكثير منا بلا عودة، وسمعت الأخ المعلق معي في القيد وهو يبتهل إلى الله ويدعو، ثم لا يلبث أن يشرع في تلاوة ما تيسر له من آيات الذكر الحكيم، في صوت مسموع، فأزجره كي يخفض صوته خشية أن يسمعوه، لكنه كان غارقاً في عالم آخر خارج نطاق المادة التي تلف الأرض، ورحت بدوري أتلو ما تيسر لي من كتاب الله، وكنت يومها أحفظ النذر اليسير من القرآن، لقد بدأت للتو في فرع التحقيق العسكري في حفظ سورة يوسف، إضافة إلى ما كنت أحفظ من المعوذات وبعض قصار السور، وشيئاً من الأدعية والابتهالات، هنا كما هي هناك كما هي في كل مكان إذا أزفت المحنة، ليس لها من دون الله كاشف!!

أنا الآن على وشك التوثيق لمرحلة جديدة، أجدني كالعاجز قد أصابه العي والحصر، أمام هول الإجرام الذي مورس ممارسة من صارت له الخبرة وطول الدربة، شيء فوق التصديق ودون الوصف، شيء فظيع، ووالله إني لاحتسب كل ذلك عند الله، إذ أن الاحتساب هو العزاء الذي ألوذ إليه كما إليه لاذ من هو خير مني، ولولا يقيناً سرى منا مسرى الدم في العروق بأن اللقاء والحساب والعدل المطلق لا بد من ملاقاته طال الزمن أم قصر عند أصدق من قال: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧]، لولا هذا اليقين الذي سكن شغاف القلب، لما بقي لكل هذا الصبر من معنىً، غير أنه الانتحار والموت البطيء، والذي هو بمعنى من المعاني، ضياع حقوق المظلومين من الأبرياء، وانفلات الظالمين من المساءلة والعقاب، وهيهات لهم هيهات، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٢، ٤٣] ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٩، ٥٠].

غير أني لا أدري بأي المشاعر والأحاسيس سأبحر الآن في الكتابة، فالقلب الموجوع ليس له من عند غير الله من طبابة، والنفس المترعة بأنات الجوى، لا تريد أن تدلف إلى بحر الذكريات المرعب، بالكاد أن تتمالك القوة الكافية على جر شريط الذكريات من جديد، فلقد كنا حقلاً لكل أنواع التجارب، ولعل أدناها كان لعبة الموت، ألفيناه راحة لكل مظلوم، والعزاء الذي ما بعده عزاء لكل مكلوم.

ولعل من نافلة القول، وأنا اليوم أسجل للتاريخ، عن تلك الحقبة المزرية، أن أبحث لهؤلاء عن عذر لما اقترفت أيديهم، وقد أخذتني الحيرة في الإجابة عن السؤال الذي كرره على مسمعي المئات من الشباب:

– هل حدث في التاريخ شيء يشبه هذا؟ هل فعل هولاكو فعل هؤلاء البرابرة؟ ولعلني أنصفهم بالإجابة حين أقارن بينهم وبين أصحاب محاكم التفتيش، إن لم يكن سفاحو دمشق من القرامطة الجدد فاقوهم خبثاً وبطشاً!!

لقد باعوا كل فضيلة امتلكها الناس وهم منها براء، وداسوا على كل فضيلة وجدت سبيلها إلى كل مولود كان يولد على الفطرة، فمن أين أبدأ؟ وكيف أبدأ؟ وبأي شيء أبدأ؟

ولأبدأ بتدمر تلك المدينة التي استلت من بواكير عمري ما زاد عن أربع سنوات، قسراً وقهراً، من غير أن يكون لي يدٌ في كل ذلك أو أي اختيار، أربع سنوات ونيف، لم يُتح لي أن أقف على وجهها الحضاري المشرق إن كان نيرون دمشق وسفاحها أبقى لها منه على شيء، فهي كما ذكر الباحثون تتوسط بادية الشام وتقع على بعد ٢٤٣ كيلومتر من دمشق و١٥٠ كيلومتر من حمص شرقاً، عند معبر جبلي اضطراري على سفح جبل المنطار من سلسلة الجبال التدمرية، في حوضه نبع غزير الماء. وقد خلق هذا النبع واحة خضراء أصبحت مكان استراحة بين العراق والشام، ومحطة للقوافل بين الخليج العربي وبلاد فارس والبحر الأبيض المتوسط. دخل المسلمون تدمر في السنة الثالثة عشرة للهجرة، وكان فتحها بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، صلحاً من غير إراقة دم.

أما دار الضيافة فيها، أقصد سجن تدمر العسكري، فيقع في أقصى الناحية الشمالية من مدينة تدمر، وعلى مفرق قصير يصلها بالطريق العام القادم من حمص ودمشق إلى دير الزور عبر تدمر نفسها، وهو في الأصل جزء من ثكنة عسكرية يعود تاريخه إلى زمن الاحتلال الفرنسي.

لكنه استخدم فيما بعد سجناً للمجندين والعسكريين المتهمين بارتكاب مخالفات أثناء خدمتهم أو جرائم جنائية عادية. ومنذ مطلع السبعينيات بدأ حافظ الأسد باستخدام سجن تدمر لاحتجاز المعتقلين السياسيين بعيداً عن المدن، وفي معزل عن العالم، لكن الاحتجاز لم يكن يستمر أكثر من شهور معدودة. أما السمعة العالمية الرديئة التي اكتسبها، وانفرد بها هذا السجن الرهيب فترجع بداياتها إلى عام 1979 حين بدأت السلطات بإرسال أعداد كبيرة من السجناء السياسيين إليه، حيث يتم فصلهم عن العسكريين المحتجزين.

ويعتبر سجن تدمر أكبر سجون سورية، وأسوأها سمعة، فقد اشتُهر بما يلقاه المعتقلون من المعاملة الوحشية والتعذيب المنهجي اليومي غير الإنساني الذي أودى بحياة كثير منهم أو ترك بصمات لا تُمحى على نفسيات وشخصيات من بقوا على قيد الحياة. ويخضع السجن لإدارة الشرطة العسكرية، لكن مسؤولية السجناء السياسيين من اختصاص المخابرات

العسكرية، وتقوم قوة من الوحدات الخاصة بحراسة السجن. وباعتباره سجناً عسكرياً فإنه لا يخضع لإشراف وزارة العدل التي تجري عمليات تفتيش للسجون المدنية في فترات متباينة.

ويطلق على سجن تدمر في أوساط الشعب السوري سجن الإسلاميين لأن السلطات خصصته غالباً لأعضاء جماعة الإخوان المسلمين ومن ارتبط بها، أو ربما لمجردة شبهة التدين، لكن هذا لم يمنع من وجود فئات أخرى مغضوب عليهم كالبعثيين العراقيين والشيوعيين.

شهد سجن تدمر كل ما تفتقت عنه عبقرية النظام من الممارسات الوحشية ضد السجناء. ولما كنت كغيري من السجناء الذين نجوا من جحيم تدمر، فإني لأتقدم بهذه الوثيقة مثبتاً فيها بعضاً مما لقيته من تعذيب وإذلال وإخضاع كالآلاف ممن رحلوا إلى ملكوت الله في السماوات، أو أنسأ الله لهم في الأجل كي يكونوا شهود عيان على أنواع التعذيب، كالجلد والضرب على الرأس بقضبان الحديد، والتعليق من الأرجل لانتزاع الاعترافات، بالإضافة إلى وسائل أعقد تقنية، كاستخدام الكرسي الإلماني والصعقات الكهربائية، ولقد تعرضنا في هذه الحقبة التي أخالها مقصوصة من التاريخ البشري، إلى عشرات الأساليب والوسائل التي استخدمت في التعذيب والاضطهاد والتحطيم الجسدي والمعنوي إلى حد التصفية، التي ذهب ضحيتها أكثر من سبعين بالمائة من الضحايا الذين أرسلوا إلى تدمر على أقل تقدير في المرحلة التي امتدت بي هناك ما بين شتاء ١٩٨٢ وحتى صيف عام ١٩٨٦. ولعل أول مرة تُفتح أبوابه فيها لاعتقال سياسيين كانت حين نُقلت إليه مجموعة من قادة الإخوان المسلمين في أواخر حزيران ١٩٦٦، منهم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، الدكتور محمود بابلي، عادل كنعان، أحمد بنقسلي، مروان حديد، جودت سعيد، وغيرهم. ويلاحظ أيضاً، أن نصف السجن أحدث بناءً من النصف الآخر، ولعل النصف الجديد بُني بعد جلاء الاستعمار الفرنسي، وفي الستينات على الأرجح.

وسجن تدمر أشبه ما يكون بكهف كبير، وأقسام السجن وأبعاده بالكاد أن يلم بها الإنسان، إذ أنه في كل يوم إلى زيادة واتساع، ويبلغ طول سجن تدمر ١٢٥٠ م وعرضه ١٠٠٠ م محاطٌ بجدران عالية، وسياج حديدي استُحدث في السنوات الأخيرة ليحيط بسماء قطعات الباحات العامة، أما حدوده لمن أراد الاستزادة، فمن الناحية الشمالية الشرقية تتمركز سرية

التأديب العسكرية، في الوقت الذي يطل من الجنوب الشرقي على طريق معبد يفصل بين السجن وأرض مشجرة، وأما بقية الجهات فتعسكر فيها سرايا الدفاع والصراع وما إلى ذلك من الميليشيات المدججة بكل أنواع الأسلحة والمصفحات والآليات، ناهيك عن الأسلاك الشائكة، أما المنافذ، فأولها المدخل الرئيسي، وهو عبارة عن فتحة في الجدار الشرقي، لا تتسع إلا للأفراد من المشاة، وأما الجدار الغربي ففيه باب واسع يسمح بدخول السيارات القادمة لنقل جثث الموتى تحت التعذيب، أو أولئك الذين قضوا ظلماً على أعواد المشانق. أما الباحات والمهاجع، فيتألف السجن مما يناهز خمسين مهجعاً تطل على سبع باحات رئيسية، وإن كنت غير متأكد من استحداث باحة ثامنة، استُحدثت في السنة الأخيرة من اعتقالي، وكل باحة منفصلة تماماً عن الأخرى، والباحة غير المنفصلة قاموا بفصلها في العام الأخير، ولعل باحة الذاتية الإدارة هي الباحة الأولى في الترتيب بعد المدخل الرئيسي مباشرة، وفيها قضيت جل عامي الأول، وهي تحتوي على كل من المهاجع رقم "1، 2، 3، 4، 5 المفتوح على المهجع رقم 6 ثم المهجع رقم 7" الذي استُخدم في السنوات الأخيرة بعد أن أُبعدت من داخله بعض الأشياء التي كانت تخص أولئك الأشخاص الذين أُزهقت أرواحهم في مجزرة تدمر الشهيرة، والذين جاوز عددهم الألف، تلك المجزرة الّتي سنفرد لها باباً خاصاً إن شاء الله، سيما وقد كنت شاهد عيان على آثار وبقايا ومخلفات تلك الجريمة التي شاهدتها، والتي لا تزال حتى ذلك الحين معلقة على الجدران، دون أن يعملوا على إزالتها لسبب لا يعلمه إلا الله.

ومن هذه الباحة يتم الانتقال إلى الباحة الثانية، والتي تقع في الجنوب الغربي، آخذة في الامتداد باتجاه الشرق، وتحتوي على المهاجع رقم "8 والذي قضيت فيه بواكير أيام مجزرة حماة الشهيرة، بالإضافة إلى المهاجع 9، 10 والمهجع رقم 11" ولا يمكن بحال من الأحوال أن تُنسى حمّامات التم سيئة الصيت! والتي لا تتجاوز أن تكون صنابير على قوائم إسمنتية.

أما الباحة الثالثة التي تقع في الجهة الشمالية، ففيها تتواجد المهاجع "12، 13، 14، 15، 16 و17". الباحة الرابعة تتوسطها بركة ماء، وتضم كل من المهاجع "18، 19، 20، 21، 22، 23 والمهجع رقم 24"، وفي الباحة الخامسة كل من المهاجع "32، 33، 34 بالإضافة إلى مهجعين جديدين" وفي مهجعها الأخير قضيت قرابة نصف العام، وهي تطل من الناحية الشرقية على باب من أبواب السجن الكبيرة.

أما الباحة السادسة التي فُصلت في العامين الأخيرين بباب خاص بها عن الباحة الخامسة، ففيها تقع المهاجع رقم "26، 27، 28 والمهجع رقم 31"، وفي المهجع رقم 28 قضيت بقية فترة الضيافة والنقاهة، حتى شاءت إرادة الله بالفرج، بالإضافة إلى ما كان يسمى بالورشة التي كانت في البداية تنصب فيها أعواد المشانق وفيها يتم تنفيذ أحكام الإعدام بعد المحاكمات الميدانية، ومن المؤكد أنه أُعدم في هذه الورشة ما يزيد على (15000) عضو من جماعة الإخوان المسلمين يرحمهم الله تعالى خلال الثمانينيات، ومن طرفها الغربي يمكن الولوج من خلال باب ضيق في الجدار إلى الباحة السابعة، وفيها قامت شواهد أخرى من المهاجع على الظالمين، كل من المهاجع رقم "29، 30، 35، 36، 37 و38". ويوجد فيه قسم للنساء عند مدخل الباحة رقم (7) كان مستوصفاً في الماضي، ولقد بقي يعج بالحرائر حتى عام 1984 حيث نُقلن إلى جهة لا نعلمها، وحل مكانهن الشيوعيون من أعضاء المكتب السياسي، وفي سجن تدمر عشر زنزانات فقط، قيل بأنها تحت سطح الأرض في الباحة الخامسة، والبعض ذكر بأنها بين الثالثة والرابعة، كما خُصص المهجعان (21،22) للأحداث، ثم استبدلا بآخرين في الباحة السابعة، إضافة إلى أربعة مهاجع لمن سقط فريسة لأمراض السل والكوليرا، وفي الجهة الجنوبية من السجن يقع المطبخ، ومعظم المهاجع لا تزيد عن (١٨×٥) م، مقتطع منها متران لدورة المياه، أما الجدران فذاهبة في الارتفاع، أربعة أمتار أو تزيد، على إحدى الواجهات تتربع أربع نوافذ عالية يستحيل الوصول إليها لا تزيد سعتها عن ٨٠ سم وعرضها عن نصف المتر، عارية إلا من قضبان متعارضة تحكمها، بالكاد أن تتخللها أشعة الشمس، متى أشرقت.

وللمهاجع الجديدة "شراقتان" فتحتان في السقف مساحة الواحدة منهما متر في الطول ومتر في العرض، تحكمهما أيضاً قضبان حديدية متعارضة، وهي أيضاً عارية من الزجاج أو أي مادة واقية، يلازمهما أحد أفراد الشرطة العسكرية يعد علينا أنفاسنا.

حفلة الاستقبال الرهيبة بتدمر

أطلقت السيارات التي كانت تقلنا صافرات الإنذار معلنة انتهاء الرحلـة، وانتهـاء عهـد واستقبال آخر، واكتشفت أن مجموعة أخرى كانت تصحبنا داخـل ميكروبـاص، كـانوا قـد أجبروا كما الحال عندنا لطأطأة رؤوسهم إلى ما دون مساند المقاعد طوال الرحلة، في الوقـت الذي كانوا يضربونهم بسياط مجدولة من أسلاك الكهرباء (كابلات)، وقد ذكر لي أحد الشباب لاحقاً بأن رحلتنا استغرقت قرابة ستة ساعات، مضت بطيئـة ثقيلـة، محفوفـة بالمخـاطر، مشفوعة بكل ألوان التنكيل، غارقة في كل أشكال الرعب والخوف.

عند المدخل توقف الموكب لبعض الوقت، ثم دبت الحركة من جديـد، ودوّى اسـتنفار، وانتهى إلينا صرير مزاليج الأبواب تُفتح، وما هي إلا برهة حتى دلفنا البوابة والتهمنا الكهف، وبذلك أمسينا في عهدة السجن الأسطورة.

ما أن توقف هدير المركبات، حتى صاح بنا صوت كأنه الرعد قد انشقت عنه السماء:

- كلكن عالأرض ولا!!

فقمنا مدفوعين بالخوف، يستند بعضنا على البعض الآخر، وعلى سـلّم المركبـة وقـف شرطيان يستقبلان مَن هبط بالسياط، ثم ما لبثوا أن حررونا من أغطيـة العيـون، فأبصـرت ضيق المكان على رحابته، كان كل شيء متشح بالسواد، فالأرض معبـدة بإسـفلت أسـود، والجدران داكنة، وأبصرت المأساة ماثلة أمامي للعيان، وكان الدرج بدوره أسـوداً، والممـر منخفض وضيق، وعلى صدر الجدار أبصرت الآية الكريمة جاءت في موضعها، حين يجمعنا عند الله الملتقى واللقاء: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾، وقريباً منها قـرأت: "الـداخل مفقود والخارج ولد مولود"!!

ولفني شعور غريب بائس، كنت كالغريق تمضى به الأمواج إلى أسـفل القـاع، حيـث الرعب والرهبة والمجهول!

قام عنصر من المخابرات العسكرية بفك قيودنا، ثم أمرنا بأن نهرول إلى داخل إحدى الحجرات، وسط بركان من الزجر والضرب، وجوهنا إلى الحائط، مأمورين بالاصطفاف بعد ذلك في رتل رباعي طويل، ثم عادوا فجعلونا في دفعتين، مضوا بالدفعة الأولى وبقيت الثانية، وكنت ضمن الدفعة الثانية، وأحد أفراد الشرطة من ذوى السطوة والجبروت ممسكاً بالكرباج – المصنوع من الجلد السميك المضغوط، والذي غالباً ما يستخدم في المحركات الثقيلة- يستعرضنا طولاً وعرضاً، تاركاً السوط في اجتماع ما لديه من قوة بطيش، يهوي على رؤوسنا واحداً تلو الآخر، ما أن أصابني حتى ظننت أن السقف قد خرّ عليّ من فوقي، وزاد المكان ظلمة، حتى خُيّل إليّ أنني فقدت النظر فلم أعد أبصر، ثم أرعد وأزبد:

– فتحن عيونكن ولا يا أخوات الـ...، ارفعوا روسكن لفوق يا عرصات. فإذا بنا وجها لوجه أمام صورة دوّن أدناها بخط رقعي- طالما كان جميلاً إلا في هذا الموطن- بطل التشرينين ومحرر الجولان، نبصره كالغباش من خلال السياط، ثم عاد فأرعد، ونضح فاهه بما فيه من المجاري:

– هذا سيدكن (سيدكم) وتاج راسكن (رؤوسكم) يا أولاد المـ...

ثم شرع في تسلق أكتافنا، وراح يجرب السير علينا وهو يتوعدنا إن سقط.

لا معنى للزمن هنا، لا ندرى شيئاً عما سيأتي، غير أننا كنا دوماً في انتظار الأسوأ، ونحن على هذا الحال أمرنا بترك أغراضنا جانباً، ثم نادوا علينا فرداً فرداً كي ننتقل إلى الغرفة المقابلة، على بابها ثلة من الجلادين الغلاظ يتلقوننا، يضربوننا بسياطهم المريعة التي جاءت على الوصف الذي ذكرت لك آنفاً وبعضا زاد قطر الواحدة منها عن 6 إنشات، لمحت الجلاد يهوى بها بكلتا يديه على من اجتاز أمامي، فلم أصدق عيني حتى جاء دوري، فهوى بها، وما عدت أذكر كيف عاد نفَسي الذي تحشرج حتى كاد أن يخبو، غير أنني غدت فتحاملت واقفاً ثم جريت، بهذه الصورة كانوا يوجهوننا إلى الذاتية، مكتب يحتله اثنان بلباس مدني يقومون بتدوين الأسماء والعناوين والمهنة التي كان يزاولها كل منا قبل الاعتقال، ما أن مثلت بين أيديهم أنوء من وقع العصا، حتى بادرني أحدهم بالسؤال عن اسمي؟

ما أن نطقت به، حتى تلقفتني الأيدى بالترحاب، في خضم ذلك، لهجت ألسن (جمع لسان) الحاضرين بأقذع ما يخطر على قلب بشر من الشتائم والسباب، وما عدت أميز من كل

هذا الخليط إلا قولهم "قرد أُوْلا أردني، والله لَنَسيك الحليب اللي رضعتك إياه إمّك، يــا أخــو الـــ.."

كانت المفاجأة أن تأخذ بتلابيبي، لكنني تماسكت، وظل شيئاً واحداً يرعبني، هــو أنـنـي صرت مميزاً! ويكفي أن أكون على هذا النحو من التمييز، كي أكــون دومـــاً تحــت طائلـة الطلب، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. ثم عاد أحدهم ليسألني عن عنواني؟ فأجبت، ثــم سأل عن مهنتي؟

- طالب.

- طالب شو؟

- طالب هندسة مدنية.

- وين عم تدرس؟

- في ألمانيا الغربية.

ورنت في المكان قهقهة، ثم تلاها تصفيق بكلتا اليدين:

- وزاد في الطنبور نغماً! سنحتفل بتخريجك هنا..

وما عدت أبصر دربي وهم يصرفونني بين زاجر ضارب، وبين عاقر ضارب، وراعــد بارق، فالسياط في كل ركن، والعصيُ في كل زاوية، الكل متربص، وما انقطع الكل يصــيح مع انهمار الضرب.

- غمض عينك يا حقير، راسك في الأرض يا منحط. والله لـــ... أمك يا أخو الـــ....

على سياج حديدي رأيت من سبقني، قد افترشوا الأرض علـــى ركــبهم، قــد طــأطئوا رؤوسهم حتى غاصت بين جنبيهم، وجوههم إلى السياج، من حولنا مجموعة من جنود غــلاظ من الشرطة العسكرية، ما انفكوا يضربوننا بلا هوادة، جو من الرعب فظيع، ثم فجــأة نــادوا على الملازم أول المهندس رضوان خالد الرضوان، وكانت ليلة مشهودة - لهــذا المحتســب الصابر- له ولنا جميعاً عند الله، كان صوت صراخه واستغاثته تملأ أركان السجن بجهاتهـا الأربع، وما كنت أعتقد بأنه سينجو بعد كل الذي تجاوزوا به عليه، إلا أن قدر الله سبق في الأزل ألا تموت نفس حتى تستوفي أجلها وأرزاقها، وسبحان مقدر الأرزاق والآجال، سبحانه وتعالى.

ما أن اكتمل العدد تمامَ واحد وأربعين، حتى ساقونا كقطيع من الأغنام ثانية تحت وطأة السوط والعصا مهرولين في صف طويل متعرج من باب صغير التهمتنا بعده الباحة الأولى؛ بانتظارنا على الباب شرطي آخر بكرباج في يده، لم يخطئ منا أحداً إلا وأصابه، في الوقت الذي كانت مجموعة أخرى من الشرطة الموغلة في الإجرام على يمين الشرطي الأول، بانتظار إطلالتنا كي يتلقوننا مرة أخرى بالعصي والسياط، وهم يصرخون:

- غمض ولا، راسك في الأرض!

وما هي إلا لحظات، وكأن زمن الدنيا اجتمع فيها، حتى احتوانا المهجع رقم 2، في الباحة الأولى على يسار الوالج من البوابة الرئيسة، ثم أحكموا المزلاج، وزادوا الإغلاق بإدارة المفتاح في الأقفال وانصرفوا.

المهجع رقم "٢" بتدمر

قضينا ما بقي من ثلث الليل الأخير منشغلين بجراحنا عن البرد الذي غطّى المكان، واختلطت رجفة الخوف برجفة البرد، وصارت الظلمة تضفي على المكان جواً يذكرك بالمقابر، ورحت أطوف على عالم البرزخ أتفقد العدد، فقد كان من الصعب عليّ أن أصدق بأن أحداً ممن معنا تخطته المنية فلم يمت، ولم يكن بمقدور سواد الليل وحلكة ظلامه أن تخفي أنين المعذبين المكتوم، كما أخفت جراحهم وكسورهم ولو إلى حين، وما كان بالإمكان أن تتعرف في دكنة الليل وعتمته إلى أي من البائسين، وكان على رأس أولوياتي أن أطمئن على أبي صهيب، ذلك الملازم العملاق، فأخبرني بعد أن أجهدتني الحيلة في الوصول إليه بأنه بخير، وما زاد على أن قال:

– في سبيل الله، نسأله القبول وحسن الختام!

وردد عبد السلام تسقية، محمد قطّيع، يوسف زين العابدين، وأبناء آل الصغير الثلاثة، وكل الحاضرين، رددوا جميعاً نفس العبارة، ولم أجد من بينهم نادماً أو شاكياً، ولعل اشتراك الجميع في الابتلاء كان هو العزاء، وما كان يبعث على الأسى في كل تلك المشاهدات، أنك تكاد تجزم أن جمعاً غفيراً من هؤلاء لم يكن لهم من ذنب اقترفوه، أو جرماً ارتكبوه، إلا أن لهم درجة من درجات القربى، أو الصداقة من مطلوب عجزت يد الظالمين من أن تطاله أو تصل إليه.

اعتقدنا أن حفلة الاستقبال قد انقضت، أو لعلنا أردنا أن نتحايل فنقنع أنفسنا بذلك، كصغار مرضى لا يعثرون على الدواء، راحت تعللهم أمهم بالشفاء حين يطل الصباح، فلما أطل الصباح عدا القدر على الأم فاختطفها مبقياً براعتهم نهباً على موائد اللئام، هكذا كنا تماماً، وهكذا رحنا نتعلل الليل بطوله، كي نطرد عنا كل الهواجس الخبيثة، غير أن أنوار فجر حالك أطلت، كما لو أنها أطلت على غير ميعاد، وما أن بدأ الليل بالرحيل حتى بدت تتكشف بشاعة الجريمة التي عشناها في الليلة السابقة، كانت رؤيا الدماء والأعين المقفلة

والأيدي المشلولة عن كل حركة، والتي استحقت التمريض ومن يتعطف على أصحابها في جبر الخاطر، في مكان عزت فيه أي نخوة أو الحد الأدنى من جبر أي خاطر، كانت هذه المشاهد تبعث على الحنق والتفجع.

لقد كانت قوانا عند آخر حدودها الدنيا، ومع هذا قال الكثيرون بأنهم ما زالوا يحملون بين جنباتهم عزيمة تضاهي قوة الحديد بل هي أكثر.

وما أن أطلت الشمس على يومنا الأول الأسود في دنيا العذاب الذي سنحياه في هذا المكان، حتى راحت تفتح أبواب وتُغلق أخرى على وقع أقدام وتوارد لازمة بالكاد أن نتبينها، أو أن نعلم مصدرها، وكانت تلك هي هتافات رؤساء المهاجع - كما خبرناها مع الأيام - وهم يقومون على تقديم مهاجعهم لحضرة الرقيب! وبالعبارة التي ما انكفأت أستمع الى ترداده على مدار أربع سنوات وزيادة، هي مجموع ما اختطفوا من عمري في تدمر التاريخ والحضارة، تلك العبارة التي مارسوا علينا بها عهرهم الذى تخطى حدود الدجل المفرط في مهزلة اسمها:

- المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب!!

وكان رئيس المهجع مجبراً على ترددها حتى لأدنى الرتب، ثم فُتح الباب لتطل من خلفه تباشير جريمة بشعة، ولتطل وجوه طلعها كأنه رؤوس الشياطين، رأسان لجلادين وقفا بحبالهم وكرابيجهم وعصيهم على الباب، بينما انتشر البقية في أرجاء الباحة المعبدة بالإسفلت، وفي كلمة مدوية مروعة مرعبة صاحوا بنا:

- الكل برًّا يا مجرمين!

لا أدرى كيف حملتنا أقدمنا - لا سيما المصابين منا - فجرينا، وكنا نهرول مرعوبين كغنم تخلى عنها راعيها بين قطيع من الذئاب الجائعة، أُجبرونا على الاصطفاف فُرادى متباعدين على الجدار تحت لهيب السياط، ثم أمرنا بالتقدم خطوتين الى الأمام، ما لبثوا أن صاحوا بنا كي نتجرد من ملابسنا وأحذيتنا، فامتثلنا، بدؤوا في تفتيشنا دون أن يعطوا السياط والشتائم البذيئة لحظة استراحة، وراحوا يمارسون نوعاً من السادية حين شرعوا في نتف شعور لحانا وصدورنا ورؤوسنا، وهكذا استمروا دون أن يتركوا لنا لحظة كي نلتقط أنفاسنا، لا ينفكون عن الصياح بنا كي نبقي على إطباق أعيننا، وأنت مغمض عيناك لعلها كانت تقمية

في طي نعمة، كي لا تبصر ما يدور حولك، وحتى لا تبصر وقع السياط، فيهوى فؤادك من رؤيتها جزعاً وفرقاً.

ما كنت أدرك يقيناً أين يقف الجلاد مني، لكن الذي رحت أدركه هو أن مجموعات كثيرة من الجلادين القساة الغلاظ، راحت تعيد انتشاراً للرعب عما قليل سينتظمنا جميعاً دون أن يستثني منا أحداً، أدركنا ذلك في استماعنا لحركة الدواليب (إطار المركبات الخارجي) وما يسمونه بساط الريح، والفلقة والعصي والسياط والكابلات، و...

كانت هنالك مجموعات من الطوافين المتجولين، مهمتهم ضرب الذين أمروا أن يفترشوا الأرض والذين هم بانتظار أن يساقوا إلى الدولاب والفلقة، أما من سُحب إلى الفلقة والدولاب، فيا لهف نفسي على من سُحب إلى الفلقة والدولاب، ضجت الحناجر بالهتاف إلى الله، وهتف من وجد لديه بقية من رمق تحت نيران ثلة من العسكر يكوونه بها قائماً وقاعداً وعلى جنبيه:

– أنا وقيعكم، أنا دخيلكم!!

يا لله من هول الموقف، وكلما شطوا في العذاب، زاد جئير الضحية، عندها يلقموننا مقدمة أحذيتهم وهم يشتمون ويلعنون ويضحكون، فإذا ما خمدت الأصوات وتراجع ترديد الرجاء والتوسل، وأخذ الجسد الواهن إغماءة فتهاوى، قاموا إليه فداسوه بنعالهم، فإذا ما استفاق من غيبوبته، أمروه وهم يوجهونه بكرابيجهم صوب زاوية من الحائط، وإلا جروه حتى يستيقظ أو يموت!!

كان الضرب رهيباً، وكانت لفرقعة السياط وقعاً نفسياً مزرياً لأولئك المنتظرين، وكنت واحداً منهم، فمن صار في الدولاب مطوياً ناصية رأسه إلى أخمص قدميه المربوطتين في عصا الفلقة، قد انهالوا عليه انهيال الكلاب على الفريسة، هؤلاء عما قليل سينتهي شأنهم، إما أن يفرزوا مع من نال نصيبه من العذاب، أو إلى ربٍ هو أرحم بهم من الأم بولدها، حالهم بين يديه – وهو الأعلم بهم – يغنى عن سؤالهم، أما نحن المنتظرون، فحدّث عن مأساتنا ولا حرج.

لقد كان الانتظار فظيعاً فيه اجتماع الهلع، زاده إهانة عناصر الشرطة الجوالة بطوافهم علينا، ونحن جاثمون وجوهنا الى حائط المهجع رقم "4"، بسياطهم المصنوعة من الكاوتشوك المضغوط كما أسلفت سابقاً، يوسعوننا تنكيلاً وضرباً، لا أعتقد أن بطلاً جلداً من أبطال

الأرض يقوى على احتماله، ضرباً ينصب على الرؤوس والأظهر صباً، عندها يختلط صراخ الجاثمين على الأرض بصراخ القابعين في جوف الدولاب.

لك الله يا سوريا، ولكم الله يا أبناء سوريا، متمثلين في توسلات الملازم المجند أبو صهيب، وقد زاد مكثه في الدولاب عن ساعة، جرَّعوه، كما هو الحال لنا جميعاً من أصناف العذاب – والله الذي لا إله غيره يميناً لا أحنث فيها– من أصناف العذاب ما أجدني أعجز من أن أصفه، مهما تأتّى لي من أصناف البلاغة، ومهما ألهمني الله من البيان والتبيين!

لم يرحموا المحامي الرقيب يوسف زين العابدين صاحب الأقدام المسلوخة، التي شويت على نار هادئة أثناء الأشواط الأولى من التحقيق في فرع إدلب العسكري، لم يرحموا له هذا الوضع الذي كان يستوجب الشفقة، سيما حين عرفوا بأنه مجند في سلك الشرطة العسكرية. أما محمد قطّيع، فلا أعتقد أن لغة من لغات الأرض سيكون بمقدورها أن تعبر عن الصورة التي تركوه عليها، كومة من لحم وعظم، يصعب عليك ان أصدق بأنه من البشر، يا لهول الفاجعة، لقد تبدلت كل معالمه، حتى لأخالك في حاجة إلى من يدلك عليه من خلال إشارة أو علامة!!

لقد كنت أستمع لمن سبقني إلى المحرقة، وهم يتشفعون لدى الجلاد بكل زعيم يؤمن الجلاد به صنماً يعبده من دون الله، وقليلون من أسعفتهم بقية من قوة، فما زالوا يئنون، وكانت أنّات من اجتاحهم الإعصار مريرة، يجاهدون أنفسهم على إخفائها، وكلما اقتادوا الذي يلي في الدور، كنت أحس بدنو اقتيادهم لي، وما أصعبه من شعور فيه من الهلع ألواناً ومن الغم والهم تشكيلة لو أعطيت على المقاييس درجة، لحازت أعلاها بلا منافس!! وكم تمنيت لو أنني كنت مع الدفعات الاولى، فلعلني وعساي أرتاح من وطأة هذا الكابوس الفظيع!! وكنت أخشى أن يفطنوا لي، فأنا مميز وافد من الأردن، البلد الذي يناصبونه العداء منذ سنوات، ومثلي من يُثأر منه، ما أصعب أن تعيش لحظات الخوار والعجز بين يدي عدو لئيم لا يرحم، وما أقسى الاستشعار بالذل والخنوع، سيما إن كان الذي يمارسه عليك نذلاً من حثالات البشر، ويا لبؤسك أعزلاً مزروعاً بالفزع، وحولك عتاة متربصون، كنت على هذا الوضع حين امتدت إليَّ أيدٍ غلاظ فانتزعتني من مكاني انتزاعاً، وكنت مسك الختام في الدفعة الأخيرة، كان كل عضو مني يرتجف فرقاً، وأدركت بأنني صرت في قبضة أوباش ملتت

قلوب الرحمة عندهم، رضعوا أحقاد الأرض مع حليب أمهاتهم، إن كان لهم أمهات يعرفونهن، وإلا فهم أبناء عهر قرمطي ما له من حدود، ليست كلمة الشرف أو الفضيلة من مفردات معاجمهم، همهم أن ينتقموا من كل الشرفاء لا لذنب ارتكبوه، إلا لأنهم شرفاء!!

حين بسطوني أرضاً، شرعوا في سلخ جلدي دون تعليقي إلى المشجب، ولعل من رحمة الله، أنهم لم يفطنوا لي، مما أدخل إلى نفسي بعض السكينة، وإن كنت في النار أحترق، وحين انهمرت السياط، كنت أصيح كما هو حال غيري، فلا مجال أمامك هنا إلا أن تجأر بالصراخ شئت أم أبيت، فأنت تدور في ساقية الدم، وكم من الأيام والسنون ستمر بك وأنت على هذا الحال، في الساقية حتى الموت، أو يأذن الله لك بفتح من عنده مبين.

لحظات وينعدم عندك الإحساس بالمكان والزمان، لا تلبث أن يأخذ صوتك في الذبول حتى يغدو كحشرجة نفس ثم يطبق عليك الصمت، فتصاب بنوع من البلادة كما لو أن مجسات العصب عندك قد تعطلت أو ماتت، لذا لم أجد شيئاً آسو عليه حين شرعوا بنعالهم الغليظة يأتون مهرولين، وبما اجتمع لهم من ثقل أوزانهم يقفزون على ظهري، وأنا منبطح قدماي مسنودتان في الهواء الطلق، يهوون عليها بسياطهم، مستسلم لا طاقة لي حتى على الصراخ أو الأنين، من كان يصدق أن أقوم بعد هذه المجزرة واقفاً مهرولاً على قدمي، متلمساً دربي بين صفين من الجلادين، يوجهونك ثانية بالسياط، كي تحمل ملابسك التي خلعتها قبلاً باتجاه المهجع رقم "2"، في حين دلفه الكثيرون زحفاً، وصار اللحم المتفسخ والدماء المراقة عنواناً للمكان، وما عادت لشعارات مهترئة دُونت على امتداد الجدران في باحة التعذيب، مثل وحدة حرية اشتراكية أي معنى من المعاني الجميلة، هنا أدلجوا بنا إلى حلبة الفناء الفظيع، تحت وهج الشمس التي أرادونا أن نكتب عليها اسم بلادي، كي لا تطويه الذكريات لينتهي إلى صندوق النسيان العجيب، ومتى أمكن للأسى أن يُنسى؟! لحقوا بنا إلى داخل المهجع كي ينثروا على الموت ملجأ، وكان قول الحادي هنا للعصا، ذات الإنشات الست وزيادة، ظني أنها قُصفت من جذع شجرة غليظ، دخلوا كالبركان لا يفترون عن صب جحيم أحقادهم علينا وهم يصرخون بلهجتهم الجبلية الغريبة:

- ولكو يا أخوات الــ... والله لنشويكن، ونشرب من دمكن، ما بدنا نسمع صوتكن..

مهلاً يا صاحبي، والعذر إليك موصول، فحكاية يومنا هذا لم تنته بعد، والباب ما زال

مشرعاً لم يغلقوه بعد، لقد شتموا إلهنا وديننا ونبينا إيغالاً في زيادة الأذى، ولم يكن بمقدور المسن الحاج أحمد أحد أبناء جبل الزاوية في إدلب احتمال المزيد، فمات تحت وطأة العصا والقهر والظلم قبل أن يرتفع الأذان لصلاة العصر، وبذا يكون عددنا لهذا اليوم قد هبط إلى الأربعين. كان المهجع رقم "2" قذراً، فبقع الدماء التي تُركت على الجدران المصمتة المقرورة من بقايا الجريمة ما زالت حتى ذلك الحين شاهدة، لا أدري لماذا لم يعملوا على إزالتها! والحفر التي خلفها الرصاص دون أن يستروها، دليلاً ماثلاً على المجزرة التي أقيمت للأبرياء العزل صبيحة يوم السابع والعشرين من شهر حزيران "يونيو" عام ثمانين وتسعمئة وألف، وكان طول المهجع لا يزيد عن خمسة عشر متراً، بما في ذلك المكان المخصص لدورتي المياه، وأما العرض فخمسة أمتار أو ما دونها.

هكذا عشنا تلك الساعات التي ما أحسبها محسوبة من الدنيا، خرجنا منها قد درس فيها ما أبقوه لنا في ليلتنا الماضية من الأطلال، وصرنا كحديقة خويت على عُروشها، بعد أن كانت ثمارها يانعة، وجوه قد ذهبت محاسنها، وأرجل قد فارق جلدها لحمها وعظمها، وأظهر قد ناءت بكلكلها، فما عادت تستقيم فقراتها، وعيون أُطبقت فما عادت تبصر دربها، ورؤوس تورّمت ما عادت تستوعب غير أننا في المحنة نهرس ونطحن، وأيدٍ تكسرت فما عادت تقوى على الصد أو الرد، وأمور كثيرة أخرى ما ندى للجاني الباغي وهو يدير دفة مركب ظلمه في بحر بؤسنا وعذابنا أي جبين. لا تتعجل يا صاحبي، فالحكاية ما زالت في أشواطها الأولى، ستدرك تباعاً بمشيئة الله إن كان في العمر بقية، آه من طول دربي وقلة زادي وانقطاع سندي.. آه!!

غريب الدار ليس له صديق	جميع سؤاله أين الطريق
تعلق بالسؤال كل شخص	كما يتعلق الرجل الغريق
فلا تجزع فكل فتى سيأتي	على حالاته سعة وضيق

استلام البطانيات

لم تكد تمضي ساعتان على تدشينهم لحفلة الاستقبال تلك، حتى عاد الباب ليفتح من جديد، وصاح المجزم فينا:

- الكل على الحيط يا أخوات الشـ...

فجرينا إلى الحائط، قد عاد الرعب فانتظمنا ثانية، وأطل رقيب ومجندون، لعله مساعد السجن أحمد كيساني كما عرفناه لاحقاً، انفجر على سجيته في لعن آباءنا وأجدادنا وإلهنا وأخذت أمهاتنا وأخواتنا وأعراضنا وديننا من طفح مجاريه، فلم يُبقي ولم يذر، ثم صاح ثانية:

- وينو رئيس المهجع يا أولاد الـ...يا عرصات يا قوادين؟!

ولما لم يجبه أحد، اشتاط غيظاً:

- ليش ما عم تحكوا يا كلاب، في بينكن عسكريين ولا أنت وإياه، وينه الكر الملازم وينه؟!

يا لها من لحظات عصيبة، عادت القلوب فيها أدراجها إلى الحناجر، وخرج أبو صهيب يتهادى على الجدار إلى أن وصل إلى الباب، وفي ركل ورفس وضرب ألقى إليه الرقيب بالتعليمات:

- أنت يا جحش من الآن فصاعداً بتصير رئيس المهجع، متى استشعرت أي حركة بالقرب من الباب، وجب عليك تقديم الصف لحضرة الرقيب، مفهوم يا كر؟!

- حاضر حضرة الرقيب!

- قدّم الصف يا كر.

كان أبو صهيب جاهلاً حتى ذلك الحين كما نحن جميعاً بالطريقة التي يتم فيها تقديم الصف، أو تقديم المهجع، وهنا يعلو صوت الجاهل الرقيب لاعناً، هم تماماً كخنافس روث الدواب، فاللعنات من أقوات حياتهم اليومية، لا يمكنهم الاستغناء عنها.

- بصوت جهوري تهتز له أركان السجن الأربعة، يجب عليك أن تقول "انتبييه، استاااارح، استاااعد، المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب!"، فهمت يا ابن الـ...؟

- فهمت يا حضرة الرقيب!

كانت فرحتهم بلا حدود، حين راحوا يتمننون علينا بالأغطية العفنة، من بطانيات لعلها من بقايا حقبة الاستعمار الفرنسي، قد انمحت أوبارها تماماً، بالية، تفوح من ثناياها رائحة الموت، قد سكنتها حشرات الجرب، والقمل والبراغيث، بالكاد أن تقيك برد الشتاء، أو تظليك من حر الصيف، أما العوازل فلا تقل عنها سوءاً، طبقة من قماش يفترض أن تكون من شادر مقوى، بطول مترين وعرض يقل عن نصف المتر، كان علينا افتراشها عند النوم كي تقينا قاع الأرض المقرور في الصحراء الباردة إلى حد التجمد ليلاً، حتى هذه المهمة لم يكن بوسع هذه العوازل أن تؤديها، ثم راحوا يعدونها علينا بالسياط، لم ينقطع الضرب طوال فترة العد:

- هاي عهده يا أولاد المنـ... إذا ضاعت واحدة أو تم إتلافها، يا ويلكن يا ظلام ليلكن!

وهم يهمون بالمغادرة وبنفس اللهجة:

- قدم الصف يا عكروت!

- انتبييه، استاااارح، استاااعد، المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب!

صار واجباً على أفراد المهجع مع هذه اللازمة أن يدقوا أرجلهم المهترئة في حالة استعداد دائم عند فتح الباب أو إغلاقه، صاح وهو يدير المفتاح في القفل:

- المهجع انتهى من التفتيش يا حمار!

ثم ولّوا مدبرين باستلام البطانيات، وبذلك النشيد الخالد صرنا في عهدة سجن تدمر العسكري.

سخرة الطعام

عند ظهيرة ذلك اليوم الأغبر القاتم، عاد القفل لتُحركه الأيدي الآثمة، وصاح أبو صهيب حين هبينا واقفين مذعورين:

- المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب!

وجاء دوي كالرعد:

- وين السخرة يا ابن القـ... أنت وإياه، يطلعوا يدخلوا الغذاء!

لم يجرؤ أحد على الخروج، ففرقعة السياط تملأ رحابة الباحات جميعاً، وولولة البؤساء وصراخهم ينتهي إلينا من كل حدب وصوب، غير أن جرأة خفية عجيبة اندفعت لتملأ كل جارحة من جوارحي، فاندفعت أشق الجمع باتجاه الباب، وما هي إلا أن انحنيت على أحد الجاطين (وعاء من البلاستيك)، حتى انهمر سيل من السياط، لكنني تماسكت وعدت بجاط الأرز أغوص في بحر من الدم الذي جرى غزيراً من أنفي، لم أعبأ لكل تلك السياط، فلقد كان الخوف الذي لبسني أقوى من كل ألم يستشعره المرء في مثل هذه الأحوال، والصدق يقال لا أدري كيف خرجت ولا أدري كيف دخلت!

وهكذا استمر إدخال الطعام، وإخراج الفوارغ، عند كل وجبة طعام، كانوا يتوعدوننا بضرورة أكل كل ما يدخل!

كانت القلوب آهلة معمورة، والنفوس آزفة مسدودة، فلا شهية لأحد منا في طعام أو شيء من طعام، مع أنه مضى زمن طويل دون أن نأكل، ورحنا نبحث عن طريقة نستطيع من خلالها التخلص من جاطين أحدهما مُلئ مرقاً بلون الدم، والآخر فيه أرز، نادراً ما استلمناه كامل الطهي، وما زالت تأخذنا الحيرة ذهاباً وإياباً للخروج من هذا المأزق، إلى أن جاءت فكرة تصريفه عن طريق دورة المياه، وهكذا كان.

التفقد

قرابة الثانية ظهراً، كانت تتوارد إلينا أصوات رؤساء المهاجع في الباحات البعيدة وهم يقومون بتقديم مهاجعهم لحضرة الرقيب، فاجتاح الهلع أفئدتنا من جديد، ما عساهم يفعلون؟ وهكذا سرت عدوى هذا السؤال بين الجميع، لم يطل الانتظار، فقد اقتربوا منا، وبدأت أبواب الباحة التي نحن فيها تُفتح، وسمعنا أرجلاً كثيرة تُهرول، إنهم يأمرونهم بالخروج إلى وسط الباحة، لا ينفكون يضربونهم بقسوة، يا إلهي ماذا يفعلون؟ ولم تطل الدهشة والاستغراب، فلقد سمعنا صاحب الصوت الكريه "أبو جهل" الاسم الذي ألحقه به السجناء، أحمد كيساني مساعد أول انضباط السجن، سمعناه يعوي:

- على التفقد يا عرصات!

حتى إذا ما انتهى أبو جهل من تدوين العدد، بدأت جولة جديدة من العذاب، ولكل مهجع على عود حزين منفرد النغم، تبدأ بالخروج مهرولين اثنين اثنين، رملاً تحت عز الطلب، رؤوسهم مطأطئة، وانصباب السياط والعصي والكابلات منهمر انهمار الغيث في اليوم المطير، يأتي على غير ميعاد من الأمام ومن الخلف ومن على الجنبين أو "الميلين" بلهجة إخوتنا اللبنانيين، في الوقت الذي لا ينفكون فيه بتذكيرك أن تبقي عيناك مغمضتان:

- أسرع يا حقير.. خليك مغمض عينك.. وطي راسك في الأرض.

وهكذا تكون رحلة العودة الي المهجع، قد وقف بمحاذاة باب المهجع مجرمان بقبعاتهم الحمراء، في أيديهم الكرابيج، يتصيدون كل داخل، ومَنْ من البؤساء لا يدخل؟

عاد الجناة فحركوا القفل، فانتبهنا قياماً، وقدم أبو صهيب الصف من جديد، ثم فُتح الباب، فهبت مع فتحه لفحات كما لو أنها من السموم، وفي أوج المعاناة صاح أبو جهل:

- وين الرتل الخماسي ياللي حضرتوه للتفقد أولاً يا منـ.. يا إمعرصين!

ثم نادى على رئيس المهجع، فأمره بالانبطاح، وأن يرفع رجليه في الهواء، وما عدت

أذكر كيف هجموا عليه، فداسوه بكرابيجهم، وكابلاتهم وأرجلهم، قد ضاعت في المعمعة توسلاته وقد علا صراخه، ثم أمرونا أن نقف متباعدين وجوهنا إلى الحائط، في الوقت الذي سار فيه العد متوازياً مع الضرب المبرح، كنت أسأل نفسي بحرقة:

- يا إلهي! ألا يتعب هؤلاء!! ألا يملّون؟!

بعد أن أنهكتنا سياطهم وهم ينصرفون مصحوبين بكل أطياف الشتم والسباب والكفر، هددونا بالويل لنا والثبور إن جاؤنا في الغد على هذا الحال:

- بدنا نشوف رتل خماسي مترادف، مفهوم؟

ورد أبو صهيب وقد أعيته الحيلة فما عاد يتحمل:

- حاضر حضرة الرقيب.

ثم أطبقوا الباب بإحكام وانصرفوا.

توضأ مَن وجد في نفسه طاقة في تحمّل الماء، تيمم الباقون، وصلّى الناس الظهر والعصر جمع تأخير على هيئاتهم، فرادى كيفما تسنّى لهم، كذلك فعلوا في المساء. وانشغل كلٌّ في نفسه، أشغلونا في مداواة جراحنا، شغل الله قلوب الظالمين وقبورهم ناراً وجحيماً.

ولكي يكتمل لنا نهارا دسماً غير منقوص، مختوماً بحفلتي المساء والسهرة، كان لا بد وعلى رأي المثل السائر أن يكتمل النقل بالزعرور، وذلك بالتعريج على وجبة طعام العشاء، فما كانت لتقل سوءاً عن حفلة التفقد، فأردت ثانية أن أصنع من نفسي شيئاً ينفع الناس، فاستجمعت قواي كي أريح نفسي من هواجسها، واستهوتني فكرة أن أكون فداءً لكل من حولي، فاستسلمت لقضاء الله وقدره، حتى إذا ما اهتز القفل في أيدي الجناة، ونادى أبو صهيب بأن المهجع صار جاهزاً لحضرة الرقيب، وبجرأةٍ على الله وخلقه في أقذع ما اقترفت ألسنتهم المسفة من الشتائم، نادى الرقيب على السخرة لإدخال جاط يتيم من شوربة العدس المخلوطة بكل حصى الأرض وترابه، ومع أن إحساساً كبيراً كان يكتنف الجميع بالقنوط والإحباط، وليس من حاجة ماسة إلى المكابرة، غير أن شعوراً من التحدي كان يكتنفني، فحملتني قدماي إلى الباب، فاجتالتني السياط وأنا أجري بالجاط إلى داخل المهجع، وعلى عجل أغلقوا الباب، ولما همّوا بالانصراف تجرأ أبو صهيب فسأل عن وقت النوم؟ فنهق الرقيب من الخارج:

- في السادسة مساءً لا أريد أن أرى كراً منكم في وضع استيقاظ!

في الوقت إياه زحف بعض الإخوة باتجاهي، وهم يتحسسون مواطن السياط مني، وما زادوا أن قالوا:

- نسأل الله أن تكون لك أجراً وعافية. وابتهل البعض إلى الله بأن يشل أيدي الجناة والظالمين وأرجلهم!!

احتسى من وجد في نفسه شهية لطعام شيئاً من شوربة العدس على عجل، وطلب إليّ أبو صهيب، وكان أشدنا إنهاكاً، أن أتولى توزيع العوازل والبطانيات على المنهكين حتى النخاع، وكذلك توزيع أماكن النوم، وندبت عبد السلام تسقية في إعانتي فلم يتردد، في حين غط أبو صهيب في نوم عميق، راح يعلو معه شخيره، منذ ذلك الحين أصبحت المعاون الأول في إدارة شؤون هذه المملكة البائسة المقهورة!

التنفس

كان الحدث الأبرز في اليوم التالي هو التنفس، وما أدراك ما التنفس، إن كنت ذا قلب شجاع فاستجمع قواك وأعرني قليلاً من صبرك، وإن كانت لديك سعة تصوّر فأغمض عينيك قليلاً ثم أوغل في الخيال، فلربما ألممت ببعض التوجع والتفجع والإذلال الذي عانيناه وتجرعناه!

تُفتح الأبواب على السجناء، فيتاح لهم الخروج إلى الهواء الطلق، كي يتعرضوا لأشعة الشمس والنور، وتمارين مختلفة من الرياضة، هكذا هو الحال في السجون العاديّة، أما في تدمر فلا أنكر بأن هناك فرصة للتنفس.

لا تتعجل يا صاحبي، فكل شيء في طريقه إليك، في الصباح يأتيك صوت المجند وجيه مرافق الرقيب مرهج في الدورية، وهو يزمجر بكرباجه، ضارباً كل ما يصادف في الباحة من جدران، من دلاء بلاستيكية، يأمروننا دوماً بإعدادها لهم يعلوها بشكير، كي يجلسوا عليها متى طاب لهم أن يجلسوا، ثم يطلون علينا من فرجة الباب، وهم يكيلون لنا ما شاؤوا من قاموس الشتائم الغليظة، والتهديدات الفاجرة، إن شاؤوا دلفوا الباب فأوسعونا ضرباً فوق الأعناق، ودون كل بنان، وإلا أخذوا أوضاعهم عند فتحة الباب تماماً، وقد نفذ صبرهم الذي لم يتعدَّ برهة فتحهم للباب، ثم يأتي هريرهم كهرير الكلاب، نُؤمر من خلاله بالخروج عراة الصدر والسيقان، فقط بنصف سروال إلى ما دون الركبة، نُؤمر بالوقوف في عرض الباحة، هريرهم يملأ فضاء الله بضرورة الإبقاء على إغماض العيون، وإبقاء الرؤوس في الأرض، وذلك في كلمات تأتي في شيء يشبه فرامل مرَكّبَة، مرت على قضبان حديدية:

– برّا يا كلاب.. يا منيـ... أنت وإياه.. يا.. على التنفس يا أنذال.. بسرعة أنت وإياه يا أولاد الشـ...

ما أن يكتمل العدد حتى نؤمر بالانبطاح على إسفلت الأرض الخشنة، ثم يُنادى فينا بأن نرفع أرجلنا في الهواء الطلق، ولو لم يكن طلقاً لما صلح للتنفس، يلي ذلك هجوماً من العتاة

الغلاظ، فقد دانت لهم العباد، وخلت لهم الميادين، وسلاحهم ما آن لهم أن يغمدوه بعد، وما عاد لي إلا أن أستعير قول الله تعالى محدثاً عن سليمان عليه السلام ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ غير أن هناك موت وزاحة، وهنا جلد فظيع واستباحة، جلد للظهر والأرجل والأيدي والرؤوس، جلد لا هوادة فيه، وحين يضيق الإطباق عليك وترسل ما تبقى لديك من التوسل والصراخ، ثم يوغلون في الجرم، لا تقوى على كتم صوتك الذي تخاله مع سقوط السوط عليك، كما لو أنه ينبعث من أسفل نياط جوفك من الأعماق، ملء الحناجر والأفواه المنفغرة، نتقلب على النار، عراة تكتوي على رمضاء الصحراء طوراً، وتحت زمهرير بردها طوراً آخر، وهم ينهرونك ويزجرونك في ضرورة السكوت بقولهم:

- ولا نفس!!

تكون في أشواطك الأخيرة حقاً قد صرت إلى لا نفس!

بعد ذلك يتعطفون علينا حين يصيحون بنا وقوفاً، ثم نؤمر بجلسة القرفصاء، كل منا يداه تتوسطان خاصرته، كي نشرع بمشية البطة على رؤوس أصابع أرجل ممزقة مهترئة، في شكل دوراني على امتداد محيط الباحة المفروشة بالإسفلت الخشن، وهم من حولنا يستحثوننا السير بسياطهم يضربون لا يفترون، كما لو أننا وإياهم في حلبة من حلبات السيرك، ولعل المأساة تزداد تكشفاً حين يقتحمون المهجع على من تأخر من المرضى، أولئك الذين بان عذرهم، واتضحت أسبابهم في عدم إمكانهم حتى الانتقال إلى دورة المياه لقضاء حاجاتهم، دخلوا ليصبّوا عليهم براكيناً من الغضب والعذاب، فيتحامل البعض من شدة الكرب فيلحقون بنا.. وهكذا تستمر المعاناة في دقائق التنفس المعدودة.

في باكورة تنفسنا الأول، خرجنا جميعاً على وجه التقريب، وكان الخصم هو الرقيب مرهج، أُمرنا بالزحف على وجوهنا، ثم بالسير على أكواع الأيدي والركب، أي والله على الأكواع والركب في أرض مسفلتة بالحصى يقارب في حدة خشونته الزجاج المتحطم، دماء من الركب، ودماء من الأكواع، وكرباج هنا وكرابيج هناك، لا تدري من أين يأتي العذاب، ثم يتلوا ذلك مشية البطة على الوجه الذي وصفته لك سابقاً، وكنت وعبد السلام في مقدمة الموكب الدامي المحروس بعين الرقيب، حانت منه إلتفاتة إلينا، فأشار على الشرطي المرافق، ولعله كان يومها وجيه ناصر، وهو معتوه فيه خلل جيني قد غزا منه الدماغ، بأن يدخلني مع

عبد السلام إلى المهجع، فصاح الخبيث:

- واقفاً أنت وإياه، رملا على المهجع!

ما أن أطلقنا سيقاننا المتهالكة للريح، حتى جرى بقية الإخوة في إثرنا ظناً منهم بأن الأمر للجميع، وكانت مكيدة وقع فيها المغلوبون على أمرهم، وكان الثمن باهضاً ذاك الذي دفعوه لقاء ذلك الخطأ الفادح، فقد اعتبره الجناة تمرداً، فالإذن كان خاصاً بي وبالأخ عبد السلام، وكانت حفلة استباح فيها الطغاة خلق الله، استباحة المغول لأهل لبغداد، في الوقت الذي كنت وعبد السلام نهتز خوفاً وفرقاً داخل المهجع، وراح عبد السلام يسأل في هلع:

- لماذا أدخلونا من دونهم؟ على ما ينوون؟

لم يكن أمامي إزاء كل ذلك إلا أن ابتلع ريقي قبل أن أجيب:

- سيقومون برشنا. ورحنا نبتهل إلى الله، إن كان الأمر على ما نعتقد، أن يتقبلنا في عليين مع الأبرار والشهداء والصالحين!

ساعة من الانتظار المر عشناها، تمنينا لو أننا بقينا معهم، فالموت مع الجماعة رحمة، ويشاء الله أن يعود البائسون بعد طول عناء، قد غطيت الدماء الوجوه والأظهر، قد حملوا معهم من أغشي عليهم أو من أصيب إصابة بالغة منعته متابعة المسير، وحين ولّى الطغاة مدبرين ارتفعت الأيدي بالضراعة إلى الله بأن يزيل دولة الظلم والظالمين.

كانت ساعات الظلام الدامس فسحة للابتهال والاستغراق في الدعاء، وصارت لليل نكهة كتلك التي ينشط فيها العاشقون، عشقناه عشق المحب ملاقاة الحبيب، عشقنا فيه الأمان والهدوء والسكينة، واعتقدنا أنها فرصة يخلو فيها كل بنفسه. وصاح بنا أحد أفراد نوبة الحراسة من فوق الأسطح المجاورة:

- ليش الكهربا ما مشعولة عندكن يا حقرا؟!

ورد أبو صهيب:

- منذ دخلنا إلى هنا ونحن بلا كهرباء يا حضرة الرقيب!

عصر يوم تالي جاؤونا بالمصابيح، كان الكابل مقطوعاً معلقاً أعلى السقف، وبنى الشباب هرماً مبدين نية لم تكن صادقة في إشعال النور، وعلا أحد الشباب الهرم لوضع

المصباح، ولما لم تنطلق الأنوار وكنا نعلم بأنها لن تنطلق، غاية أمانينا أن يبقى الحال على ما هو عليه، ألم أخبرك بأننا صرنا نهوى الظلام؟ ألفنا فيه ستراً، وبعضاً من أمان كنا ننشده بأي ثمن، غير أن الأمور غالباً ما تجري على العكس مما نشتهي، فلربما كان حتف المرء في ما تمناه، لم تنطلق الأنوار، لكن فرقعة السياط انطلقت، وكانت من أسوأ الرزايا، جاز لي أن أنكرها هنا، فهناك الكثير من الأحداث التي عفت عليها الأيام، قد جرت عليها دثاراً ثقيلاً من النسيان، لكن أياماً من الأسى الناقع يصعب على المرء نسيانها، وكان يوم إشعال النور من بواكير أيامنا المشهودة، ما كنا لنصدق أن تنزل بنا هذه النازلة، والتي لا دخل لنا بمسبباتها، على هذا النحو الأهوج، والذي يشبه مجموعة من الضواري قد أحاطت بضحيتها إحاطة السوار بالمعصم، ونادى مَن حضرته بعض ذاكرته:

- يا الله، إن لم يكن بك غضب علينا فلا نبالي، ولكن رحمتك التي وسعت كل شيء نرجو!

الحمام

أسبوع انقضى وهلّ آخر جديد، جاء دور الحمام، حريصون مجزيون بما يستحقون على نظافتنا، رحلة تبدأ من طرفهم بالسياط والصراخ، وتنتهي من طرفنا بالموت والندم والنواح، انتظمت الشرطة في صفين على الميلين، ثم دوّى النفير مشفوعاً بأفجر الشتائم والكفر بالله والدين لأول حمام في دار النعيم هنا:

- الكل بالشورت (السروال الداخلي) يا..

في مثل لمح البصر خرجنا من ثيابنا، ثم أعقب ذلك نباح كلاب:

- الكل برا اثنين اثنين يا..

انتظمنا في رتل ثنائي، تماماً كما طلب إلينا سيدنا ومولانا، والذي أراد أن يكون مُطعمنا ورازقنا وعمّا قليل سيدّعي بأنه مميتنا ومميتنا، لأن الحقد الأعمى لم يبق في قاموسهم أي معنىً من معاني الحياة، بالقدر الذي يهوى المرء أن يكون نظيفاً، بالقدر مضاعفاً صرنا نكره الحمام، وصرنا نحسب له ألف حساب وحساب.

لم ينجُ أحد من لهيب السوط والعصا على الإطلاق، بدأ ذلك مع أول خطوة ساقتنا فيها أقدامنا إلى خارج المهجع، وبين مغمىً عليه قد أمرنا بحمله معنا ونازف دمه، نصل إلى الحمام في أعين مغمضة ورؤوس مطأطئة، قد أمرنا بالتوقف على امتداد الممر المقابل للمهجع رقم "8"، في الباحة الثالثة رتلاً ثنائياً، يستعرضوننا فرداً فرداً، قد طال انتظارنا، في الوقت الذي يمارس السادة عهرهم علينا، ونحن ما زلنا في الانتظار خارج الحمام، ولما توقف الشرطي صاحب النيافة أمامي، وقد كنت على رأس الرتل، سألني عن عملي، فلما أخبرته بأنني طالب، تابع الاستفسار عن نوع الدراسة، وفي أي سنة، حتى إذا ما أخبرته، بأنني في السنة الثانية، أعاد على مسمعي أسطوانة في شرح كرروه عليّ كثيراً، بأنهم سيعملون على تخريجي، ويزيد وقد هوى بالسوط على أم رأسي:

- سنعطيك درجة امتياز، مع مرتبة الشرف!!. ثم تتوالى السياط على ظهري وصدري

العاري، وعلى رأسي ثانية وثالثة و.. تنبعث مني رائحة تذكرك باللحم المشوي على الجمر من غير جمر.

ثم يسيروننا إلى مجموعتين، تدخل الأولى في مدة لا تزيد عن خمس دقائق، يجتمع فيها كل أربعة تحت صنبور الماء البارد، بالكاد أن يتمكنوا من إجراء الماء على السراويل، لتبقى المجموعة الثانية تحت رحمة الجلاد، وحين يصيحون في المجموعة الأولى للخروج من الحمام، كي تدخل المجموعة الثانية، يخرجون وقد علاهم شيء من رذاذ الماء، فيعمل السادة على تجفيفه بالكرباج.

كانوا يعملون على إصلاح النور فترة أخذنا لحمام الهنا، وفي طريق العودة ونحن مأمورين بإبقاء أعيننا مقفلة، بدا أن أحد المتعثرين اصطدم عن غير قصد بأحد أصحاب المعالي من الشرطة، لقد شارف المسكين على الهلاك، من شدة ما تعرض له من الضرب، لم نكن نعلم أن حكاية اصطدام الأخ بالشرطي قاسية إلى هذا الحد، فقد أخذنا بجريرتها جميعاً، عادوا إلينا قبيل العاشرة من صبيحة نفس اليوم فأجروا لنا حملة تأديب، أنستنا حفلة الاستقبال الهينة اللينة في جنب هذا البلاء المبين، جاؤونا على غير انتظار أمرونا بأن نخرج بالشورتات! ويرد أبو صهيب من داخل المهجع، لقد اغتسلنا صباحاً حضرة الرقيب، لم نسمع منهم أي جديد فظننا أن الأمر قد انتهى، لقد كلفت هذه الغلطة الفظيعة، غلطة عدم امتثاله وامتثالنا في خلع ملابسنا، كلّفت أبو صهيب دولاباً داخ فيه كما يقال سبعاً من الدوخات، ثم عاد البلاء فاجتاحنا بموجاته في يومنا هذا من جديد، يوم من أيام تدمر الخالدة، لا تسلني نسيانه يا صاحبي، هيهات لو طالني أذاه منفرداً فكيف به وقد طال العشرات من الأبرياء ولعل مثله قد طال الآلاف من قبل ومن بعد! وما انفك الظلمة العتاة يرددون:

– كي لا يتطاول عرص فيكن، فيمد يده أو لسانه ثانية على شرطي أو عريف أو أي رقيب من الرقباء، هنا تجب عليكن عبادة الشرطة العسكرية، عبادة العابد للمعبود!!

نماذج من جلادي سجن تدمر العسكري

استأنف المهجع "2" استقبال الدفعات الجديدة، من كافة الأفرع النائية، والتي كانت روافدها تصب في كهف تدمر الصحراوي، أقصد سجن تدمر العسكري، وانكمشنا خلف الجدران نتلوى على نار العذاب في فضاء الباحة التي نحن فيها، والذي كان يطال الوافدين والمقيمين على حد سواء، وتردد اسم المجرم الرقيب أول فيصل كحيلة، والذي صار مسؤول انضباط السجن وأمنه خلفاً لـ "أبي جهل"، وكان للأخير بطانة غاية في السوء والإجرام، نذكر منهم العريف فواز والرقيب جهاد وكلاهما لم يبخلا علينا برعاية دون رعاية الحيوان، بقي صوتيهما ونضح خلقيهما يملأ باحات السجن لما يربو عن أربع سنوات عجاف، أما شعبان حسين فلا يقل عنهما لؤماً وحقداً، ومن أين لي أن أنسى الأشوري النصراني نعيم حنا، لقد كان والغاً في الجريمة حتى العظم، عاتياً يشاركه في كل ذلك مجموعة من العرفاء والرقباء والمجندين نذكر منهم العريف شحادة منّ نفس الطائفة، وكان من أبرزهم كذلك شرطي من الطائفة ذاتها اسمه سمير كوشري، ثم درجت الأيام فنعق في دنيا خراب السجن بعد فيصل كحيلة اسم المجرم الرقيب أول محمد الخازم والذي تولى مسؤولية إدارة الانضباط فترة استمرت حتى عُزل مع المقدم فيصل الغانم عام 84 ضمن عمليات تصفية الحسابات بين مَن لم تلد النساء مثليهما حافظ الأسد وأخيه رفعت كما صار معلوماً للقاصي والداني، بعد أن دبت العافية في أردان الأول من مرض عضال ألمّ به إلى أجل معلوم. انتقلت مسؤولية السجن بعدها إلى النقيب بركات العشة، وصار الرقيب سليمان يدير انضباط السجن بشكل مؤقت ومعه مرهج ووجيه ناصر، ومجموعة أخرى من المجرمين.

لقد تفنن الباغون في نسج الجرائم، بدءاً بأدنى الرتب مروراً بمدير السجن يومها المقدم فيصل غانم أحد أبطال جريمة مجزرة تدمر الكبرى في ١٩٨٠/٦/٢٦، ثم الذي تلاه النقيب بركات العشة كلاهما قرامطة فاطميون من محافظة اللاذقية، لتنتهي بمن تولى كبرهم أبطال كل نياشين المجازر على امتداد ما ضاع وما بقي من الوطن، رفعت وحافظ.

توالي وصول دفعات جديدة من المعتقلين

كان من أوائل الدفعات التي تلت دفعتنا تلك، الدفعة التي وصلت من حمص مستهل شهر تشرين أول فبراير عام 1982، كان من بين أفرادها المهندس وليد الشامي، وحدث لم يتجاوز عمره السابعة عشر ربيعاً يُدعى سامر، جيء بهم من حمص، ولقد سارت بذكر مدير فرعها العسكري السفاح غازي كنعان الركبان، لقد خلع هذا الحاقد ثوب الإنسانية، ولبس كل ما خطر على بال البشر من أثواب الرذيلة والإجرام، ومما زاد في مأساة هذه المجموعة، شروع العسكر في حرق شعورهم بالنار، ولقد بقيت رؤوسهم تفيض صديداً وتقيحاً طوال شهور أربع، إضافة إلى الدماء والتقرحات، التي رافقت بعضهم لزمن ربما زاد على ذلك بكثير، والتي بقيت شاهد عيان على عمق الجريمة وبشاعة المجرمين!!

نهاية الشهر وصلت دفعة أخرى، كان من بين أفرادها الشرطي أبو أردان والدكتور محمد خير من دمشق وآخرين، ثم تلتها مجموعة كان من بين أفرادها كل من وكيل وزارة النفط المهندس صالح بمبوق أُعدم لاحقاً رحمه الله، وولده طالب الطب أزاد بمبوق، الأستاذ شهاب اكبازلي أُعدم لاحقاً رحمه الله والمهندس نزار حوا، ثم مجموعة جامع الغواص بدمشق وكان من بينهم الأخ محمد صنوبر أُعدم فيما بعد رحمه الله، وعبد الهادي القاوي وسامر دقماق، وحدث فلسطيني يدعى أحمد أبو اللبن، تلا ذلك دفعة رابعة أو خامسة كان فيها زاهد دركل، وكانوا كما ذكرت يفدون من مختلف المحافظات والقرى والأرياف، لا سيما فرع التحقيق العسكري بدمشق، فرع التحقيق العسكري بحمص، فرع المخابرات العامة، فرع 185 في كفرسوسة بدمشق والقائمة تطول.

كانت الدفعات تصل في معظم أيام الأسبوع، تنطلق ليلاً من الأفرع لتصل مع تباشير الصباح، وكان من أشهر الأيام التي نستقبل فيها الدفعات: يوم السبت تصلنا فيه الدفعات القادمة من حلب وأريافها، أما إدلب فكانت دفعاتها تُحوّل إلى دمشق كي تستكمل إجراءات الترحيل إلى تدمر، ثم يُرتب لها مع من يراد ترحيله من دمشق، كي تصل إلى تدمر صبيحة

يوم الاثنين أو الخميس، أما يوم الثلاثاء فكانت الدفعات تصل من بقية المحافظات والأفرع لا سيما فروع المخابرات العامة.

كان تعداد كل دفعة يتراوح ما بين العشرين والمائة معتقل، وما كان يبعث على الاستغراب هو التساؤل عن إمكانية استيعاب السجن لهذه الأعداد، لكن استغرابنا تبدد حين دهمتنا قارعة قوائم الإعدامات التي تنفذ – يا رعاك الله – كل شهر تقريباً.

أصبحت إمكانية الحصول على مساحة للنوم مع ازدياد العدد شبه مستحيلة، وكانت إمكانية التناوب ممنوعة بالمطلق، لذا لجأت إلى تقسيم الأماكن بين الأنفس المكدسة، ولم يكن في وسعي أن أعطي لكلٍ مساحة تزيد عن وضع جنبه، قدرتها ما بين 15–20 سم، ينام الناس متداخلين، رأس تجاوره قدمان، وهكذا في صفوف ثلاث، تداخلت فيها الأطراف إلى منتصف الصرة تقريباً، وكان عليّ أن أراعي وضع المرضى والمكسورين والعجزة، ممن طالتهم يد البغي والتنكيل، فلم يبقَ لهم من طول ولا حول إلا أن تتغمدهم رحمةٌ من الله تعالى، وما كان يبعث من لوعتي وحزني على هؤلاء، أنني كنت أرى كل هذا المرار فلا أملك لهم من أسباب العلاج دواء ولا شفاء، ولا من أسباب الجور دفعاً ولا عزاءً، فألوذ كلما خلوت من هذه المشاهد متدثراً مولياً وجهي إلى الجدار كي لا يراني أحد من حولي وقد أخذتني العبرة، فأترك لها العنان وسط ابتهالات حفظتها مع الأيام من صوت المؤذن الذي كان يتسلل إلينا مع غبش الفجر، مترنماً بهذه الأبيات الحزينة:

بأنه:

طرقت باب الرجا والناس قد رقدوا	ورحت أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت يا أملي في كل نازلة	يا من عليه بكشف الضر أعتمد
أشكو إليك أموراً أنت تعلمها	ما لي على حملها صبر ولا جلد
وقد مددت يدي بالذل واقفة	يا خير من مدت إليه يد
فلا تردنها يا رب خائبة	فبحر جودك يروي كل من يرد

في منتصف الشهر التالي كان العدد في المهجع قد اكتمل "120" معتقلاً، يضيق بهم المكان واقفين، فكيف بهم نائمين، ولم أعد أرى للرثاء أي معنى إلا أنه نوع من أنواع العجز

وتجسيداً صارخاً لشيء أسميته قلة الحيلة، ومع أنني كنت أقوم بمهامي في حدود المتاح المستطاع، عن رضىً وطيب خاطر تامين كاملين، وكنت أعتقد دوماً أن في هذا الجمع من هو أكفأ مني، غير أن أحداً لم يكن مستعداً في هذه الأجواء المكفهرة أن يتقدم كي يتصدى لهذه المهمة الصعبة بل الصعبة جداً، ولطالما رجوت أبا صهيب أن يعفيني من هذا الواجب، سيما حين راح يعترضني الكثير من المشاكل في التسوية بين متخاصمين على تلك السنتيمترات القليلة، وهذا ما كان يغرقني في المزيد من الأسى، كنت في أحيان كثيرة ألتمس لهؤلاء الأعذار، لقد تجاوز وضعهم كل طاقة، ألتمس ذلك في تصرفات هؤلاء الذين كانت لهم شواهد على أنها كانت لهم أخلاق الأنبياء في حياتهم الاعتيادية، فأغمض عيناي على تراب نتعفر به جميعاً، وأشيح بوجهي مسايراً متجاوزاً، مع أنني كنت لا أسلم من قول هنا أو هناك، أحتسب ذلك من إخوتي عند الله، لأنني كنت أقود مع أبي صهيب مركباً وسط بحر هائج متلاطم، كنت أخشى أن ينكفئ فنغرق جميعاً، كنت حريصاً على أن أصل بهم ما استطعت إلى بر الأمان، وقد أبرمت بيني وبين نفسي عقداً متى انتهيت من هذا الأمر، ألا أتأمر على اثنين من المسلمين أبداً.

كانت أولى مفاجأتي في ترتيب الصف للتفقد، وآلمني أن أحداً لا يريد الانتظام في الصف الأول، ناهيك عن الوقوف على الأطراف، فهي الأماكن الأكثر عرضة لبطش الشرطة، وحين أصابتني الخيبة، رحت أستنهض أهل الأثرة والتضحية، وكنت آخر من كان له الحق في التحدث عن أهل الأثرة والتضحية، أي والله في حضرة مَن هم في مقام أساتذتي لو كنا في ظروف اعتيادية، وكنت بصدد إجراء تجربة، كي لا يأخذنا الجاني على حين غرة، فما أن أنتهي من تنظيم الصف، حتى أطلب إليهم أن يحفظ كلٌّ مكانه، فإذا ما كانت استراحة، طلبت إليهم العودة للانتظام في الصف من جديد، أردتهم أن يتعودوا، فأيامنا طويلة، ورحلتنا قاسية، إلا أنني كنت أُفاجأ بقيامهم متثاقلين في غير انتظام، وقد اختفى الصف الأول تماماً، فما عاد له من أثر، وباختفاء الصف الأول اختفت بقية الصفوف، وتراجعت الأطراف في ازدحام وتكدس شديد إلى ما خلف صفوف المرضى والمقعدين، هم والله الذي لا إله غيره معذورون، هذه الأماكن الخطر فيها مؤكد مجزوم به، يصعب معه أي إحتراز أو أخذ أي نوع من أنواع الحيطة، ونادراً ما نجا أحد في الصف الأمامي أو الأطراف، لكنه أمر كان ما منه

بد، ولقد تمنّى الكثيرون منهم الموت على هذا الوضع الذي لا يطاق، لو كانوا يجدون له في شرع الله سبيلاً، فأقول في نفسي وأنا أقف على كل ذلك، هذا في الدنيا فكيف هي أحوالنا يوم القيامة! أجارني الله وإياكم من أهوال يوم القيامة.

لست أدّعي لنفسي من البطولة ما ليس فيها، فقد كنت واحداً ممن هم حولي، غير أن موقعي كان يدفعني كي أتجلد، فأنا في موطن من لا يجوز له بحال من الأحوال أن تخور قواه حتى لو كان من أجبن الجبناء، وكنت أرى الكثيرين ينظرون إليّ، وإلى رئيس المهجع في الدرجة الأولى، يرقبون تجلدنا المصطنع كي يستمدوا منه شيئاً من المعنويات؛ لتلك الأنفس التي انطفأت فيها المعنويات وكل رغبة في حياة الذل تلك!!

من هنا كنت يومياً أقف في الصف الأول، أبو صهيب في أقصى اليمين، وأنا في أقصى اليسار، ولعلنا كنا نتبادل المواضع أحياناً، فأكون أنا على اليمين بينما هو على اليسار، تاركين عناية الله تصحبنا، فهذا موطن المستعيذ بالله من شر ما خلق، ولا أظن هؤلاء إلا من الأشرار، الذين يتوجب أن يستعاذ منهم في كل وقت وحين!

ليس في واردي أن أدّعي الشجاعة لنفسي، لكنني كنت في موقع المسؤولية، واليوم يصعب عليّ أن أتذكر، إن عدت يوماً أنا أو أبو صهيب من وجبة التفقد تلك سالمين، ومع الأيام حين صرنا نستشعر أنها الضريبة ندفعها في رضوان الله، ما عاد لها ذلك المعنى من معاني العقوبة، بقدر ما صارت معنىً من معاني التضحية، وشيء من الجهاد، نلتمسه ضرباً من ضروب اللذة الغريبة الجامحة، تمر بالقلب في طريقها كدبيب النمل إلى بقية الجوارح.

كنت أندبهم إلى التفقد باكراً، وألزمهم البقاء في الصف إلى أن يفرغ الكفرة الفجرة من فتح الأبواب وإغلاقها، وكان تقديمي للصف لأول مرة يبعث على الضحك، في غياب أبو صهيب في دورة المياه، فقد صحت بالانتباه، ثم الاستراحة والاستعداد، وغابت عن ذهني لازمة المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب، وشاء الله ألا ينتبه الفجرة الكفرة، لتمر القضية بسلام.

رويداً رويداً بدأنا نتلمس طريقنا إلى شيء من الألفة خلف الجدران هنا، ورحنا نتكيف مع الأوضاع الجديدة، إلا أننا بقينا رهن المُخبأ من المفاجآت لكل يوم جديد، وكان من أشدها وقعاً دورة الحلاقة.

الحلاقة

لمْ يمضِ وقت طويل حتى فُتح الباب يوماً على غير ميعاد، وَاعذرني يا صاحبي، لقد أثقلت عليك الوصف، ولك الخيار مشكوراً، إما أن تمسك وحسبك ما قرأت، فلعل في العالم من حولك ما يكفيك من المصائب، وإما أن تستمر فتزيد قلبك المعنّى عناء فوق عناء، أما أنا فما عدت أنشد لنفسي من كل ذلك نصيباً، لقد ذهبت الأيام بمرها، ومرارها أشدُّ يقيناً، إن لم يكن لي عند الله من أجرها نصيباً، لقد جاء يوم الحلاقة متكرراً على مدار كل أسبوع كما الحمام بغيضاً كريهاً، صرنا فيه جميعاً كقول الشاعر:

فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

فصرت لا أبالي بالرزايا ... لأني ما انتفعت بأن أبالي

فُتح الباب وصاح الكفرة الفجرة:

– يطلع منكن عشرين، إوْجِيبن معكن بشاكير، يا قوادين يا عرصات!!

قمنا بِعَدِّ عشرين، بيد أمسكت عبد السلام، وباليد الأخرى حملت البشاكير، وانطلقنا إلى الخارج، في الوقت الذي انطلق البقية في إثرنا، أعيننا مغمضة كما أمرنا الكفرة الفجرة، حُفاة بلا نعال، فالنعل ممنوع علينا لبسه، هذا إن وُجد أصلاً، رؤوسنا محنية، هكذا هي التعليمات، وعلى جدار المهجع المزدوج "5–6" وقفنا، وجوهنا إلى الحائط، أيدينا مشبوكة خلف ظهورنا، تلهبنا السياط، تسقط علينا لا ندري من أين، فيها لفح الرمضاء وحر النار، أما العصا ويا لهف نفسي من العصا، لقد بقيت لزمن هي السيف المشرع على أعناقنا وظهورنا، وأثناء انتظار دوري وقد أُمرنا جميعاً بالدوران، لوضع معجون الحلاقة والرغوة على ذقوننا، ثم جاءتني ركلة من حذاء عسكري غليظ، أصابت القلب ومقدمة الصدر مني، أحسست بالدوار، وبشيء من الغثيان، سقطت أرضاً، وبسقوطي، أحسست بالعصا تنقض علي انقضاض الجوارح على الضحية، ثم انتقل الجاني إلى الذي يليني، لحظات ويعلو صوتُ الشيخ الفاضل عبد الكريم العطا، أحد فضلاء قرية قارة التابعة لمنطقة النبك يصعب عليَّ في هذا المقام أن

أنسى ما حييت حكاية الشيخ إمام المسجد الكبير في النبك، الشيخ عبد الكريم هـذا، ذا اللحيـة السوداء الكثة المترامية الأطراف، لقد أشعلوا فيها النيران، وكلما همّ الرجل برفع يديـه وهـو يشهق من حرّها محاولاً إطفاءها، كانوا يتبارون في جلده بقسوة اجتمع فيها الحقـد بالانتقـام، إلى الحد الذي ما عاد الرجل معه يقوى على رفع يديه ثانية لإطفائها والتـي راحـت تلـتهم اللحية والوجه معاً، حين ضاق به الحال صاح الشيخ صياح من انتظمه الظلـم إلـى أقصـى مداه، صاح ملأ الضمير العالمي ماتت ينابيعه:

- أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، يا الله بمن سواك نستغيث؟!

سرت في المكان قهقهات، اجتمعت فيها كل صور الكفر والفجور العهر، وهم يجتمعـون على الشيخ الصابر المحتسب ضرباً وقهراً وتنكيلاً، اجتمعوا عليه بسياطهم وعصـيهم، ومـا زالوا به حتى كسروا فكه السفلي:

- وينه ربك يا حقير، دعه يأتي ليدافع عنك، سوف نضعه مكانك، وليدافع عن نفسـه أن كان يستطيع أن يفعل ذلك!!

ثم هل من إله إلا الله ندعوه؟ بل إليه يا أيها الشيخ الصابر ترتحل، شهادة خذها مني إليك حتى نلقى الله، كان هتاف الشيخ المدوي الذي ملأ صدى الصحراء في سجن الظلاّم بتدمر:

- يا الله.. بمن نستجير سواك، يا الله!!

هؤلاء هم الذين يحكمون الشام، هؤلاء هم الملهمون المعصومون، هـؤلاء هـم الـذين عقرت نساء سوريا فما عادت تنجب أمثالهم، إذا خطبوا فخطاباتهم تاريخية، وإذا قالوا فقـولهم شيء يشبه الكتاب المسطور، ما رأينا لهم في الحصافة والذكاء والحكمة والنباهـة شـبيهاً أو موازياً أو مثيلاً، لا يمكن أن تستمر لنا حياة بدونهم، أو تستقيم لنا معيشة من غير أن نسـتمع لتفاهاتهم صباح مساء، ودليل ذالك احتفاظنا بهم لسنوات طويلة عديدة عجاف، نضـعهم فـي حبات عيوننا بين الرموش والأجفان، حباً لم نترك لأولادنا وأهلينا وأزواجنا منه أي نصـيب، وإلا ما الذي كان سيمنع أحدهم من القول على شاشة سوريا الفضائية الرسمية:

"البعث ديني، والأسد ربي ومعبودي"، ليقاطعه المذيع لا ليقول له: قطع الله لسانك وكسر يديك وأسنانك، لا ليقول له ذلك، لا والله، بل ليبرر للمستمعين والمشاهدين ذلك على أنه نـوع من المجاز اللغوي، فأنت حين تقول لحبيبتك - لا لزوجتك- بعبدك، أنت لا تعبدها إنمـا هـو

نوع من المبالغة في الحب.. أرأيت يا رعاك الله كيف يبررون القول، يقولونه ليـاً بألسـنتهم وطعناً في الدين!!

كان الحلاقون أشد سوءاً، فهم من ذوي الجنح فما فوق، كما علمنا لاحقاً، يجمعهم بالشرطة الانتساب إلى نفس الطائفة القرمطية الحاكمة، هكذا بالفطرة، أي والله بالفطرة حقد ليس له حدود!! يتجسد ذلك في وضع أصابعهم في عينك محاولين أن يفقئوها، كما كانوا يُفصحون عن ذلك من خلال أقذع الشتائم والسباب التي يكيلونها لنا، أو دقهم لرؤوسنا بالحائط أثناء رغي الصابون، بهذا الأحقاد التراكمية الدفينة كانوا يُجرون شفراتهم وأمواسهم على ذقوننا، في فترة لا تتجاوز الدقيقة الواحدة، يمسحون لك ذقنك، من الجلد والشعر معاً، فدماؤك دوماً تنزف، وقد تعود بجزء محلوق وآخر لم يحلق، بجزء ينزف وآخر متورم، حتى ليخيل بأنهم حلقوا لك بالمبرد لا بالموس أو الشفرة!!

ينتهي منك الجزّار، وقد تناوب عليك ثلاثة منهم، واحد يقوم بتطرية الذقن بالرغوة والصابون، والآخر يجري بالشفرة أو الموس، وسط صراخ الشرطة بأن يذبحك، فلا يتردد الوضيع من ترك تشطيبات غائرة في وجهك تنزف، ثم تنتقل مغمض العينين، لتجثو على ركبتيك، كي يجردك آخر من شعر رأسك، من خلال ماكينة جلاقة يدوية، تدق في رأسك دق المسامير في الحائط، كي تتركك بعد ذلك كالفرجة لمن أراد أن يسخر - جانب مقصوص وآخر متروك- يتندرون بك، لتكون بعد ذلك على موعد مع الكفرة الفجرة، كي تنال منهم التهنئة على تلك الحلاقة الميسرة، أو بمعنى أدق، ليهدوك نعيماً مقيماً، تجبر على الانبطاح، ثم يشرعون بنعالهم العسكرية في تسلق ظهورنا في قفزات متتالية، ومن لا رغبة له في التسلق والقفز استعاض عن كل هذا بالركل والجلد على ظهر اليدين أو باطن القدمين، أو بكليهما معاً، كل ذلك مشفوعاً بالشتم الذي لا يقل سوءاً عن الكرباج، وكان من بين هؤلاء المارقين من الذين يتناوبون على تعذيبنا، والذين فاقت غلظتهم الوصف، كل من: الرقباء جهاد، السنيور، محمد نعمة والذي صار فيما بعد مساعد انضباط السجن كما ذكرت سابقاً، وغسان، كاسر، علي، سليمان وكان فظاً غليظاً قاسياً مارداً ذاهب في الطول، لم يثبت له كغيره رجاحة عقل في قول أو فعل، كان متهوراً إلى حد الجنون، شاركه في ذلك كل من الرقباء أحمد الذي لم يكن له من اسمه نصيباً، ومهناً، وسفاح آخر باركته شياطين الإنس

والجن اسمه شعبان، وآخرين كثر، يصعب عليَّ الآن الإلمام بأسمائهم، بالإضافة إلى مجموعة من المجندين أكرر التذكير ببعضهم، منهم وجيه ناصر، صلاح، نعيم حنا، شحادة، أبو شحادة، في وجوههم الصفيقة ترى الموت الزؤام. لعلني أُذَكِّرُ هنا بحادثة قبل أن أنفض يدي من هذا الفصل، وذلك في إجباري مرة، ولعلها في الحلاقة الأولى على الانحناء لتلميع حذاء أحدهم بالكنزة اليتيمة التي أهديت إلي، ولعلك تذكر يا صاحبي قصتها، في حين أُجبر غيري على التلميع بألسنتهم!!

ويدخل علينا الرقيب جهاد بعد حفلة الحلاقة، في يده بطاقة شخصية قال بأنها مزورة، يسأل عن صاحب الصورة فيها، إن كان بيننا من يعرفه، لفت انتباهه أحد الشباب مقعداً لا يقوى على الوقوف، قد ضاعت معالم وجهه تحت السوط، على يد العريف أبو ضطيف فقال له ساخراً:

– شو.. الظاهر أنهم حالقينلك بالكرباج؟!

أما العجزة والمصابين والمقعدين، فقد كنا نخرجهم في الدفعة الأخيرة محمولين، ينفرد بهم الظُلاّم، فينالهم من العذاب ألواناً، ويخصونهم بالضرب الفظيع على الأماكن الأكثر إصابة، يحدوهم غيظ بأن يُبقوا للمساكين عاهة دائمة ترافقهم أبداً ما كتب الله لهم من عمر، هذا إن بقيت لهم على الدنيا أيام تذكر.

حلاقة الوجه مناسبة سلخ جلد أسبوعية كما هو الحال في الحمام، فيهما من العناء والكرب ما لا طاقة لبشر على تحمل المزيد، يليها مناسبة حلاقة الشعر، والتي تطل علينا كل شهر، في خليط من عذاب نفسي وجسدي، كأن يحلقوا أجزاء ويبقوا على أخرى كما ذكرت، أو أن يؤمر اثنين ممن سلبت منهم أي إرادة للاختيار من المعذبين في الأرض أن يضرب أحدهما الآخر، شريطة أن يكون الضرب على مقاييس الجلاد، مبرحاً دموياً، كصراع الديكة في حلبات الرهان، والكفرة الفجرة يتضاحكون ويتمايلون جذلاً وشماتة، وتلك لعمري هي ما يطلق عليها شماتة الأعداء!!

لقد أفضى الكثير من إخوتنا إلى بارئهم في أيام الحلاقة كما هو الحال في أيام الحمام المشؤومة، حدث ذلك لأبو محمد بربر من أكراد سوريا المنكوبة، على يدي الفاجر الرقيب القرمطي سرور العجوز، في يوم حلاقة مشهود، تركوا فيها النكبة تحيط بالرجل في كومة

من لحم ودم وجلد مسلوخ، وهو يصارع الموت، صراخه الخالد بين أيديهم بلهجتهم يطن في أذني لكأن جذوته لم تنطفئ إلى يومنا هذا:

- دخيلكن.. يا الله.. أنا وقيعكن.. أنا وقيع عرضكن.

سوف يبقى هذا الاستجداء البائس، كلحن جنائزي حزين، أنكره ما امتدت بي الأيام، ومن خلاله أتذكر قلة حيلتنا وهواننا على الأراذل من الناس، أستمطر رب السماوات والأرض والخلق، كل الخلق، أن يرسل شآبيب رحمته على أبي محمد بربر، وعلى كل من صار في صحراء تدمر عند الجناة رقماً لا اسم له، وعند الله من الأحياء يرزقون، هم ممن سبق أبو محمد ومن لحق به، وعلى كل شهداء المسلمين الحقيقيين، وعلينا جميعاً إذا صرنا إلى ما صاروا إليه، الله حسيبنا وحسيبهم، لا فاتنين ولا مفتونين ولا مبدلين!!

المهجع رقم "٨"

فيما نحن منشغلون في تفحص أنفسنا، بعد حفلة تفقد صارت مع الأيام جزء من عـذاباتنا المتكررة، نعالج بالمتاح من خرق اجتزئناها من ثيابنا، جروحاً قد فغرت أفواههـا مـن أثـر السياط، شاهدة على ما نحن فيه من فجيعة وتفجع، ونحن على هـذا الحـال، جاءنـا الأمـر السامي بتجميع العوازل والبطانيات، وأن نقوم بتهيئة أمتعتنا، هكذا جاء الأمر غامضاً مبهمـاً، وسرى بين الجمع همس بدا خافتاً ثم خرج إلى العلن، سوف يقتّلوننا، لن يسفر الفجـر علينـا أحياءً، لن ينجو منا أحداً، سنقتل عن بكرة أبينا، لقد لف الناس اليأس الذي تعدى كل درجـات الإحباط، في الوقت الذي راح البعض يتلو ما يحفظ من الآيات والذكر الحكـيم، راح الـبعض الآخر يتمتم بما تيسر له من الأدعية، وزاد البعض في معانقة إخوانه ممنياً كلّ صاحبه بلقـاء قريب في جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، كان الانتظار صعباً حرجاً، مشـى فيـه الوقت ثقيلاً متباطئاً، انتظاراً مقروناً بكل آيات الخوف والهلع، جلس بعدها كلّ ممسك بصـرة متاعه بانتظار وصول القطار، غير أن القطار بدا أنه لا ينوى الوصول، مع أن البعض جـزم بأنه سيصل حتماً لا محالة!

كان عبد الوهاب الخطيب قد ساء وضعه، وتدهورت صحته، اصفرار شديد في الوجـه، تقيؤ مستمر مصحوب بإسهالات حادة وشديدة، رافق ذلك نقصاً فظيعاً في الـوزن، أضـحى الرجل فارع الطول كالخرقة بالكاد أن تحمله قدماه إلى دورة المياه، وتبـرع بعـض الشـباب مأجورين عند الله بالسهر عليه، وكان من بينهم الحافظ لكتاب الله مضر الـدغلي الدمشـقي، أحسبه في رحمة الله حياً يُرزق، قد أعدمه الطغاة لاحقاً دون أن يرحموا شبابه وصغر سنه.

ونحن جلوس ما زلنا في انتظار القدر أن ينطق فينا مقولته، ممسكين قلوباً أخذت مسـالك الدارجين إلى الحناجر، نادوا على عبد الوهاب، تحامل الرجل حين فتح الباب حاملاً صـرته برفقته، وخرج كي يمضوا به بعد ذلك كما علمنا لاحقاً إلى فرع التحقيق العسكري بإدلب، في الوقت نفسه أدخلوا علينا زاكي أحد المعادين من إدلب، فجاء إلينا بخبر اندلاع أحـداث حمـاة

المأساوية، وكان ذلك في شباط فبراير عام 1982، لذا سارع الكل فأدرك فريضة المغرب حاضراً، وألحقها بركعتي الشهادة آملين من الله القبول، ولما راح الظلام يرخي بسدائل أستاره، كان الجهد قد بلغ بنا آخر أشواطه، وصار الناس محنطين كأنهم ماتوا قبل أن يموتوا، بانتظار من سيأتي ليهيل عليهم التراب!!

بقينا على هذا الحال حتى العشاء الأخيرة، وفجأة دبّت في الخارج أرجل، وسرت في ظلمة الليل جلبة، ثم أرجل وهرولة، تجرأ البعض وزحف في حذر إلى الباب، مسترقاً السمع، أدركنا أنهم يقومون بتفريغ المهجع رقم "8" من ساكنيه. لعل شيئاً من الارتياح راح يدب إلى نفوسنا التالفة، وقال أكثرنا تفاؤلاً:

- حركة تنقلات، موعدنا غداً في المهجع رقم "8"، وحين اقتربت أقدام، دققنا الباب، لنسأل عما إذا كان بمقدورنا أن ننام؟ غرد في زوبعة من الشتائم:

- نام إنت وإياه، ناموا يا عرصات!

ما أن أخذنا أمكنتنا، حتى عادوا إلينا بعد ساعة من زمن، وفي صوت مخيف مقيت:

- الكل جاهز يا شر.. يا منا..

وكانت ليلة عصيبة يائسة كريهة، فاقت الوصف، وأي ليلة هنا يمكن أن يحيط بها وصف أو تصوير!! أكِلُ كل من سعى في استحداث هذا المكان، أو سعى في إعماره بهذه المفسدة الكبرى، إلى الله العزيز الجبار المنتقم، كي يرينا فيهم عجائب نقمته، كما أرانا فيهم عجائب حلمه!

ها نحن الآن صرنا جيراناً للحمام، حيث حج كل المهاجع إليه كل يوم بالتناوب على مدار الأسبوع، كان جوارنا القسري هذا للحمام نوعاً آخر من أنواع القرف والنكد المغموس بنوازع النفس الدموية، التي تؤمن بأن الخير مقطوع لن يكون قط، وأن الشر قائم بالمطلق لن يزول، فكلما تنكرت الحمام، انتكأت عليّ جراحي، فأشيح بوجهي، كي أطوي الصفحة عاجلاً فلا أتنكر، ولا أدري كيف أنسى، لقد استباحت إدارة السجن كل شيء، وحين أقول كل شيء، أعني كل شيء بالمطلق، لقد كان الحمام من المشاهدات العظيمة، أو بمعنى آخر كان الحمام مجزرة فظيعة تسير في صمت بعيد عن كل الأعين، كل الأعين التي أرادت أن تكون بعيدة، أو أريد لها أن تكون مغيبة بعيدة، رحلة من العذاب باتت تنتهي بمصرع شاب من الشباب،

واحد على الأقل من كل مهجع، لقد صار من أقواتنا اليومية، استراق النظر من خلال شق الباب في المهجع الجديد، ومن لم تطاوعه عينيه للمشاهدة، ما كان بإمكانه أن يحجب أذنيه عن الاستماع إلى التعذيب، لا ننسى كيف كانوا يخطفون شاباً من الصف الطويل المطأطئ الرؤوس، والمغمض العيون، كي يجبروه على الانبطاح بجوار الساقية، تحت وطأة الكرباج الساقط على كل مكان من الجسم، ثم لا يزالون به يدفعونه، حتى يتحرك برأسه إلى حيث الساقية، ليرتطم شيء ثقيل يهبط من مكان ما بالرأس، تصحبه صرخة مدوية من الضحية، ثم يهمد الصوت فلا يعد بإمكانه أن يعلو ثانية، يا إلهي! إنها طوبة! أي والله طوبة من طوب الأرض يسقطونها على الرأس، لتذهب بصاحبها إلى من لا تغفل عينه أو تنام، وحين يعجز الممدد على الأرض عن القيام، ويتأكدون من إزهاق روحه، يطلب الجبابرة المجرمون الفجرة من بقية أفراد المهجع حمل الضحية كي يعودوا به إلى المهجع، وهناك كما أُخبرنا لاحقاً يُجري له بعض الأطباء المسجونين محاولة تقديم بعض الإسعافات المتاحة من نفخ في الفم وتدليك للقلب لعل وعسى.. وحين تعييهم الحيلة، وقد حمَّ القضاء، تراهم بين باكٍ وشاكٍ، يقومون بغسله والصلاة عليه وقوفاً داخل الحمام حيث هناك لا رقيب ولا حسيب سوى الله، إيذاناً بدق الباب، ليأتي بعد ذلك من يحمله، ضحية جديدة في موكب النور التدمري الذي لا أخاله سينتهي قريباً ما دام للطغاة موطئ قدم في بلاد يسيرها العسكر الوافدون من خلف الحدود.

عشية احتفالاتهم بما يدعونه ظلماً وعدواناً بالحركة التصحيحية التي اغتصب فيها مُغتصبٌ الحكم من مُغتصبٍ آخر، وهذا الآخر من آخر، هم كأهل النار، كلما جاءت أُمَّةٌ لعنت أُختها، عشية ذلك اليوم، طافت في السجن مظاهرات من عصابات الشرطة العسكرية، يهتفون بأناشيد مبتذلة كاذبة متهتكة، وعلى مدار طوفانهم في الباحات كانوا يضربون منتشين كالسكارى أو لعلهم كانوا كذلك، كانوا يضربون كل شيء يصادفهم، الجدران، الأبواب، يزدادون خبرة، لعلهم لا يريدون نسيان ما امتهنوه من حرفة الضرب، في الوقت الذي رحنا فيه نهيئ أنفسنا لمشوار من العذابات طويل، لا تبدو له أي نهاية في المنظور القريب على الأرجح، والذي أضحى يتكرر علينا على مدار اليوم والساعة، ولقد صبوا علينا ما توقعنا من العذاب والغضب والوحشية، وصنعوا لنا من القصص شغلاً شاغلاً، تشيب لذكره الولدان، وكان ذلك قد جاء مجتمعاً عند وجبات الطعام والتنفس والتفقد في ذلك اليوم المشهود.

كان لانقطاع الزيارات بالمطلق مزية عجيبة، فقد ساوت بين الرؤوس في الفاقة والعوز، اللهم إلا تلك التي كانت تمر عبر كَمٍّ هائل من الرشاوى الباهظة، وكانت تأخذ طريقها إلى الجزار فيصل غانم مدير السجن، صاحب كل رذيلة وجريمة، ولقد ترددت يومها أخبار أفادت بأن الكافرة الفاجرة أم فيصل هي التي تشرف على مؤسسة من السماسرة المنتشرين في أرجاء المدن السورية المتعددة، يسوقون إليها بدورهم أمهات وآباء وأبناء وبنات وأخوات وإخوة وزوجات المخطوفين من الأبرياء البؤساء، فلا تأذن لأحد بزيارة السجن في مدة لا تزيد عن دقائق خمس، لملاقاة أحبابهم، إلا بعد أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقد تُلغى الزيارة في آخر لحظة دون الاستفادة من المبالغ التي أُهدرت، سيما إذا كان المقصود بالزيارة قد أعدم أو أفضى إلى ربه يشكو إلى الله جفوة البلاد وظلم العباد.

من خلال فتحة في الباب الأسود يطلقون عليها اسم الشراقة، رموا إلينا يوماً من أيام منتصف شهر فبراير بورقة بيضاء لا سطر فيها، وقلم رصاص، طلبوا إلينا أن نقوم بتسجيل فاتورة مشتريات، وكان نصف المهجع أو يزيد من المدخنين، لذا لم يكن مستغرباً أن يكون جُل المبلغ الذي دفع، نُفع لقاء الحصول على السجائر، إضافة الى بعض الأواني التي ما كان لنا عنها من بد، وبعض الغيارات الداخلية، وملابس للنوم، وملاعق خشبية وسفرة بلاستيكية، نفردها للطعام، فقد بقينا لأيام نفترش الأرض العارية للطعام حين كان يطلب إلينا إخراج الفوارغ البلاستيكية.

قمنا باستحداث مجموعة للإشراف على شؤون الطعام، وقد كانت تضم كل من أبو عبد الله يوزباشي، يساعده كل من زاهد دركل ورياض صالحة رحمه الله، وبذا أكون قد حططت عن كاهلي وكاهل أبو صهيب شيئاً من المسؤولية، والتي مضى على تحملنا لها قرابة شهرين من الزمن، ولا زلت أذكر كيف كنت أقوم بالمرور على الناس بملعقة بلاستيكية، عثرت عليها في دورة الحمام، قمت بتنظيفها جيداً، كنت أمر عليهم فرداً فرداً، كي أوزع الطعام المكون من آثار حلاوة وشيء من المربى، بقينا على هذا الحال حتى جاءت الفاتورة، واستلم يوزباشي مع مجموعته مهمة التوزيع.

وتتالت الحلول لكثير من المسائل العالقة الشائكة، فقد اهتدينا إلى طريقة منصفة لإعداد صف التفقد، قمنا بتنظيم الشباب في رتل خماسي مترادف، يتغير هذا الترادف يومياً، بانتقال

الرتل الأول إلى ذيل الصف ليحل محله الرتل الذي يليه، وهكذا مع إبقائنا على أرتال المرضى والمصابين والعجزة الأربعة الأخيرة ثابتة، وهكذا استرحنا أيضاً من عناء هذه المشكلة اليومية القديمة المتجددة.

ثم خطرت مع الأيام لأحد الشباب بادرة طيبة، جعلت لهذا المكان الظالم أهله معنى آخر من المعاني المشرقة، وذلك حين قام بتقسيم الإخوة إلى مجموعات تعمل على استظهار كتاب الله، وكانت منة علينا لله صابغة في وجود الحفظة بيننا، وكان الفضل له بعد الله في إلحاقي بإحدى هذه المجموعات، فاستوفيت في أيام معدودات حفظ بقية سورة يوسف، وقد كنت بدأتها في فرع التحقيق العسكري بدمشق، ثم تلا ذلك شروعي بسورة البقرة، فصار للأيام مع كتاب الله طعماً من الراحة والسكينة التي أثرت الروح والقلب معاً ما لا تعدله كنوز الأرض وثرواتها، وصرنا مع هذه الآيات الخالدات نسمو فوق زخارف الأرض وزينتها، حتى أخذتنا في بعض اللحظات، أنواعاً من نشوة القلوب والأرواح، كدنا معها أن نطأ بأقدامنا الثريا. لم تتراجع موجات التعذيب، بل صارت إلى زيادة، وتكونت لدينا مع الأيام خبرة العارفين، فما أن يطل علينا نهار جديد، أو يرخي علينا ليل عتمته، إلا كان مكتنفاً بحدث جديد، وهذا ما صرنا نميزه مع الأيام، هذه دفعة جديدة، فرقعة السياط، وحركة الدولاب، وصريخ الناس الذي يصم الأذان، ثم هل هو حمام؟ هل هي حلاقة؟ وكان كل ذلك يتسنى لنا من خلال وقع الأصوات، وتدافع الصفوف، وازدحام الأقدام.

في أواخر أيامنا في المهجع رقم "8"، وقبل أن يقوموا بتوزيعنا ثانية، أدخلوا علينا دفعتين، الأولى تم جلبها من فرع أمن الدولة بكفرسوسة، وكان فيها مروان حسين من نازحي الجولان، طالب لغة عربية من سكان دمشق، وأبو الوليد مولوي أيضاً من سكان دمشق، جاؤوا به في ثياب النوم ليلة زفافه، وكان برفقة والد زوجته، من أصل فلسطيني، والأخير من عائلة عمورة، إضافة إلى ابن أخت والد العروس أبو حسن والذي يعمل موظفاً في جامعة دمشق، وكانوا حين أدخلوا علينا في حالة يرثي لها، قد أنهكوا تماماً، في ثياب رثة، ولحىً قد طالت من غير انتظام، وشعور ملبدة، وأجساد متهالكة تشك بأنها مست الماء لأسابيع أو لأشهر!!

أما الدفعة الثانية، فقد جاؤوا بها من المهجع رقم "19"، وكان من بين أفرادهـا الـدكتور عز الدين سيد عيسى، صاحب أحد مستشفيات إدلـب التخصصـية، وهـو متخصـص فـي الأمراض النسائية، وأحد أطباء الأسنان من دمشق، إضافة إلى طالب لغة عربية مـن أبنـاء درعا، يدعى بدري فواز.. وآخرين.

الجرب

كان من أول الأمراض المقيمة التي نزلت بنا، مرض الجرب، وهو من أكثر الأمراض المعدية ومن أكثرها انتشاراً هنا في تدمر، وكان أول المصابين، شاب من إدلب يدعى فواز الصغير، قمنا بعزله اعتقاداً منا بإمكانية حصر المرض ومنع انتشاره، وتركنا الأطباء يجتهدون في إجراء الكشوفات على جميع أفراد المهجع، ولقد أشرف على عملية الكشف والتحري كل من الدكتور محمد خير والدكتور سليم الأسد من أبناء داريا التابعة لدمشق، بالإضافة إلى الدكتور عز الدين، فتمكنوا من تشخيص عدة حالات، عندها اقترحنا تخصيص إحدى دورتي المياه، لعمل حمامات إضافية للمصابين زيادة في النظافة وأخذ ما أمكن من الاحتياطات.

لقد كانت إصابة فواز ملفتة للانتباه، للدرجة التي تكونت فيها طبقة دهنية فوق الجلد، يسيل منها الصديد طوال الوقت، لكثرة الحك والهرْش الذي كان لا ينقطع في هوس جنوني، وما كان يبعث على الخوف والهلع في النفوس هو انعدام الأدوية بالمطلق، ومن هنا صرنا كلأً مباحاً للأمراض وجميع عسكر السجن العسكري بتدمر على اختلاف رتبهم!!

السل وأمراض أخرى

لم تنقطع الأمراض في أن يسوق بعضها إلينا بعضاً، ولقد وفد علينا بعد أيام قلائل مرض السل الخبيث، ولا أظنه كان أخبث من القابضين علينا، كذلك حشرة القمل بنوعيها، القمل العادي، وقمل العانة، وما كان لنا من وسيلة للتخلص منها إلا تفتيش الملابس، فنقوم بقتل الحشرة وسحق بيوضها، واجتاحتنا الفطريات بأنواعها، وأمراض الأسنان واللثة، وأما أمراض الكلية، فلا أراك الله مكروهاً، لقد رافقتني سنوات طويلة عانيت فيها إلى درجة البكاء، لم أكن أملك لنفسي فيها إلا الصبر والدعاء، وفي مراحل لاحقة مر بنا مرض الكوليرا، كل هذا وزيادة، وأمراض أخرى كان يصعب تشخيصها لانعدام الوسيلة، كل هذا البؤس المتلاحق ما كان ليحرك أي نوع من أنواع الإنسانية في إدارة الزمرة الفاجرة، ناهيك عن المصائب التي كانوا هم سببها المباشر، كإصابات الكسور بأشكالها والرضوض والجروح، وثقب طبلة الأذن، والديسك "آلام العمود الفقري" وتورم الوجه والقدمين، والجروح الملتهبة في الرأس واليدين وبقية أعطاء الجسم.

هزيع آخر ليلة لنا في المهجع "8" استيقظنا على جلبة وفتح أبواب، كانت قائمة طويلة من الأسماء تتلى، وكانت الأسماء كما قال لي أحد العارفين مقصورة على أبناء محافظتي حمص وحماة، وهي أي الأسماء لأفراد من بيوتات معروفة ومشهورة، لقد أعادني سامحه الله إلى دوامة ما كنت أتمنى سماعها، وذلك حين أدخل إلى روعي أنها قائمة إعادة تحقيق، وكل ما يقال هنا قابل للتصديق، وعاد الخوف ليكتنفني من جديد، حين أضاف آخر بأن القائمة طويلة، وأنها تحتوي على عدد كبير من ذوي الرتب العالية من ضباط السلك العسكري، وزاد قائلاً:

- أظنها قائمة لأولئك الذين حكم عليهم بالإعدام!

لم يزرني النوم في ليلتي تلك، وفشلت كل محاولاتي التي بذلتها في استجلاب عامل النعاس، وكنت واهماً في كل ما بذلت من حيل شتى، لطرد صورة الإعدامات من مخيلتي،

ووجدتني بعدها أهمس في أعماقي:

- إذا كان الموت هو سبيل كل الأحياء، فلمَ الجزع؟ لمَ كل هذا الجزع؟ لقد آن الأوان أن توطن نفسك يا صاحِ ليوم الرحيل، لن يمضي وقت طويل، عليك أن تستعد ليوم ينادون فيه اسمك!

جاءت الحلاقة في يوم الرحيل هادئة على غير اعتياد، وجاء التفقد مريراً على العكس تماماً، كسرت فيه يد محمد صنوبر رحمه الله، وضُرب عبد الهادي القاوي على كل جزء حساس من جسمه حتى أغمي عليه، في حين فقد وليد عبد الباقي وهو من أبناء إدلب إحدى عينيه، في هذا الجو القاتم الكاتم طُلب إلينا أن نتهيأ في الدقائق الخمس التالية للرحيل.

في الرتل الثنائي الطويل الذي سرنا فيه حفاة، قد حنينا فيه رؤوسنا حتى لامست منا الذقون الصدور، تلهبنا السياط والعصي، بدؤوا بفرزنا إلى مجموعات، وعلى امتداد المسير رحنا نتناقص، حتى التهمت البقية الباقية منا الباحة الخامسة، هناك شتتوا شملنا بين المهاجع "32، 33 والمهجع رقم 34" وكان نصيب خمسة عشر منا المهجع "34"، كنت واحداً من هؤلاء، بالإضافة إلى مروان حسين، مُضر الدغلي، مراد الناطور من درعا، وليد أبو بكر، صالح بمبوق، محمد أحمد قطيع، وثمانية أسماء أخرى ما عاد في إمكان ذاكرتي التالفة تذكرهم.

المهجع رقم "٣٤"

كان اليوم الأول حافلاً بالمفاجآت، كما لو أننا تواعدنا، ولو تواعدنا لاختلفنا ربما في الميعاد، كما لو أن قدر الله كان يسوقني إلى ذلك المكان سوقاً، فقد جاء الاستقبال راقياً في حدود طاقة المستقبلين، وعلى بوابة دورة المياه أوعز لي من عرفت روحي روحه، قبل أن تبصر عيني رسمه، حسن عبد الحي ابن إدلب البار رحمه الله، أوعز لي منذ الوهلة الأولى التي التقينا فيها ضرورة أخذ الحيطة والحذر، فهناك بينهم مخبر من أبناء حلب العاقين لم يبق عندي من اسمه إلا الكنية التي كان يتكنى بها وهي أبو محمد.

غريب الدار كما أنا في كل مرة بلا صديق، يذهب بي الخيال إلى تلك الأيام البعيدة، أجهد نفسي لو استطعت، أبحث عن صورة ذلك الشاب الأسمر، حليق الذقن والرأس عن غير رغبة منه، واقفاً بالباب يأخذني بنظراته من رأسي حتى أخمص قدمي، ورحت بدوري أستعرض شريطاً لكل الماضي، علني أعثر فيه على صورة لهذا الشاب، وكان السؤال الذي طفى من كلينا إلى السطح من غير أن ننطق به:

– ترى أين التقينا؟! ومتى كان أول لقاء؟!

أسئلة بقيت مفتوحة على امتداد الزمان والمكان، وكلما جمعنا لقاء قبل أن يفضي كل منا إلى ما قدم، كنا نجلس كي نتذاكر كل الأمكنة التي مر أحدنا بها، علنا وعسانا نعثر في زوايا الماضي على مكان جمعنا، وحين تعيينا مساحة الذكريات، نولي وفينا وفاء ما له حدود ولسان كلينا يقول:

– وما يضر إن عز علينا اللقاء في الدنيا، إذا كان اللقاء في الله أجمل وأرحب. ويرحل حسن معلقاً على أعواد المشانق إلى جوار ربه على يد الطغاة شهيداً أحسبه عند الله، والله حسيبه، يرحل حسن ويبقيني معلقاً ناصباً عند السؤال القديم المتجدد:

– ترى أين التقينا؟! ومتى كان لقاؤنا الأول؟!

قدم لي يومها نفسه على أنه حسن عبد الحي من إدلب، والتي ما دخلتها، إلا عود على بدء، في أول رحلة الشقاء تلك، فيه بقية من اندفاعة الشباب وعنفوانها، والتي كاد الطغاة أن

يطفئوها، كما أطفئوها عند غيره، ومضت أسابيع قليلة، جمعتنا بعض لقيمات كتب القدر أن نأكلها معاً، ثم أقبل فجر يوم من أيام عام 1982 نادوا على اسمه في قائمة، كما نادوا على أسماء أخرى كثيرة، ودَّع في هدوء، وسأل الناس المسامحة، ثم مضوا به إلى حبل المشنقة المدلّى في الباحة السادسة، شهيداً إلى ربه، وبقيت أنا وصورته في القلب والذاكرة والخيال والسؤال:

– أين ومتى وكف التقينا؟؟

وكانت المفاجأة الثانية، وقد أخذت مكاني، جالساً وصرة أشلاء من ثياب رثة بين يدي، ساهباً عند مدخل المهجع، إذ اقترب مني القائم على ترتيب الخَلْق في دخول دورة المياه، وحين علم بأنني غريب الأهل والدار، من قطر هو على البعد شقيق، أقبل مندفوعاً كغيره بالفضول، لينظر هذا المخلوق العجيب، الذي حط من كوكب آخر، أهو مثلنا ممن يأكل ويشرب، غير أن المشي في الأسواق ممنوع عليه هنا، وراح يسألني عن بلدي وعملي؟

كان ينظر إليّ ذاهلاً مندهشاً وأنا أجيب، لم يكن الوحيد هنا، فقد كان الجميع غارقون في المأساة والأسى، وحين سألته عن اسمه وعن مدينته؟ راح يعرف على نفسه، بأنه تاجر من تجار مدينة حلب، ينتهي نسبه إلى عائلة خير الله، وأخذنا الحديث، كما لو أننا كنا على صداقة فرقت بيننا الأحداث، ثم عدنا فالتأمنا على غير ميعاد، وكانت مفاجأتي له، حين سألته عن اسم صديق من أبناء حلب جمعتني به مدينة "فرانكفورت" بألمانيا يوماً من الأيام، فغر فاهه، وراح يقلب كفيه في الهواء، وقد أخذته الدهشة التي عقدت لسانه لبرهة من جديد، ثم جرى بيمينه على فمه قبل أن يسأل:

– لعلك أن تكون زميله الذي يبقى في ضيافته كلما سافر إلى ألمانيا؟!

وأنا جالس لم أغيّر سمتي بعد، أجبته:

– نعم، أنا هو!

– وهل أخبرك بنيته القدوم في "يوليو" المنصرم إلى ألمانيا برفقة أحد أصدقائه؟

– لعله كان قد ذكر لي مثل ذلك!

– كان من المفترض أن أكون ذلك الصديق!

ذهبت الأيام بيننا مذاهب شتى، وتأصلت وشائج علاقة طيبة، وكنا كتربين جمعتنا ملاهي

الطفولة وبراءتها ردحاً من بواكير الصبا، حتى إذا ما جرت بنا الأيام أشواطاً فرقتنا، ثم حلت بنا المحنة كي تجمعنا ثانية على غير ميعاد!

اجتمعنا ظهر اليوم التالي برئيس المهجع الذي انتقلنا إليه، وطلب إلينا تخفيف لقاءاتنا بالناس المتولهين لكل جديد، وسألنا عما نحتاج إليه من ألبِسَة وأواني، كانوا كرماء، فلم يبخلوا علينا بشيء، وكنا بؤساء يعوزنا كل شيء، ألحقنا بعد ذلك بمجموعات الطعام، وكانت كل مجموعة تتكون من ستة أشخاص، من مشارب مختلفة، وكنت في المجموعة التي حوت كل من الدكتور عمر تاجا طبيب أسنان من دمشق، والمهندس عمر حمزة من بانياس، سامر صنوفه من حمص، والدكتور سليم بدري من دمشق، منذر خير الله من حلب وجمال خراط أيضاً من حلب رحمه الله، وآخرين تنقلت بين مجموعاتهم، أو انتقلوا إلى مجموعتنا، ثبت الله من بقي منهم على الإيمان ورحم من ساقوه ظلماً وعدواناً إلى أعواد المشانق في غفلة أو صحوة من ضمير العالم سيان، ولقد كان لانتشار الأمراض بين صفوف الناس معضلة عند توزيع وجبات الطعام، فالذي يقوم على هذه المهمة عليه توخى الحذر في معرفة عدد المرضى، هؤلاء الذين هم في تزايدٍ مضطرِّد، وكان معاون رئيس المهجع المكنى بأبي سليمان أحد أبناء الزبداني، يشرف على عملية ترتيب أوضاع الناس، وكانت له تجربة طيبة على صغر سنه يومئذ، إضافة إلى كونه خريج كلية الشريعة في جامعة دمشق، وما لبثت الأيام أن أخذت دورتها الاعتيادية، لينفلق من ثناياها عقد جديد من المعارف والأصدقاء، وإذا بي بين عشية وضحاها أضيف إلى ألبوم معارفي، قائمة طويلة من الإخوة والأحباب، ولعلني والمقام هنا مقام ذكر بعض تلك الوشائج التي ذهبت في التاريخ، أنكر أول لقاء جمعني بالدكتور عمر تاجا، ما أن التفت إليه بجواري حتى سألته إن كان عندهم إصابات بمرض الجرب؟!

تبسم ولم يزد على كلمتين في الإجابة:

- يعني...، ثم بعد برهة صمت أضاف:

- شوَي!!

وكما هي عادة الأيام في إذابة ثلوج الكلفة والحذر بين العباد، ذاب الكثير من أسباب الكلفة بيني وبين الدكتور عمر، ورأيته يوماً قد أتاني مبتسماً، ليذكرني بسؤالي له عند أول

قدومي إليهم عن الجرب قائلاً:

- جلبتم لنا كل أصناف القمل، وجئتم تسألون عن الجرب!! يا مقمّلون!!

التعليم

لم يعد العدد الذي ناف عن المائة وثمانين بائساً يسمح لنا بحرية التحرك داخل جدران المهجع الأربعة، وما زاد في تقييد حركتنا تلك الفتحتان اللتان تطلان علينا من السطح، حيث الشرطي بقبعته الحمراء جالس طوال الوقت، يعد علينا أنفاسنا، ويا لسوء طالع من "يُعلِمَهُ"، أي من يضع عليه إشارة تميزه، كأن يشك في جلوسه على هيئة من يؤدي الصلاة، وكانت الصلاة ممنوعة على أي هيئة كانت، لذا كان الناس يصلون فرادى في جلسات لا تبعث هيئتها على الريبة، وكان ذلك يتم بالإيماء، لا أعني بذلك سوى حركة العيون إن أمكن، وإلا كانت الصلاة لا تتجاوز حركات تتم في الخيال، وفي الخيال فقط!! وإذا ما ساورت الظنون لصاحب القبعة الحمراء بأن أحداً أفضى لأحدٍ بأي نوع من أنواع الحديث، حتى لو كان همساً، فالحديث على كل الموجات والترددات ممنوع هنا أيضاً، وكانت أول واقعة حلت بنا هنا في اليوم الأول لمقدمنا، إصابة أحد أبناء حماة المهندس فايز غزال أو غزلان بحالة نفسية حرجة، فقد بقي واقفاً متسمراً وسط المهجع طوال بقية الساعات التي كانت تفصلنا عن وقت حلول الليل، ومجيء النوم، دون أن يتناول أي شئ من طعام أو شراب، ولم يكن بالإمكان أن يتحدث إلى أحد، أو يحدثه أحد، وحين حل الليل باكراً - وليلنا دائماً يحل بالأمر العسكري باكراً- وأمرنا بالنوم، نام الجميع، وبقي فايز متسمراً لا يبرح مكانه، وكان لا بد من التصرف، فحمله مجموعة من الشباب، وكان كل شيء فيه قد تصلب، كما لو أنه جذع شجرة خاوية، دون أن ينبس ببنت شفة، ليدسوه بينهم، خشية أن يلحظنا من هو واقف من فوقنا لا يرقب فينا إلاً ولا ذمة، مضى ثلث الليل الأول بسلام، غير أن الذي لم يكن بالحسبان، هل مع قدوم الثلث الثاني من نفس تلك الليلة، وذلك حين راح فايز يصرخ في صوت عالي في شيء يشبه الهستيريا دون انقطاع قائلاً:

- يا حرس.. يا حرس.. يا حرس..!!

وأطل علينا ثلث الليل الحالك، وقد جاء صوت السجان غاضباً مزمجراً:

- شو بك أُوْلا.. والله.. والله لأنـــ.. أختك.. يا أخو الشـــ.. سكّتُوه يا أولاد المنـــ..

لم يسكت فايز، بل أضاف قائلاً في نوع من الهستيريا التي خرجت عن طائلة السيطرة:

- يا حرس.. هذول [هؤلاء] الإخوان سزقوا المصحف والرسـول.. بقـي يـردد هـذه الكلمات حتى أجهده التعب!

نادى الحارس الليلي من أعالي الأسطح:

- وينه رئيس المهجع أُوْلاه؟

- حاضر حضرة الرقيب!

هكذا أجاب رئيس المهجع، عندها جاءت كلمة الحارس، تلك التي رافقت كل ليلـة مـن ليالينا، لتضاف الى أنواع المغناة المختلفة، طوال سنواتنا التي امتدت في هذا السـجن، كانـت الكلمة هي:

- علمه، لحد ما يطلع الصبح أُوْلاه رئيس المهجع!

وأقبل صباح لا يُنسى، فتح الباب، بعد تقديم اللازمة لحضـرة الرقيـب، ونـادوا علـى "المْعَلَّمْ"، فايز!

خرج على قدميه، ما عدت أذكر كيف، غيـر أن الـذي أذكـره ولا أنسـاه، صـراخه وتوسلاته التي كانت تقطع نياط القلوب، حتى لو كانت من الحجارة! غير أن الذي أذكـره ولا أنساه ثانية، مناداتهم علينا وقد انتهوا من تعذيبه، كي نخرج لإدخاله، وقد كان، غير أن الـذي أذكره ولا أنساه ثالثة إدخاله العجيب في وضعه على بطانية، لتعذر الامساك به من أي طرف سليم كان!!

كان في الرمق الأخير، فيه بقية من نفس، تتحشرج، تجمّع حوله عند العصر عـدد مـن الشباب مع اشتداد الهاجرة وانكفاء الحارس بعيداً عن النافذة في السطح طلباً للظـل، اجتمـع بعض الإخوة من حوله وكنت واحداً من بينهم كي نرقب هذا المشهد المروع الذي تركوا فايز عليه، مشهد والله عصيٌّ على الوصف، قال أبو معتز وهو يرقب آخر خيوط الحياة تنسل مـن عيني فايز، اللتان راحتا تذبلان مع غروب شمس ذلك اليوم:

- أنت يا فايز سفيرنا إلى الله، أخبره وهو العليم بنا، أخبره عما حل بنا، سلام عليك يا فايز في الأولين، وسلام عليك يا فايز في الآخرين، وسلام عليك إلى يوم الدين.

ثم مال فايز برأسه بعد أن أسلم الروح إلى بارئها، مات فايز رحمه الله دون أن يتم يومه الثاني في المهجع "34"، ودون أن يتناول فيه حتى ولو جرعة من ماء!

هذا غيض من فيض التعليم، لعل رسالتي من وراء هذه الكلمة الغارقة في الدماء تكون قد وصلت إليك يا صاحبي، أكان ذلك يكفي كي يصلك بعضاً من معاني الظلم والجور؟! هل سمعت بمثل هذا؟ لقد رحل فايز ولم يتم ربيعه الثالث والعشرون، كما رحل الآلاف من قبله ومن بعده وهم في عمر الورود، صبياناً وشباباً لم تخالط جوارحهم أدران الحياة، ولم تترك لهم طغمة دمشق العلوية القرمطية المتصهينة حتى النخاع، لم تترك لهؤلاء الفتية فرصة كي يَمَسُّوا ولو شيئاً من متع الحياة، ساقت الكثير منهم إلى الموت الزؤام، أمام اعترافات انتزعتها نفس الطغمة الحاقدة منهم تحت غلظة العصا وانهمار السوط والكابل والكرباج، ولعل في الأيام بقية من متسع، كي يعاد فيه فتح جميع الملفات، كي تدرك الدنيا، كل الدنيا بأن جل الذين أفضوا على أعواد المشانق، ما كان لَهم أي علاقة أو شاكلة مما نسب إليهم من تهم، غير أن للإنسان تحت لهيب العذاب المصبوب على الجسد المتهتك صباً، طاقة متى تجاوزها وانهار، أدلى بأي شيء، ولو كان كذب الدنيا مجتمعاً فيه، على أن يأتي على المقاس الذي يرضي المحقق والسجان.

كان صيف عام 1982 حاراً لاهباً فوق المعتاد عن كل عام، عامراً بالأحداث، فقد جاءت ردود الفعل على أحداث مدينة حماة قاسية وغاية في المرارة والإجرام، ولعلها المرة الأولى التي أشهد فيها يقيناً لا لبس فيه، قائمة طويلة تليت قبيل الفجر لإحدى وجبات الإعدام المروعة، وكان من أوائل ضحاياها علي دباليس من أبناء اللاذقية، وقف يودعنا ونحن ذاهلين لا نملك سوى المأساة التي ارتسمت على وجوهنا، اجتمعنا من حوله نودعه ونوصيه بالثبات، وندعو له، في الوقت الذي خلع فيه ثيابه التي كان يرتديها، التفت إلينا وابتسامة تعلو محياه قائلاً:

- لعل أحداً من الإخوة يستفيد من هذه الثياب، فإن الحي أبقى من الميت، أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم ببعضكم خيراً، سامحوني إن أسأت لكم، واسألوا الله لي القبول!! ثم فتح الباب ومضى إلى غير رجعة دون أن يلتفت.

لف المهجع صمت المقابر، وبقيت ثيابه التي تركها حيث رمى بها، لا يجرؤ أحد على مسها، كما لو أنه سيعود عما قليل ليرتديها، ودبت في جمال خراط أحد أبناء حلب المنعمين رحمه الله همة، فقام يطوف على الحاضرين طالباً منهم قراءة سورة الرعد على نية تثبيت المودعين لنا الوافدين على ربهم، ولم يكن بوسعي تحمّل المزيد، فسقطت مغشياً علي.

حمل الوافدون الجدد إلينا بعض الأخبار عما حل بحماة، تلك المدينة القديمة العريقة، والتي أُلِّفَتْ في مجزرتها الكتب، لكن الذي يعنينا في هذا الفصل، خبر الكم الهائل ممن سقط من الشهداء، ولعلني ما زلت أذكر، كيف كنا نجلس متحلقين يتلو علينا أحد الإخوة بعضاً من ملامح المأساة، حتى إذا ما راح يعد بعض أسماء الذين سقطوا على يد الباغي، كان ممن يستمع للقائمة زهير يوسف، وحين مر الراوي على ذكر والد زهير وأهل بيته، وكيف قضوا نحبهم تحت القصف العشوائي الذي لا يرحم، ولا يميز بين من حمل السلاح، ومن هو أعزل، وكيف قامت سلطة دمشق الفاشية، بقتل هؤلاء من غير ذنب اقترفوه، لم يحتمل المسكين زهير الخبر، فخر صريعاً، حتى إذا ما أفاق، اكتشفنا أنه ما عاد يجدي معه أي دواء أو علاج، فقد ذهب عقله، وتخلت عنه كل ملكة من ملكات الوعي والإدراك، ومنذ ذلك الحين تم تعيين أحد الإخوة المتبرعين لملازمته على مدار الساعة، ومما أذكره له شفاه الله، وقوفه الدائم وسط المهجع يحصد ما يتوهم من الشياطين الذين لولا يقظته الدائمة كما كان يزعم لقاموا بغزونا من فوقنا ومن أسفل منا.

ولم تمضِ إلا أيام حتى نادوا على الدفعة التالية، ووقفت بنفس كسيرة بين المودعين أرقب الراحلين، وكان العدد هذه المرة أكبر، كان من بين الأسماء التي ما زلت أذكرها، كل من الأخ الحبيب حسن عبد الحي من إدلب، أظنك يا صاحبي ما زلت تذكره، محمد عنداني من حلب، محمد عصفيرة من حلب أب لثلاثة أطفال، محمد نعنع من إدلب، عادل من إدلب، محمد الأقرع من إدلب، نزار من إدلب وكان مصاباً بخرّاج داخلي حاول كل من الدكتور صالح خوجة من أكراد دمشق، والدكتور أبو عثمان من بانياس إجراء عملية تنظيف له، ولقلة

الإمكانيات أدخلوا مسماراً بعد أن أحموه على النار – كي يقتلوا ما عليه من بكتيريا – دون إمكانية أي نوع من أنواع التخدير، لكن المسمار ضل طريقه في المرة الأولى إلى الخراج، مما إضطر الإخوة الأطباء إلى إعادة العملية للمرة الثانية أيضاً دون تخدير، وكان نزار صابراً محتسباً عند الله ما يعاني من ألم، ولم يدم به المقام بعد العملية، نادوا على اسمه في هذه القائمة، ولما أعياه المسير، أخذوه سحلاً إلى جبل المشنقة في الباحة السادسة.

وقف محمد نعنع وقد كنت قد أتممت سورة يوسف على يديه، وقف خطيباً في الباكين من حوله، ومما قال:

– أيها الأحباب، الثأر الثأر، الإسلام الإسلام، قولوا لأهلي إذا ما سألوا عني، بأنني سلكت درب الصالحين من المجاهدين، سلكته بمحض إرادتي، لست نادماً على شيء، إذ لا شيء في هذه الحياة يستحق أن نندم عليه.

أما عصفيرة فقد كان مرحاً حتى وهو يودع، التفت إلينا وقد امتلأ وجهه إشراقاً لم تفارقه ابتسامته المتلألئة:

– كنت دوماً جباناً أخشى الخروج للحلاقة، وأختبئ أحياناً بين البطانيات كي لا أذهب إلى الحمام، كل ذلك فراراً من العذاب، اليوم أمضي إلى رب كريم رحيم، لا تجزعوا، أسأل الله أن يكف أيديهم عنكم. وحين فتح الباب مضوا كغيرهم ممن مضى، ذهبوا بهم من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور طواغيت دمشق إلى عدل الرحمن، وهكذا كانوا بيننا فأصبحوا مع الأيام عبرة لنا.

جاءت الحلاقة التالية هادئة، وقلما جاءت على هذه الشاكلة، وسمعنا من بعيد خطاباً لرئيس العصابة، كان يتحدث فيه عن حماة، كان خطاباً متشنجاً، اجتمعت فيه نبرة الأحقاد والغضب، ومما جاء فيه:

– إنهم يقتلون الشيوخ والأطفال، إنهم قتلة، إنهم مجرمون، هدموا المنازل على أهلها من الأبرياء والعزل.

كان كاذباً والكذب طبعه، وكان مجرماً جباناً والإجرام والجبن ديدنه، ومن أراد الوقوف على الحقيقة، فعليه بكتاب "حماة.. المجزرة المستمرة"، ففيه ما يشفي الغليل، ويداوي كل قلب عليل!!

لم تنقطع حلق تحفيظ القرآن، ولم تتوقف، وصارت ملاذنا نرتحل من خلال الإقبال عليها إلى الله، كلما ألمت بنا ملمة من الملمات، وما أكثرها، وشمرنا عن ساعد الجد واجتهدنا وسعنا، وكان أكثرنا اجتهاداً من أدرك بحسه دنو أجله ممن طالتهم أحكام الإعدام، ولعلني إن لم تخني الذاكرة، قد صرت إلى الجزء العاشر استظهاراً حتى ذلك الحين، لا سيما وقد تخففت في هذا المهجع من أي مسؤولية تُذكر، وصار المهجع كخلية نحل نشطة، نشطت فيه علوم القرآن المختلفة، ودروس الأحاديث والسيرة النبوية، إضافة إلى دروس التاريخ والفتوحات ودروس اللغة العربية، وكل ما هبَّ على الخاطر من الدروس على أيدي أهل المعرفة والاختصاص.

أياماً ونودع الأخ حبيب فلاحة من أبناء حلب، شاب أبيض البشرة، أزرق العينين، يافعاً في مقتبل العمر، نخره مرض السل، وبراه شح الطعام وسوء التغذية، وعزَّ عليه الظالمون بالدواء، فأسلم لله روحه الطاهرة، ونحن من حوله نرقبه بأعين دامعة وقلوب محزونة آهلة مكلومة، وبعدما قمنا بتغسيله والصلاة عليه، دققنا الباب كما كان الحال مع فايز، فأخذوه مشفوعاً بكل أدعية البائسين الأخيار، بأن يرحم الله غربته ويقبل أوبته، وأن يرفع درجته، وأن يجعله وجميع شهداء المسلمين في عليين، مع النبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقاً.

* * *

كنا لا زلنا في هزيع ليل أخير من ليالي النصف الثاني لشهر رمضان المبارك، أيقظني أحد الشباب ممن ينامون بالقرب من رأسي، أخبرني بأنه سمع اسمي يتردد في الباحات البعيدة، أخذت إذناً من الحرس الليلي الذي كان يقف بباب دورة المياه، وهو من أحد الشباب الذين يقومون ليلاً على تنظيم حركة الدخول إلى بيت الخلاء، وكنت أنوي الخروج متوضئاً، ففي هذا الوقت عادة ما يتلون قوائم الإعدامات، غير أن الوقت لم يسعفني فاكتفيت بضربتي تيمم على الحائط، وما هي إلا أن نادوا على اسمي، وسرعان ما فُتح الباب، ليقتادوني مع خمسة آخرين من مهاجع مختلفة صرت أنا سادسهم، إلى الباحة الأولى، حيث الإدارة أو الذاتية كما يسمونها، كان معنا في هذه الدفعة، المهندس خالد رضوان الرضوان، أظنك ما زلت تتذكره يا صاحبي، أعلمني بأنه موجود في المهجع المجاور لمهجعنا تماماً، المهجع

"33"، ومما أذكره أن أحد الجلادين حين علم أنني من الأردن، رفسني بجذائه الغليظ، ليقول بعدها لصاحبه ساخراً:

- هذا من عند صاحب الجلالة، هذا من عند مضر بدران، (كان يومها يشغل منصب رئيس وزراء الأردن، الذي جرت محاولة اغتياله على أيدي عميلين من عملاء المخابرات السورية، وقد تم إلقاء القبض عليهما، ليعترفا بعد ذلك بأنهما كانا ضمن المجموعات التي نفذت مجزرة سجن تدمر الشهيرة، والتي راح ضحيتها قرابة الـ 1200 من المعتقلين الأبرياء!!)

ويسأله الآخر:

- ومن يكون مضر بدران؟! يخيل إلي بأنني سمعت بهذا الإسم قبل الآن!

ويرد الفهيم الجهبذ:

- إنه وزير خارجية الأردن!

كان مجرد ذكر الأردن في هذا المكان يبعث على الرعب، كما لو أنني كنت أحمل محذوراً من المحاذير، التي توجب الإدانة به عقوبة قد تصل إلى الإعدام!!

عند الإدارة، وفي الباحة الأولى افترشنا الأرض أمام الشبك الحديدي المقابل لغرف التحقيق، في الوقت الذي شرع فيه أحد المحققين في استجواب أحد المعتقلين، ورحت أغرق في التخمينات، ما تراهم سيفعلون بي؟ هل جد طارئ على التحقيق؟ هل ألقي القبض على أحد معارفي؟ هل ورد اسمي في تحقيق جديد؟ ليس في وسعك هنا إلا أن تنتظر الأسوأ! لم يتركوا - قاتلهم الله - للأمل أي فسحة كانت، لذلك كنت غارقاً في التشاؤم إلى حد السوداوية المفرطة! ولم أصحُ من هذه الهواجس إلا على صوت الدولاب والكرباج، ورجل يحشر فيه، لتعلو بعد ذلك فرقعة السياط مختلطةً بصراخٍ يطاول عنان السماء، وأخذت الدماء سبيلها إلى جواري، ثم راح صاحبها يغط في غيبوبة، لم يكفّوا الضرب عنه حتى خرج المحقق فأشار عليهم بالتوقف.

لم يعد بوسعي أن أخفي الخوف الذي راح يكتنفني، وقد بدا ذلك في الرعدة التي أخذتني، فكنت أهتز من رأسي حتى آخر أطرافي، وعادت الهواجس لتلتهمني من جديد، ما عساهم سيفعلون بي؟ ونهرني الشرطي الواقف فوق رأسي قائلاً:

- أوْلا هنْتْ، خوذ قطعة القماش اللي هون وامسح فيها الدم!!"

امتثلت للأمر ولم يكن بوسعي تجفيف كل الدماء، فقد كانت أكبر من قابلية قطعة القماش على الامتصاص، مع أن قطعة القماش كانت كبيرة، إلا أنها عجزت عن استيعاب ما نزف من الضحية عاثر الحظ، وعاد الشرطي فنهرني قائلاً:

- أوْلا قرد، خلاص بيكفي، ارجع لمحلك!!

ما أن أخذت مكاني حتى عادوا فنادوا عليّ، ثم اقتادوني إلى غرفة من غرف التحقيق، لأجدني وجهاً لوجه دون غطاء العين الذي عودونا عليه في مثل هذه المناسبات أمام المحقق، كان طويلاً في بنية بدت متماسكة، وشارب تخاله مصبوغاً بالسواد لشدة دكانته، إن لم يكن كذلك، عيناه تقدحان شرراً وشراً، بدأ سؤاله بالقول:

- يا سيد سليمان، لدينا مجموعة من الأسماء التي وردت في التحقيق، سوف أتلوها عليك واحداً واحداً، وأنت بدورك ستعطينا أوصافهم!!

ألفيتها فرصة، والحق يقال، لم أصدقه هنا في أي وصف، اسم واحد انتظرت منه سؤالي عنه، لكنه لم يفعل، مع أنني أكدت عليه كثيراً في حيثيات التحقيق، لاعتقادي أنه صاحب الوشاية الكيدية التي انتهت بي إلى هذا المكان، صاحب هذا الاسم هو جميل حمصي، دمشقي كان يعمل في ألمانيا، وكان قد توعدني يوماً لخصومة دبت بيني وبينه، لم يكن لي دخل فيها من قريب أو بعيد، وكانت الشكوك تحوم حوله منذ زمن بعيد في كونه يعمل مخبراً لصالح الأجهزة السورية، ومن يدري فلعله كان كذلك!

تنفست الصعداء حين أذن لي بالانصراف، وأحسست بعودة الروح في كياني، إحساس الغريق قد نجا من موت كاد أن يكون محققاً، وقبيل الصبح بقليل ساقنا العريف عقلة، صاحب جولات التعذيب الإجرامية المشهورة إلى المهاجع، وحين فتحت، بعد تقديم اللازمة، صاح بي عقلة:

- أدخول أوْلا!!

ما أن دلفت البوابة، وأنهى رئيس المهجع تقديم الصف، حتى التفت إليّ الإخوة التفاتة الأهل أضاعوا حبيباً ثم عاد بعد طول انتظار، امتلأت عيناي بالدموع وأنا أرى هذه الحفاوة العفوية من هذه القلوب التي فطرها البؤس والإعياء!!

كما كانت ترتحل عنا وجوه، كانت تتوارد علينا وجوه، فقد أدخلوا علينا ذات يوم المهندس أبو الوليد الحيدري، كان في يوم من أيام خلت يشغل منصب مدير المقاسم الآلية في سوريا، أدخلوه علينا بعد سنوات خمس قضاها داخل المنفردة، داخل الزنزانة في تدمر، حيث الزبانية كانوا يجتمعون عليه يومياً، جاؤونا به بعد أن أصيب بانفصام في الشخصية، قد ذهب عقله، وصار يخلط في المسائل الغيبية، تتنزل عليه الملائكة، تحدثه عن الجنة والنار، وأسرار الروح، والقطار الواقف بباب المهجع لنقل الراحلين إلى المريخ، ثم أخيراً تقلباته في العبادة ليلاً، في أوضاع لافتة للانتباه، وادعائه الخلافة، كان شفاه الله مديراً للمقاسم الآلية، فحوله الظالمون المتغامزون إلى مديراً للمسائل الغيبية، وكتلة من ضحية إنسية، لقد كان الأخ المهندس أبو بكر من أبناء حماة، وهو مهندس اتصالات يقف مشدوهاً، وهو يتأمل أبو الوليد الحيدري، لا يكاد يصدق بأنه هو ذاته الذي دخل عليه يوماً ليقدم له طلب الالتحاق بشركة الاتصالات والمواصلات، والتي كان المهندس أبو الوليد يتربع على أعلى الهرم فيها، لقد تحول أبو الوليد إلى طفل صغير يحتاج إلى من يداريه ويرعاه، بعد أن كان كثير من الخلق عيال على علمه ومعارفه.

وفي نفس النصف الثاني من عام 1982 توقفت الإعدامات لفترة نافت عن أشهر ست، هكذا فجأة، ولم يكن بمقدور أي كان منا أن يزعم يومها معرفته للسبب، وتراجعت حدة التعذيب التي كانت قد تضاعفت في الكم والكيف أثناء وبعد أحداث حماة، وسرت بين البؤساء بعض علامات الارتياح، فقاموا بعد فترات التفقد، وانكفاء الشرطة عند الهاجرة إلى الظل، بإخراج عدة مسرحيات، أذكر منها مسرحية إسلام بلال الحبشي رضي الله عنه، وكان لي فيها دور الضحية، وجاءت ناجحة حسب المتاح الممكن، وكذلك بعض المسرحيات التي جاءت تحكي واقع الحياة الاجتماعية والسياسية في سوريا.

وما فتأت الأمراض تتربص بنا، حتى اشتدت وطأتها، فاجتاحت الجميع، وما عاد بيننا أحد، إلا وفيه انشغال بنفسه عن غيره، وتم استحداث مهاجع للمصابين بالسل كما ذكرت، وكذلك مهجعان للأحداث من صغار السن، تم فرزهم إلى الباحة السادسة.

المهجع المزدوج "5 - 6"

منتصف شهر رمضان من عام 1982 نُقِلْنا إلى الباحة الثانية، إلى المهجع المزدوج 5-6، وكان أشبه ما يكون بالكهف، مدخله الضيق ينتهي إلى مهجع صغير، في أقصى شماله فتحة تؤدى إلى دورة المياه، ثم تعود للاتساع كي تطل على مهجع أكبر لا تعرف أشعة الشمس إليه سبيلاً، كان مغلقاً تماماً، وهو تابع للبناء الفرنسي القديم، ذا سقف منخفض إلى حد ما، إذا ما قيس بالمهجع 34، بالإضافة إلى خلوه من الفتحتان العلويتان، وهذه ميزة تركت الحركة بداخله أكثر يسراً، بعيداً عن عين الرقيب، إلا أن سوء التهوية، وسوء التغذية، ناهيك عن وجوده - أعني المهجع - في باحة استقبال الوافدين الجدد، كان لكل هذه الأسباب مجتمعة بالغ الأثر السيئ في نفوسنا الواهية المتهالكة.

ما أثار انتباهنا في هذا المهجع، آثار رصاص وبقايا شعر وجلد كانت لا تخطئها العين لا تزال حتى ذلك الحين معلقة أين اتجهت، على جدران وسقف المهجع، يقيني أنها بقيت شاهد عيان على المجزرة المُرّة التي ارتكبت قبل أشهر هنا، وكان بطلها آنذاك المجرم رفعت الأسد، وقبل أن أسترسل في الحكاية، أترك اثنين من المجرمين- حاولا قتل رئيس وزراء الأردن فيما بعد، لكن إرادة الله شاءت أن يقعا في قبضة السلطات الأردنية- كي يرويا بعض الحقيقة مما جرى في تلك الليلة، وهنا أترك المجال كي نستمع في ذهول للقصة الكاملة للجريمة التي ارتكبها النظام الطائفي في سورية بحق الأبرياء العُزّل، كما جاءت على لسانهما:

مجزرة تدمر

التحضير للعملية

"في تمام الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ١٩٨٠/٦/٢٧ دُعيت مجموعتان من سرايا الدفاع للاجتماع بلباس الميدان الكامل، المجموعة الأولى من اللواء (٤٠)، الذي يقوده الرائد معين ناصيف (زوج بنت رفعت أسد)، والمجموعة الثانية من اللواء (١٣٨)، الذي يقوده المقدم علي ديب، وكل من المجموعتين يزيد تعداد عناصرهما على مائة عنصر.

أما مجموعة اللواء (٤٠) فقد اجتمعوا في سينما اللواء، حيث ألقى فيهم معين ناصيف كلمة، قال فيها: "راح تقوموا بهجوم على أكبر وكر للإخوان المسلمين، وهو سجن تدمر.. مين ما بدو يقاتل؟"، وبالطبع، فلم يرفع أحدٍ منهم يده، ثم انتقلت المجموعة الموجودة إلى مطار المزة القديم، حيث التقت المجموعتان، وكانت في انتظارهم عشر طائرات هليوكوبتر، وكل طيارة تتسع لـ ٢٤ راكب.

كان قائد العملية المقدم سليمان مصطفى، وهو قائد أركان اللواء (١٣٨)، وكان من جملة الضباط المشاركين: الملازم أول ياسر باكير، والملازم أول منير درويش، والملازم أول رئيف عبد الله.

أقلعت طائرات الهيلوكبتر حوالي الساعة الخامسة صباحاً، ووصلت إلى مطار تدمر حوالي الساعة السادسة، وعُقِدَ اجتماع لضباط العملية، تمّ فيه توزيع المهمات وتقسيم المجموعات، ثم أعطي العناصر استراحة لمدة ثلاث أرباع الساعة.

في هذه الأثناء كان سجن (تدمر) هادئاً، وقد اتخذت ترتيبات مُعينة، مثل: إجراء تفقد للمعتقلين وتسهيل مهمة مجموعات سرايا الدفاع، فلم تكن هناك عراقيل أو اعتراض، بل كانت الشرطة العسكرية المكلفة بالحراسة مستعدة على الباب الخارجي، كما كان رئيس الحرس وشرطته العسكرية مجتمعيْن في ساحة السجن.

ثمّ دُعي عناصر سرايا الدفاع إلى الاجتماع؛ حيث تمّ تقسيمهم ثلاث مجموعات:

- المجموعة الأولى: وهي مكوّنة من (٨٠) عنصراً، وكلفت بدخول السجن، وسُميت "مجموعة الاقتحام".

- المجموعة الثانية: وهي مكونة من (٢٠) عنصراً، وكُلّفت بحماية طائرات الهيلوكبتر.

- المجموعة الثالثة: وهي مكونة من بقية العناصر، وقد بقيت في المطار للاحتياط.

ركبت مجموعة الاقتحام سيارات (دوج تراك)، وحين وصلت إلى السجن؛ انقسمت المجموعات الموجودة إلى مجموعات صغيرة، كل منها بإمرة أحد الضباط، وقد سلّم مدير السجن مفاتيح المهاجع إلى ضباط سرايا الدفاع، كما زوّدوا بمرشدين لغرف السجن وباحاته.

كان في سجن تدمر العسكري (٣٤) مهجعاً، في كل منها (٢٠-٧٠) معتقلاً؛ تبعاً لحجم المهجع، وقد تم تنظيم العملية بقتل المعتقلين على دفعتين: الدفعة الأولى تشمل الغرف المطلّة على الباحات (١ و٢ و٣)، والدفعة الثانية تشمل الغرف المُطلّة على الباحات (٤ و٥ و٦)، وبسبب انخفاض المهاجع وعتمتها في غرف الباحات (١ و٢ و٣)، تقرر إخراج المعتقلين إلى الباحات لتنفيذ الإعدام فيهم.

وتوزّعت مجموعات سرايا الدفاع على المهاجع والباحات، وفُتحت الأبواب، وبموجب نظام السجن، وقف المعتقلون عند فتح أبواب المهاجع مغمضي العيون ووجوههم إلى السقف، وقدم رئيس كل مهجع الصف (ويكون أحد السجناء، ويُطلب منه ترتيب السجناء وتنظيمهم، ويكون له نصيب أكبر من العذاب. انظر كتاب شاهد ومشهود).

- في الباحة رقم (١) تم إخراج نزلاء المهجعين (٥ و٦)، ونزلاء المهجع (٤)، وجُمعوا في زاوية الباحة الشمالية الشرقية.

- في الباحة رقم (٢) تمّ إخراج نزلاء المهاجع الثلاثة (٨ و٩ و١٠)، وجُمعوا في آخر الباحة الجنوبية الغربية، مقابل المهجع (٨) ذي الشرفة الواسعة من الأمام.

- في الباحة رقم (٣) تمّ جمع المعتقلين من المهاجع (١٢ و١٣ و١٦ و١٧)، في الزاوية الشرقية الجنوبية من الباحة أمام المهجع (١٢).

وهكذا تمّ تجميع المعتقلين مع أغراضهم بشكل يجعل عملية القتل والإبادة تبدأ في الباحات الثلاثة في وقت واحد.

والجدير بالذكر أن المعتقلين جميعاً خضعوا في اليوم السابق لأنواع من التعذيب الشديد

الذي لم يسبق له مثيل، فقد اندفعت عناصر الشرطة العسكرية تطوف بالمهـاجع، وتضـرب المعتقلين بالسياط والعصي، كما أخرجوا نزلاء بعض المهاجع إلى الباحات بالتسلسل، وانهالوا عليهم ضرباً بالعصي والسياط، فأصيب الكثيرون من المعتقلين بكسور وجروح مختلفة.

بدء المجزرة الوحشية

بعد ذلك أُعطيت إشارة البدء لعناصر سرايا الدفاع، فانطلقت الآلات النارية تصبّ وابل الحمم على المعتقلين العزل الأبرياء، وألقيت عدة قنابل - لا سيما في الباحة رقم (٢) - واستخدمت بعض قاذفات اللهب مع إطلاق النار الكثيف في كل من الباحات الثلاث، في حين الذي تعالت أصوات المعتقلين بهتافات: الله أكبر.

وخلال دقائق قليلة انتهى الأمر، لكن بعض المعتقلين في الباحة رقم (١)؛ تمكنوا من الهروب، وتمكنوا من دخول المهجع الكبير المزدوج (٥ و٦)، فتواروا فيه، فلحق بهم بعض عناصر سرايا الدفاع، فقتلوهم ومثّلوا بهم.

حين انتهت العملية في الساحات الثلاث، تجمع القتلة وانطلقوا إلى الباحات الثلاث الأخرى، ولكيلا تتكرر عملية هرب بعض الضحايا إلى المهاجع، قرر الضباط دخول المهاجع على المعتقلين، وقتلهم فيها.

اندفعت ست مجموعات من القتلة إلى الباحة رقم (٤)، وفيها ثلاثة مهاجع مليئة بالمعتقلين، فتوجهت كل مجموعتين إلى مهجع، وفتح الباب، وقدم رئيس كل مهجع الصف، فدخلوا عليهم، وأمروهم بالابتعاد عن الباب، ثم ألقوا على المهجع قنبلتين دفاعيتين، ثم دخلوا عليهم، وأخذوا يُطلقون رصاصهم رشاً على الضحايا الذين ارتمى معظمهم على الأرض بين قتيل وجريح، واستمروا في ذلك إلى أن أتمّوا قتل من في المهجع.

ثم انطلقت المجموعات إلى الباحات رقم (٥ و٦)، حيث توزّعت على المهاجع الخمسة الباقية، وتم فتح الأبواب عليهم، وبُدئ بإطلاق النار على المعتقلين العُزّل.

وفي أحد مهاجع الباحة رقم (٥) اختبأ أحد المعتقلين في دورة المياه بالقرب من الباب، وحين دخلت العناصر المسلحة، وبدأت بإطلاق النار على المعتقلين العُزّل، انقضّ هذا المعتقل من دورة المياه، وتمكّن من انتزاع السلاح من أحد عناصر سرايا الدفاع، وهو الرقيب

اسكندر أحمد، وأطلق عدة طلقات أدت إلى مقتل هذا الرقيب وجرح اثنين آخرين، لكن بقية العناصر المسلحة بادرت إلى إطلاق النار على المعتقل البطل حتى استشهد.

قام بعض الضباط والعناصر بتقليب جُثث الضحايا، والتأكد من مقتلها أو الإجهاز على من فيه بقية رمق، حتى تلطّخت أيديهم وثيابهم وصدورهم بالدماء، مثل الملازم: رئيف عبد الله، والملازم منير درويش، والرقيب علي محمد موسى.

بقي دم الضحايا البريئة يغمر أرض السجن؛ وتجمد في كثير من الأماكن من الباحات والمهاجع، فتم تنظيف الساحات، وتم طلاء جدران السجن بسرعة لإخفاء معالم الجريمة، أما المجرمون منفذو العملية فقد عادوا إلى مطار المزة في الساعة ١٢.٣٠ ظهراً، وانصرفت مجموعة اللواء ١٣٨ إلى لوائها، كما انصرفت مجموعة اللواء ٤٠ إلى لوائها، وكان بانتظارهم الرائد معين ناصيف، حيث اجتمع بهم في السينما، وشكرهم على جهودهم، وعزاهم بوفاة الرقيب اسكندر، وقال لهم: أنتم قمتم بعمل بطولي، بعمل رجولي، ثم أمرهم بكتمان العملية، وقال لهم: ما لازم تطلع هالعملية خارج منا، يعني لازم تظل مكتومة وسرية.

وفي اليوم التالي وزعت السلطة مبلغ ٢٠٠ ليرة سورية على كل عنصر من العناصر الذين اشتركوا في هذه الجريمة.

ملاحظة:

هذه التفاصيل جاءت ضمن اعترافات الرقيب المجرم عيسى إبراهيم فياض، والعريف المجرم أكرم علي جميل بيشاني، وكلاهما علويان من سرايا الدفاع، اشتركا في محاولة فاشلة لاغتيال رئيس الوزراء الأردني السابق مضر بدران، وأدليا باعترافاتهما كاملة على شاشة التلفزيون الأردني، ونشرت في كتاب الوثائق الأردنية -١٩٨١، والذي طبعته وزارة الإعلام الأردنية بتاريخ ٢٥/٢/١٩٨١.

هذا وقد اطلعت لجنة حقوق الإنسان التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، التي انعقدت في جنيف في دورتها السابعة والثلاثين على وقائع مجزرة تدمر، خلال مناقشتها للبند ١٣ من جدول الأعمال الخاص بانتهاكات حقوق الإنسان في العالم، ووزعت على اللجنة الوثيقة رقم (E/CN/4/1469) تاريخ ٤/٣/١٩٨١، والتي تضمّنت إفادات المشاركين في مجزرة تدمر،

(عيسى إبراهيم الفياض وأكرم بيشـاني). وناقشـت اللجنـة بجلسـتها رقـم ١٦٣٢ تـاريخ ١٩٨١/٣/٩ مضمون المذكرة وشارك في النقاش مندوبو الأردن والعراق وسورية."

المجرم أكرم بيشاني

المجرم عيسى إبراهيم فياض

الإفراج عن بعض المعتقلين

لم تمضِ إلا أياماً قليلة على وصولنا إلى المهجع الجديد، حتى تليت عصر يوم من الأيام قائمة أسماء، أُخلي بموجبها سبيل مجموعة من الشباب كان من بينهم أبو الطاهر منذر من حلب، كنت قد حدثتك عنه آنفاً، ذاك الذي كان ينوى زيارتي في ألمانيا، فلما تعذر عليه ملاقاتي هناك، ساقتني الأقدار لملاقاته وراء القضبان، ودَّعَنا على عجل تاركاً خلفه عمه أبو نبال الذي كان يومها قد زحف إلى السبعين، وتاركاً قلبي المشعوب، تتنازعه فرحة الإفراج من جهة، ومن جهة أخرى ألم الفراق الذي ربما لن يجمعنا بعده لقاء.

قام رئيس المهجع بتقسيم البرامج الثقافية بين ذوى الاختصاص، وأوكلت هذه المهمة للمهندس طريف حتاحت أحد أبناء دمشق، وكان يقدم بعض البرامج الخاصة بتاريخ وجغرافية العالم الإسلامي، كذلك فعل السيد خالد ب. أبو الصديق، كان يقوم بإعداد برنامج خاص في الثقافة الإسلامية وبعض البرامج الفقهية، إضافة إلى مواضيع في علوم القرآن وتحفيظه الذي استمر قائماً وبكثافة على قدم وساق.

قاسم ططري

ليس بمقدوري هنا تدوين الكثير من حكايات من التقيت وراء القضبان، لا سيما الخاصة منها، لكنني أريدها هنا أن تكون كاستراحة المحارب، لأكشف عن بعض الجوانب الإنسانية، التي كان يحياها الناس خارج جدران هذا السجن وقضبانه، ولعلّني أقصر جهدي على حكاية قاسم ططري أبو طارق، من أبناء الزبداني الذين طلّقوا الدنيا كما طلقتهم ثلاثاً لا رجعة فيها وفرغت من ذكرهم الأقدار!

لا بالطويل فينسب إليهم ولا بالقصير فيلحق بهم، لامسته سُمْرة خفيفة، توازي ظله، ولعل ظله أخف، نحيلاً قد دقّ عظمه، ثقافته واسعة، علمه ومداركه تبعث على الاستغراب إذا ما شاهدت صغر رأسه المستدير، إذ من أين لهذا الرأس الصغير أن يتسع لكل هذه الثقافة؟!

جلستي الأولى معه ألزمتني صحبته إلى أن فاضت روحه إلى بارئها، قد اجتمعت عليه ظلمتان، ظلمة السجن والسجان، وظلمة الليل والأوطان، لقد كان رحمه الله مع خفة دمه، ولطف شمائله، موغلاً في التشاؤم، حتى خِلْتني مع كل يأسي وقنوطي متتلمذاً على يديه في هذا الباب، ومع هذا أحببته في الله لصفاء روحه التي لم يخالطها الخبث يوماً، ولتقواه وخشيته من الله التي ما ساقته إلى حرام قط – وقد كان في متناوله يوماً لو أراد – وإيمانه الذي غمر بيته ومناحي أركانه، أحسبه كذلك، ولا أزكيه على الله.

أما اسمه فلعل له منه نصيب، فهو قاسم هكذا جاء بكراً لوالديه كما أخبرني، أما اسم العائلة فلا دخل له فيه، حمله أجداده من قبل، وما كان ليضيره أن يحمله كما حملوه، وشعاره دوماً قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾، اسم جاء لعلّة من العلل هو لا يعلمها، غير أنه يعلم يقيناً لا لبس فيه بأنه ينتسب إلى عائلة الططري، عائلة صغيرة من عوائل الزبداني، لم تكن لتتجاوز عم له شقيق لأبيه، سقط صريعاً برصاص الثأر الذي أطلقه عليه أحد أبناء من غدر العم به لسنوات خلت، ولم تكن سنوات السجن التي قضاها العم المغدور وراء القضبان لتشفع له أمام تلك التقاليد التي لن ولا أعتقد بأنها ستنتهي في شرقنا البائس، ولعلها الحادثة

الأولى في حياته، جاءت في زمن كثرت فيه الشعارات، واجتاحت فيها صور زعيم مصر الملهم كما كانوا يزعمون كل الواجهات والجدران، وكان يومها قاسم شاباً يافعاً كبقية من هو في رجاحة فكره طموحاً، لم يثنه فقره، ولم يكن ليقف حاجزاً عن مواصلته طلب العلم وتحصيله، وكانت حكاية تغيير نظام الحكم في مصر، قد تجاوزت حدود مصر إلى ما حولها من الدول، وظهرت شخصية عبد الناصر البراغماتية، والشعارات التي رفعها، لتصبح بعد ذلك مثاراً لنقاشٍ وجدالٍ جيل تلك الفترة بأكمله.

عبثاً اجتهدت في تذكر تلك الحكاية التي رواها لي يوماً من الأيام، عن تلك الفتاة التي تغشت قلب الفتى في بواكير شبابه، وكانت صاحبة الحظوة آنذاك فتاة فلسطينية، جارة لبيت العم المغدور به، وكانت النقاشات السياسية التي تدير دفتها، تنبئ عن عناد سياسي تتشبث به، وكادت القصة لولا لطف الله بالفتى أن تنتهي إلى الزواج المبكر، بدأ ذلك في الزيارة التي بادرت فيها الفتاة برفقة والدتها إلى بيت العم الذي لم يكن يحوي سوى الإناث في الزبداني قادمين يومها من دمشق.

حدثان حالا دون أن يمضي هذا المشروع الى أشواطه الأخيرة، أما الأول فهو مقتل العم على حين غرة، وانشغال صاحبنا في رسم خطط الأخذ بالثأر، فهو الرجل الوحيد المتبقي في العائلة، القادر على حمل السلاح، والمعول عليه القيام بهذه المهمة.

أما السبب الثاني، فهو الاتجاه السياسي المخالف، والذي رعاه مجموعة من أساتذة الفتى ومربيه، وفوق هذا وذاك جاءت التقاليد لتئد الفكرة في مهدها، فالفتاة منطلقة متفتحة، قد أخذت بأسباب التمدن والمدنية، بينما صاحبنا، وإن كان في عنفوان المراهقة وتبعاتها، فقد بقي أسير عائلته المحافظة، وجاء بعد ذلك انعطاف ديني سياسي متوازن كبل ما بقي عند الفتى من اندفاعه، وكبح جماح كل الشهوات والنزوات التي تختلج في صدر كل شاب في مثل هذا السن المبكر!

لذا وكما ذكرت آنفاً، لم يكن بمقدور هذه القصة أن تمضي إلى أشواطها الأخيرة، فماتت أصيل يوم من الأيام على أطراف بساتين الزبداني الشهيرة، تماماً كما ماتت قصة الثأر في نفس الفتى، لعدم جدواها، ولعدم اقتناعه بأي فائدة يمكن جنيها من ورائها، ناهيك عما ستجر على الطرفين من مصائب فيما إذا استمر الرد والرد المعاكس.

تابع دراسته، وسعى في التحصيل، فإذا هو طالب في معهد المعلمين، سنتان ويصبح

مدرساً في إحدى مدارس الزبداني، ثم عاد فاحتواه روتين المكاتب في مديرية التربية والتعليم، ولعل ما كان يثير من حوله زوبعة من الشكوك، وهو في مكتب يشاطره المقاعد فيه مجموعة من الموظفات، إفراطه بالانغماس في الوحدة وعدم الانفتاح، والذي لم يكن ليلاقي أي نوع من أنواع الارتياح والرضى لدى الأوانس من المتطلعات شريكات المكتب، وكان التحرش المقصود يأخذ بمجامع الضيق عنده، ولما نما إلى واحدة منهن ميوله الدينية، شرعت مع الأيام في ارتداء الحجاب يحدوها أمل بين عسى ولعل، وما كان له من منجى إلا طلب الانتقال، وكان له ما أراد، لكن ما لم يكن بالحسبان، ظهور فتاة أحلام جديدة، من بنات الحي، تلميذة في المرحلة المتوسطة، والدها صديق قديم لوالده، حَبَتِ القصة أياماً في صمت وخفاء بعيد الولادة، وحين اكتملت بدراً وافياً أعلم أمه بذلك، وجاءته الموافقة على عجل، وكان يريده زواجاً بعيداً عن كل البهارج الخادعة، أراده من البداية زواجاً إسلامياً، وجلس عند المساء، بعد أن جلب معه قطعة من قماش، ومصحف صغير الحجم، يتلو على والدته العبارة التي عليها أن تقولها عندما تذهب في خطبة الفتاة:

- في حضور خالاتها وأمها، قولي: "قطعة القماش أثر من الدنيا نكمل بها الطريق ثم إلى زوال، وأما كتاب الله فأثره باق بلا زوال!!"

أعيت الحيلة الأم في حفظ العبارة، مع أنه كررها كثيراً، فهي جاهلة بقواعد اللغة، فرضي منها إيصال المضمون بالطريقة التي تراها مناسبة.

كادت الهدية أن ترد، وكادت الأم أن ترجع بخفي حنين، لولا تدخل الفتاة في اللحظة المناسبة، لتنتزع الهدية شاكرة للأم حسن الاختيار، وما هي إلا أيام ويبارك الله للفتاة انتقالها إلى بيت زوجها، وبانتقالها صار البيت إلى حالة أشبه بحالات الطوارئ، وعاشت العائلة جواً حرجاً، أمام إصرار قاسم على عدم جواز انكشاف زوجته على إخوته، ولم يكن لهذا القانون الأمريكاني كما علّق الأب ليقبل، وصاح في صحن الدار معلقاً:

"أي إسلام هذا الذي يحرم على الإخوة رؤية زوجة أخيهم؟! ما هذا الإسلام الأمريكي؟!"

تجاوزت الحكاية أهل الدار إلى الجيران، ومن هناك أخذت طريقها إلى جميع أفراد البلدة بأسرها، وخاض من خاض حتى قال قائلهم:

- إن قاسم قد أصيب بلوثة في دماغه، فهو يغار على زوجته حتى من إخوته، ويكاد الشك أن يفترس قلبه افتراساً!

مع بزوغ أول طفل يرزقانه، أطلقا عليه اسم طارق، جاءت حكايتان، الأولى بناءه لجدار (حائط) جعله عازلاً بينه وبين بقية أهل الدار، فكان الشعرة التي قصمت ظهر البعير، وذلك حين عاد الأب من العمل فألفى الجدار قائماً، ليسند ظهره إليه ويشرع في البكاء، وحين لم يشفه البكاء، راح يدق على الجدار وهو يعدد:

- لا تحرمونا من سماع صوتكم، وقد حرمنا من مشاهدة رسمكم، السلام عليكم يا آل أبو طارق. ثم يعود الشيخ لينخرط في البكاء من جديد!

حار أبو طارق فيما آلت إليه أوضاع البيت، هل يرضي والده بمخالفة شرع الله، أم يبقى على ما يعتقده صواباً ولو كان الثمن سخط والده الجاهل بالنصوص، وامتناعه عن فتح أي باب للنقاش والأخذ والرد؟! ولم يطل به التفكير، إذ جاءت الدولة فساقته لأداء الخدمة الإلزامية، وهو على أبواب إنهاء دراسته الجامعية، حيث كان قد انتسب لسنوات خلت إلى جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وعلومها، وفي الأشهر الأخيرة من الخدمة التي كان فيها كاتباً برتبة رقيب، أنهى فيها دراسته الجامعية، وكانت هذه هي الحكاية الثانية.

في هذه الفترة جرت اعتقالات في صفوف الإسلاميين، وطالت هذه الاعتقالات بعض أفراد الزبداني، وكان من بين المعتقلين شاب بسيط يدعى حسن الشمالي، كانت تربطه بقاسم علاقة، استدعته إلى أن يتوارى عن الأنظار طيلة فترة اعتقال حسن، واتخذ من سطحٍ على سفح تلة لبيت عمه والد زوجته، مأوى يلوذ إليه ليلاً بعيداً عن أعين الوشاة والمخبرين، ويراقب من أعاليه، حركة الوافدين والراحلين نهاراً، وما زال يرقب الأيام حتى أطل عليه حسن صبيحة يوم باكر على غير ميعاد، ما أن رآه، حتى ظن أن المخابرات في أثره، ومن غير أن يسأل أو يلتفت، أطلق قاسم ساقيه للريح، وراح يجرى بين البساتين، أثناء جريه التقاه بعض إخوانه فصاح به دون أن يتوقف:

- النجاة النجاة، المخابرات في إثري!!

راح الآخر فارع الطول يجري، قد تدلت على صدره ربطة عنق، ورأى الأطفال الرجلَيْن يحثان الخطو بين حقول البلدة وبيادرها، فركضوا في أعقابهم، وحين كادوا أن يجتازوا بيت أحد إخوانهم من المعلمين، أبصروه يهبط من سيارته محملاً ببعض المشتريات وبصندوق من البيض، نهروه بالتعجل:

- لا وقت للشرح، انجُ بنفسك، المخابرات تتعقبنا!!

لم يكذب الرجل خبراً، حط ما في يده على الأرض، وراح يجرى دون أن يلتفت، وما هي إلا خطوات خطوها حتى دوّى على حين غفلة بوق لسيارة إسعاف، فكان كالحبل أبصره الملدوغ فظنه الأفعى، فقال أحدهم وقد أخذ الجهد والخوف منهم كل مأخذ:

– نتوارى وراء سلاسل البيادر الحجرية حتى تجتازنا سيارة المخابرات. وقال آخر:

– بل نسير سيراً طبيعياً كيلا ينتبه إلينا أحد.

بين البيادر قضوا سحابة نهارهم على الطوى، لا يدرون ما يفعلون، ولا يعلمون إلى أين يتوجهون، وحين راح الظلام ينشر جنوده، أجمعوا أن يبعثوا أحدهم إلى بيت شقيقته التي تبعد أمتاراً عن المكان الذي واراهم سحابة نهارهم، ليأتيهم بالخبر، وما هي إلا برهة من زمن حتى جاءهم ما يهدئ روعهم، ويبعث الطمأنينة في أركانهم المتهالكة، فعادوا الهوينى إلى بيوتهم.

بعد أيام يلتقي أبو طارق بحسن، وحين سأله عن سر زيارته المبكرة، أجاب حسن:

– فور إطلاق سراحي التقاني سائق تكسي من الزبداني، وأصر الرجل جزاه الله خيراً أن يقوم بتوصيلي، وفي الطريق سألني عما جرى لي أثناء اعتقالي، فأوجزت له ما حلَّ بي، وأعلمته بأنهم أجبروني على ذكر أسماء كل من كنت التقيهم في المسجد!

وحين سأل السائق في دهشة:

– أملي ألا تكون قد ذكرت اسم ولدي من بين الأسماء التي ذكرتها!

أجبته بصدق:

– والله ما أنساني اسم ابنك إلا الشيطان أن أذكره!، الغريب أن الرجل ضحك، وأصر أن يوصلني إلى المكان الذي أرغب، فكان أن هبطت بالقرب من بيت عمك، فجئت لأخبرهم بأنني لم أذكر اسمك في التحقيق! لكنك تركتني ورحت على عجل دون أن تهنئني بحسن السلامة!

جمّد أبو طارق كل علاقاته منذ ذلك الحين بالإخوان، وما عاد يلتقي بأحد إلا لصدفة أو ضرورة، وعكف على إصلاح بيته وتربية أولاده، كانت هذه قصة من قصص كثيرة رواها لي، ثم أنه حدثني عن علاقة كانت تربطه بأحد الأثرياء من أقربائه من ذوى الميول الناصرية، لعله يدخر هذه العلاقة للأيام، غير أن الأيام حبلى لا تلد إلا كل غريب، تداهم

سيارة مجهولة والده في يوم من تلك الأيام فتضع حداً لحياته وتلوذ بالفرار، ويسجل الحادث ضد مجهول، في الوقت الذي ازدادت فيه حدة الخلافات بين الدولة وخصومها، لا سيما الإسلاميين منهم، إلى درجة لم يعد فيها أي مجال لأي مصالحة، وأصبح القول الفصل في البلاد للسلاح، وأسرعت الأحداث وتلاحقت، وفي اليوم الذي كان يرتحل فيه إلى البيت الجديد الذي بناه على سفح من سفوح جبال الزبداني، تطل جهاته الأربعة على سهول مترامية وغابات عامرة، وحيوانات برية من أرانب وغزلان تملأ مد البصر راحة وبهجة، وصلته برقية تطلب منه المثول على عجل أمام فرع المخابرات العامة في دمشق العاصمة.

ترك زوجته تكمل نقل بقية الأثاث، وذهب مصطحباً قريبه، إلى صديق علوي برتبة مساعد في المخابرات، كي يكون واسطة خير، في كف الطلب عن قاسم، ومن هناك انطلقوا ثلاثتهم إلى فرع المخابرات العامة، وفي فرع المخابرات أعطيت بطاقة توقيف لقاسم وعاد المساعد والقريب خاليي الوفاض.

ومع اشتداد الأحداث يتم في أواخر عام 1981 ترحيل قاسم إلى سجن تدمر العسكري الرهيب، لنلتقي هناك على غير ميعاد، وليعدني إن جاء الفرج الميؤوس منه، وأنسأ الله في أعمارنا أن يستضيفني ليريني جمال الدنيا على طبيعتها في الزبداني، غير أن القنوط مما في يد البشر، كان من أبرز سماته، وألفيته يوماً يهمس لي:

– علينا أن نأكل خبزاً، ونعد أياماً، سنموت هنا جميعاً دون أن يعبأ بنا أحد، كل الأسباب المادية في تقديري تقول بذلك، لا أمل في النجاة، والملتقى عند الله..!

كنت أدرك بأن الظرف صعب، وكنت أعلم بأن زمن المعجزات قد انطوى بانقطاع وحي السماء، ومع هذا كنت أردد على مسمعه قول الشاعر:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها   فرجت وكنت أظنها لا تفرج

فيعلمني بأنه قول لا يمكن أن يُبنى عليه حكم شرعي!!

وحين انتظمنا التنفس الدموي ذات يوم، وقد جلسنا القرفصاء، وفرقة من عتاة الشرطة العسكرية يمرون بسياطهم على رؤوسنا، صاح أحد المجرمين الجلادين بنا:

– واحد حليوه لهون أوْلا!

لم يقم أحد في البداية، ولما كررها، قام الأخ محمد الحاووط، ولم يكن له من حلاوة الدنيا

موفور حظ، ولعله عند الله من المرضيين، فانهالوا عليه ضرباً حتى أُغمي عليه، وعدنا به إلى المهجع محمولاً، منذ ذلك الحين كلما جمعني بأبي طارق لقاء ألفيته يردد مبتسماً:

- الحمد لله على نعمة البشاعة! وما زال يرددها حتى خلته اتخذها ورداً لا ينفك يرددها كلما تذكرنا الحادثة!

كان أول ضحايا هذا المهجع شاب من شباب حماة، يدعى أحمد أبو راشد، أصيب بداء السل، وما زال يصارع المرض في الفترة التي عز فيها كل دواء، حتى رأيناه يهوي يوماً أمام أعيننا دون حراك، كان صامتاً قليل الكلام قبل أن يصاب، وازداد صمته، وقلّ كلامه لما مرض، وما زال كذلك يتمرغ في جور السلطان إلى أن صمت وإلى الأبد، عليه رحمة الله.

ثم عرّج المرض فحل ضيفاً ثقيلاً بكل من رضوان آغا، مأمون مغمومة، فراواتي، عصام..، وعلي خريطة من الزبداني بدمشق، وآخرين.

أياماً أخرى قليلة، ويتم فيها إخلاء سبيل السيد خالد أبو الصديق من ريف حلب، وكان رجلاً فاضلاً، حافظاً ثبتاً ثقة، وكان له الفضل الوافر على الكثير من الشباب، سيما أولئك الذين أحبوا اللغة العربية، وتذوقوا معانيها اللطيفة البليغة، برحيله طويت صفحة من الصفحات النادرة الجميلة التي كانت تزيّن بعضاً من أيامنا الباكية الحزينة، وكان هذا آخر عهدي بمن فُتحت له الأبواب إلى رحابة الدنيا طوال فترة بقائي في ذلك الكهف، كهف تدمر المظلمة جنباته، الموحشة أدواته، أيام غاية في القسوة، لا تتمناها أحيانا لجلاديك، ناهيك عن صنفان من الناس، أنت دوماً بين ظهرانيهم، إما بادلوك سلماً بلا عدوان، فهم إخوانك في الخلق، وإما تذللوا لك في المودة فهم إخوانك في الدين.

أما قاسم ططري أبو طارق ويا لهف نفسي على قاسم، فقد أصيب على حين غرة بالتهاب حاد في الأمعاء، وراح المرض يفترسه افتراساً، وما زال يذوي ويلاحق الذبول عوده، حتى آض إلى جلد على عظم، وبدت صفرة الموت تجلل جبهته، وتوقف مجبراً عن متابعة إعطاء دروس اللغة العربية، والتي كان خلف فيها أبو الصديق، درسٌ يتيم واحد، لم يزد عليه، حتى داهمه المرض.

المجرم "فيصل غانم" يجتمع بنا

ويطل سفاح تدمر الذي أطبقت جرائمه الآفاق مدير السجن فيصل غانم يوماً من الأيام علينا، وفي الباحة الثانية حيث مهجعنا أخرجونا مع بقية المهاجع المطلة على الباحة، وكان ذلك عند فترة التفقد، وكادت المفاجأة أن تأخذنا، سيما حين شرع في التحدث، وكانت المرة الأولى التي أراه فيها، مربوع القامة حليق الذقن والشارب، فيه حمرة الأوروبيين المشربة، صفة يتميز بها القرامطة الجدد عموماً، ولعل هذا ما يدفع إلى الشك بأنهم وافدون غرباء عن المنطقة، فهم هجين تلمح ذلك في سحنتهم البارزة المميزة، كان بديناً كبرميل نفايات امتلأ عن بكرة أبيه، وجاء حديثه خليطاً مسفاً، حاول أن يسوق فيه علينا العبط، وعلمنا منه لأول مرة بأن إسرائيل اجتاحت لبنان، وكيف أن سوريا هي الدولة العربية الوحيدة التي وقفت في وجهها، حين وقفت بقية الدول العربية وقفة المتفرجين، وراح يتساءل في لغة سوقية عن المستفيد من عمليات التخريب التي جرت في سوريا؟! وراح يسأل عن أماكن تواجد المسؤولين عن كل هذا الإجرام؟! ثم راح يجيب من تلقاء نفسه:

– إنهم عملاء يعيشون في أفخم الشقق والفنادق، على موائد أسيادهم في أوروبا، إنهم يعيشون على حساب دمكن، "عمّالهن يتنعمن في الوقت اللي انتن عم تتعزبن!!!" (يعني أنهم يتنعمون في الوقت الذي نحن فيه نتعذب!!)، وأضاف اسم الله يحرسه!!:

– أنا خيّك وهِنْتْ خيّي، غصبن عنكن وعني، إشو زنبي إزا أنا انخلقت علوي وهنت سني؟ (بمعنى أنني أنا أخ لك، وأنت أخ لي، شئنا أم أبينا، ما ذنبه هو إذا كان قد وُلد علوياً، بينما نحن سنة؟!!

ثم ترك المجال لبعض الأسئلة، فجاءت خائفة مرتجفة، من سائل لتحسين نوعية الطعام وزيادة كميته، إلى سائل يرجو فتح باب الزيارات، إلى آخر يرجو تزويدنا ببعض الصحف وشيء من وسائل الإعلام، ووجهت جميعها بردود سلبية، وعدم نضوج الوقت لتحقيقها، سوى سؤال جاء من أخ لعله لم يكن بكامل قواه العقلية حين جاء رجاؤه في زيادة فترة

التنفس!! فأمر صاحب النيافة بإضافة فترة مسائية، زاد فيها شقاءنا وهمنا، وبذا لم يعد التعذيب يقتصر على فترة الصباح، بل صرنا ننتظر المساء إذا ما رحلت فترة الظهيرة بقلق مرفق بهلع زائد شديد.

قاسم في ذمة الله

لم يعد بمقدور أبو طارق قاسم طظري تناول أي شيء من الطعام، ولم يعد لديه القوة الكافية للوقوف على قدميه، وبدأ يزور دورة المياه محمولاً، ونضى عنه ثوب اللحم والعضل، فلم يعد له منهما أي نصيب، وصار إلى نحولة شديدة، تنتزع من نحولته التي جُبل عليها، حتى وكأنني خلته واقفاً على ساقين من القصب الفارغ في آخر مرة رأيته فيها مسنوداً بين اثنين من الشباب!! وكانت منامتي إلى جواره طوال وجودي معه في ذلك المهجع، لا أفارقه، إلى أن ألمّ به المرض فافترقنا لأيام، ثم عدت فجاورته.

وكان مساءً، جاء كالعشاء الرباني الأخير، قام فيه كلاً من الدكتور مصطفى عثمان والدكتور أبو خالد بزيارة قاسم طظري، كانا يرجوانه في تناول شيء من الطعام، ولم يكن فيه سوى عينيه الذابلتان تتحركان، فأشار إلى الماء، محاولاً تحريك شفتيه، اللتان ما عادتا تقويان على الكلام، ففهم من كان قريباً أنه يسأل عن ترطيب شفتيه كي يقول شيئاً، ففعلوا، كان الليل قد رحلت بواكيره، وسرت برودة جو الصحراء في المكان، هكذا هي الصحراء دائماً، قيظ لاهب في النهار، وقرٌّ قارص في الليل، وزادت رطوبة المهجع المغلق المكتظ بالبشر عفونة فوق البرودة، تحلقنا حول الرجل وكلنا له محب، لو أمكن لنا افتداءه بالمهج لفعلنا، بدا هرماً قد تضاعفت سنين عمره، كومة من عظام اجتمعت في هيكل عظمي، لو طُلب لأحد عدَّ عظام قفصه الصدري لعدها دون أن يخطئ منها واحدة، وأخذت بعض الحاضرين عبرة، في الوقت الذي راح أبو طارق يرسل آخر سهام القول عنده، حديثاً كما لو أنه يملي عليه من عالم آخر، حديثاً لم يعد من أحاديث أهل الأرض، كما لو أنه الفارس على وشك أن يترجل:

- جزى الله من أحسن إليَّ خيراً، فقد زدتكم بوضعي المتأزم الميئوس منه شقاء إلى شقائكم، ما فات فات، وما هو آت لا بد أنه آت، غداً تستريحون مني، رحلتكم معي صبر ساعة، ثم هي راحة إلى قيام الساعة، اليوم أقضيه بلا طعام، بعدها أنشط على قدميّ، أصنع

طعامي بيدي، ما أظن أن أحداً منكم سرت فيه لذته، لحظات أراها رأي العين أتناول بعدها ما لذ وطاب من كل طعام، من أدرك أن يسامح فليفعل، فأنا اليوم بينكم وغداً عبرة لكم، الله وكيلي ووكيلكم إلى يوم الدين.

ثم راح في غيبوبة، استيقظ بعدها استيقاظة مرتحل تذكر شيئاً نسيه، عاد ليأخذه على عجل وقد أزف الرحيل.

كان ابن بلدته محمود مويل ما زال جالساً عند رأسه، راح أبو طارق يوصي بأولاده طارق وظلال ووائل خيراً، وكنت ما زلت أسمع همسه الذي راح يرسل آخر خيوطه، ولا أدري كيف خطفني النوم فنمت، وما أدري كم مضى عليّ من الوقت نائماً إلى أن أيقظني محمود وهو ينتحب في صوت مكتوم، ليلقي عليّ بالخبر، وكأنه الصاعقة تشعب قلبي، مع أنني كنت أنتظره:

- مات قاسم!!

أحسست بموته كما لو أن أحزان الأرض اجتمعت عليّ لتثأر مني، وصرت كمن راح بعضه يودع بعضه الآخر، وحرت فيما أفعل، غير أنني كشفت الغطاء عن وجهه لأطبع على جبينه الوضاء قبلةً سبقتها دمعةٌ حرى، لعلها ترافقه إلى مثواه الأخير إلى أن يجمعنا عند الله لقاء.. رحم الله قاسم، كلما لاح من تلك الديار بارق تذكرت قاسم، وإخوة آخرين، عزائي فيهم قول الشاعر: "وعند الله تجتمع الخصوم".

بوادر فتنة

كان لأجواء الهدوء النسبي الذي خيم علينا لأشهر خلناها مقصوصة من زمن المعاناة إلى زمن المحاباة والمداجاة، كان لهذه الأيام وقع السهام تتناوشني، وكلما تناوشتني تكسرت النصال على النصال، لقد اجتاحت الفتنة التي استيقظت بعد نوم طويل اجتياحَ الأوبئة، وكانت حين أطلت برأسها لا تبشر بخير، فقد انقسم الناس إلى فريقين متباينين، كلٌّ يدّعي الحق لنفسه، وكانت البدايات عاصفة، نقاشات حادة، بين فريق لا يؤمن بالعنف سبيلاً إلى التغيير، ينتمي أهله إلى أصحاب الحلول السياسية، وطاولة الحوار المستديرة، التي تجنّب البلاد والعباد هذه الدماء الزكية التي سالت في غير وجه حق، وكانوا يصوبون أصابع اتهامهم إلى الفريق الآخر، حيث أعماله التي يمارسها، إن دلت على شيء فإنما تدل على رعونة صبيانية، لم يحالفها أي نضوج سياسي، ولم تكن قائمة على دراسة فقه الواقع وإرهاصاته التي تدل على استحالة التغيير بهذه الطريقة، وفي هذا الزمن الصعب بالذات، وكانوا يسوقون أدلة ارتباط القائمين على العمل العسكري بعلاقات مشبوهة مع أنظمة لا تدين بالولاء إلى رب الأرض والسماء، دليلها معسكرات التدريب التي فتحتها هذه الأنظمة لأجنحة العمل العسكري، وزاد البعض قائلاً:

- إن دماء الذين يخرجون إلى حبال المشانق، سوف تبقى معلقة برقاب أولئك الذين خططوا ودعموا مع سبق الإصرار والترصد هذا العمل، وعلى رأسهم الشيخ سعيد حوَا، وعدنان سعد الدين..!! وكان على رأس هذه المجموعة أبناء العاصمة دمشق.

أما الطرف الآخر، فقد اتهم هذا الجناح بالجبن والتخاذل والخنوع لواقع لم يكن من الممكن تغييره بغير السلاح، وما الويلات التي اجتاحت البلاد والعباد إلا بسبب صمتهم، واعتقادهم الدائم والمستمر بأن المنضدة المستديرة، منضدة المفاوضات كفيلة بإعادة الحق إلى نصابه، والمغتصب إلى أصحابه، وساقوا أدلتهم الدامغة كما كانوا يعتقدون، في تلك المشاهدات المخزية المحزنة للدولة وهي تسوق أصحاب هذا الجناح سوق النعاج إلى

المعتقلات دون ذنب ارتكبوه، أو جرم اجترحوه، إضافةً إلى خروجهم عن خط الجماعة المرسوم، مع التأكيد على أن الدولة تسيطر سيطرة تامة على الجيش وقياداته وقطاعاته، وأن الادعاء بإمكانية الاعتماد على الجيش في التغيير ما زالت قائمة، هو ادعاء باطل، كل القرائن تدلل على أن لا أساس له من الصحة، وليس هنالك من سبيل سوى حمل السلاح إلى إنهاء الباطل وإقامة دولة الحق، وأن دماء من ذهبوا إلى أعواد المشانق معلقة في عنق قيادة دمشق لخذلانها لهم، وعلى رأسها عصام العطار..!!

رحت أرثي لما إلنا إليه من هذا الانحدار المسف إلى هاوية من التردي، وراح يطاردني سؤال في إلحاح المحق، هل هؤلاء على المستوى الكافي لاستلام أي مسؤولية كانت؟! ولعلني في لحظة ضيق جاثم، كنت أجيب، لا والذي شق من واحدة خمساً، ليس بالمقدور لهم استلام أي مسؤولية، حتى لو كانت من باب الإمارة ولو على الحجارة، فكيف بإمارة البلاد طولاً وعرضاً مع العباد!! وقصارى القول نحن لا نصلح لشيء، والأجدى أن نبقى بعيدين حتى ينصلح منا أي شيء، أي والله أي شيء، إذا ما عزَّ علينا إصلاح كل شيء!!

فتحت الزيارات لبعض أبناء الذوات من القادرين على بذل الغالي والنفيس، وشرع مدير السجن وبعض أعوانه في عقد الصفقات، وسارت السّرقات في وضح النهار دون رقيب أو عتيد، وظهرت شخصية أبو عوض، أحد سجناء المهجع رقم "26"، ببنيته المتينة، وجثته الضخمة، وطوله الفارع، وشنبه الأسود الذي افترش ظهر شفته العليا، ظهر أبو عوض، رجلاً للمهمات، وصار اليد الطولى – لمساعد انضباط السجن المدعو أبو أمجد- الممتدة لسلب الناس كل ما يملكون، صار أبو عوض يمر على المهاجع مروجاً لبيع الشاي الذي كان يُباع في علبة تتسع لنصف لتر، مقابل 4 ليرات سورية، وكان هذا المشروع الذي بدأ أواخر عام 1982 قد راح يتطور في استلام أبو عوض للفاتورة، التي شرعنا من خلالها في استلام مخلفات الأسواق في تدمر من الخضراوات، وسمح لنا بعد قرابة العامين من رؤية البندورة والخيار والخس والثوم والبصل الأخضر لأول مرة، وكانت تردنا رديئة، وبأسعار باهظة من غير أن يُسمح لنا مناقشة الحساب، ثم سُمح لنا بأن نتبادل الشاي عبر المهاجع، فصارت وسيلة للتواصل، وصار من الممكن للناس أن يتلمسوا من هذا الطريق أخبار بعضهم البعض، ودفع من ملك لاحقاً خمسمئة ليرة لاستجلاب أخ أو ابن من المهاجع الأخرى، أو الانتقال

إليها، ثم راح أبو عوض يمر علينا مع الأيام ليبيعنا بعض الأشياء من هدايا وملابس مسروقة مما تستبقيه إدارة السجن عندها بحجة التفتيش بعد كل زيارة، وهذا ما لاحظه بعض الشباب، كأن يستلم هذا شخص بعد الزيارة مباشرة بنطال بيجاما، ثم بعد أيام يأتي أبو عوض محملاً ببقية الأشياء، كي نجبر على شرائها، على أنها فاتورة من المشتريات التي كنا بزعمه قد حجزناها، ومن المضحك المبكي أن يكتشف الشخص نفسه قميص البيجاما بين ما تم شراؤه في الفاتورة الجديدة!!

زادت حدة الجنون عند المهندس صاحب شهادة الماجستير خريج جامعة دريسدن بألمانيا أبو الوليد، وصار بعض الشباب يجدون في أحاديثه التي تبعث على الأسى شيئاً من التسلية، لا سيما حين يشرع في التحدث عن الروح واتصاله بالملائكة، كذلك ساءت أحوال زهير يوسف، وتحوّل الوضع عنده إلى نوع من أنواع الهستيريا الحادة، وصار إلى استعمال يده في البطش بإخوانه من غير سبب، لا يلبث أن يشرع في الجري المتواصل مدعياً أن بإمكانه اختراق الحدود والسدود، وهذا ما كان يؤدي إلى اصطدامه المتواصل بالجدران أثناء الجري، فهو دوماً مشجوج الرأس متورم الأطراف، وبعد قرابة الشهرين من سقوطه، لحق به طالب طب من أبناء تل أمنين من ضواحي دمشق، يُدعى غالب غويش، كانت الهستيريا عنده تتحول إلى صراخ متواصل لا ينقطع، وإذا ما جرّب الوقوف على قدميه، لا يلبث أن يختل توازنه فيسقط!!

عادت الفتنة فأطلت من جديد، أشد عوداً وأقسى قداً وقديداً، وكان الجناحان المتصارعان في هذه المرة قد أخذا شكلا دينياً فقهياً سَمِّه ما شئت، الطرف الأول زعم لنفسه اسم أهل السنة والجماعة، وما عداهم خارجين عن الملة، وزعم الطرف الآخر وكانوا الأقل عدداً، بأنهم سلفيون على خطى السلف الصالح من هذه الأمة، وكان مروان حسين يومها قد آلت إليه رئاسة المهجع، وما كان لينجو من مر الاتهام بالانحياز إلى طرف من الأطراف، وبدت تعلو موجة من الاحتجاجات تطالبه بالتخلي عن رئاسة "الجمهورية"!! وأقذع الخصم في توجيه الاتهام بأنه لا يستشيرهم في تسيير أمور المهجع، وبدأ حب التزعم يطغى من جديد، مما اضطر الرجل إلى منع جميع النشاطات الثقافية في المهجع، وعمل على منع التجمعات، وهذا ما جعلنا نعيش جواً من الطوارئ، وظهرت بعض المشكلات الفردية التي غالباً ما كانت

تنتهي إلى الضرب، واستقال معاون رئيس المهجع المحكوم عليه بالإعدام، مؤتمن ترمينيني أحد شباب حلب، وكان رئيساً للمهجع رقم "34" قبل أن ننتقل منه إلى المهجع المزدوج، وإني لأشهد هنا والمقام مقام المترجي من الله أن يجزل لمؤتمن الأجر والثواب، لما قدم لنا من تضحيات على صغر سنه أمام عتاة الشرطة المجرمين، يوم كان رئيساً للمهجع ثم نائباً لرئيس المهجع، ولعل ما لم يكن ليقبل بالمطلق، مطالبة بعض المقربين من رئيس المهجع بإعطائه البيعة على أنه الأمير، وكنت من أشد المعارضين لهذه الفكرة الخطيرة وراء القضبان، ثم عاد مروان ذات يوم ليعلن عن اجتماع قبل التفقد لأفراد المهجع، وليؤكد على الحضور تمسكه بأمانة قيادة المهجع، وأنه لن يسمح لأحد بأن يتلاعب في أعصاب الناس، ومع أنني كنت أخالفه في أشياء كثيرة إلا أنني أقول وللإنصاف هنا بأنه كان أهلاً لكل ما قال، ولا أعتقد اليوم جازماً بأنه كان بين الحضور من هو في مثل جرأته وشجاعته، ووقوفه كالطود الشامخ أمام الشرطة لا تحركه الأعاصير، وفي هذا الاجتماع تم اختيار معاون جديد له من أبناء ريف حماة أستاذ أدب إنجليزي يدعى محمد المصري رحمه الله.

من أشهر الذين تركوا بصماتهم على حياة الناس، في ذلك المهجع، وكنت قد نوهت لهما عرضاً، الدكتور صالح خوجا، أبو خالد، وهو من أكْرَاد سورَيا، وكانت قد أُسندت إليه المسؤولية الصحية للمهجع، كان مصاباً في عموده الفقري لشدة ما تعرض للتعذيب، وكان قد صدر بحقه حكماً بالإعدام ظل ينتظر تنفيذه طويلاً وهو صابر محتسب، محتفظاً لذلك اليوم بجلابية ناصعة البياض، كان يسارع إلى ارتدائها كلما دوّت في الباحات البعيدة قوائم الإعدامات، ولقد تُلي اسمه أكثر من مرة، لكنهم عادوا وعدلوا عن التنفيذ لأسباب لم يكن هو شخصياً ليعرفها، ولقد افترقنا وما زالت في أذني طرفة رواها لي عن صدر شبابه، يوم كان طالباً في الثانوية العامة، وقد طلب إليهم المعلم أن يكتبوا في موضوع التعبير بعض الخواطر حول بيتٍ من الشعر يقول فيه صاحبه:

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

ولما كان الدكتور صالح كردياً، وما كان ذلك ليعيبه، فقد كان يومها لا يجيد اللغة العربية، ظن أن الشاعر يتغزل بمدينة سورية اسمها النبك، فراح يوجه جل اهتمامه في الكتابة عن المدينة بتاريخها وأهم معالمها، يومها ضحكت ملءَ القلب الذي ما عاد للضحك

فيه موطن سكن، ولقد افترقنا وما زلت أذكره متوسداً الصبر، عينه على غدٍ لا يدري أيكون فيه من الأحياء أم ممن هم عند الله يرزقون، حال الجمع الغفير من المعذبين المنتظرين!!

وأما الشخصية، فكانت لعبقري بانياس كما كان يسميه محبوه، الدكتور مصطفى عثمان، صاحب الاختراعات المذهلة من المواد البسيطة المتاحة على شحتها، والظروف الصعبة شبه المستحيلة، والتي أحالها إلى ظروف ممكنة لمعالجة كثير من الحالات، ولعل أحداً ممن عايشنا تلك الظروف الصعبة لا ينسى المحامي أبو معتز، عزت طيارة أحد أبناء حمص، لقد شارف الرجل على الموت، وذلك حين أصيب بالتهاب حاد في المثانة، أفضى إلى تورم ما أدى إلى انسداد المسالك البولية، ولم يكن يومها من سبيل إلى أي علاج، فقد اشتعلت أحداث حماة، وطال الإجرام كل مناحي أيامنا الصعبة، وكان الدواء بطبيعة الحال ممنوعاً، عاش عزت طيارة أياما شديدة، آلام لا تطيقها الجبال، كما كان يقول، إلى أن تفتقت عبقرية الدكتور مصطفى لصنع قسطرة من أغلفة علب معجون الأسنان، وبذا كان الواسطة التي أجرى الله بها على يديه العلاج، بعد أن كان اليأس قد أوشك أن يسد كل منافذ الحياة، وجلس الرجل يسأل الناس المسامحة، مستقبلاً القبلة، وراح يرجو من حضره أن يغسلوه بعد موته، ولعل من الطرائف التي لا تنسى لأبي معتز، تلك التي عايشناها حين جاء أحد الرقباء العسكريين يسأل عن حاله، ويطلب إلينا إعلامه متى ما مات!! كي يأتوا ليأخذوه، وحين أحس أبو معتز بوجود الرقيب صاح من وسط الرماد والألم:

– أنا لا أخاف الموت، أسألك يا حضرة الرقيب باسم العروبة أن تطلقوا عليّ الرصاص كي أستريح من هذه الآلام التي لا تحتمل!

ويرد الرقيب ساخراً:

– ولم تسألني بشيء أنت منه براء؟!

ويرد أبو معتز وقد فهم ما عني الرقيب، كما لو أن له من كنيته نصيب:

– بل أنا عربي من صلب عربي!

ويرد الجلاد لم تفارقه السخرية بعد:

– لو كنت كما تدعي، لما كنت في هذا المكان!

ورغم الألم في حضرة مَن لا يعطف أو يرحم يرد أبو معتز:

- لم آت بمحض إرادتي، لقد كان أبنائي سبباً في استقدامي، فأنا ناصري حتى النخاع..!!

قاطعه الجلاد:

- أنت تتحمل سوء تربيتهم!!

- لقد قمت بتربيتهم حتى السادسة من أعمارهم، ثم بعثتهم إلى مدارس الدولة، وهناك تولت الدولة إكمال التعليم والتربية، هي التي نظمتهم في صفوف الإخوان المسلمين دون علمي أو استشارتي!!

عندها استشاط الرقيب فيصل غيظاً، وأقسم على تعذيبه حتى الموت على هذه الإجابة، إن لم يتولَّ المرض هذه المهمة!!

ويشاء الله أن يتعافى الرجل، فتدب فيه الحياة، بعد أن نضى عن نفسه ثوب الألم، وتشاء الأقدار أن يتصل بمساعد انضباط السجن الجديد، وكان محامياً بارعاً يجيد الحديث، لبقاً في كلّ ما يقول، من خلال ذلك صار بمقدوره مع الأيام أن يدرأ عنا بعض العذاب!!

مطلع عام 1983 تم توزيع المهجع رقم "25"، ويدخلوا إلينا قرابة عشرين نفراً، كان من بينهم أب وابنه، علمنا بأن له ابن آخر قد مضوا به إلى أحد المهاجع البعيدة، وبعد بحث وتحري، ودفع المبلغ المعلوم تم استجلاب الابن، لنفاجأ بأنه قد أصيب أيضاً بالجنون، كان الابن يُدعى سعيد غانم، علمت بأنه تعرض لتعذيب فاق طاقة البشر، لم يبقَ له من مساحة عقله السوي الذي حباه الله إياه، إلا ما ورّثه إياه الطغاة من الجنون، وبذا اكتملت عندنا ثالثة الأثافي، إضافة إلى ساعات من الصرع التي كانت تجتاح اثنين من الشباب الآخرين!!

لم تكد الأشهر المعدودة على الأصابع من وقف المحاكم والإعدامات أن تمضي، حتى عادت لتستأنف من جديد، ولا زلت أذكر ذلك الليل الموغل في الكآبة، والذي خرج فيه عند غبش الفجر اثنان من خيرة الشباب، والجميع والله أخيار، خرج فيه ماهر العطار من حلب، قد شاهدته يكرر غسل الجنابة بالماء البارد في اليوم البارد، لأنه كما أخبرني رحمه الله نسي في المرة الأولى أن يتمضمض، وقد بقيتُ لأيام وليالي أرقب شبابه الغض الندي، سانداً ظهره إلى الحائط، يصلي وهو يتلو كتاب الله، يطوح النعاس رأسه فيسنده، لا يفتر عن القيام ليلاً، ولا يتردد عن الأضماء والجوع نهاراً إلى أن ساقوه قبيل الفجر بقليل، وهو يهم إلى تناول

سحوره، الذي كان يدخره من طعام العشاء، أبقاه على حاله، لصاحب النصيب من يغده. أميا الآخر فكان صاحب الظل الخفيف، والقلب الطيب، أستاذ اللغة الإنجليزية، عبد الرحمن خوجا من حلب، لقد كانت الصدمة أفدح من أن نحتملها، ولو رأيتنا قد افترشنا الأرض في صمت القبور بين باكٍ وشاكٍ، حالنا يصعب على الكافر، قول إخوتنا المصريين، لا تدري له من وصف، أنحن من الثكالى فننسب إليهن، أم من اليتامى فنلحق بهم، أم من المفجوعين فيُرثى لنا؟ لقد كنا كل ذلك الواقع المر الكئيب، دون أن نجد من يلتفت إلينا بيد حانية تربت على أكتافنا، أو تداوي شيئاً من هذه الجراح المفتوحة النازفة أبداً!

في الدفعة التي سيقت إلى المحكمة بعد تلك الهدنة، كان قرابة العشرين قد خرجوا من مهجعنا، وكان جلهم من أبناء حماة، وقد حُكموا جميعاً بالإعدام شنقاً حتى الموت.

* * *

لما صرت أسيراً لأحزان قلبي، ولما لم يعد للأيام من طعم غير طعم الابتلاء مراً علقماً، والآه التي هي في كل اللغات مدلولها واحد، كان لا بد من الوقوف على ذكر بعض الأعزاء، والبعض فقط، وكل الذين التقيت هناك عزيز، غير أن مساحة الذاكرة التالفة لم يعد في وسعها تذكر المزيد، وعلى علاتها تبقى هنالك أحداثاً وأشخاصاً محفورة ذكراهم على شغاف القلب لا تبلى، تماماً كالحفر على الحجر، من هؤلاء جمال خراط، ذلك الفتى الناعم المترف، صاحب الشعر الكث الملبد، عَرَفَتْه حواري وأزقة حلب الشهباء ابناً باراً، مربوع القامة، حلو الشمائل، يرش القول على دفعات، هكذا كان، زدنا اقتراباً بعد رحيل قاسم طظري، والإفراج عن منذر طاهر، والشيخ خالد أبو الصديق، وجمعتنا سفرة طعام واحدة، ومجموعة غسل الملابس، وجلسات وانفتاح، وقصص كثيرة، كنا نتجاذب أطرافها، حدثني عن غرامه الحيي الخجول، عن دراسته، وعن عائلته، عن الخطيبة التي كانت ما تزال في انتظاره، وجاءته الزيارة الأولى والأخيرة، وكان من بين زواره: أمه وأبوه، وكلاهما به رؤوف مشفق، إضافة إلى شقيقه عبد المنعم، وأخته القادمة من فرنسا مع زوجها، وصاحبة الحظ العاثر خطيبته، وكان يومها قد صدر بحقه حكم بالإعدام، فاستغل فرصة مواتية كي يهمس لأخيه بالخبر دون أن يثير انتباه أحد.

عاد محملاً بالهدايا والدراهم، لينثرها جميعاً بين يدي، وما حاجتي بالدراهم؟ قبضت يدي

دونها معتذرا، وأنا أرقب شبابه الذي عما قليل سيدفن تحت ثرى وادٍ من أودية تدمر، أو سفح يسف عليه من تراب الصحراء أكواما وكثبانا إلى أن يلقى الله، فأفر من أمامه كي لا يرى دموعا في العين حرى، وفي القلب غصة من الجمرات والحسرات.

ما هي إلا برهة من زمن هادر ماضٍ لا يحابي ولا يداري، تتلاحق فيه جرعات من سموم ناقعات، نتجرعها لا طاقة لنا بها، وتلحقنا قائمة إعدامات جديدة، لتخطف منا أعز ما نملك من الإخوة، مروان باشات، وكان رحمه الله يشرف بنفسه على مداواة المرضى وإطعامهم، لا تراه إلا مبتسما، تخال روح الطيبة والدعابة التي اشتهر بها أهل حمص قد اجتمعت فيه ولديه، وأما الثاني فكان أمير ناصيف، أيضاً من حمص، كان يشرف على غسل ملابس العجزة والمرضى، بالإضافة إلى عمله في سخرة توزيع الطعام، وغسل الأواني، وكان أشد الناس حزناً إلى حد الجزع، الدكتور عمر تاجا طبيب الأسنان، لوشائج محبة ومودة عارمة كانت تربطه بمروان، كنا كمن يقف على رمال متحركة، كلما سرنا إلى الأمام بحثاً عن طوق نجاة ازددنا في الأعماق غوصاً، ولم أرَ طوال مكثي هنا من أهل المهجع مجتمعين حزناً يوازي الحزن الذي حزنوه على مروان وأمير، لقد بكى الجميع، بكاؤهم على شيء ملكوه بشغف، ثم في ذروة حاجتهم إليه افتقدوه، دون أي أمل في أن يستعيدوه.

ثم جاء رحيل جديد، وقفنا في صف طويل، في رتل ثنائي ممسكاً بيد جمال خراط، غير أن خبث المساعد حال دون بقائنا مجتمعين، حين راح ينتقي الأفراد انتقاءً، فيمضي بجمال إلى المهجع رقم "29" في الباحة السابعة، وأما أنا فيكون نصيبي أن يذهبوا بي إلى المهجع رقم "28" في الباحة السادسة، وهكذا هو الحال هنا، أحبب من شئت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك من غير شك ميت!!

المهجع رقم "28"

ما أن دلفنا بوابة المهجع "28" حتى هب الجميع كالعادة للاستقبال والتعرف، حياني رئيس المهجع يومذاك الدكتور قاسم موسى طبيب أنف وأذن وحنجرة، وهو من مواليد وأهالي تدمر المدينة، غير أنه يسكن بدمشق بحكم ممارسة المهنة هناك، وأحسن وفادتي ووفادة كل من دخل برفقتي.

يا لمحاسن الأقدار حين تَحْبِكُ خيوطها، وتنسج وشائجها بإحكام، ومع أنني كنت أحيا حياة المرتحل من مأتم إلى آخر، لطم ونوح وبكاء، ولولا التُقى لطال دق الصدور وشق الجيوب، فكل خبر قد يكون اعتيادياً في ظروف سوية، قد يتفتق لك هنا على أنه نوع من أنواع المستحيلات، وضرباً من ضروب المعجزات، في هذه الظروف يتقدم مني شاب وسيم، كادت تضيع مني صورته في ازدحام صور كثيرة التقيتها على مدارٍ نافت سنواته عن الثلاث، ومع أنه أخذني في حضنه معانقاً، إلا أنني عجزت عن تذكره للوهلة الأولى، ثم عاد ليذكرني بأنه موفق الشيخ إبراهيم، آه يا صاحبي، كم تغيّر، وكم فعلت به ظروف الاعتقال، يا للأقدار وفعلها بنا!!

ثم جاء ممدوح درويش أحد أبناء إدلب وعانقني، كثيرون هنا تعرفوا إلي، لكنني للأسف لم أستطع التعرف على أحد، لقد تغيرت ملامحهم جميعاً وتبدلت، باستثناء يوسف زين العابدين المحامي، ورياض صالحة، وياسين ياسين، وأبو عبد الله يوزباشي، وجميعهم من أبناء الساحل، ويا "للأريحية" التي قابلوني بها، كلهم يتسابق كي أكون فرداً في مجموعة الطعام الخاصة بهم.

كان في دفعتي تلك كل من المهندس محمد أديب قطب، وشيخ القراء حسين سخنيه، كليهما من دمشق، عبد الكريم محمد الصمل، عبد الرؤوف أبو حمرة، كليهما من تل منين بدمشق، محمود عاشور، وربيع دبا، كليهما من حلب، وكان محمود قد تعرض لعذاب عنيف مكثف، من بين الأساليب التي مورست معه، إجباره الجلوس على عنق زجاج مكسور، مما

تسبب في تهتك الشرج الذي ظل يعاني منه إلى أن انقطعت أخباره عني، كذلك كان معنا أبو السعيد كمال سعيد حورية، أحمد سرجاوي، كلاهما من محافظة إدلب، والحدث وائل بريدي، ومحمد أبو نبوت، وكليهما من درعا، ومحمود عثمان، وهيثم الخطيب، بالإضافة إلى سامر روحي صينوفه، آخر الذين أسعفتني الذاكرة في تذكر أسمائهم.

في زيارة لم تكن متوقعة تلقاها كمال حورية، ظهيرة يوم من الأيام، استأذن الرقيب المرافق لإخبار أهله أثناء الزيارة بالحكم الذي صدر بحقه، لم يسمح له بذلك، قاموا بإنهاء الزيارة على عجل، ليقتاده الكفرة الفجرة بعد ذلك الى الدولاب، لقد استمروا في تجريعه ألواناً من العذاب إلى أن فقد سمعه حين جيء به محمولاً إلينا، أنكره الناس للوهلة الأولى، فلم يعرفه أحد لشدة تورمه، وكثرة ما اجتمع عليه من القروح والجروح، وما هي إلا أيام وتبدأ الجروح والقروح في الالتئام، غير أن حاسة السمع بقيت غائبة، وما زاد من مأساته هو ضياع عقله، وانضمامه إلى فريق من سقط عنهم التكليف، ورُفع عنهم القلم، كانت مصيبتي فيه كبيرة، وصدمتي فيه عظيمة، سيما وأنا أعلم ما كان له من همة ورجاحة عقل، تبخرت إرضاءً لعهر سياسي مارسته طغمة فئوية عنصرية، استمرأت ظلم العباد بعد استيلائها على كل مقدرات البلاد!!

تم سن قانون جديد، يبيح لإدارة السجن اقتطاع ما مقداره 20% من المبلغ الذي يتسلمه أي سجين من ذويه وأقربائه، بالإضافة إلى مصادرة قسم كبير من الأطعمة والألبسة، كانت المبالغ تُسلم بواسطة رؤساء المهاجع لأبي عوض سمسار الحروب آنذاك، وبدوره يقوم بتسليمها إلى مساعد انضباط السجن كما كان يزعم!!

ويحل بنا شتاء قارص، ونُبتلى بأحد الرقباء الأشداء الخبثاء سرور العجوز، كان يأتي مع الليل خلسة متلصلصاً، ومن أعالي النافذة في مهجعنا الجديد، كان يمارس علينا شيفونية ساداتية ظالمة موغلة في القهر، صاح بنا مرة في نزوة من نزواته:

- الكل منبطحاً أوْلا.. هنت وإياه!

امتثلنا مذعنين، ثم صاح المخنث بأحد الشباب:

- واقفاً أوْلا.. روح لعند أبو البيجاما الحمرا!

ثم تابع اللئيم:

- نزل بيجامته أوْلا، ابدأ في لحس مؤخرته، يا أخو الـــ..!!

ثم لم تزل للأقدار جولات من البلاء والابتلاء، وذلك حين اندفعت إلـــى الـــدنيا حكايـــة مرض رئيس العصابة الذي شارف فيها على الهلاك، واختفائه عن مســـرح الأحـــداث، وراح الناس يلتقطون الأخبار بشغف ولهفة، لعل ما لم يتمكن المعارضون من تحقيقه بالقوة، أن يـــتم تحقيقه بفعل القدر، وصادف هذه الفترة من الترقب، توزيع نزلاء المهجع رقم "30"، ليـــدخلوا علينا دفعة من المدعومين كما كان يطلق علـــيهم، وكـــان بعضـــهم مـــزوداً بجهـــاز راديـــو ترانزستور صغير، يَسْمَع وممنوع عليه أن يُسمع أياً كان، ومن أجل الإبقاء على هذه السرية، كانوا يزودونهم بسماعة صغيرة تزرع في الأذن، غير أن للقلوب خطاً آخر غير كل الخطوط التي يخطها البشر، ومن هنا قامت بيني وبين بعضهم علاقات طيبة، تجاوزتها إلى الثقة التـــي راحوا من خلالها يطلعونني على بعض الأخبار، التي صارت مـــدعاة لجلـــب المزيـــد مـــن المشاكل التي كنت في غنىً عنها، لا سيما حين يأتيني سؤالاً من هؤلاء البائسين:

- نورنا الله ينور عليك!!

حين كنت أنفي علمي بأي جديد، كانت تلوكني الألسن، حتى أن أحدهم فاض به الحـــال يوماً، فألفيته من القهر الذي أخذ بمجامع صدره يصرخ بي من دون مقدمات:

- أنت جبان، أنت لا تقول الصدق، أنت تعرف الكثير، احكم القيد على كـــل الأخبـــار، تكتم عليها جيداً، سوف تنفجر بك يوماً، وستكون أنت أول وقودها!!

كنت أدرك تماماً ما تعني أنات الجوى تلك داخل مراجل هؤلاء البائسين المحرومين وأنا منهم، لذا لم أعلق ولم أرد، واكتفيت بالتبسم، لقد كنت أفهم يقيناً ماذا كان يعنى انتظار النـــاس على الأمل، الانتظار الذي بدا قاسياً مريراً، وسرت في المهجع إشاعة قوية تفيد بـــأن رئـــيس العصابة قد نفق كما تنفق الدواب، وأنه رهن التحفظ عليه في البراد، أي في ثلاجـــة المـــوتى، بانتظار إتمام مراسم التشييع والدفن، وراح الجميع يبتهل ويستغرق في الـــدعاء، وراح الأمـــل يكبر، لكن الانتظار طال، والخبر المنشود لم يسُقْهُ أيّ كان، وما بعث على الذهول، وزاد فـــي المأساة، هو تكثيف المحاكم ووجبات الإعدام معاً، كما لو أنهم كانوا على سباق مع الزمن!!

عودة الإعدامات

لقد جاءت وجبة الإعدام في تلك الفترة كبيرة، وكاد مردودها علينا أن يكون ماحقاً. من الذين سيقوا فيها إلى الموت الشاب المهذب الذي أصابهم يوم كان طليقاً بالهذيان، لشدة بأسه وجرأته، محمد الذهبي وكان طالباً من أبناء دمشق، غادرنا كندى الصباح مبتسماً، كتلك الابتسامة التي رأيته عليها في أول يوم التقيته، كما لو أنها ولدت معه، فكانت سجيته التي رحلت معه.

أما الحدث وائل بريدي من أبناء درعا، فيا لهف أم وائل على وائل، يوم قدموا لاعتقاله لم يكن عذار شعره قد خط في خده المياس، وبحث زوار الفجر بين الأطفال عن بالغ راشد يسوقونه للاعتقال، فلما لم يجدوا إلا أطفالاً قد روعوا براءة طفولتهم، طلبوا من الأب أن يرافقهم كرهينة، عندها التفت الأب الفجوع في عفوية منادياً على وائل:

- يا وائل شد حيلك، أنت رجل، انتبه لإخوتك جيداً حتى أعود!!

ما أن سمعوا اسم وائل، حتى تركوا الأب وأقبلوا يسألونه عن وائل:

- أين هو؟!

أسقط في يد الوالد من حيث لا يدري، وحين أشار الأب إلى الطفل البطل وائل، زعموا أنه هو المطلوب، فاقتادوه معهم.

حين نادوا عليه إلى الإعدام خلع ثيابه، وبقي في السروال الداخلي إلى ما دون الركبة، وكان الجو بارداً ممطراً، فنحن في فصل الشتاء، وصاح به الجلاد:

- البس ملابسك أولاً، ألا تخاف البرد، الجو بارد!

فأجاب رحمه الله:

- أنا متعود على البرد!!

فتذكرت قول الله تعالى:

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢، ١٣].

اللهم أوفي وائل وإخوانه ما وعدت المؤمنين، وألحقني بهم في الصالحين.

وممن خرج يومها الحدثان الأخوان عبد العزيز وأسامة العطار، كليهما من حلب، وكان أبوهما حاضراً قد جاوز الستين، يقبل هذا ويشم هذا، ونحن واقفون كالبُلَهَاء، قد عقدت الفاجعة ألسنتنا، لا ندري ما نفعل أو نقول، غير أن عبد العزيز التفت إلى جمال عبيد أحد أبناء حلب، ليوصيه بوالده خيراً، ما كنت أدري سراً لهذه الابتسامات التي كانت تعلو محياهم، مع أنهم كانوا يبصرون الدموع تترقق في عيني أبيهم الذي يودعونه إلى أن لا تلاقيا، غير أن الأمل معقود على لقاء في جنة عرضها كعرض السماوات والأرض.

كذلك خرج الطالب الدمشقي رضوان آغا، ومحمد فرحات، ووفاء أزرق، كلاهما طلبة من أبناء حلب، وكانت تربطني بوفاء علاقة متينة، وحين حُكم عليه بالإعدام، بدأت أخفف عن قلبي لوعة الفراق باجتناب إطالة الجلوس إليه، وصبيحة يوم خروجه إلى الموت، سألته المسامحة! فرد معاتباً:

- جميل أن تذكرتني أخيراً، سامحك الله!!

لعل في خروج فدائي المهجع الأول حسان مرعي - كان يعمل حرفياً، وهو من أبناء حلب- عذراً لكل الذين بكوه بحرقة من المقعدين والعاجزين والخائفين ممن كانوا يعلمونهم ليلاً، حتى إذا ما أطل النهار، وجاء البغاة يسألون عن أحدهم، سارع حسان إلى ارتداء ملابس المطلوب وخرج يتلقى عنه العذاب بالنيابة، رحم الله حساناً لقد ناله من العذاب الكثير في سبيل نجاة الكثير من الشباب، وحين كانت له فرصة ليقول شيئاً، ما زاد على قوله:

- البركة فيكم، كلكم أساتذتي، فأنا لا أجيد فن الكلام، أوصيكم بتقوى الله والدعاء لنا. ثم خرج.

وكان من بين الأسماء التي نادوا عليها في المهاجع المجاورة، جمال خراط، لعلك نسيته يا صاحبي، وهل مثله من يُنسى! يا راحلين إلى الجنان معذرة، يا واقفين على الأطلال معذرة، يا أحزان الأرض معذرة، لقد خيّم على قلبي ظُلْمة من الأسى لو وُزعت على بطون أودية تدمر، لأحالت نهارها إلى ليل دامس، لقد فاضت قيثارة أحزاني، فما وجدت لها من لاجم إلا الدموع، وألفيتني كابن الصغير آخر سلاطين الأندلس:

أبكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً ... لم نحافظ عليه مثل الرجال

ورحت أتعثر تارة أميل إلى الدموع وتارة أجتهد في نظم الشعر أرثيه:

قفوا صحبي وجودوا بالدموع فدمع العين لا يشفي غليلي
غداة البين حل بنا غراب نعيب الشؤم في صوت الدليلِ
وعبر الباب أسماءً ينادى بها الخراط أمستى كالقتيل
شهيداً سيق للحبل المدلى كليث غاب في شرك مهيل
جمال هذه الدنيا سراب خراب فزت عنها بالرحيل

ليعذرني من رافقهم في ذلك اليوم من أسود الإيمان، عن قلة التفصيل، ليعذروني حين يجمعنا عند الله لقاء، فهو أعلم بهم مني، أذكر منهم الطالب ملهم أتاسي، وشقيقه الطبيب الأديب من أبناء حمص، والملازم المجند زياد عجاج، رفيق رحلة عودتي من العدوي إلى فرع التحقيق العسكري بدمشق، والذي كان يعمل مسؤولاً عن أحد مستودعات الجيش لمواد البناء، وحين حاول قائد كتيبته الاستيلاء على بعض المواد من المستودع، رفض زياد التوقيع على أنها صُرفت في وجه حق، عندها دُبرت له هذه التهمة، والتي قال حال زياد فيها:

- وشى بي واشٍ إلى المخابرات العسكرية، أَكِلُه إليّ الله.

لعل من المضحك المبكي، والمقام مقام انفراط كل عقود الأخلاق والإنسانية، أن نذكر هنا مدى الإسفاف الذي وصل إليه لصوص الليل والنهار من سُرَّاق الدار، قد غاب عنها أهلها الحقيقيون، فقد ذُكر لي أن ابنة المجرم علي أصلان، أو المجرم علي دوبا، أو أحداً غيرهما من نفس الطينة النجسة، احتاجت إلى دروس خصوصية في مادة من مواد التدريس، وذكرت اسم أحد المدرسين لعالي المقام والدها، ليعدها خيراً، وحين عاد إلى فرع التحقيق طلب من أحد عناصره الإستفسار عن المدرس عاثر الحظ، دون أن يذكر للعنصر سبب الاستفسار، وأخذت الحكاية أياماً، لتراجع الابنة أبيها عن المدرس، والذي انشغل عنه والدها في تثبيت أركان مؤسسة الزعران، التي كان هو عضواً فاعلاً فيها، مما تطلّب منه استدعاء العنصر ليسأله عن المدرس، لم يفاجأ سيادته حين أعلمه العنصر بكل فخر، بأنهم ألقوا القبض عليه منذ أسبوع، وقد اعترف بكل شيء!

أما محمد أبو نبوت من أبناء درعا، فقد كان رحمه الله كالمستجير من الرمضاء بالنار،

وذلك أنه حين صار في عداد المطلوبين، توارى عن الأنظار، متخذاً من بيت عمته ملاذاً وملجئاً، ولكي لا يُعطى أي فرصة للنجاة، قام زوج العمة – مجزياً بما يستحق – بتسليمه للمخابرات مع غبش فجر اليوم الأول من وصوله.

كذلك كان من الذين تمت زفتهم إلى الله في تلك الدفعة أيضاً: غالب أبا زيد من درعا، وكان قد فقد عينه تحت التعذيب! عارف عارف الحمود من إدلب، المهندس فرحان أزهري أحد أبناء حمص، كانت برفقته أخته في مهجع النساء بتدمر! الطالب دريد الطش من أبناء حمص، كنت قد سمعت عنه في فرع العدوي، وكان يومها نزيل المنفردة رقم "5" المجاورة لي تماماً قبل رحيله، ولقد شاء الله أن ألتقيه قبل إعدامه بأسبوعين لأتعرف إليه عن كثب رحمه الله، أبو نادر برتبة مساعد في الجيش أحد أبناء درعا، محمد سهل موظف من أبناء اللاذقية، الأخوين محمد بلال، ومحمد بركات الخطيب، وهما أبناء بنت الشيخ علي الطنطاوي، وقد أوصاني الأخير بمكتبته لأخيه الأصغر محمد بهاء الدين الخطيب، صاحب الكنزة الذي لا يُنسى، والذي لم يتأخر عن اللحاق بنا إلى كهف تدمر، الدكتور ماجد الخطيب من أبناء حماة، الزعيم موظف من أبناء حماة، محمود الحجي كان مدير المخابرات السورية زمن الرئيس أمين الحافظ، وهو الذي أعاد لحافظ الأسد اعتبارات الرتب العسكرية، التي افتقدها أيام الوحدة مع مصر، حيث كان الأسد قد أُحيل الى التقاعد، فاستدعاه محمود ليقوم بتسليمه قيادة مطار الضمير، ثم دارت الأيام ليقع في القيد بتهمة التنسيق بين الإخوان وبعث العراق، ولينتهي به المطاف إلى حبل المشنقة رحمه الله، شيخ القراء الطالب حسين سخنيه من أبناء دمشق، الطالب عبد الله الحمصي من أبناء درعا، الطالب رياض صالحة من أبناء اللاذقية، تلا علينا قبل خروجه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾، الطالبين الأخوين ياسر وسعيد غانم من أبناء حلب، وكان الثاني كما أسلفنا قد خرج عن مناط التكليف بالجنون، قد رفع الله عنه القلم، إلا أن سلطات البغي في دمشق لم ترفع عنه حكم الإعدام، الطالب محمد صنوبر من أبناء دمشق، وقد شاهده أبو عوض – كما قيل– مدلى على أعواد المشانق، بسام بريك، تأخذني غصة كلما تذكرته رحمه الله، كما لو أنه الآن أمامي يرتحل، قد اجتمعت له شهامة أهل حماة، وطيبة شمائلهم، الطالب مضر الدغلي، خادم القوم سيدهم، وقد كان كذلك رحمه الله، ناهيك بأنه كان من أوائل القراء الذين وصلوا معنا إلى تدمر، وله

الفضل بعد الله في إعانتنا على حفظ كتاب الله، مضر السم، تاجر من أبناء إدلب، الطالب المنعم أنس قبلان من أبناء حماة، المجند عبد الرزاق الشيخ من أبناء حماة، ممدوح درويش من أبناء إدلب لم يشفع له رحمه الله عند الفجار كونه عضواً فاعلاً في حزب البعث الحاكم على مدار سنوات عمره الذي ارتحل، صاحب الظل الخفيف والابتسامة الوضاءة الخياط محمد محمود من أبناء حلب، يوسف عبيد وهو دمشقي اقتادوه أكثر من مرة إلى حبل المشنقة وساوموه كثيراً كي يعمل لصالحهم، لكنه رفض بإباء المسلم المؤمن، إلى أن ذهب إلى ربه طاهر الأذيال، نظيف الثوب والبدن، الأستاذ شهاب أكبازلي، كردي من أبناء دمشق، يعرفه مشاهدي الشاشة الصغيرة، مربياً ومدرساً، كان آخر إخوته إعداماً، لم يشفع له بقاء والده العاجز، ونساء إخوته وزوجته وأولادهم الذين تركوا من غير معيل لهم سوى الله، أما الطالب هيثم يبرودي، ذا العينان الزرقاوان والملامح البيضاء الناعمة الجميلة، والشعر الكستنائي المرسل على قصر لم يكن ليشينه، من أبناء دمشق، فقد كان وتر أهله من الذكور، على مجموعة من الأخوات الإناث، أخبرني أن واحدة منهن متزوجة في الأردن مع عائلة لطبيب أردني، لعلها عائلة خريسات إن لم تخنّي الذاكرة، عاش رحمه الله منعماً، حتى في سجنه اجتهد أهله في درء غوائل الدهر عنه، وذلك بالزيارات الدورية التي ما انقطعت إلى قبيل رحيله بقليل، كان قد انتهى لتوه من تقشير حبة برتقال، وقد انتهى من تناول نصفها، حين فُتح الباب ونادوا عليه للخروج، وحين رأى الشرطي شعره المرسل ظن أنه أخطأ في صاحب الاسم، فأعاده إلى المهجع كي يفي بما كُتب له من تناول نصف الحبة الثاني، وما أن ينتهي حتى يُفتح الباب ثانية، كي يمضوا به إلى رب وسعت رحمته السماوات والأرض، وليصدق فيه قول المصطفى: «أن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها» ووالله ما رأيت أعجب من هذه الواقعة، التي أعيد فيها رحمه الله كما لو أنهم أرادوه استقدام شيء نسيه، أعادوه كي يستوفي حبة البرتقال التي كتب الله أن تكون آخر رزقه من الدنيا!

رحم الله جمال، ووائل وماهر ومروان وهيثم، وكثيرون سبقوا وآخرون لحقوا، ما رأيتهم والله إلا أصحاب عبادة، قد أظمئوا نهارهم، وحنوا أصلابهم أناء الليل على كتاب الله يتلونه، هجروا النوم، بعد أن تناوشتهم سياط البغاة جل النهار، قد استقلوا كل ذلك في جنب

الله، قد برتهم الأمراض، وزلزلتهم الأهوال، فاستخفوها إزاء يوم تشخص فيه الأبصار، ومضوا قدماً إلى المشانق، مُضيّ الأطفال فرحين إلى الأرجوحة ليلة العيد. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٣]

دوّى صوت الرصاص في الفضاء الخارجي، ووصلت أصداءه إلينا، وعمت بزعم من لم تلد النساء مثلهم أرجاء البلاد فرحة عامرة غامرة، وأُعلن عن نجاة الطاغية، لينسأ الله له في أجله المجبول بالإجرام والضلال إلى حين، وخيمت داخل المهجع كل ما يخطر على بالك من مشاعر يصعب وصفها، غير أنها على أقل تقدير جاءت فوق كل ما يحتمل من الطاقات، فقد كانت خيبة الأمل للجموع الغفيرة من نزلاء سجن تدمر، ولغالبية الشعب السوري ماحقة، لقد غمرت الناس أنواع من الكآبة، كاد البعض معها أن يخرج من جلده، بعد أن همّ بشق أثوابه أسفاً وكمداً، وكادت كلمة الصبر تتحول عند البعض إلى ضرب من ضروب الكفر، وكانت المأساة ماثلة على وجوه المئات من الكتل البشرية التي افترشت الأرض، قد أخذتهم الصدمة في اجتماع المتعوس على خائب الرجاء، فهم من حولك كالسكارى، يهذون كالمحموم لا يدرون ما يقولون!

وكما نحن في الحمى، كان الأستاذ مصطفى التميمي، قد تحول إلى ذروة الحمى، وصار وضعه مع الأيام يذكرني بوضع أبي طارق رحمه الله، وما عاد الرجل – وهو أستاذ لمادة الفيزياء والرياضيات– بقادر على متابعة دروس القرائن الدالة على وجود الخالق، وما عاد يقوى على الحديث، وراح يدخل في غيبوبة تلو أخرى، تطول أحياناً حتى تخاله قد أفضى إلى ما قدم، ولم يعد بوسعه أن يضبط إرادة المخرّجين، وتبرع أحد الإخوة الأكراد من أكراد القامشلي على ما أذكر، لم يبقَ من اسمه في الذاكرة إلا مصطفى، تبرّع مصطفى في المتابعة والسهر، ووالله الذي لا يُعبد بحق سواه، لقد رأيت أمهات يقمن على خدمة أبنائهن فلذات

أكبادهن صغاراً، حتى إذا ما شبوا عن الطوق كان لهن معهم شأن آخر، أما مصطفى الكردي فقد كان لمصطفى الفلسطيني الأم والأب والأخ والصديق، يقوم على غسله لا يتحرج، ويقوم بغسل الثياب التي لحقتها نجاسة البول والغائط لا يتأفف لأشهر طالت، لا ليوم أو يومين، ولا لأسبوع أو اثنين، ما كانت تجمعهما قرابة، ولا صداقة قبل أن يجمعهما السجن على غير ميعاد، لكن رابطة هي أقوى من كل روابط الأرض جمعتهم، تلك هي رابطة السماء، أما سمعت بالذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، قيل واثنين تحابا في الله وافترقا فيه، ولا أحسبهما إلا كذلك ولا نزكي على الله أحداً، ويشاء الله أن ينجو مصطفى الفلسطيني، فتورق أيامه من جديد، وتجري في عروقه ينابيع الحياة وتثمر، وما أن يقف على قدميه، ويعود إلى نشاطه، حتى ينادى على الأخ الكردي بالإفراج، وكان ثبته الله قد حدثني في أيام خلوت به، وهو من حملة الشهادات الجامعية، عن الوضع المأساوي البئيس الذي يحياه الأكراد في سوريا، وكيف أنه على الرغم من أدائه للخدمة الإلزامية، فهو كغيره من الأكراد ممنوع عليه حمل التبعية السورية، وبالتالي فهو ممنوع من السفر إلى أي جهة كانت، ناهيك عن منعهم من استخدام لغتهم أو التعلم بها، يضاف إلى ذلك حرمانهم من الالتحاق بالكثير من وظائف الدولة، والحديث عن وضع الأكراد قد يطول، ولعل مكاناً آخر يتسع فيه المجال، فنعكف فيه على البحث والتحليل، فنعطي هؤلاء الإخوة بعضاً من رد الجميل، ولا أعتقد بأنه سيكون في وسعنا أن نجازيهم، غير أن ما عند الله يقيناً هو لهم ولنا أدوم وأجزل وأبقى.

زارنا مساعد انضباط السجن للمرة الأخيرة، وسأل على غير عادة إن كان بيننا من له قريب من الدرجة الأولى ينوي استقدامه أو الانتقال إليه! فرفع مجموعة من الإخوة أيديهم، فأمر بانتقالهم، ثم اختفي بعدها بأيام، وباختفائه غابت شمس أبو عوض أيضاً فما عدنا نراه.

تواردت الأخبار على عجل، علمنا بتغيير إدارة السجن، فقد حل العقيد سيئ الصيت بركات العشه مكان المقدم سيئ الصيت والسمعة المجرم فيصل غانم، وذلك في تصفيات حساب بين الأخوين في زعامة عصابة المافيا، طالت الكثيرين لحساب أحدهما، وذلك باختفاء المجرم الأصغر عن مسرح الأحداث!

وأقبل مدير السجن الجديد بركات ظهر يوم من الأيام يسألنا إن كنا في حاجة للإجابة عن أي سؤال، وكان السؤال المطروح يومها من أبجديات الحقوق المتعارف عليها بين خلق

الله في فتح باب زيارة الأهالي لذويهم من السجناء، كان صادقاً وهو الكذوب فيما زعم من الإجابة عن أي سؤال، ذلك في رده الذي جاء مقتضباً سوداوياً، حين أبلغنا بأن باب الزيارات مسدود لكل من له علاقة بتنظيم الإخوان المسلمين أو البعث اليميني، في الوقت الذي كانوا يسدون علينا كل أسباب النجاة، كانوا يتركون كل أسباب الحياة مفتوحة لكل أفراد المكتب السياسي من الشيوعيين!!

المحكمة الميدانية

نادوا على اسمي هزيع ليلة من ربيع عام 1984، وكنت واحداً في طابور نافَ تعداد أفراده عن المئة، هل سمعتم بمثل هذا؟! مئة من البشر اقتادونا إلى المحكمة المهزلة، بلا دفاع، بلا حضور، بلا إعلام بلا ضجيج يطغى على ضجيج السوط، اقتادونا في طابور طويل إلى الباحة الأولى، وأمام الشبك الحديدي، أُمرنا بافتراش الأرض، كان الجو رهيباً، وكدنا من خوفنا أن نسمع دقات قلوبنا، وكان الليل قد أرسل نسائم برد صحراوي، راحت أسناناً تصطك، لا تدري أمن البرد أم من الخوف، وهمس أحدهم بجواري:

- أبو الخير!

قلت من خلال فرقي وخوفي:

- نعم أنا هو، من تكون أنت؟!

- أنا عبد الرحمن العطار!

كنت أريد أن ألتفت إليه فأضمه لو أمكن لي ذلك، فمثل هؤلاء القوم لا يشقى جليسهم، غير أن ما نحن فيه، كان كافياً لإشغال كلٍ بنفسه، وسألته عن رقم المهجع الذي ينزل فيه، وسألته عن شكري الشيخ موسى؟ ليعلمني بدوره أنه وشكري نزلاء المهجع رقم "4"، دعوت الله أن يلطف بي وبهم، وأن يعجل الفرج، وسألته أن يحمل تحياتي إلى شكري وإلى الجميع، ثم نادوا على اسمي، وكان ترتيبي الرابع في المحاكمة، كنت أعلم بأنني أساق بتهمة باطلة إلى محكمة باطلة، القاضي فيها هو الخصم والحكم.

من باب في الشبك الحديدي ضيق، اقتادوني إلى قاعة المحكمة!! حجرة لم تكن لتتجاوز 15 متراً مربعاً، ما أن دلفتها، وقد طأطأت رأسي كالعادة، كما لو أنني كنت في انتظار مرور العاصفة، حتى صاح بي من كان يجلس يتربع على مقعد خلف المنضدة:

- ارفع رأسك، واقعد على الكرسي!

ما أن رفعت رأسي حتى أبصرت ما يدور حولي، رأيت ما يدعى بالقاضي، النقيب

المجرم حبيب سليمان، هزيل الجسم، ذا شارب ينساب على شفته العليا، وشعر كثيف، عجوزاً هرماً، قد كست وجهه التجاعيد، وإن كان حاول إخفاء عهر شيبه بطلاء أسود داكن فاضح لم يكن ليناسب فساد شيخوخته، وهو ضابط من القرداحة بالكاد أن يظهر من خلف المنضدة لوضاعته ولقصر قامته، وعلى يساره جلس كاتبه الأوروبي التقاطيع البدين، وعن يميني وقف المجرم الرقيب سليمان، والذي كان يقوم في إدارة انضباط السجن بعد رحيل المساعد.

انشغل القاضي برهة من الوقت في تصفح ملفي، ثم رفع رأسه ليسألني في لهجة جبلية صرفة من خلف زجاج منظرة علت أرنبة أنفه لتزيده قبحاً على قبح:

- قرد أولا.. أردني؟!

وعلى وجل بعد أن ابتلعت ريقي أجبت:

- نعم.. أردني!

لم يمهلني حتى عاد وسأل.

- مين نظمك؟

علت إلى السطح صورة الدكتور غلاب الدمشقي في أيام مضت، حين نثرت أوراق حكايتي بين يديه، فأكد على ضرورة أن أنفيها في المحكمة، ولو كان الثمن إعادة ملف التحقيق من جديد، وإن لم أفعل فلعل ذلك يندرج تحت باب إلقاء يدي إلى نوع من أنواع التهلكة والانتحار، من هنا استجمعت إرادتي، وارتديت ثوباً من الجرأة ما عهدته في نفسي من قبل، ولعلها كانت ضربة مودع، أو قل آخر سهم في كنانتي قبل رفع الراية البيضاء، ثم قلت:

- أستميح محكمتكم الموقرة، كي أدلي بكلمتين!

و في لهجة المتهكم:

- قول!

في الوقت الذي كان فيه يجرى ببصره بين السطور، شرعت في التحدث، فنفيت بالمطلق أن أكون منظماً، أو أن يكون أحد قام بتنظيمي.

عندها رفع رأسه ليسألني عن حمدان أبو شقيف، ذلك الذي بزعمهم قام بتنظيمي.

– مين يكون إذاً حمدان أبو شقيف؟

فأجبته:

– حمدان كان تاجر مخدرات، لا أعتقد بأنه كان ينتمي إلى أي تيار، وكان في نفس الوقت يعمل في شركة أدوية، ما أدري لم أثبت له المحقق عمله في شركة الأدوية، ولم يثبت له تجارة المخدرات!

وإني لأرجو أن يسامحني الأخ حمدان على ما نسبت إليه، وإن كنت أعتقد جازماً بأنه سيفعل ذلك، فلقد كان لسان الحال يقتضي قول هذا، كما أن للضرورة أحكامها ودوافعها.

بدت الإجابة مقنعة إلى حد ما، ثم تابعت قائلاً:

– لقد سجل المحقق مع سبق الإصرار والترصد، فرية مفادها أنه تم تنظيمي عام 1976 في ألمانيا، ووثائقي الشخصية تدل بما لا يدع مجالاً للشك أنني لم أذهب إلى ألمانيا إلا عام 1978، فكيف أكون منظماً في بلد لم أكن قد انتقلت إليه بعد؟! وكيف يكون حمدان تاجر المخدرات، قد نظمني وأنا لم ألتقيه أو أتعرف إليه بعد؟!

وعاد ليسأل في خبث:

– من يثبت لنا بأنك لم تبدل جواز سفرك في هذه المدة؟

وحين بدأت أشعر بأن دفة الحديث راحت ترجح إلى جانبي، ازددت جرأة، فأجبت:

– لن تعدموا وسيلة للتأكد مما أقول، فلكم سفارة في بون، وأجهزة دولة.

عاد ليقاطعني دون أن يغير من لهجة التخابث:

– ما علاقتك بالمدعو عصام العطار؟

رحت أشعر بنوع من الارتياح وأنا أجيب:

– إذا كان القدر قد جمعني بسيادتك قبل اليوم، أو أن زماناً أو مكاناً على غير ميعاد جمعنا، فهذا يعني أنني اجتمعت به أو قابلته يوماً، لم أعرف صاحب هذا الاسم أو أسمع عنه قبل أن يذكره لي المحقق.

وسأل ثانية:

– نديم إلياس.. هل هو نصراني؟!

وكانت الفرصة المواتية التي جاءت على طبق من ذهب، فرصة جادُ بها الله، لم تكن في الانتظار، فأجبت على الفور

- طبعاً، هو نصراني!

وفي استغراب سأل:

- ولِمَ أوردت اسمه هنا؟

- سألوا المسمار مرة عن سبب نفاذه إلى الحائط، فأجاب: أسألوا المطرقة تجبكم!! أنا لم أسجل اسم نديم النصراني فقط، لقد ذكرت قائمة طويلة، كان فيها اسم هلمُت وبور ونكـــلاس وكل الدارسين معي من زملائي الألمان وغيرهم، إلا أن سيادته استثنى كل هـــؤلاء واكتفــى بنديم مع أنه يومها كان قد سألني نفس السؤال!! لقد كنت في وضع لا أُحسد عليه، لـــم يكـــن أمامي إلا أن أسوق أسماءً، أي أسماء، المهم أن أنجو مما كنت فيه؛ ثم إن ما ورد في لائحـــة الاتهام، بأن في دارمشتات جمعية للطلبة المسلمين، ما هو إلا هراء وضـــرباً مـــن ضـــروب الكذب.. لم يكن في دارمشتات سوى اتحاد خاص بالطلبة العرب!!

انفرجت أساريره عن صفين من الأسنان، كما لو أن زفت الأرض اجتمـــع عليهمـــا، لا تدري أهو بسبب التدخين، إن كان من المدخنين، أم أنه ورثهما صاغراً عن صاغر، وما لبث أن سألني:

- إذا كان نديم يدين بالنصرانية، فبماذا تدين أنت؟!

كنت قد انتهيت لتوي من حفظ كتاب الله، ولو تركت الإجابة للسان حالي لقال: لقد جـــاء السؤال متأخراً يا من سُرت إلى خريف العمر وأرذله، غير أن الرقيب سليمان، والذي ما زال واقفاً بإزائي تولى الإجابة بالنيابة عني، في لهجة جبلية "خزاة العين عنها":

- شو بدو إيكون سيدي، إزا ما بدو إيدين بالنصرانية، ما بقى قدامو غيـــر إنـــه إيكـــون مِسْلِم فلتان!!

ودوت في المكان فرقعة ضحكات فاجرة!! بعدها التفت القاضي الجلاد إلى كاتبه، ليملـــي عليه هذه العبارة:

- اكتب، بدّل أقواله، وأنكر أي علاقة له بالعطار، وكذلك أنكر أي علاقة لـــه بعصـــابة الإخوان المسلمين، وتُسأَلُ السفارة!!

ثم نادى عليَّ لأقترب، وحين صرنا أمامه وجهاً لوجه، تفصل بيننا المنضدة، طلب إلي أن أضع بصمة إبهامي اليمنى إقراراً بما ورد من نفي، طبعاً دون أن يُؤذن لي بقراءة ماكُتب، وضعت بصمتي راضياً من الغنيمة بالإياب سالماً!!

لم ينسَ سيادته العودة إلى معدنه الفاسد، حين انتهرني بكلمة من قاموسه المتهتك قائلاً:

- انْقَلِعْ!!

بعد انتهاء المحكمة، و"الانقلاع" الميسر الذي صاحبني بفضل من الله ومنَّة!! اقتادوني إلى الباحة الثانية قبالة المهجع رقم "4"، وهناك التقيت بالدكتور يوسف حميدي ابن دير الزور، تجاذبت معه أطراف الحديث همساً، وأعلمته انتهائي من استظهار كتاب الله، وأعلمني بدوره بأنه على وشك أن يختم، وقبل أن يمضوا بنا كل إلى مهجعه بعد انتهاء المحكمة، حملني تحياته إلى بعض معارفه معنا، فوعدت على إيصالها، وهذا ما فعلت.

عادوا بنا إلى مهاجعنا، مع أن بعضنا أعلمه الجاني والذي اعتلى منصة القضاء ببراءته، إلا إننا بقينا جميعاً، من حُكِم بالبراءة ومن حُكم بالإعدام، بقينا جميعاً نرسف في السجن والأغلال، وظل البغي والسوط مشرعان فوق رؤوسنا، لا يبغيان عنا حولاً، حتى آخر يوم بالنسبة لي على أقل تقدير، في هذا المنتجع الذي يصعب على المرء نسيانه!!

لعل من نافلة القول أن أذكر هنا، تعمد إدارة السجن والقائمين على هذا المشروع "الاستثماري" الدائم على استبدال طاقم التعذيب من المجندين، كي لا يصابون بالملل، فبين الفينة والفينة كانت تطل علينا وجوه جديدة، تحمل من الأحقاد والضغائن، والحماس المستشري للضرب والتعذيب، ما أن لو أسقطوه على جبل لدكوه دكاً، حتى لتأخذك الدهشة أحياناً، فتسأل:

- إلى هذا الحد يصل التعطش والهوس الإجرامي بالناس؟! ويبقى السؤال المحير، ماذا بعد كل هذا الإفراط، هل يملكون إيقاف الزمن عن التغيير؟ ولو صح هذا، فكيف آلت إليهم الأمور؟!

بتغيير إدارة السجن، تغيّرت معاملة السجناء، واختفى من واقع حياتنا أولئك الذين كانت لهم حظوة، وشيء من نعيم نسبي، وإن كان يقيني أن البقاء في السجن مجرداً من أي نوع من أنواع التعذيب، كان فيه ما يكفي من الإذلال والامتهان، فكيف بهؤلاء النفر وقد حلقت

شعورهم، وصودرت منهم الأجهزة الكهربائية، لقد كان اليوم الذي حلقت فيه شعورهم يوماً غارقاً في الكحل لشدة سواده وظلمته، مع أننا صرنا في الهوان سواءً، إلا أن ما زاد في الوضاعة أن إخوتنا هؤلاء أمسوا مثار السخرية من البغاة الطارئين، ولم يتوقفوا عن تعذيبهم، كلما فطنوا لهم، أو تذكروهم، لقد فقد الدكتور قاسم موسى طبلة أذنه في إحدى وجبات التعذيب، وزاد العذاب المسلط على من فقدوا عقولهم، كذلك على كبار السن، ظناً من الشرطة العسكرية الباغية بأنهم من قياديي الإخوان، ولا أنسى أبو كُريِّم ذلك الرجل العجوز الذي كان يتكسب من خلال تهريب السلاح، قاده حظه العاثر لبيع بعضها إلى أفراد من الإخوان مما اقتضى جلبه إلى تدمر، لقد رأيته يزحف إلى الثمانين من عمره قد أصابه خرف شديد لشدة ما ضُرب على رأسه، ذلك كان في دورة يومية، لم تستثنِ كل الذين في سنه، ولله در الأستاذ عادل لبابيدي أبو أنس صاحب إحدى مكتبات دمشق الشهيرة، لقد كان شديد الحمرة، مع شيء من البرص، وتقدّم في السن، ضعيفاً قد سار إلى السبعين من عمره، لقد أروه فنون العذاب على أصولها بكل ما للكلمة من معاني سلبية، أقلها التفجع المرير، ولا أدري كيف أنسى الطالب الجامعي معن شاهين من أبناء حمص، وكان أشد ما يميزه قامته المفرطة في القصر، كانوا يتقاذفونه بينهم – قاتلهم الله أنى يؤفكون- كما يتقاذفون الكرة، وحين كانوا يجرون في إثرنا بعد عملية تنفس أو حلاقة، يتغولون بسياطهم وكوابلهم، نصبح كالقطيع أحاطت بهم الذئاب، إحاطة السوار بالمعصم، أو صرنا بين فكي كماشة، صف من الشرطة عن اليمين وآخر عن الشمال، بينما فريق آخر بالانتظار عند باب المهجع، فإذا دلف البعض إلى الداخل، راحوا ينتظرون معنا، قلما مرت مناسبة دون قذفه من فوق الرؤوس، فيتلقفه من سبق من الإخوة المنتظرين في الداخل كي لا يسقط على الأرض.

قصاصة من صحيفة تشرين

وتحمل زوابع تدمر الرملية لنا يوماً من الأيام قصاصة من صحيفة تشـــرين أو صـــحيفة الثورة - لا أذكر الاسم تماماً- ويتحلق الإخوة حول القصاصة، كما لو أنها البريد حـــلَّ بنـــا، جالباً معه خبراً عن غائب قد صار ميؤوساً من أوبته، لكن المضحك المبكي أنها كانت تحمـــل خبراً مفاده أن العدو الصهيوني يعامل المعتقلين الفلسطينيين بعنصرية بالغة، ويذكر الخبـــر أن عشرين من المعتقلين يجمعهم مهجع واحد!! والأطرف أن أربعة عشر يملكون أسرّة للنـــوم!! بينما الستة الباقون ينامون على الأرض!! عندها.. وعندها فقط، أدركنا ذلـــك النعـــيم المقـــيم والهناء بلا عناء الذي ما زلنا نتمرغ فيه، وما عاد لنا من وجه مقارنة، فنحن ولله الحمد علـــى كل حال، نتجاوز المئة والثمانين في مهجع لعله يوازي مهجع الفلسطينيين العشرين اتســـاعاً، نفترش الأرض، لا يعزلنا عنها سوى طبقة من قماش مهترئ، بالكاد أن يصاحبك شعور بـــأن بينك وبين الأرض أي دثار، وهذا الوضع لم يتغيرَ لما يزيد عن عشرة آلاف ممن مروا مـــن هنا على مدار سنوات اعتقالي، منهم من قضى ومنهم من ينتظر، تساووا في الـــرؤوس فـــوق الأرض، كما سيتساوون تحتها، أجزم بالمطلق أن أحداً منا لم يعتلِ فراشاً، ناهيك عن السرير، ولله در فلسطين وأهلها ومرابطيها، لو اعتلوا أسرَّة الأرض جميعاً، مـــا كـــان ذلـــك ليفـــيهم صبرهم، أو بعضاً من صبرهم.

هذا شيء قليل من كثير كثير، وهكذا هو جو إنصاف الرجال ولا رجال ممن سلح الزمان عليهم، فأقامهم علينا، وهذا وضع استثنائي جعل منه العنصريون ظرفاً مقيماً ما قام في الدنيا ظلم قابله هوان، أما تفجعنا ممن هم معنا في الرهن والقيد فحكاية أخرى لم تكتمل فصولها بعد، ولكي تكتمل الحكاية كان لا بد من أن يعتلي المنصة أبطال جدد لوجوه جديدة من إخوتنا قد ضاق الحال بهم، فما عادوا يحتملون ما نحن فيه، أجهدهم طول التفكير فتنادوا بأفكار جديدة، ما المانع ما دام في الدنيا أمهات تحمل، وأرحام تدفع، فقد نادى إخوة من علية القوم فلعل جيلاً آخر تواتيه الفرصة التي عجزنا عن الإمساك بها، فيكون لهم اللحاق بقطار

النصر الذي فاتنا، تنادى هؤلاء الإخوة من علية القوم، بضرورة طرق الباب يوماً، كي نعلن للجلاد توبة نصوحاً، نُقَبِّل الأيادي ظهراً وبطناً، ونبكي على ما بدر منا حسرة وندما، ونعترف جهاراً بأن ما نحن فيه من هوان هو من كسب أيدينا، وما جنيناه على أنفسنا، ولمَ لا؟! ونحن على أبواب مناسبة قد يؤذن لنا فندلي فيها بدلائنا، فنكون أمام الله والناس كشُهّاد الزور، والجملة الأخيرة لي، ولبعض الإخوة المعارضين.

كانت المناسبة، هي تجديد البيعة للرفيق القائد، بطل التشرينين، المجدد المصلح، الذي عجزت نساء سوريا أن يلدن مثله! سبق الأولين بطولة وشرفاً ونسباً، وسيعجز الآخرون عن اللحاق به، الفريق أول أركان حزب، حافظ الأسد، والبيعة ستكون في استفتاء شعبي محسومة نتيجته سلفاً، والتى قلما جاءت نتائجها دون نسبة الـ99,9%، نتيجة تبعث على الاشمئزاز والتقزز، ما كانت لتكون لنبي مرسل ولا لملك مقرب، ولكن ماذا عساك تقول لمن صدق فيهم من قال:

- "إذا لم تستح فاصنع ما شئت"!!

لقد اقترح بعض العقلاء وقد فاض بهم الحال أن يدقوا الباب، معلنين استعدادهم للمشاركة في هذا العرس، واقترح بعض البلهاء منا أن نقوم بالإبراق برسالة تأييد، ولقد أخذ النقاش أشواطاً، وأحسست في الحديث طعم المرار، وكنا كشجرة صمدت لعوادي الدهر زمنا، ثم أصابها شيء من العطب، فراحت تطرح ثمارها التي لا يخلو بعضها من التلف، وكان لا بد من عملية ترميم، تصلح المستطاع مما فسد.

تغيّرت رئاسة المهجع في هذه الظروف العصيبة، استقال الدكتور قاسم موسى بسبب المرض كما قال، وخلفه في المهمة أحد أبناء تدمر، الشاب عبد الناصر حويفظ، كان باسلاً، أثبت جدارة فائقة في إدارة دفة المهجع في فترة راحت تتلاطمنا الأمواج، وكان أول امتحان صعب يواجهه هو دخول الرقيب سرور العجوز علينا ظهر يوم من الأيام بحجة التفتيش أثناء ما كان يسمى بفترة التنفس، ليقوم بتفتيش صرة ملابس لأحد الشباب، وفي غفلة من رئيس المهجع يُقدم على سرقة 500 ليرة سورية، وليزعم اللص الكافر الفاجر بأنه عثر على قطعة خشب صغيرة في ثياب صاحب الصرة، وتلك جريمة لا تُغتفر، فلقد شارف صاحب الصرة – عافاه الله، وأجزل له الأجر– على الهلاك، ولعل كلمة العذاب هنا باتت مملة لا تفي

بالغرض، ومع هذا لا أجد لها بديلاً، فلقد ضربوه على قدميه وظهره حتى سقط مغشياً عليه!

في اليوم التالي يأخذ عبد الناصر قراراً في تقديم شكوى بهذه الحادثة لرقيب انضباط أمن السجن الجديد، كان عبد الناصر هنا كمن يطفئ النار بالنار، كان الثمن الذي دفعه باهظاً في أول لقاء جمعه بالرقيب سرور والذي أسأل الله أن يجازيه بما يستحق، وأصبحت المأساة تتكرر لكل يوم جديد، وصار مهجعنا صاحب حظوة مميزة، يدفع الضريبة عن كل المهاجع مجتمعة دون أن ينقص ذلك شيئاً من العذاب المصبوب على الجمع صباً، رحنا مع الأيام نتذرع بالصبر سائلين الله أن يعجل بفرج من عنده قريب.

لم يطل بنا المقام، فقد أُقيل عبد الناصر من رئاسة المهجع، وتسلم من بعده الدكتور مسلم القصير أحد الأطباء من أبناء حمص دفة القيادة، واختير محمد فراواتي معاوناً له، في الوقت الذي أفل فيه وجه المجرم القذر سرور العجوز إلى غير رجعة، وهكذا بدأت الأوضاع بالانفراج النسبي قليلاً، لتعاود الفتنة إطلالتها من جديد، وليصبح الصدام على أشده هذه المرة ثانية بين الصوفية والسلفية، وما راح يبعث على الأسى الحقيقي، هو أن عِلْيَة القوم ممن وجب فيهم حمل لواء الاتزان والعقلانية هم الذين رفعوا لواء الخصومة، واشتبك الناس بالأيدي، مما شغل الناس عن برامجهم، ولم تنتهِ المسألة عند هذا الحد، بل تعدته إلى محكمة علنية داخل المهجع، حاكم فيها التيار الأكثر عدداً خصومه من السلفيين، وصدر الحكم بعزل السلفيين في مجموعات خاصة صغيرة، يشار إليها بالبنان على أنها الفرقة الضالة!! غير أن إمكانية تطبيق الحكم ما كانت لتنجح، فاكتفوا بمنعهم من أي مشاركة اجتماعية أو ثقافية في أي برنامج من البرامج المتاحة، وألفيتها خطوة خطيرة غاية في الظلم والغبن، وأعلنت عدم التزامي بها، مع إصراري في إبقاء العلاقة الطيبة مع كل الفرقاء، وهذا لم يعفني من إلحاقهم لي بفريق السلفيين، مع أنني كنت حتى ذلك الحين لا أدري يقيناً ما تعني كلمة سلفي أو صوفي، مما حدا بي لاحقاً إلى تتبع المعاني وصبر كنهها، وما زاد في المأساة أن الفريق الأول شرع في استصدار الفتاوى بتكفير خصومهم، مما دفعني يوماً في حضرة من كان يعتقد أنه صاحب صولة وجولة إلى شتم دولة تخاف من أمثال هؤلاء، وتعمل على سجنهم ومنعهم من متابعة متع الحياة!!

تقلبت بين مجموعات عدة من مجموعات الطعام والثقافة، إلى أن حط رحلي بين

مجموعة من الإخوة، قلت في نفسي لعلهم يكونون مسك الختام، ورحبت آلَفَهم ويألفونني، وكان من بينهم الدكتور سليم بدري دمشقي كان في سنة التخصص الأخيرة حين ألقوا القبض عليه، قد صار مسؤولاً صحياً للمهجع، والمهندس عمر حمزة من بانياس بالساحل السوري، والطالب الجامعي سامر صنوفة من أبناء حمص، وكان صاحب صوت عذب شجي، كذلك فوزي أحمد رشيد فلسطيني من سكان دمشق، وعبد الكريم الصمل طالب من أبناء تل منين من مناطق دمشق، وعامر عكام، وكان حدثاً جاؤوا به كرهينة عن أخيه، والذي قُتل فيما بعد على يد العصابة الحاكمة في دمشق، دون أن يكون ذلك سبباً لإطلاق سراح الرهينة، والحدث خالد المصري من أبناء بانياس.. وآخرين.

شرعت إدارة السجن ثانية في الأشهر الأخيرة على فرز السجناء، وحوت القائمة الأولى ذوي الأحكام الخفيفة حسب اعتقادنا، وكان بينهم سامر صنوفه، ومحمد خير من تل منين، بالإضافة إلى أبي الحسن من دير الزور، ووزعت بعض المهاجع الأخرى كي تفرغها للمفروزين، وتلا ذلك دفعات أخرى رحل فيها ذوى الأحكام المؤبدة - كما زعم- وكان فيها الدكتور قاسم موسى رئيس المهجع السابق، نديم طابوشي ضابط طيار متقاعد من أبناء اللاذقية، وكان من المدعومين الذين طالتهم يد البطش بعدما تغيرت إدارة السجن، ولعلني اليوم لا أبيح سراً بقينا نكتمه لأشهر كثيرة مفاده اعتقال الطواغيت لواحد من أولاده، لعله من كان قائماً على أمور البيت من بعده، مما تسبب إلى صدمة حادة لسيدة البيت، فارقت بالأمس الزوج ثم جاء دور الولد، فلم تستطع أن تتحمل الدار وقد أقفرت من ساكنيها، فأسلمت الروح على إثرها، فارقت وحيدة بلا أنيس أو شريك كي يتولى فاعلو خير من الجيران إبلاغ الأقرباء لدفنها وأجرهم على الله، لقد بقيت طوال الزمن الذي أقبل فيه عليَّ يحدثني كشاهد العصر عن تاريخ سوريا، منذ ما قبل الاستقلال إلى أن جاءت الوحدة، التي ما لبثت أن تبخرت، ليأتي عصر ما بعد الانفصال، مدللاً على كل ما صرح به بأمور عايشنا جانباً من أحداثها، واعداً إن فرج الله عنا وجمعنا خارج هذا المكان لقاء أن يبرز من أرشيفه الوثائق. بقيت طوال الزمن أرنو إليه مشفقاً حزيناً يراوح سر ابنه وزوجته المكتوم أعماقي، وأسأل نفسي ما عساه يجري لو بحت له بالسر؟! غير أنني أعود مشفقاً، أردد بيني وبين نفسي:

- يكفيه ما هو فيه، لعل النبأ يأتيه من عند غيري!!

بقينا على هذا الحال إلى أن فُتح الباب واقتادوه دون أن يحظى أحد من أصحابه بكلمة وداع، ورحل في هذه الدفعة أيضاً سالم علايا أحد أبناء دمشق، إضافة إلى المهندس زياد غضبان فلسطيني من سكان حلب و...، ثم ما لبثت المأساة أن أكملت دورتها كما لو أنها تشتط في الكيد لي، وأنا واقف كالمذهول أرقب ارتحال البقية الباقية من الأحباب، لو كان الأمر لي لأمسكت بيد موفق الشيخ إبراهيم أحد رفقاء صدر معاناتي، وكحال كل الخلق كان لا بد من يوم الرحيل، فيمضي موفق كما مضى الكثيرون من قبله، وانتظرتهم أن ينادوا اسمي معه، لكنهم لم يفعلوا، ويا ليتهم فعلوا، لقد أضرموا نيران أحزاني من جديد، وصرت كجندي يقف في ميدان المعركة قد تفتت ذخيرته، وراح رفاقه يتساقطون الواحد تلو الآخر أمام سمعه وبصره، يتمنى لو يعطفون عليه فيلحقونه بهم، وهم لا يفعلون، علم الله أنني كنت على هذا الحال، وألفيتني مع الأيام أزداد انعزالاً، حتى أوشكت أن أعلن إضراباً صامتاً عن الكلام والطعام من غير أن يدري بي أحد، وهل أبقوا لي على أحد، غفرانك ربي أنت الأحد ولي كل أحد.

كان الجميع ينتظرون بفارغ الصبر، والحزن باد على الوجوه، ورحت أسأل الله ألا يفجعني فيما تبقى لي من الأصحاب والأحباب، وعلى رأس من بقي كان الدكتور سليم بدري، ذاك الطبيب الذي حنَّ على بؤسي أياما كثيرة، لآلام كانت تصاحب التهاب الكلية عندي، كثيراً ما كانت تعاودني، فأسقط صريعاً أتقلب على جمر العذاب المنبعث من خاصرتي، مضافاً إليه ما كان ينصب من لهيب السياط التي ما كانت تميز بين طريح وصحيح، كان عليه بركات الله يتفقدني بما كان يدخره لي من بعض المسكنات التي كان يجود بها الطبيب السجان، والتي ما كانت تأتينا إلا نادراً، فهل يرحل سليم ومعه عمر حمزة، وعبد الكريم الصمل؟! وما هي إلا بقية من أيام، ويرتحل رئيس المهجع الدكتور مسلم القصير، برفقة أبو عمر قلعو أحد قدامى الإخوان من مكتب دمشق، كما أعلموني سابقاً، إضافة إلى أبو محمود عقيلة أحد الإخوان القدامى من أبناء حلب، وكان من كبار التجار، لعلني سمعت يومها همساً أن تجارته كانت مع الله أكبر، وكنت ألمس ذلك من خلال حضوره الصارم في كل ميادين أعمال المهجع، وتفانيه في سبيل الدين والإسلام.

قام محمد فرواتي أحد أبناء حلب مقام الدكتور مسلم في إدارة دفة المهجع، وكثيراً ما تخطئ العين حسن التقدير، فقد ظننته لا يحسن أكثر من تقديم الصف، لكنه أثبت أن الناس لا يؤخذون بالمظاهر، إن كانت لهم مهج رجال كالحديد صلابة تسكن مخابرهم، تأتى له ذلك حين واجه الفتنة الصوفية السلفية بصرامة وحزم، وكان مثالاً للحياد التام في هذه المعمعة دون أن ينقص ذلك من دينه شيء، واتخذ من فوري محمد رشيد معاوناً له، ولم يألُ الأخير جهداً في تقديم كل ما أمكن من نصح أو عون، من غير أن يمنعه انتماؤه لحزب التحرير أن يتفانى في كل ذلك ويذوب فيه.

وتجمعني لقاءات كثيرة بالأستاذ عادل لبابيدي أبو أنس صاحب إحدى أشهر مكتبات دمشق العريقة، كان الرجل العجوز يحمل بين حنايا صدره قلب الشباب، فروحه الطيبة، وخلقه الدمث أطمع فيه كل الخلائق حتى أهل حمص!! كنا نضحك في هذا الجو المكفهر المكهرب، وكنت حين انزاح ما بيننا من تكلفة أقترب منه لأسأله عن آية من كتاب الله، فيقبل عليَّ باهتمام، وحين أتلو عليه قول الله تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ ما أن أبوح بها حتى يستشيط ضاحكاً، ويمد يده ليضعها في صدري، فأولي دون أن أسمع منه الإجابة، لأنها لن تأتي، فقد كان عافانا الله وإياه فيه شيء من البرص!!

كان عضواً في مكتب القيادة الإخوانية بسوريا حتى أوائل الخمسينيات، ولقد حدثني عن تلك الحقبة بإسهاب، إلا أنه كان يمتنع عن الخوض في سيرة اثنين من الجماعة دون أن يعطي ما يبرر استنكافه، أما الأول فكان مروان حديد من أبناء حماة، وهو أول من أصر على التغيير باليد، إلى أن اعتقلته السلطة في أواخر السبعينات، وما هي إلا أيام ويقتلوه رحمه الله، ولعل هذا ما أشعل نيران المعارضة ضد الطغاة، ما كان أبو أنس عادل لبابيدي ليتحدث عن هذا الرجل بالمطلق، وأما الثاني فكان العطار، وكما ذكرت لا أدري أي سر كان يمنعه من الحديث، مع أنه كان يعترف بأن العطار هو الذي قام بتجميده عن العمل منذ أوائل الخمسينيات، وإن كان لا يخفي عدم اقتناعه بالعطار قائداً للعمل الإسلامي في سوريا، في الوقت الذي كان يثني فيه على أخلاقيات العطار وحيائه، إلا أنه كان يردد، بأن رجل السياسة يجب ألا يعرف الخجل، رجل السياسة والقيادة عليه أن يكون جسوراً، إذ لا يفوز بالزعامة إلا الجسور، وهذا ما لم يتأتَّ للعطار بأي حال من الأحوال!!

* * *

في هذه الفترة عاد داء السل فحل بنا ضيفاً ثقيل الظل، بطيء التزحزح، وكانت ضحيته في هذه المرة أكثر شباب المهجع نشاطاً وحيوية، وقياماً على خدمة الناس، لا سيما شؤون المرضى والمعوزين، لقد كان لسقوط أبو الحسن عدنان مؤيد أكبر الأسى علينا عامة، وعلى محبيه خاصة، لا سيما أولئك الذين عاشوا محنة الفتنة، تلك التي سعى جاهداً لوأدها في مهدها، ولو رأيته ساعياً للإصلاح بين المتخاصمين لما كان لك إلا أن تدعو له، ومن منا لم يحبه ويدعو الله أن يؤجره ويشافيه، رحل أبو الحسن إلى مهجع من مهاجع السل الخمسة، وما كان الرحيل ليفاجئنا، فقد صار من الأمور البديهية تجميع المصابين في مهاجع الباحة السابعة، لكن ما كان يسربلنا بالأحزان ويفت في عضدنا، ولم يعد من البديهيات، سؤال كان لا ينفك يراودنا دوماً من يقوم على شؤون هؤلاء البائسين في مهاجع السل الخمسة، كيف ينامون؟ هل من سبيل إلى الشفاء والكل يسعل؟ من يغسل لهم ما يقذفون من دماء؟ من يطعمهم.. من ومن ومن..؟! أسئلة كثيرة بقيت مفتوحة بانتظار من يجيبني عنها يوماً من الأيام!!

إخلاء السبيل

نهاية ربيع عام 1986، لعلني أكون أكثر دقة فأقول نهاية شهر نيسان "إبريل"، راحت تلاحقني مجموعة من المشاعر والأحاسيس الغريبة، وألفيتني أستل رؤيا منام قديم من جراب الذكريات أظنك ما زلت تذكره يا صاحبي، كان قد زارني بداية اعتقالي في فرع التحقيق العسكري بدمشق، وكان الأمل جامحاً في أن يأتي حصاد الرؤيا قريباً، كدين مستحق، قد وجب أداؤه، وفي لحظة تأمل ألفيتني أبوح لفوزي معاون رئيس المهجع بهذه الرؤيا التي آن تأويلها:

– لديك متسع من الوقت كي توصي، فأنا على وشك المغادرة!

ابتسم ثم سأل:

– وإلى أين العزم إن شاء الله؟! لا أرى لك إلا الباحة السادسة بصدرها الرحب، وأعوادها المنصوبة..!!

وأقاطعه بصدر تفوق رحابته رحابة الباحة السادسة بأضعاف مضاعفة من الطمأنينة:

– سيان عندي، فكله خير، كله فرج.. المهم أن نغادر هذا المكان!!

راحت إدارة السجن في اليوم التالي مصرة على جمع أسورة الساعات المعدنية، ثم عادوا فطلبوا الساعات بأسورتها، عند التنفس الصباحي وأثناء خروجنا قاموا باستلامها، شرعوا في تفحصها ليعثروا بعد ذلك على أحد هذه الأسورة محفوف الجوانب في حدة موس الحلاقة، سألوا عن صاحب الساعة كان شاباً نحيلاً فيه اندفاعة وذكاء، قوقازي الأصل من الشركس، هو المهندس رضوان بلتو، أقدم المجرم الرقيب نعمان على محاولة ذبحه بالسوار المحفوف المشحوذ، سالت دماء رضوان، ثم طلبوا إليه أن ينبطح أرضاً، حين أجبروه على رفع قدميه في الهواء، سقطت عليه السياط كزخات المطر، دخل بعدها إلى المهجع يتلوى من الألم المبرح الذي لا يطاق، في الوقت الذي ذهب اللصوص مع رقيبهم بقسم كبير من الساعات الثمينة!!

لا أريد وأنا أوشك على وضع اللمسات الأخيرة على هذه المأساة، أن أبدي موقفاً فيه انحياز لأي جهة كانت، بقدر ما أريد أن أسرد الوقائع على حقيقتها، مجردة من أي ميول كانت، وإن كان لا بد من انحياز فهو ولا شك لله ولرسوله وللمسلمين، ولن يكون لغير هؤلاء بأي حال من الأحوال، ولو كُتب لنا - لا قدر الله- تكرار المأساة، فلن يكون منا غير هذا الانحياز، ومع هذا سنصبر حتى يفتح الله بيننا وبين إخواننا بالحق وهو خير الفاتحين.

أسوق هذه المقدمة بين يدي نقاش جرى بيني وبين أحد الإخوان حول أسباب اعتقالي، والاعترافات التي أُجبرت على الإدلاء بها تحت وقع السوط والدولاب، كان يعزي كل ذلك إلى الأعمال التي جانبها النضوج، تلك التي قام بها الجناح الذي حمل السلاح من التنظيم العام!!

قلت قول المستسلم الذي ما عاد يبدل في وضعه أي قول:

- وما دخلي أنا في كل هذا وذاك!!

لعله ألفاها مدخلاً للتنفيس عما بداخله:

- أنت ضحية كغيرك من الآلاف المؤلفة من الأبرياء الذين لا ذنب لهم، لقد سبق وأن استمعت إلى حكايتك، كيف استدرجوك للاعتراف وكنت أمام خياران لا ثالث لهما، إما إلى الطليعة التي جرت البلاد والعباد إلى الخراب، وإما إلى أهل السياسة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لقد جاء اعترافك بناءً على بيان قرأته في مجلة النذير، التي كانت تعلق على لوحة إعلانات جدار الجامعة بألمانيا، كان يومها البيان يهاجم الأستاذ عصام العطار، وكيف ذكر أن أفراد التنظيم التابع للعطار غير مقتنعين بالعمل المسلح، وبالتالي فهم في مأمن من سطوة الدكتاتور!! وزادوا أن من يثبت عليه انتماءه للعطار وجماعته هم في أمان، ومن ألقي القبض عليه منهم يتم إخلاء سبيله، ولما كنت تحت طائلة العذاب مالت نفسك للعطار، ظناً منك بأنه طوق النجاة، الذي سيمضي بك إلى بر الأمان، أليس الأمر كذلك؟ ولا أراه غير ذلك..!!

كنت كمن راح يلعب في الوقت الضائع أقول:

- صحيح كل ما ذكرت، لكن ألم يكن من حقي وما زال أن أسأل، لو لم يكن الأستاذ العطار كما تقول فمن أين للنذير يومها أن تهاجمه؟ ومن أين لهذا المقال أن يرى النور؟ وعليه من أين لي أن أقرأ مثل هذا الكلام أصلاً؟! كي أميل إلى الاعتراف تباعاً!!

لم يطرأ أي جديد طوال الأيام القليلة الأولى من شهر أيار "مايو" من نفس العام الذي ذكرت آنفاً، لكنني نمت تلك الليلة على الأمل الذي بدأ يكبر حتى ملأ عليّ كل جوانحي، بانتظار شيء سره مطوي في علم الغيب عند الله، وقال لي أحد الشباب حين سمع مقولتي:

- لعله شعور للقيا بعض الأقرباء في زيارة..!!

فأجبته إجابة القانط قد غسل يديه من كل الأمنيات:

- زيارتي وقيام دابة الأرض سواء!

ضحك صاحبي، وما لبث النوم أن اختطفنا.

قبيل الفجر بقليل استأذنت الحارس الليلي كي أتوضأ، استعداداً للصلاة، وكنا نقوم فرادى على فترات متباعدة، كي لا نثير انتباه العسكري الجالس عند النافذة المطلة علينا من أعالي السطوح، فأذن لي. ما هي إلا أن عدت إلى مكاني، آخذاً وضعي في المنامة على جنبي كحد السيف، بانتظار أذان الصبح، حتى دبت حركة في الخارج، وجاءت أصوات من مكان بعيد، تنادي على قائمة من الأسماء يصعب تمييزها، وكان الوقت هو وقت ينادون فيه عادة على أسماء من أزف وداعهم إلى أعواد المشانق، قد انقطعت أسباب اتصالهم بالدنيا، وصاروا إلى أسباب الاتصال بالله أدنى وأقرب. ما أن دنت الأصوات، ووضحت نبراتها، حتى سمعت أحدهم يهتف:

- سليم إبراهيم أبو الخير!!

فصحت من قاع الكهف، قد أذهلتني المفاجأة عمن حولي:

- حاضر، سليمان إبراهيم أبو الخير!!

عاد فصحح الاسم:

- سليمان إبراهيم أبو الخير موجود؟!

حين حرك القفل المثبت في المزلاج، هبّ الجميع وقوفاً على عجل، في الوقت الذي طلبوا إليّ أن أنهي علاقتي بأفراد المهجع جميعاً دون استثناء، وأن أضب أغراضي، اعتلاني الإخوة من كل حدب وصوب، منهم من ضمني، ومنهم من قبلني، ورحت أبحث عن سليم

وعمر وعبد الكريم الذي جاء من وسط الزحام، فعانقته على عجل، ثم التفتُّ إلى الدكتور سليم بدري والمهندس عمر حمزة أسألهم المسامحة، ويسألاني بدورهما وسط الدموع ألا أنيساهما، اختطفني الدكتور عز الدين سيد عيسى فعانقني طالباً مني أن أسامحه على سوء فهم قام بيننا في يوم من الأيام، فأسأل نفسي في أسى يكاد أن يصل حد البكاء والدموع، ومتى كنت أحمل لأي من هؤلاء شيئاً من حقد أو ضغينة؟ فسقيا لأيام ليتها جمعتني بهم خارج ذاك المكان!!

لم أصطحب معي سوى حذائي الذي وهبه لي هيثم يبرودي رحمه الله قبل رحيله بأيام، قلت أجعله شيئاً من الذكرى، يصحبني في قبري عند موتي، مصير كل حي من الأحياء، أثراً وشاهداً يذكرني بأحبابي من المظلومين، أوصي به عند موتي أن يلبسوه لي أفد به على الله، علّه سبحانه يجمعني بصاحبه، بعدما عز اللقاء.

فُتح الباب، فسحبت نفسي من بين الأيدي الممتدة نحوي انسحاب من أيقن ألا تلاقيا، وما هي إلا لحظات حتى كنت أضع قدمي على طريق ممتد طويل مجهول، لا أدري حتى تلك اللحظة إلى أين يقودني؟!

كان يتنازعني خليط من شعورين متناقضين، أحدهما فيه الحرص على الدنيا، والأمل في النجاة الذي بدا يراوح في داخلي خجولاً ضئيلاً، والآخر فيه الخوف الذي كاد أن يسد عليّ مجرى النفس، ولِمَ لا؟ وأنا ما زلت بين يدي عدو غاشم قادر لئيم، لا تؤتمن بوائقه!!

مع أن نبرة الرقيب نعمان ذلك الذي نادى على اسمي كانت لينة إلى حد ما، لا سيما حين طلب مني أن أرتدي بنطالاً إن كنت أملكه، فالجو فيه نسمة برد ليلية لاذعة، كما قال، وأعطاني مهلة من الوقت كي أفعل ذلك، وأقوم بتبديل البيجاما، وهذا ما لم يأذنوا بفعله لأحد ممن سبق وخرج، ومع هذا بقيت خائفاً، غير آمن، وكان أكثر ما يخيفني هو أن الوقت هو وقت نصب أعواد المشانق، وتزاحمت مجموعة من الأفكار السود في رأسي، حتى استقرت على فكرة واحدة، استعدت من خلالها حديث معاون المهجع فوزي قبل أيام قليلة:

- "وإلى أين العزم إن شاء الله؟! لا أرى لك إلا الباحة السادسة بصدرها الرحب، وأعوادها المنصوبة..!!

ويهدئ من روعي الذي راح ينساب كالماء حتى وكأنني أكاد ألمسه بيدي، وأنا أردد بيني وبين نفسي:

- سيان عندي، فكله خير، كله فرج.. المهم أن نغادر هذا المكان!!

تركوني أحاذيهم في المسير بكل حريتي، لم يأمروني كعادتهم في إغماض عيني وطأطأة رأسي، مما أعطاني بعض الأمل والاطمئنان، وفي حجرة من حجرات الإدارة في الباحة الأولى سُئلت كما سُئل البقية ممن جاؤوا بهم قبلي وبعدي، إن كان لنا بعض الأمانات عندهم، فأجبت بالنفي، أحضروا لي استمارة كان مدوناً عليها اسمي، وعبارة تقول بأنني أقر وأعترف بأنه لا أمانات لي لدى إدارة سجن تدمر العسكري، ثم طُلب إليّ أن أذيّل هذه الاستمارة بتوقيعي.

عند البوابة الخارجية استوقفونا للتفتيش، كما لو أننا نعبر الحدود، وكان التفتيش دقيقاً، أشبه ما يكون بذلك الذي استقبلنا به، طلب إلينا خلع الملابس باستثناء السروال الداخلي، بعد التدقيق أذن لنا ارتداءها، شئ واحد غاب عن المشهد هو أن أحداً لم يقم بضربنا، في الوقت الذي اقترب فيه أحد أفراد الشرطة العسكرية من أحد الشباب الواقفين بالقرب مني، وكانوا جميعاً أردنيين:

- بحظي هنت محظوظ أولا، هنت هلّق انولدت من جديد!!

سرت في النفوس التالفة بعض الراحة، غير أنها عادت وتراجعت حين قدموا لنا غطاء العين "الطماشات" كي يحجبوا عنا الرؤية، وذلك قبل أن نستقل الميكروباص، الذي سيُقلنا إلى جهة لم يعلنوا لنا عنها، لم يحدثنا أحد عما ينوون فعله معنا، ولم يفتهم إعادتنا إلى القيد الحديدي مثنى مثنى.

مع خيوط فجر اليوم الرابع من شهر أيار "مايو"، كانت المركبة تشق بنا الطريق على عجل مخلفة وراءها كهف الفجائع العسكري بتدمر، تلمس أحد أفراد الدورية المرافقة لنا يدي، قدّم لي قطعة من الخيار، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها الخيار ثانية بعد انقطاع أبو عوض عن إحضار الفاتورة واستيفاء الثمن الباهظ منذ ما يزيد عن عامين ونصف العام!

ما أن تجاوزنا تدمر بصحرائها وأتربتها، حتى راحت الشمس ترسل بعض خيوطها، عندها طُلب إلينا رفع الأغطية عن عيوننا، فكان أول من وقع عليه بصري أبو منهل معاون مدير السجن بفرع التحقيق العسكري في دمشق، وهل يمكن نسيانه؟! عرفته منذ ما يزيد على أربع سنوات، برؤيته استحضرت شريط المأساة بكمالها وتمامها!!

في الطريق راحت بعض اللافتات تنبئ بأن الغاية هي دمشق، وعاد أحد أفراد الدورية يسأل إن كان بيننا من يُحسن الغناء، فهذا يوم عيد لنا، مع أنني ازددت انفراجاً بعد شيء من الضيق، إلا أن مسألة طلب الغناء أعادت إلى ذهني تلك الليلة المشؤومة، التي ساقونا فيها كالقطيع إلى المجزرة، ليلة لا تُنسى، ليلة أن جاؤوا بنا إلى تدمر، ومع هذا غنّى البعض غناءً كان فيه بعض الفرح، وقام اثنين من أفراد السجن القضائي بتدمر - كما كانوا يسمونه- قاموا بتقديم بعض الهدايا من صنع أيديهم، أشكال مختلفة من التطريز والخرز، وانحلت عقدة الألسن، فقال أحدهم: بأنه قضى أحد عشر عاماً، ولعل آخراً ذكر بأنه قضى تسع سنوات، بدا أن أحداً منهم لم يذق طعم الإهانة يوماً، دل على ذلك ملابسهم النظيفة المكوية التي كانوا يرتدونها، وشعورهم الطويلة المرسلة المرجلة، وذقونهم الحليقة، إضافة إلى شواربهم المأخوذة على الدوزان والمقص!!

في الطريق استمعت لأول مرة منذ خمس سنوات لنشرة أخبار وافية، ومباشرة من المذياع من دون أن يمتد إليها مقص الرقيب، فتحذف منا ما يليق بنا سماعه وما لا يليق، وعلمت بأن طائرات الولايات المتحدة الأميركية قامت بمهاجمة الجماهيرية الليبية العظمى!! وعجبت للأقزام "الأميركان" كيف يقومون بتحدي العظماء!! كذلك علمت بأن الحرب العراقية الإيرانية لم تضع أوزارها بعد.

على مشارف دمشق علمنا بأن وجهتنا هي فرع التحقيق العسكري، فسألت الله أن يلطف بنا. ثانية ها أنا ذا في دمشق، انتابني شعور من يدخل طريق المتاهة في مدينة الألعاب، فالكل منشغل عن الكل، مع أنك تعتقد بأن الكل هنا لا يمكنه الاستغناء عن الكل، وكدت أهتف بالسلام على صبا بردى، لكنني اكتفيت بدمع أوشك أن يترقرق فأمسكته على هون!!

أفقت من خواطري، حين راحت المركبة تدلف بنا حدود المبنى الكبير الكئيب، تنبعث منه روائح الرعب والموت، ونهرنا أحد أفراد الدورية في غلظة:

- نزلوا الطماشات "عصبات العيون" على عيونكم!

غير أن تدخل أبو منهل نائب مدير السجن حال دون ذلك، هبطنا سلالم الدرج بحذر نحو القبو، ما إن انتهينا، حتى التهمنا الدهليز الممتد، ثم التفت رئيس الدورية بعد ذلك طالباً من بعض عناصره توزيعنا على حجرتين من حجر التحقيق!

وضع في كل حجرة أربعة، فقد كان العدد ثمانية بالتمام، فخليت بمن معي، مع أنني استفسرت عن أسمائهم، إلا أن مسافة الزمن المتقاربة التي جمعتني بهم لم تكن كافية لتخليد هذه الأسماء في الذاكرة، تجرأ أحدهم ليسأل في حذر شديد:

– ما عساها تكون الخطوة التالية؟

فأجبت في شيء من الطمأنينة:

– طبعاً سيفرجون عنا، هل عندكم في ذلكم أدنى شك؟!

سكتوا جميعاً، في الوقت الذي قام أحدهم بإخراج خمسة دنانير أردنية من جيبه، مدها لي قائلاً:

– هذه الدنانير من سامر صنوفه، يبلغك تحياته، ويهنئك بالخلاص والفرج. ثم تابع قائلاً:

– إن كتب الله لنا ولك الخلاص..!!

عاودتني أحزاني وأنا أمد يدي لاستلامها، وكدت أفترش الأسى لدرجة البكاء من جديد، كنت في غنىً عن تذكر أحد ولو في هذه الساعة، غير أن سامر كان مصراً على اقتحام هذه اللحظات، وألفيتني رهن هؤلاء الذين خلفتهم جميعاً في شخص سامر، كم فعلت بي دنانيره الخمسة تلك! لقد راحت تكبر الأسفار فيها وتتكاثر، حتى ما عاد باستطاعتي أن أقرأ الرقم، وفجأة بكيت، هكذا أخذني الحال. واستفقت على الباب يفتح، وأطل أحدهم بلباسه المدني، ثم نادى عليّ من دون الأربعة، ليقتادني إلى ما يسمونه صالون الحلاقة، هناك على غير العادة، أجلسوني على كرسي الحلاقة! ليبدي الحلاق اهتماماً زئداً، فيقوم بحلق ذقني في لطف متناهٍ، ويبقي لي على شاربي بعد أن خيّرني، ورغم كل حذره إلا أنه جرحني، وألفيتها نعمة في طي نقمة، فقد علمت لاحقاً بأنهم كانوا ينوون المضي بي إلى الأدوار العليا لمقابلة مدير الفرع، غير أن انتظارهم التئام الجرح، حال دون ذلك، مما ترتب عليه إعادتي إلى حيث كان الشباب في انتظاري.

قبيل العصر بقليل سألوني إن كنت أملك ملابس نظيفة، فأجبت بالنفي، طلبوا إليّ أن أصطحب أمتعتي لمرافقتهم ثانية من دون البقية، مضيت إلى أن أدخلوني إلى حجرة مجاورة، كان قد سبقني إليها لفيف من الأردنيين القادمين بهم من سجن المزة، وبعض الأفرع الأخرى، لم أتعرف إلى أي أحد منهم، ولم أتردد في سؤالهم حين خلا بنا المكان:

- إلى أين المسير يا خير الوجوه؟!

وفي صوت واحد، كما لو أنهم كانوا في انتظار السؤال أجابوا:

- إلى الأردن، إنه الخلاص، ألم يخبروك بذلك؟!

كمن يريد الزيادة، سألت ثانية:

- وما دليلكم؟!

علا صوتهم في نبرة واثقة:

- أكدوا لنا ذلك في المزة، قبل أن يأتوا بنا إلى هنا.

ساقونا بعد اكتمال العدد إلى حجرة الاستعلامات، ووجّه لي سؤال واحد:

- هل بقي لك شيء من الأمانات؟

ورحت أعدد كمن صاحبته لحظة ظفر:

- سيارة مرسيدس SEL 280 مع كامل أوراقها، جواز سفر، ساعة يد ماركة سايكو، بطاقة جامعية، ما يزيد على ألفي مارك أُخذت مني عند الحدود، بالإضافة إلى إجازة سياقه.

طاف السؤال بنا جميعاً، حين انتهوا عادوا بنا إلى الحجرة التي كنا فيها. عند أصيل ذلك اليوم الخالي حين مالت الشمس إلى الجزء الآخر من طبق السماء، دُعينا لمقابلة مدير الفرع، جلس خلف مكتبه الوثير، وعلى الجدار خلفه صورة معلقة للدكتاتور، كانت في المقابل لنا تماماً، وقفنا وقد شبكنا أيدينا وراء ظهورنا، ولعل أحدنا تركها مسبلة إلى جانبيه، ثم بدأ الرجل في استعراضنا واحداً تلو الآخر، راح بعدها يتلو علينا حديث المشفق الحاني المحب، حديث من ظنّ أن الأسى قد يُنسى، فيه لين من اجتهد في محاولة محو آثار الجريمة، فيه شيء من الاعتذار كما لو أنه اعتذار عن زلة جاءت عفو الخاطر عن غير قصد، وسأل سؤاله الأخير إن كان بقي لنا شيئاً من الأمانات، أعدت عليه سرد القائمة سالفة الذكر، فوعد ببذل أقصى الجهد لإعادة كل شيء، ولم ينسَ أن يسجل هذه المعلومات على ورقة بيضاء كانت ملقاة على المكتب أمامه.

عادت الجرأة لتجتاحني من جديد، ولأبدي رغبة جامحة في أمل أن يطلقوا سراح البقية الباقية من الأردنيين الذين ما زالوا رهن الاعتقال، فأعلمنا بأن كل شيء سيأتي في أوانه!!

قبل أن نغادر عدت فسألته عن السيارة ثانيةً!! فأخبرني بصعوبة تسليمها لي في الوقت الراهن، فهم يزمعون المضي بنا في وفد رسمي إلى الحدود، كي يقوموا بتسليمنا إلى سلطات بلادنا في الأردن، ورجانا أن نتحلى ببعض الصبر، ريثما تتم عودة دورية ذهبت إلى تدمر لجلب زميل لنا كانوا قد نسوه هناك حسب زعمه، وكَم هم المنسيين هناك!! هل لهم بعد الله من ذاكر؟!

عند الغروب عادت الدورية مصحوبة بالبائس، حلقوا له على عجل، قادونا إلى الطابق الأرضي، وحين كنا نستقل الميكروباص بوصول القادم الجديد، جاؤوا به على عجل فأركبوه معنا، فالتأم عددنا أحد عشر فرداً بالتمام، دق قلبي حين دارت محركات المركبات، تتقدمنا مركبة فيها مدير الفرع مع بعض معاونيه، ومن خلفنا مركبة عسكرية مسلحة تتبعنا، في الوقت الذي كان الباص يعج بالمسلحين في المقاعد الأمامية والخلفية.

حين راح الباص ينساب بنا في طرقات المدينة الكبيرة المزدانة بالأضوية اللاهية في كل متع الحياة، وقبل أن يتوارى مبنى فرع التحقيق العسكري تماماً عن الأنظار، لا أدري على وجه الدقة لماذا أدرت رأسي ملتفتاً، أهو شيء من الذكرى يعز على المرء أن ينساه؟ لا أعتقد جازماً بأنها من نوع الذكرى التي يحرص المرء على الاحتفاظ بها، كنت أحمل خليطاً من المشاعر التي يصعب فرزها، هل أنا سعيد؟ هل أنا حزين؟ هل أنا متفائل؟ هل أنا متشائم؟ أسئلة كثيرة، لم يكن بإمكاني أن أجيب عليها بنعم أو لا، كنت أحتاج إلى مزيد من الوقت كي أختبر قوى الممانعة في حصوني، وحين أستجمع كل أحداث هذه التجربة المريرة أدرك ما كان يعني أحد الصالحين فيما كان يقول: "إن من يأكل وهو يبكي ليس كمن يأكل وهو يضحك"، كنت على يقين أيضاً بأن يداً هي أقصر من يد، وأن لقمة لا بدَّ أن تكون أقصر من لقمة، وعلى كل الأحوال كنت أسأل الله السلامة واللطف فيما جرت به المقادير، ولئن كانت الحرية شيء ثمين لا يُباع ولا يُشترى، فلقد بقيت دوماً أردد مستيقناً بأن أثمن ما في الوجود وما هو فوق هو موازٍ للحرية، قبلها وبعدها بقليل، هو الأمن والأمان، وبعدهما رتب ما شئت أن ترتب في سلم الأولويات.

عادت صورة مالك "الجلاد"، فملأت ما بقي من مساحة بهجة ضيقة، أرادت أن تتسرب في لحظة غفلة إلى تلك النفس التي ما عادت تعرف للبهجة أي معنىً من المعاني، لقد جاءت

جلسته أمامي تماماً، كان غائر العينين، بوجه أسمر قد اجتمعت فيه كل جلافة الأرض، وطول قد اجتمعت فيه كل غلظة الجلد والجلاد، لم يتغير، هو هو كما رأيته لأول مرة، في يده السوط، يهوي به من علٍ باجتماع كل ما أوتي من قوة اليدن، ابتسم لي وهو يجتهد انتزاع عبارة من المجاملة، لم أستطع أن أجد لها أي ارتياح في نفسي:

– دنيا جديدة، الماضي مثل الوسخ، بيروح مع أول غسلة، وكل شئ بينتسى!!!

كدت أصرخ فيه بكل ما في داخلي من نيران أحقاد زرعوها، ورعوها كما تُزرع وتُرعى أشجار الزيتون في بلادنا قائلاً:

– "يا أبناء الكلاب، هل يمكن للأسى أن يُنسى!!"

قابلتنا عشرات الحواجز والدوريات، وأُجبرنا على التوقف لأكثر من مرة، وحين راح الظلام يملأ بطون الأودية والروابي من حولنا، كان الوقت قد جاوز الثامنة مساءً، وصلنا الحدود، تجاوزنا مبنى الجمارك، عند آخر نقطة للسلطات السورية توقّف هدير محركات المركبات، أصبحت نقطة الحدود الأردنية على مرمى حجر، أمتار تفصلنا عن الجندي الأردني، حارس الحدود الأسمر الواقف هناك.

ترجل مدير الفرع من السيارة، راح يطوي المسافة الفاصلة بين النقطتين السورية والأردنية، بعد جدال لم أتبين كنهه، وإن كنت أرى ما يدور، عاد الرجل خالي الوفاض بانتظار شيء ما بدا أنه سيأتي لاحقاً.

تجملنا بالصبر، كنت أمسك أنفاسي، وقد راحت تتسارع دقات قلبي ثانية، وأنا أردد:

– ربِّ سلم، ربِّ يسّر ولا تعسر!!

ورحت أتابع مكرراً كمن يدفع مكروهاً سيحل:

– أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق!!

فجأة أقبل ضابط أردني برتبة ملازم، توقف قليلاً مع مدير فرع التحقيق العسكري السوري المرافق لنا، ثم أرسل مالك ليسألنا إبراز جوازات سفرنا، قام من يملك جواز سفر بتقديمه، ومن كان يومها لا يملك قاموا بتدوين اسمه في قائمة خاصة. ثم أذن الملازم لبعض أفراد الدورية مرافقتنا داخل الباص إلى مبنى الجمارك الأردنية، شريطة أن يتخلوا عن أسلحتهم عند من يتخلف من أفراد الدورية.

مرة أخرى كنت ألتفت لألقي النظرة الأخيرة على الحدود مشفوعة هذه المرة بدمعة حرّى أخذتها بطرف منديلي خشية أن يراني أحد، كانت نظرة تشبه الوداع الأخير، وداعاً لا لقاء بعده، وتنفس الجمع الصعداء.

حين أُذن لنا، تدافعنا على عجل تاركين المركبة، كما لو كنا نخشى أن يغيروا رأيهم، فتغلق الأبواب على من لم يهبط فيعودوا به ثانية إلى الجحيم.

التهمنا مكتب الجمارك الأردنية على الحدود، أنهوا لنا الإجراءات على عجل، حين أطل مدير مخابرات منطقة الحدود الأردنية بالرمثا من بوابة مكتبه مبتسماً مهنئاً:

- حمداً لله على سلامتكم يا شباب!!

بهذه الإطلالة، لم يتمالك بعض الشباب أنفسهم، فراحوا يبكون فرحاً، كما لو أنهم لا يصدقون، وارتفع صوت أحدهم:

- أنحن في حلم أم حقيقة؟!

وأخذ آخر الحال فقال من خلال دموعه:

- يا لرائحة الوطن التي لا تثمن، ما أجمل أن تكون حراً آمناً في وطنك!!

التفتَ إليّ مدير المخابرات الأردني مستغرباً ما رآه من ثيابي الرثة سائلاً في دهشة:

- يبدو أنك لست واحداً من البقية، هل جاؤوا بك من تدمر؟

قلت في حسرة:

- لسان حالي يغنيك عن جوابي، أنا واحد من ثمانية جاؤوا بنا من تدمر، لا أرى منهم أحداً، يبدو أنهم أرسلوني كعينة!!

كنت أعتقد أن الأخير الذي أتموا به العدد هو من بؤساء تدمر، لكنني تفاجأت بأنهم أتوا به أيضاً من المزة، لهذا لم يكن بينهم لي شبيهاً في المأساة أو المظهر، وعاد الرجل ليسألني بشيء من المزاح:

- هل كانوا يحبسونك في قفص الدجاج!!

وأجبت جاداً، وإن كان يظنني أمزح:

- ليتهم رضوا أن يرتفعوا بنا إلى مستوى الدجاج!!

أوشك الليل أن ينتصف، وطلب السيد رئيس المخابرات إلى بعض عناصره البحث لنا عن مركبة تقلنا إلى بيوتنا، كان صاحب إحدى المراكب في الخارج من أصحاب محلات الصياغة عائداً من دمشق في طريقه إلى إربد يشتهر باسم الملكاوي، قد نبا إليه خبر إطلاق سراح أحد أقربائه، فبقي الرجل في الانتظار حتى انتهينا من إتمام الإجراءات، حين استقلينا المركبة راح يجرى بنا باتجاه مدينة إربد، تلك العروس التي درجت في طرقاتها غلاماً يافعاً ثم صبياً قد شبيت عن الطوق، تركتها مغترباً أبحث عن العلم وأهله، أكاد أن أخطو إلى عقدي الثاني، وها أنا اليوم أعود إليها وقد صرت إلى الثلاثين وزيادة! يمر بي سائق المركبة في طرقاتها، كل شيء قد تبدل وتغيّر، لا الدار هي الدار التي عهدي بها ولا الناس هم الناس الذين خلفتهم يوم رحيلي، وراح الرجل يتعهدني بلطف، يطلب إليّ أن أجمع شتات أفكاري، كي نعثر على من يدلنا إلى أهل دار كانت تقوم هنا أو هناك يوماً من الأيام، الناس كل الناس يغطون في نوم عميق، إلى مَن نتجه؟ ومَن نسأل؟

أعياني العثور على البيت، واستأذنت الرجل في أن أترجل بصحبة شاب يقطن أهله دير أبو سعيد، إحدى قرى محافظة إربد، أعلنت استعدادي استضافته حتى الصباح، وسأتدبر أنا الأمر، بعد إلحاح وافق مجزياً بالخير، رحنا نذرع الطريق ذهاباً وإياباً بانتظار أن يسوق الله لنا من يدلنا على الطريق، أو أن يبزغ الفجر عل فيه الفرج، واجتهدت التخمين، فطرقت باب بيتٍ قيد الإنشاء، يقوم في المكان الذي ظننت أن بيتنا كان يقوم فيه، ليطل عليّ من خلف الباب شاباً بالكاد أن أتعرف إليه تحت بصيص نور المصباح المدلى على قارعة الطريق، لم أعرفه، مع أنه ناداني باسمي، لأوجه له سؤالاً محدداً بعد أن أبديت اعتذاري الشديد لطرق الباب في هذا الوقت المتأخر:

- هل تستطيع أن تدلني مشكوراً على بيت أبي سليمان؟!

ويجيبني الشاب كث اللحية وقد راح يبكي بعد أن ضمني:

- ألم تتعرف إليّ؟!

قلت وقد أخذ الجهد مني كل مأخذ:

- لا تؤاخذني، إن أجبتك بالنفي!!

زاد بكاؤه وهو يضمني، كمن عثر على ضالته بعد طول انتظار:

- إني أنا أخوك، فلا تبتئس بما فعل الظالمون!

كنت قد تركته صغيراً لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره، لم يعرف الشعر طريقه إلى وجهه، أعود إليه اليوم وقد وقف بباب العقد الثاني من عمره، سألته عن أبي، فأخبرني أنه بخير، طلبت إليه ألا يوقظ أياً من أهل البيت، غير أن جلبة سرت في صحن الدار، فرجوته ألا يخبر أحداً، كي لا تأخذهم المفاجأة، وقلت أتوارى عن الأعين قليلاً، فإذا ما سألوا فقل:

- أحدهم بالباب يعلمني أن سليمان ربما يأتي الليلة أو في صباح الغد. وحين هممت بالانصراف سمعت صوت والدي يسأل من خلف الجدار:

- مَن هناك؟

رد أخي في صوت حاول أن يبدو فيه طبيعياً:

- شخص يزعم أن سليمان ما زال حياً يرزق، وقد يُطلق سراحه الليلة أو في الغد!!

كان الخبر مفاجئاً لأهل الدار جميعاً، كيف لا يكون كذلك وقد احتسبوني - كما علمت لاحقاً - عند الله، ولم يتمالك والدي نفسه حين دلف عليه الضيف برفقة أخي الحجرة فبكى، ثم راح يرجو الضيف المكث بالباب حتى يعود بي إليه!! وما هي إلا برهة من زمن حتى طرقت الباب ليفتح لي، لم يقوَ والدي على القيام، فانكببت عليه أقبل يديه، في الوقت الذي أطلقت إحدى شقيقاتي رنة زغاريد، راح البيت يضيق على من فيه، وراح الناس ينحدرون من كل حدب وصوب، انحدار سيل عارم من إحدى الهضاب، حتى كادت تدوسني الأقدام، كلهم بين باكٍ وسائل من خلف الجموع:

- أحقا هو؟ أما زال بين الإحياء؟

وردد البعض:

- سبحان من يحيي العظام وهي رميم!!

الملاحق

Freiheit für Abu El Khair

Seit dem WS 80/81 studiert an der Technischen Hochschule Darmstadt der Kommilitone Suleiman Abu El-Khair , geboren am 21.4.56 in Jordanien,das Fach Bauingenieurwesen.

Um seine finanzielle Situation aufzubessern überführte er im Mai einen PKW nach Syrien.Dabei wurde er an der syrisch-türkischen Grenze unter dem Verdacht der Mitgliedschaft in der in Syrien verbotenen "Moslemischen Bruderschaft" festgenommen!Nach den letzten Informationen befindet er sich in Damaskus im Gefängnis.Seit dem Tag seiner Festnahme,dem 18.5.81 liegen keine Informationen mehr vor.

Während seines bisherigen Studiums hat sich Suleiman Abu El-Khair engagiert für die Generalunion Arabischer Studenten (GUAS) eingesetzt und war auch ihr Mitglied.Diese Organisation steht im politischen Gegensatz zur Moslemischen Bruderschaft.Schon aus diesem Grund ist eine Mitgliedschaft von ihm in dieser Bruderschaft unwahrscheinlich.

Auch Kommilitonen,die ihn persönlich kennen halten dies für ausgeschlossen.

Wir fordern die sofortige Freilassung von Suleiman Abu El-Khair!

Wir bitten alle Kommilitonen sich mit dieser Forderung an die syrische Botschaft in Bonn zu wenden.

GENERALUNION ARABISCHER STUDENTEN

DARMSTADT

تناشدكم باطلاق سراح زميلنا سليمان أبو الخير

منذ أكثر من ستة أشهر والزميل سليمان أبو الخير الطالب في جامعة دارمشتات التكنولوجية / ألمانيا الغربية سنة ثالثة معتقل في سوريا بتهمة هو بعيد عنها ، أن جميع أصدقاء ومعارف الزميل أبو الخير يعرفونه انساناً اجتماعياً ومحبوباً من أغلب الناس ، مستعداً لمساعدة كل الناس ولا يحمل حقداً على أحد ، ذو قابلية أدبية نشرت له العديد من المجلات العربية العديد من انتاجه الأدبي كمجلة فلسطين الثورة ، كما ساهم طوال فترة تواجده في مدينة دارمشتات بفضح النظام العراقي الفاشي سواء بالندوات السياسية التي أقيمت بالعربية والألمانية أو بنقاشات مع اتباع هذا النظام في أروقة الجامعة فاضحاً الدور العدائي لهذا النظام على المقاومة الفلسطينية وحركة التحرر العربية .

نحن الطلبة العرب المتواجدون في دارمشتات لا نجد مبرراً لاعتقال طوال هذه الفترة الماضية ، في الوقت الذي وجه اتحادنا في دارمشتات العديد من الرسائل الى السفارة السورية في بون ، شارحاً فيها بعد الزميل سليمان أبو الخير بعداً كاملاً عن التهمة الموجهة اليه ، وفي نفس الوقت الذي وجهت فيه العديد من المنظمات العربية والالمانية رسائل الى السفارة السورية في بون تطالب بالكشف عن مصير زميلنا ولحد الآن لم تستلم أية منظمة جواباً على ذلك .

انه ليحز فينا كثيراً ، في الوقت الذي تتعرض فيه امتنا العربية لأقسى هجمة إمبريالية وصهيونية والتي تجلت بالموقف الخياني للنظام المصري نرى جميع هذه السلطات تعرض شخصاً كأبو الخير للاعتقال بل والمصير المجهول .

اننا في الوقت الذي نحمل المسؤولين عن اعتقال زميلنا سليمان أبو الخير والمماطلين عن اطلاق سراحه لحد الآن مسؤولية التلاعب بمصيره نناشدهم باطلاق سراحه فوراً .

الاتحاد العام للطلبة العرب

دارمشتات

31. Juli 1981 t
08151/168120
II A / II C 1

An die
Deutsche Botschaft
- Kulturabteilung -

D A M A S K U S

Sehr geehrte Herren,

an der Technischen Hochschule Darmstadt ist seit dem Wintersemes
1980/81

Herr	Suleiman ABU EL-KHAIR
geboren am	31.4.1956
in	Irbid
Staatsangehörigkeit	Jordanien

für den Studiengang Bauingenieurwesen immatrikuliert. Wie ich vor einigen Tagen von Kommilitonen von ihm hörte, soll Herr Abu El-Khair am 13. Mai 1981 an der syrisch-türkischen Grenze festgenom worden sein und sich seitdem in einem Gefängnis in Damaskus befi den. Er ist Palästinenser und soll unter der Beschuldigung festge halten werden, mit der sogenannten Moslemischen Bruderschaft Beziehungen gehabt zu haben. Seine Kommilitonen halten dies für absolut unwahrscheinlich.

Der tatsächliche Grund seiner Reise soll der gewesen sein, daß er aus der Bundesrepublik Deutschland mit einem Auto nach Syrien fahren wollte, um es dort zu verkaufen. Seine Kommilitonen gehen davon aus, daß er seine nicht sehr günstige finanzielle Situation dadurch verbessern wollte.

- 2 -

Ich wäre Ihnen zu großem Dank verbunden, wenn Sie der Angelegen
heit nachgehen und, soweit irgend möglich, Hilfestellung für di
Freilassung von Herrn Abu El-Khair leisten könnten.

Es wäre wünschenswert, daß er sein hier begonnenes Studium auch zu Ende bringen könnte.

Mit freundlichen Grüßen
Im Auftrag

(Seidel, Reg.ORat)

Durchschrift für das Auswärtige Amt beigefügt.

خطاب من ورقتين موجه من الناشط فى حقوق الإنسان السيد زايدل إلى السفارة الألمانية فى دمشق يناشدها المساعدة فى إطلاق سراح الطالب سليمان أبو الخير.

Zur Kenntnis

KATHOLISCHE
HOCHSCHUL-
GEMEINDE
DARMSTADT

Nieder-Ramstädter Straße 30
6100 Darmstadt
Tel.: 06151/24315

An den Herrn
Botschafter der arabischen
Republik Syrien

5300 Bonn

4.11.1981

Exzellenz!

An der Technischen Hochschule Darmstadt studiert seit dem Wintersemester 1980/81 Herr Suleiman Abu El-Khair. Er ist geboren am 21.4.1956 in Irbich/Jordanien.

Wie mir Kommilitonen berichten, soll Herr Abu El-Khair am 18. Mai 1981 an der syrisch-türkischen Grenze unter dem Verdacht, Mitglied der "Moslemischen Bruderschaft" zu sein, festgenommen worden sein. Seine Kommilitonen halten dies für völlig ausgeschlossen.

Sie geben weiter an, daß er mit einem Auto nach Syrien gefahren sein soll, um dies dort zu verkaufen. Es wäre aus meiner Kenntnis der Dinge nicht das erste Mal, daß ein ausländischer Student auf diese Weise seine finanzielle Situation verbessern will.

Da ich keinen Grund habe, an den Worten der Kommilitonen zu zweifeln – einige von ihnen verkehren regelmäßig in unserer Gemeinde – möchte ich Sie bitten, sich der Angelegenheit anzunehmen.

Ich wäre Ihnen sehr dankbar, wenn Sie bei den Behörden Ihres Landes zur Aufklärung evtl. Mißverständnisse und damit zur Freilassung von Herrn Abu El-Khair beitragen könnten.

Ich teile Ihnen dies in der Sorge um das berufliche Fortkommen von Herrn Abu El-Khair mit. Eine weitere Inhaftierung läßt ihn das Wintersemester 1981/82 versäumen.

Mit freundlichen Grüßen

Johannes Borgetto
Gemeindeassistent

Pfarrer der Studenten

PSK Frankfurt 40372-607
(Kath. Studentengemeinde Darmstadt)

خطاب آخر موجه من الناشط في حقوق الإنسان السيد بورقيتو إلى السفارة الألمانية في دمشق يناشدها المساعدة في إطلاق سراح الطالب سليمان أبو الخير.

Evang. Studentengemeinde
Darmstadt
6100 Darmstadt
[illegible]weg 15
Telefon 06151/44320

An den Herrn
Botschafter der arabischen
Republik [illegible]

53 BONN

4.12.[illegible]

[illegible]

[illegible]

Ich möchte Sie herzlich für einen Studenten bitten, der an der Technischen Hochschule Darmstadt seit Wintersemester 1980/81 eingeschrieben ist.
Es handelt sich um Suleiman ABU EL-KHAIR, geboren am [illegible].56 in [illegible]/[illegible].

Wie ich von seinen Kommilitonen, die ich persönlich aus [illegible] [illegible] erfahren habe, wurde Herr Abu [illegible] an der syrisch-türkischen Grenze unter dem Verdacht, Mitglied [illegible] "Moslemischen Bruderschaft" zu sein, festgenommen. [illegible] nach allen, wie wir Herrn Abu El-Khair kennen, vollkommen [illegible]

Nach den Berichten seiner studentischen Freunde ist Herr Abu El-Khair [illegible] mit einem Auto nach Syrien gefahren, um es dort zu verkaufen [illegible] wie manche andere [illegible] seine finanzielle Lage als Student [illegible]

Ich möchte Sie sehr herzlich bitten, sich für diesen Kommilitonen [illegible] und unsere Bitte auch an die damit befaßten Behörden Ihres Landes weiterzuleiten. Bitte, helfen Sie mit, eventuelle Mißverständnisse auszuräumen, die die Freilassung von Herrn Abu El-Khair verhindern.

Mit vorzüglicher Hochachtung

[illegible] Wolf [illegible]
Studentenpfarrer

خطاب موجه من الناشط فى حقوق الإنسان السيد الدكتور فولف أولروك إلى السفارة الألمانية فى دمشق يناشدها المساعدة فى إطلاق سراح الطالب سليمان أبو الخير.

Botschaft
der Bundesrepublik Deutschland
Ambassade
de la République Fédérale d'Allemagne

Damaskus, 4. Januar 1982
Arabische Republik Syrien
Tm/alr.
Postfach BP 2237
Fernsprecher: 71 66 7?
Telegrammanschrift: Diplogerma Damaskus

Az.: RK 511.02 (Abou El-Khair)
(bitte bei Antwort angeben)

Technische Hochschule Darmstadt
z.Hd. Herrn Reg. ORat
Seidel
Karolinenplatz 5

D 6100 Darmstadt

DER PRÄSIDENT
TECHNISCHE HOCHSCHULE DARMSTADT
Eing.: 12. JAN. 1982

Betr.: Nachforschungen nach S. Abu El-Khair

Bezug: Dort. Schreiben vom 31.07.81 - Az: II A / II C 1

Sehr geehrter Herr Seidel,

das syrische Aussenministerium teilte mit Note vom 12.12.81 lapidar mit, dass der jordanische Student Suleiman Abou El-Khair von den zuständigen Behörden aus Sicherheitsgründen arrestiert worden sei; die Untersuchung wäre noch nicht abgeschlossen.

Die Botschaft bedauert, keine positiven Massnahmen der Regierung mitteilen zu können.

Mit freundlichen Grüssen

Im Auftrag

رد السفارة الألمانية على كل الخطابات التى وردتها من ألمانيا، حيث الخارجية السورية أفادتها بأن سليمان أبو الخير معتقل لأسباب أمنية ولا زال يخضع للتحقيق!!!

Donnerstag, 26. November 1981 DARMSTÄDTER

TH-Student sitzt in Syrien ein

Jordanier an Grenze festgehalten – Undurchsichtige Gründe

(PB) Suleiman Abu El-Khair ist Jordanier. An der TH Darmstadt studiert er im dritten Semester das Fach Bauingenieurwesen. Mitte Mai hatte er sich mit einem Kommilitonen ins Auto gesetzt, um nach Hause, in seine Heimatstadt Irbid, zu fahren. An der syrisch-türkischen Grenze wurden die beiden TH-Studenten festgenommen und inhaftiert. Während El-Khair immer noch in Syrien einsitzt, ist sein Mitfahrer seit Wochen wieder in Freiheit und geht in Darmstadt dem Studium der Elektrotechnik nach.

Die Verhaftung des Jordaniers hat die TH Darmstadt auf den Plan gerufen. Die Abteilung für ausländische Studienangelegenheiten wandte sich an die deutsche Botschaft in Damaskus und bat um Hilfestellung. Doch die Diplomaten sehen nur wenig Chancen, den TH-Studenten frei zu bekommen. In einem Antwortschreiben der Botschaft heißt es, daß in solchen Fällen meist nichts zu machen sei.

Mit diesem lapidaren Hinweis wollen sich jedoch die irakischen Studenten an der TH Darmstadt nicht zufriedengeben. Gestern kündigten sie Initiativen für den jordanischen Kollegen an. Die Iraker richten ihre Appelle an das Auswärtige Amt in Bonn und an die jordanische Botschaft in der Bundeshauptstadt und an die Öffentlichkeit. „Wir haben Angst, daß er umgebracht wird." Über die Gründe, weshalb Suleiman Abu El-Khair verhaftet wurde, rätseln die Studenten. „Wir können nur vermuten, daß die syrische Regierung annimmt, er gehöre der islamischen Bruderschaft an." Doch das entbehre jeder Grundlage. Ein anderer Anhaltspunkt für die Verhaftung scheint zu sein, daß der Jordanier im Mai mit seinem Freund nach Hause fahren wollte, um seinen Wagen zu verkaufen. Er war in finanzielle Schwierigkeiten geraten.

Zeichen

Mit dem Anwachsen des Kraftverkehrs nimmt auch die Zahl der Verkehrszeichen zu – das klingt amtlich, aber ich meine es ganz unter uns, gewissermaßen. Ich rede nämlich nicht von Verkehrsschildern, sondern von Handzeichen. Ohne sie geht nichts mehr, in Kolonnen und verstopften Straßen, deswegen haben wir sie uns angewöhnt.

Die richtungsweisenden Handbewegungen etwa, begleitet von verständnisvollem Nicken oder einer angedeuteten Verbeugung, wie sie hin-

الخبر كما ورد فى صحيفة "دارمشتيتر اشو" يوم السادس والعشرين عـام ١٩٨١ تحـت عنوان اعتقال طالب من الجامعة دارمشتات الفنية في سوريا.

THD-Student in Syrien festgenommen

Suleiman Abu El-Khair, Student des Bauingenieurwesens an der TH Darmstadt, ist nach Aussagen von Studienfreunden am 18. Mai an der syrisch-türkischen Grenze von syrischen Beamten festgenommen worden. Seitdem soll er sich in einem Gefängnis in Damaskus

3

befinden. Dem THD-Studenten, einem Palästinenser mit jordanischer Staatsangehörigkeit, soll vorgeworfen werden, zur Moslemischen Bruderschaft Beziehungen gehabt zu haben, was seine Darmstädter Kommilitonen jedoch für ganz unwahrscheinlich halten. Abu El-Khair sei vielmehr mit einem Auto nach Syrien gefahren, um den Wagen dort zu verkaufen und dadurch seine nicht günstige finanzielle Lage aufzubessern. Die Abteilung für Studentenangelegenheiten der THD hat in einem Brief an die Deutsche Botschaft in Damaskus um Hilfestellung für die Freilassung des Studenten gebeten. Wie einer ersten Antwort der Botschaft zu entnehmen ist, hat sie sich mit einer Note an das Außenministerium gewandt und um Nachforschung gebeten. In dem Schreiben heißt es jedoch zugleich, daß die Botschaft in derartigen Fällen bislang in der Regel nichts erreichen konnte.

Veranstaltungen

Kolloquium über Strömungsmechanik - Am Donnerstag, dem 3.12., um 16.30 Uhr spricht im Seminarraum des FG Technische Strömungslehre (75/467), Petersenstr. 30, Dr. K. M. Reinicke (Hannover) über »Stimulation geringpermeabler Gaslagerstätten«.

Gastvortrag im FB Erziehungswissen-

وكما ورد في صحيفة جامعة "دارمشتات" تحت عنوان إلقاء القبض على أحد طلاب جامعة "دارمشتات" الفنية في سوريا.

وبعد:

لا يسعني وقد انتهيت من تلاوة حكايتي تلك إلا أن أعرج فأسوق ما وصلت إليه يدي من وثائق، أبين من خلالها همجية تلك العصابة التي أمسكت ولا زالت حتي كتابة هـذه الأسـطر بزمام الإجرام في دمشق، وذلك من خلال مجموعة من عتاة الطغاة الذين زكمـت فضـائحهم كل ما سطر لأهل الاختصاص في الكتب وما أنتنت به كل مواقع الشـبكة العنكبوتيـة، مـع اعتذاري لكل من اقتبست منهم لا سيما الكاتب السوري الحر الذي اجتهد مجزياً فـي تسـطير هذا الغم الذي عمّ البلاد وطم العباد على أمل أن يفصح لي يوماً عن اسمه كي يكون له عنـدنا ذكراً وشكراً، كما له عند الله ذكراً وأجراً، أملاً أن يجمعني الله به قريباً في ربوع الشام وقـد مضى بشار اللاحق بزين العابدين السابق، قد انفكت البلاد من قيودها، وانطلق الناس أحـراراً في فجاجها، وما ذلك على الله بعزيز، ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً..

من منجزات حكم الأسد(*)

بعض السجون والمعتقلات السورية التي ارتكب فيها النظام النصيري أبشع الجرائم:

أ. دمشق:

- سجن المزة العسكري: (تابع للشرطة العسكرية)، مؤلف من طبقتين، تضم الطبقة الأولى (٢٤) زنزانة، و(٦) مهاجع كبيرة، وتضم الطبقة الثانية (١٠) زنزانات انفرادية، و(٦) مهاجع كبيرة، و(٣) مهاجع صغيرة.

- سجن الشيخ حسن: (تابع للأمن السياسي)، فيه (١٨) زنزانة، في كل طابق تتصدره زنزانة جماعية، ومجموعة زنزانات منفردة.

- سجن كفرسوسة: (تابع للمخابرات العامة: أمن الدولة)، يتسع لأكثر من ثلاثة آلاف معتقل، وضم أكثر من (٢٥٠) زنزانة، و(١٠) مهاجع جماعية، وهو مجهز بأحدث وسائل التعذيب والتنصّت والمراقبة الإلكترونية.

- سجن القلعة: (تابع للأمن السياسي)، وهو قلعة رومانية قديمة، مهدد بالانهيار، حوّلت أبراجها إلى سجن للمعتقلين السياسيين، وجعل مسرحه القديم ساحة للإعدام.

- سجن الشرطة العسكرية.

- سجن القصّاع (تابع للمخابرات العامة: أمن الدولة)، مؤلف من قبو يضم (٤) غرف، و(١٠) زنزانات، وفوق القبو مبنى يضم (٢٢) زنزانة انفرادية.

- سجن الحلبوني (تابع للمخابرات العامة: أمن الدولة)، مؤلف من (١٠) زنزانات منفردة، و(٣) مهاجع جماعية، وقبو للتعذيب.

- سجن طريق دمشق الدولي (كان تابعاً لأمن سرايا الدفاع سابقاً)، مخصص لحالات التحقيق السريع وإعدام المعتقلين.

(*) من الشبكة العنكبوتية لكاتب سوري حر.

- مركز الشعبة السياسية في حي الشيخ محي الدين.
- سجن الطلياني مقابل المستشفى الإيطالي.
- سجن الروضة في حي الروضة.
- مركز شعبة فلسطين في حي المالكي.
- سجن العباسيين، شمال ساحة العباسيين.
- سجن مخابرات القوى الجوية.
- سجن المخابرات العسكرية، قرب الأركان العام.
- سجن قطنا، للنساء.
- سجن منطقة دوما.
- سجن منطقة النبك.
- سجن قوى البادية في الضمير.
- معتقل القابون (تابع للمخابرات العسكرية).
- معتقل الوحدات الخاصة (بمنطقة أبو رمانة - شارع فوزي الغزّي).
- معتقل الفرع الخارجي.
- سجن الضمير الكبير، وهو من أحدث السجون.

ب. حلب:

- سجن أمن الدولة المدني في منطقة المحافظة أمام قصر المحافظ.
- سجن أمن الدولة العسكري، طريق السريان قرب الجمارك.
- السجن المركزي، وهو سجن مدني على طريق السلمية.
- فرع المخابرات العسكرية، بقرب محطة بغداد.
- مدرسة المدفعية (الراموسة)، في منطقة الراموسة من ضواحي حلب.

ملف الخائن الطاغية حافظ الأسد(*)

ولد الطاغية حافظ الأسد ٦ أكتوبر ١٩٣٠ م وتوفي في ١٠ يونيو ٢٠٠٠ م، تولي رئاسة الجمهورية العربية السورية من ١٩٧١ إلى ٢٠٠٠ م.

تولى الطاغية حافظ الأسد حكم سوريا لما يقرب من ٣٠ سنة، حكم خلالها سوريا بأسلوب قمعي ودموي، ونحن الآن نتعرض لجزء يسير من التاريخ الأسود للهالك حافظ الأسد.

ومن العجيب أن الطاغية حافظ الأسد قد أعلن عن سقوط الجولان في يوم ١٠ حزيران عام ١٩٦٧ م، وفي نفس اليوم ١٠ حزيران من عام ٢٠٠٠م أعلن وفاة حافظ الأسد، لقد توفي في نفس اليوم الذي خان فيه الأمة حيث سلم الجولان للصهاينة بدون قتال.

وُلد حافظ الأسد في قرية القرداحة بمحافظة اللاذقية لأسرة فقيرة من الطائفة العلوية كانت تعمل في فلاحة الأرض. أتم تعليمه الأساسي في مدرسة قريته التي أنشأها الفرنسيون عندما أدخلوا التعليم إلى القرى النائية وكان أول من نال تعليماً رسمياً في عائلته ثم انتقل إلى مدينة اللاذقية حيث أتم تعليمه الثانوي ونال شهادة الفرع العلمي. لم يتمكن من دخول كلية الطب في الجامعة اليسوعية ببيروت كما كان يتمنى لتردي أوضاعه المادية والاجتماعية لذا التحق بالأكاديمية العسكرية في حمص عام ١٩٥٢ ومن ثم التحق بالكلية الجوية ليتخرج منها برتبة ملازم طيار عام ١٩٥٥م.

(*) المصدر السابق.

بعد سقوط نظام أديب الشيشكلي واغتيال العقيد عدنان المالكي انحسم الصراع الدائر بين الحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب البعث العربي الاشتراكي لصالح البعثيين مما سمح بزيادة نشاطهم وحصولهم على امتيازات استفاد منها حافظ الأسد حيث اختير للذهاب إلى مصر للتدرب على قيادة الطائرات النفاثة.

وقع حزب البعث مع عدد من الأحزاب في سوريا على وثيقة الانفصال في عام ١٩٦١، على إثر ذلك سُجن حافظ الأسد مع عدد من رفاقه في اللجنة العسكرية في مصر لمدة ٤٤ يوماً أُطلق سراحهم بعد ذلك وأُعيدوا إلى سوريا في إطار عملية تبادل مع ضباط مصريين كانوا قد احتُجزوا في سوريا. أُبعد حافظ الأسد بعد عودته عن الجيش لموقفه الرافض للانفصال وأُحيل إلى الخدمة المدنية في إحدى الوزارات لكنه ظل مرتبطاً باللجنة العسكرية التي استطاعات في عام ١٩٦٢ بالتعاون مع بعض الضباط البعثيين والناصريين الانقلاب على حكومة الانفصال.

استولى حرب البعث في انقلاب ٨ مارس ١٩٦٣ على السلطة فيما عُرف في أدبيات الحزب بثورة الثامن من آذار. أعيد بعدها الرائد حافظ الأسد إلى الحدمة من قبل صديقه ورفيقه في اللجنة العسكرية مدير إدارة شؤون الضباط آنذاك المقدم صلاح جديد، رُقي بعدها في عام ١٩٦٤ إلى رتبة لواء دفعة واحدة وعُيّن قائداً للقوى الجوية والدفاع الجوي. وبدأت اللجنة العسكرية بتعزيز نفوذها وكانت مهمة حافظ الأسد آنذاك توسيع شبكة مؤيدي وأنصار الحزب في القوات المسلحة.

قامت اللجنة العسكرية في ٢٣ فبراير ١٩٦٦ بقيادة صلاح جديد ومشاركة حافظ الأسد بالانقلاب على القيادة القومية لحزب البعث من بينهم مؤسس الحزب ميشيل عفلق ورئيس الجمهورية أمين الحافظ وتخلى بعدها صلاح جديد عن رتبته العسكرية ليتفرغ للسيطرة على حزب البعث وحكم سوريا بينما تولى حافظ الأسد وزارة الدفاع.

بدأت الخلافات بالظهور بين حافظ الأسد وصلاح جديد بعد الهزيمة في حرب ١٩٦٧ حيث انتقد أداء وزارة الدفاع خلال الحرب وخاصة القرار بسحب الجيش وإعلان سقوط القنيطرة بيد إسرائيل قبل أن يحدث ذلك فعلياً، بالإضافة إلى تأخر غير مفهوم لسلاح الجو السوري في دعم نظيره الأردني مما أدى لتحميل حافظ الأسد مسؤولية الهزيمة. تفاقمت هذه

الخلافات مع توجه صلاح جديد نحو خوض حرب طويلة مع إسرائيل بينما عـارض حـافظ الأسد ذلك لإدراكه أن الجيش لم يكن مؤهلاً لمثل هذه الحرب خاصة بعد موجة التسـريحات بعد انقلاب ٨ مارس ١٩٦٣ والتي طالت الضباط السنة من غير البعثيين. وصلت الخلافـات أوجها خلال أحداث أيلول الأسود في الأردن عام ١٩٧٠ حيث أرسل صلاح جديـد الجـيش السوري لدعم الفلسطينيين، لكن وزير الدفاع وقائد القوى الجوية حافظ الأسد امتنع عن تقـديم التغطية الجوية للجيش وتسبب في إفشال مهمته، على إثر ذلك قام صلاح جديد بعقد اجتمـاع للقيادة القطرية لحزب البعث والتي قررت بالإجماع إقالة حـافظ الأسـد ورئـيس الأركـان مصطفى طلاس من منصبيهما. لكن حافظ الأسد لم ينصعْ للقرار وتمكن بمساعدة من القطـع الموالية له في الجيش من الانقلاب في ١٦ نوفمبر ١٩٧٠ فيما يعرف بالحركة التصـحيحية على صلاح جديد ورئيس الجمهورية نور الدين الأتاسي وسجنهما مع العديد من معارضيه.

تولى حافظ الأسد منصب رئاسة مجلس الوزراء ووزارة الدفاع في ٢١ نـوفمبر ١٩٧٠ ثم ما لبث أن حصل على صلاحيات رئيس الجمهورية في ٢٢ فبراير ١٩٧١ ليثبت فـي ١٢ مارس ١٩٧١ كرئيس للجمهورية العربية السورية لمدة سبعة سنوات بعـد إجـراء اسـتفتاء شعبي ليكون بذلك أول رئيس في التاريخ السوري ينتمي إلى الطائفة العلوية. وبعـدها أُعيـد انتخابه في استفتاءات متتابعة أعوام ١٩٧٨ و١٩٨٥ و١٩٩٢ و١٩٩٩ وفي كـل مـرة كـان يحصل على نسبة أصوات تقارب الـ١٠٠%!!

ملف سقوط الجولان الأول

يشير إدوارد شيهان في كتابه كيسنجر والإسرائيليين والعرب إلى واقعة مهمة جداً تلقي ضوءاً كاشفاً على وضع النظام والأسد وارتباطاته.

يقول شيهان في كتابه وهو مرافق كيسنجر في مكوكياته:

"إن المخابرات الصهيونية كانت تتعمد عند عودة كيسنجر من دمشق إلى القدس أن تدهشه باطلاعها على ما دار بينه وبين حافظ الأسد في دمشق كما تطلعه على مضمون الرسائل المتبادلة بين الأسد وبين الملوك والرؤساء العرب الآخرين"

فإذا علمنا أن أغلب لقاءات كيسنجر مع الأسد كانت مغلقة، عرفنا جواب اللغز القائم في كلام شيهان!

وهذه شهادة أحد أركان نظام سورية الذي كان للأسد فيه الكلمة الأولى فهو وزير الدفاع وقائد الطيران والمتحكم الأول في القرار آنذاك يقول سامي الجندي في كتابه كسرة خبز، وسامي الجندي هذا كان وزيراً للإعلام وعضو القيادة القطرية ومن مؤسسي حزب السلطة وهو الذي اعترف أنه أرسل سفيراً إلى باريس في مهمة سلمية:

"لم أخفِ أبداً أن النظام في سورية يعد لهزيمة وليس لاسترداد فلسطين نعم.. نعم لم تكن هناك أية بادرة للنصر، ولا أعني أنه كان يعد لهزيمة نفسه وإنما لهزيمة العرب الآخرين، كي يبقى الثوري الوحيد سيد المناخ الثوري العربي (من كتاب سامي الجندي كسرة خبز)".

ثم يتطرق الجندي إلى سبب اختياره للمهمة في باريس فيقول:

"اختارني ماخوس وزير الخارجية السوري لهذه المهمة وهو لم يعدم "الأشخاص ولا الوسيلة للاتصال بإسرائيل، ثارت أقاويل في باريس نفسها عن أمين منظمة الحزب التابعة لدمشق، وأنا (وهنا بيت القصيد) متأكد من اتصالات جرت عن طريق أكثر من دولة ثالثة وفي أكثر من عاصمة (اتصال مع إسرائيل)، ولست بحاجة بعد ذلك للقول إن إعلان سقوط القنيطرة قبل أن يحصل السقوط أمر يحار فيه كل تعليل يُبنى على حسن النية إن تداعي

الأفكار البسيطة يربط بين عدم وقف إطلاق النار والحدود سليمة والإلحاح بل الاستغاثة لوقفه بعد أن توغل الجيش الإسرائيلي في الجولان، إشارة هنا إلى أن اليهود عرضوا وقف النار قبل توغلهم فرفض العرض" ونتابع أقوال السيد سامي الجندي بهذا الصدد فهي مهمة كونها صادرة عن إنسان مسؤول ومهم في النظام الذي سلم الجولان.

"وعندما نتتبع فصول معركة الجولان نجد أن العسكريين الذين قاوموا اليهود فعلوا ذلك دون أوامر أما الذين صدرت إليهم الأوامر فقد انسحبوا بناء على خطة"

تُرى ما هي الخطة..؟ ونتابع.. "فوجئت لما رأيت على شاشة التلفزيون في باريس مندوب سورية في الأمم المتحدة جورج طعمة يعلن سقوط القنيطرة (وذلك من خلال البلاغ ٦٦ الصادر عن وزير الدفاع حافظ الأسد) الذي أعلن وصول قوات إسرائيل إلى مشارف دمشق بينما المندوب الإسرائيلي في الأمم المتحدة يؤكد أن شيئاً من كل ذلك لم يحصل".

فلماذا يصدر الأسد البلاغ المشؤوم قبل وصول القوات الإسرائيلية إلى القنيطرة بيومين؟

ولماذا يطلب الانسحاب الكيفي من الجيش؟

ولماذا يقول اللواء أحمد سويداني قائد الجيش السوري عندما سئل عن هذا البلاغ: "إنني كمسؤول عن الجيش لم أستشر في البلاغ الذي أعلن السقوط كغيري، لقد سمعته من الإذاعة..؟!"

إن في طيات هذا الكلام كله الإجابة الشافية عن كنه خطة الانسحاب من دون قتال.

وهذه شهادة إبراهيم ماخوس وزير الخارجية السورية آنذاك:

ماخوس وأمام عدد كبير من المسئولين العرب رداً على قول أحد هؤلاء المسؤولين: "إنها لفاجعة كبيرة ونحمد الله أن إحدى العواصم لم تمس". قال: "وهل في ذلك غرابة لو حصل؟! إن الغريب في الأمر أن العواصم لم تسقط، وإننا من جهتنا كنا عاملين حسابنا على أن دمشق ستسقط".

ويتساءل المرء.. كيف يصدق هذا الكلام، والأسد يقول في أحد تصريحاته، قبل بدء المعركة، ونقلته (الثورة السورية ٢٠/٥/٦٧): "أننا أخذنا بعين الإعتبار تدخل الأسطول الأمريكي السادس.. إن معرفتي لإمكانياتنا يجعلني أؤكد أن أية عملية يقوم بها العدو هي مغامرة فاشلة".

إن هذا الكلام لا ينسجم إلا إذا رتبنا كل ما قرأناه آنفاً جنباً إلى جنب فنفهم منه نحن وغيرنا أن صاحب القرار في سورية آنذاك (والأسد على رأس ذلك القرار) كانت له ارتباطاته المسبقة التي جعلته يحرض على المعركة قبل وقوعها ثم ليتلكأ في دخولها، ثم ليصدر البلاغ ٦٦ بسقوط القنيطرة والانسحاب الكيفي تنفيذاً لارتباطاته المتفق عليها.. والمرتبة تماماً بحيث تبدأ بعد ذلك عملية العد التنازلي في العلاقة مع الكيان الصهيوني لتصل الأمور في النهاية إلى ما هي عليه الآن.. مدريد وأخواتها.

رواية سعد جمعة رئيس وزراء الأردن آنذاك في كتابه المؤامرة ومعركة المصير صفحة ٤٥ يقول: "اتصل سفير دولة كبرى في دمشق في الخامس من حزيران بمسؤول حزبي كبير ودعاه إلى منزله لأمر هام في الحال ونقل له في اللقاء أنه تلقى برقية عاجلة من حكومته تؤكد قضاء الطيران الإسرائيلي على سلاح الجو المصري، وأن المعركة بين العرب وإسرائيل قد اتضحت نتائجها وأن كل مقاومة ستورث خسائر فادحة وأن إسرائيل لا تنوي مهاجمة النظام السوري بعد أن يستتب لها تأديب جمال عبد الناصر، وبانتهاء الزعيم المصري تفتح الآفاق العربية أمام الثورية البعثية وأن إسرائيل بلد اشتراكي يعطف على التجربة الاشتراكية البعثية وخاصة العلوية إذ يمكنها أن تتعايش وتتفاعل معها لمصلحة الكادحين في البلدين، واتصل الوسيط بقيادات البعث والعلويين وأعلم السفير الوسيط بتجاوب كافة القيادات مع هذا التطلع".

رواية دريد مفتي الوزير المفوض في مدريد

جاء إلى سعد جمعة بمكتبه في لندن وعرّفه على نفسه قائلاً: قرأت كتابك المؤامرة ومعركة المصير عن جريمة تسليم مرتفعات الجولان المنيعة دون قتال والتي اقترفها جديد – أسد – ماخوس، وأحب أن أزيدك بياناً فقال: "يوم كنت وزيراً مفوضاً لسورية في مدريد استدعاني وزير خارجية إسبانيا لمقابلته صباح ١٩٦٧/٧/٢٨ وأعلمني ووجهه يطفح سروراً أنّ مساعيه الطيبة أثمرت لدى أصدقائه الأمريكان بناء على تكليف السيد ماخوس البعثي الطائفي، ثم سلّمني مذكرة تتضمن ما يلي: تهدي وزارة الخارجية الإسبانية تحياتها إلى السفارة السورية عبر وسيطها، وتعلمها أنها نقلت رغبة الخارجية السورية إلى الجهات الأمريكية المختصة بأنها ترغب بالمحافظة على الحالة الناجمة عن حرب حزيران ١٩٦٧ وأنه ينقل رأي الأمريكان بأن ذلك ممكن إذا حافظت سورية على هدوء المنطقة وسمحت لسكان الجولان بالهجرة من موطنهم والاستيطان في بقية أجزاء الوطن السوري وتعهدت بعدم القيام بنشاطات تخريبية من جهتها تعكر الوضع الراهن" (عن مجتمع الكراهية لسعد جمعة صفحة ١٣٠). ثم تبعوا دريد مفتي إلى لبنان وقتلوه لأنه أذاع هذا السر ولم يرضَ الخيانة، ودريد ضابط بعثي سني من أريحا السورية، نعم لقد رضيت القيادة البعثية الطائفية أن تسلم الجولان الحصين المتحكم في الأراضي المحتلة وتهجير أهله لعدة أسباب:

١ – لا قيمة لجزء من الأرض لقاء حفاظهم على كرسي الحكم.

٢ – لأن الجيش معظمه من الطائفة وهم حريصون على أرواحهم أن تزهق في الحرب.

٣ – إن معظم الضباط السنيين المؤهلين فنياً قد سُرحوا لأنهم ليسوا علويين لذا كان لا بد من الاستجابة لطلب إسرائيل فسلمها الجولان لقاء البقاء على الكرسي.

قال لي إبراهيم ماخوس وزير الخارجية العلوي ليس مهماً أن يحتل العدو دمشق أو حتى حمص وحلب فهذه أرض يمكن تعويضها وإعادتها أما إذا قُضي على حزب البعث (الذي تتستر خلفه الطائفة) فكيف يمكن تعويضه؟!

تعويضه وهو أمل الامة العربية، وقد جعلوا من الخيانة ذكاءً، ومـن الخـذلان نصـراً، ويستغرب سامي الجندي البعثي القيادي اختيار ماخوس له لمفاوضة أبا إيبان وزير خارجيـة إسرائيل في فرنسا قبل حرب حزيران ثم يقول لعله يريد توريطي ليضمن سكوتي.

إعلان سقوط الجولان قبل ٤٨ ساعة من إخلائها وفق الاتفاق العلوي - الإسرائيلي:

في يوم السبت العاشر من حزيران سنة ١٩٦٧ أعلن وزير الدفاع السوري حـافظ أسـد الساعة ٩.٣٠ البلاغ العسكري رقم ٦٦ وهذا نصه:

"إن القوات الإسرائيلية استولت على القنيطرة بعد قتال عنيف دار منذ الصباح الباكر في منطقة القنيطرة ضمن ظروف غير متكافئة وكان طيران العدو يغطي سماء المعركة بإمكانات لا تملكها غير دولة كبرى، وقد قذف العدو في المعركة بأعداد كبيرة من الـدبابات واسـتولى على مدينة القنيطرة على الرغم من صمود جنودنا البواسل، إن الجـيش لا يـزال يخـوض معركة قاسية للدفاع عن كل شبر من أرض الوطن، كما أن وحدات لم تشترك في القتال بعد ستأخذ مراكزها في المعركة".

وفي اليوم نفسه الساعة ١٢.٠٥ ظهراً أصدر وزير الدفاع الأسد البلاغ التالي: "إن قتـالاً عنيفاً لا يزال يدور داخل مدينة القنيطرة وعلى مشارفها. وإن القوات السورية ما زالت حتـى الآن تقاتل داخل المدينة وعلى مشارفها جنباً إلى جنب مع قوات الجيش الشعبي بكل ضـراوة وصمود حيث لم يتمكن العدو من السيطرة الكاملة على مدينة القنيطرة". وهذا يناقض الـبلاغ السابق ذلك لكي يخدع الناس بأن المقاومة لا زالت مستمرة وأنه لم يسلمها بموجـب اتفـاق. علماً أن كل ما أذيع من قتال في كل البلاغات لا أساس له من الصـحة لأنهـا سُـلمت دون إطلاق رصاصة واحدة وإن كل من خالف قرار الانسحاب وقاوم حوكم على مخالفته الأوامر

وفي يوم الأحد ١١ حزيران ١٩٦٧ أصدر وزير الدفاع السوري حافظ أسد بلاغاً جـاء فيه: "خلال المعارك القاسية التي جرت بين قواتنا الباسلة وقوات الاستعمار الثلاثـي حـاول العدو اختراق خطوط دفاعنا أكثر من مرة بكل ما يملك من أسلحة وطيران متفـوق وكانـت قواتنا تصد تلك الهجمات المتكررة وتقصف مواقع العدو منزلة به الدمار ممـا يؤكـد بشـكل قاطع أن دول العدوان الثلاثي تساهم في المعركة وليس إسرائيل فقط وهم الآن يتمركزون في خط الدفاع الثاني الذي يبعد عن القنيطرة ٤٠- ٥٥ كم (يعني على أبـواب دمشـق)". (عـن

سقوط الجولان صفحة ١٧٠) يقول الدكتور سامي الجندي أحد قادة البعث في كتابه كسرة خبز صفحة ١٧: "لست بحاجة إلى القول بأن سقوط القنيطرة قبل أن يحصل أمر يحار منه كل تعليل مبني على حسن النية. فوجئت لما رأيت على شاشة التلفزيون مندوب سورية في الأمم المتحدة يعلن سقوط القنيطرة وأن قوات إسرائيل وصلت إلى مشارف دمشق والمندوب الإسرائيلي يؤكد أن شيئاً من ذلك لم يحصل، واعترف أمامي الدكتور ماخوس وزير الخارجية العلوي أن قضية سقوط القنيطرة كانت خطة مدبرة لكي يكسب تأييد الأمم المتحدة".

يقول الدكتور عبد الرحمن الأكتع وزير الصحة السوري آنذاك: "كنت في جولة تفقدية في الجبهة وفي مدينة القنيطرة بالذات عند إذاعة بيان سقوط القنيطرة وظننت أن خطأ قد حدث فاتصلت بوزير الدفاع حافظ أسد وأخبرته أن القنيطرة لم تسقط ولم يقترب منها جندي واحد من العدو وأنا أتحدث من القنيطرة، وذُهشت حقاً حين راح وزير الدفاع يشتمني شتائم مقذعة ويهددني إن تحدثت بمثلها وتدخلت فيما لا يعنيني. فاعتذرت منه وعلمت أنها مؤامرة وعدت إلى دمشق في اليوم الثاني وقدمت استقالتي".

رواية الملك حسين: "عقدت سورية مع مصر معاهدة دفاع مشترك قبل الحرب بأيام وحذت الأردن حذوها وبموجب هذه المعاهدة أصبح الفريق المصري عبد المنعم رياض قائداً للجبهة الأردنية السورية والفريق محمد فوزي رئيساً لأركان القيادة الموحدة. وانطلاقاً من هذه المهمة طلب عبد المنعم رياض من سوريا إمداد الأردن ببعض الألوية لأن سورية تستطيع حماية جبهتها بثلث قواتها"، يقول الملك حسين: "في تلك الليلة ٤ حزيران استخدمنا خطوط المواصلات العسكرية في طلب الإمدادات من السوريين ولكنهم لزموا الصمت ومنذ الساعة التاسعة اتصلت قيادة العمليات بالسوريين فكان جوابهم أنهم بوغتوا بالأحداث وقمنا بطلبات متكررة لالتحاق طائرات الجيش السوري بطائرات الأردن فطلبوا إمهالهم ساعة فساعة وفي الساعة الحادية عشرة أقلعت الطائرات العراقية من قواعدها لتنضم إلى سلاحنا الجوي وتساهم بالمهمة المشتركة، ويمكنني أن أوضح أن تأخر الطيران السوري في التدخل فوّت علينا فرصة ذهبية كان يمكن أن ننتهزها لقلب الموقف لصالح العرب ولاستطعنا اعتراض القاذفات المعادية وهي في طريق عودتها إلى قواعدها بعد قصف القواعد المصرية وقد فرغت خزاناتها من الوقود وفقدت ذخيرتها، وكان بإمكاننا مفاجأتها حتى وهي جاثمة في مطاراتها تملأ خزاناتها استعداداً لشن هجمات جديدة فلولا تأخر الطيران السوري لتبدلت نتائج المعركة وخط سيرها".

وفي الإنترنت يقول صائب بارودي وهو بعثي قومي عن حرب ١٩٦٧: "دخلت سوريا المعركة ووصلت قواتها صفد والحولة وتمركزت قوات منها بقيادة الضابط نورس طه تحت المرتفعات المطلة على بحيرة طبرية حتى مساء اليوم السابع وعبد الناصر يتصل بعبد الكريم الجندي ويقول له: أنا لا أثق بالآخرين (يعني الأسد وجديد) بوقف إطلاق النار، اللعبة كبيرة وخطيرة، ومصر غير قادرة على التحرك، وصلاح جديد يرفض. واتصل الجنرال الروسي بوزير الدفاع حافظ أسد وجديد وقال: إذا كنتم مصرين على الحرب فلا بد أن تضعوا خطة وأنتم حتى الساعة لم تفعلوا شيئاً.. ووُضعت خطة بمعرفة السوفييت، وفي صباح اليوم التاسع موعد التحرك حسب خطة السوفييت أمر وزير الدفاع حافظ أسد ترك الأسلحة والتراجع الكيفي من الجبهة وترك ترسانة حربية كبيرة لليهود مع عشرات القرى في جبل الشيخ".

رواية صحيفة النهار اللبنانية: لم تبدأ سوريا الحرب إلا صباح ١٩٦٧/٦/٦ رغم أن سورية هي سبب الحرب وهي الداعية إليها، واقتصرت الهجمات السورية على مستعمرات (وان – تل دان – كرياشوف) ولم تخرج القوات الإسرائيلية للرد بسبب انشغالها بالقتال على باقي الجبهات، وقالت الصحيفة: لم يدخل الإسرائيليين المعارك الفعلية ضد سورية إلا يوم الخميس ٦/٨ حيث تفرغوا لجبهتها، وأضافت الصحيفة أن الإسرائيليون شنوا هجوماً شاملاً على المواقع السورية وبدل أن تقصف المدافع السورية القوات الإسرائيلية المهاجمة تابعت ضرب المستعمرات المذكورة.

أما خسائر إسرائيل فكانت ١١٥ قتيلاً و٣٠٦ جرحى.

معظم الذين تأخروا في تنفيذ أمر الانسحاب وتدمير الأسلحة أُحيلوا إلى محاكم ميدانية بدل منحهم مكافآت وشهادات تقدير منهم: آمر تل عزيزيات الذي استغرب صدور هذا الأمر فما كان منه إلا أن ثبت أمام الطيران الإسرائيلي، ثم بعد توقف الطيران صعدت إلى التل دبابات إسرائيلية فحاول تفجير الألغام كهربائياً فوجد الكهرباء مفصولة، فضرب أول دبابة وآخر دبابة ثم دمّر الباقي.

وحرّك قواته دون أن يفجرها فوصل القنيطرة مركز قيادة الجيش في الصباح فلم يجد أحداً من القيادة لقد هربوا جميعاً بأمر انسحاب رسمي ولم يجد يهودياً واحداً في القنيطرة ولما

وصل دمشق استُدعي وحوكم ميدانيا فكسرت رتبته وسُرح جزاء إخلاصه ومقاومته وعدم تدمير الأسلحة والدبابات التي لديه!

حزيران والجولان.. بعد ثلاثة وثلاثين عاماً

"أسئلة واضحة .. وإجابات مبهمة"

١ – لماذا سلّمت الجولان بلا حرب عام ١٩٦٧، حين كان حافظ أسد وزيراً للدفاع، وأذاع بيان سقوط القنيطرة قبل سقوطها بساعات طويلة؟

٢ – ما الثمن الذي دفعه نظام الحكم ووزير الدفاع أحد أركانه آنذاك للشعب السوري إزاء تسليم بقعة شاسعة من أرض الوطن بلا حرب؟

٣ – ما الثمن الذي قُبض من اليهود لقاء الجولان؟ ومن قبضه؟ وكيف؟

٤ – ما معنى أن يُرفَّع وزير دفاع سبّب لبلاده أشنع هزيمة عرفتها في تاريخها إلى رئيس للبلاد، ويستمر في حكمها ثلاثين عاماً؟

٥ – لماذا قامت حرب تشرين عام ١٩٧٣ بمبادرة وتخطيط من الرئيس الذي سلّم الجولان وزيراً، والتي قامت لاستردادها وتحريرها، ثم لم يحرر شبراً منها، بل ضاعت عشرات القرى الجديدة؟

٦ – لماذا يُطلب تحرير الجولان، أو إعادة تسليمها إلى الجهة التي سلّمتها من قبلُ بلا حرب؟ لماذا يُطلب ذلك بالكلام، مجرّد الكلام، إذا كان معلوماً لدى عقلاء البشر جميعاً، أن القوّة التي احتلت الأرض بمدافع الدبابات، لن تعيدها خوفاً من "مدافع الكلام"؟

٧ – لماذا انسحب اليهود من جنوب لبنان؟ ولماذا هم مطمئنون في الجولان، لا تفزعهم طلقة من بندقية صيد؟

٨ – إذا كان النظام الذي استولى على مقاليد البلاد بالدبابات، قد سلّم الجولان بلا حرب – وهي ليست إرثاً له من أبيه– فماذا يسلّم الوريث، إذا أخذ البلاد ومَن عليها وما عليها من بشر ودواب وشجر.. وراثة عن أبيه؟ ومن يملك أن يقول له "لا" أو أن يسأله "لماذا".. إذا سلّم البلاد كلها، هديّة سائغة، أو عربون مودّة، لجيرانه اليهود..؟

هذه الأسئلة ليست من عندنا، فمنها ما طرحته وسائل الإعلام المختلفة، ومنها ما طرحه أبناء شعب سورية جميعاً، ومنها ما طرحه الواقع نفسه.

وها هي ذي الإجابات تتوالى، ليس فيها شيء من عندنا. منها ما عرضه النظام نفسه، عبر حناجر قادته ورموزه، أو عبر أجهزة إعلامه، ومنها ما عرضته وسائل الإعلام المتنوعة خارج سورية، ومنها ما لقّنه النظام لأبواقه البشريّة "المؤدلجة والمرتزقة" فردّدته عن ظهر قلب كما حفظته ومنها ما جاء في معرض الجدّ، ومنها ما جاء في معرض السخرية.

الجواب الاول:

١- إن الجولان لم تسلّم إلى العدوّ تسليماً عام ١٩٦٧، بل أخذها العدوّ الغادر عنوة، وإن إذاعة بيان سقوط القنيطرة قبل سقوطها، إنما جاءت إنذاراً للجيش السوري المتمركز بينها وبين حدود فلسطين المحتلّة ليهرب وينجو بنفسه، فلا تستولي عليه قوات اليهود مع أرضه وسلاحه، اللذين أخذهما اليهود غنيمة حرب! فليس مناسباً عرفاً ولا ذوقاً، أن تؤخذ القوّة الضاربة لجيش سورية كله، غنيمة حرب!

٢- أما الثمن الذي دفعه وزير الدفاع - الذي سلّم الجولان - فهو وعده بأن يخدم شعبه وبلاده طوال عمره، رئيساً للجمهورية، يحمل أعباء الأمّة كلها على كاهله، دون أن يكلّ أو يملّ، وكلما انتهت فترة حكم من فتراته، طلب تجديد البيعة له بكميّة من التسعات الانتخابيّة، تزيد على الكميّة التي سبقتها، حتى ملّ الناس هذه اللعبة، فأوعز إلى أبواقه أن ينادوا في الأسواق: "إلى الأبد.. إلى الأبد.. يا حارس البلد.." ولقد برّ السيّد "الوزير السابق" بوعده، وخدم بلاده وشعبه "ثلاثين حجّة" رئيساً مطلقاً، يحمل أعباء القرارات العليا والدنيا، وتبعاتها جميعاً، دون أي شريك، فأيّة عقوبة أضخم من هذه وأجلّ؟!

٣- أما الثمن الذي قبضه شعب سورية لقاء الجولان، فهو النصر المؤزر الذي حقّقه ضدّ دويلة إسرائيل! فلقد كان اليهود "يحلمون" بإسقاط نظام الحكم - بمن فيه بالطبع وزير الدفاع - وحين انتهت الحرب بضياع الجولان فقط، ولم تهتز شعرة في وجه الزمرة الحاكمة "الوطنية المخلصة" عُدّ هذا نصراً مؤزراً لسورية وشعبها! "فالأرض إذا ضاعت يمكن استردادها، أما الحكم الثوري إذا سقط فإن ذلك يعدّ كارثة لسورية، وللأمّة العربية بأسرها..!"

فأبشر يا شعب سورية الحبيب، فأمامك انتصارات قادمة، - وفقاً لهذا المنطق الرائع - لم تحلم بمثلها أمّة عبر التاريخ الإنساني كله! وأي نصر بديع تحققه، أجلّ من أن ترى دبابات اليهود تتجول في دير الزور والحسكة والقامشلي، وفي الوقت نفسه ترى حكامك الأشاوس، على صهوات كراسيّهم، راصين باسمين، مطمئنين..!

وبالمناسبة إن أبواق النظام السوري، خارج سورية، يعرفون هذا المنطق تماماً، وسمعوه من قادة الحكم ورموزه في حينه، وهو مسجّل في سائر مكاتب الأرشيف في أصقاع الدنيا، ومع ذلك يُصرّون على الاحتطاب في حبله، لأسباب لا يعرفها سواهم، وسوى النظام الذي يمجدونه، وربّما.. ربّما بعض الدوائر المغلقة، في أوروبا، أو أمريكا.. أو.. تلّ أبيب! نقول: ربّما.. ولسنا متأكدين.

أما كيف قبض شعب سورية ثمن الجولان.. هدايا عينيّة.. أم نقوداً سائلة؟ بالليرة السورية.. أم بالدولار.. أم بالشيكل؟! فهذا علمه عند شعب سورية نفسه، الذي ضُيّعت بلاده، وطُلب منه أن يضيّع عقله، حين يصدّق أن الهزيمة البشعة، هي نصر مؤزر..!

٤- أما ترفيع وزير الدفاع، إلى رئيسَ دولة، فقد وردت الإجابة عليه آنفاً.. فمن يحقّق النصر، لا بّد له من تكريم! وإلاّ لمَ صُنعت الأوسمة، والنياشين، والرتب، والكراسي؟!

٥- أما حرب تشرين "التحريريّة" فقد قامت لا "لتحرير الأرض"، بل "لتحرير الإرادة"! وها قد حُررت الإرادة - إرادة شعب سورية بأسره - كأروع ما يكون التحرير

سجناء تدمر، والمزة، والحلبوني، والشيخ حسن.. الذين أمضوا ربع قرن في السجون الرطبة الزنازين المعتمة.. أحرار، في أن يسعلوا كما يشاؤون، وأن يبصقوا من دمائهم بسبب السلّ الرئوي ما يشاؤون، وأن يموتوا بأي مرض يحبون، وأن يلعقوا أراضي السجون، أو جدرانها، من الظمأ أو الجوع، كما يرغبون، وأيّة حرية أروع من هذه وأجمل، وأبدع..!

ومشردو سورية، رجالاً ونساءً.. شيوخاً وأطفالاً.. مرضى وعجزة.. أحرار كذلك في التشرد حيث يشاؤون.. في مدينة أو صحراء، أو قرية أو غابة.

أحرار في أن يطرقوا سائر أبواب الأوطان في الدنيا، إلاّ أبواب وطنهم..!

فهل ثمّة حريّة في الدنيا، أجلّ من هذه وأسمى!

فانعم يا شعب سورية بحرية الإرادة هذه كما تريد، حتى تأتيك ليلة، أو ساعة، تعرف فيها الفرق بين إرادات الأحرار، وإرادات العبيد!

وأما ضياع القرى الجديدة من الجولان في حرب تشرين "التحريريّة" فما جاء عن عبث. بل هو مقصود ومدروس، وذلك لتحميل العدوّ الغاصب "مسؤوليات جديدة" عن الأرض التي احتلها حديثاً، والشعب الذي شرّده أو استعبده حديثاً، لكي يكون الوزر في رقبته أعظم، والحمل على كاهله أضخم، ومسؤوليته أمام الرأي العام العالمي "أفظع"!

٦- أما الإصرار على تحرير الجولان "بالكلام.. مجرد الكلام" فالسبب فيه واضح، ذلك أن (الكلام) هو العملة الوحيدة المتداولة في (السلام).. و"خيار سورية الاستراتيجي" هو السلام.

وإذا كان عدونا ما يزال يحتل بلادنا بالدبابات، فهو حرّ بفهمه للسلام، وفهمه هذا خاطئ بالطبع، لكنا لا نملك أن نتحكم بإفهام العباد ونكيفها كما نشاء، حسبنا نحن فهمنا الخاص للسلام.

إن المدافع والدبابات والطائرات والصواريخ كلها "عملات" يتداولها الناس في الحروب، ونحن مالنا وما للحروب! لقد جربنا الحروب فما أجدت سوى الويلات والدمار! فلنصرّ على السلام.

ويا سلام.. ما أروع السلام!

٧- أما لماذا إنسحبت إسرائيل من جنوب لبنان، وهي مطمئنة في الجولان..! فالسبب واضح بسيط كذلك..! إذ "ماذا تأخذ الريح من البلاط" كما يقول المثل الدارج. المقاومة اللبنانية ومن ورائهم عاصمة لا تخاف سقوط الحكم فيها لو ضربها اليهود – كما فعلوا باستمرار –، ولو احتلوها – كما فعلوا حقيقة في بداية الثمانينات من هذا القرن – فإذا سقطت الحكومة، قدّم شعب لبنان حكومة سواها، أما إذا سقطت الحكومة في دمشق، فمن أين يأتي شعب سورية، بمثلها، أو حتى بسواها؟!

وهذه النقطة الأخيرة، هي بيت القصيد، وهي مربط الفرس، وهي العقدة التي وقف عندها النجار.

وعند هذه النقطة، تثرثر أبواق النظام، في سورية وخارجها:

سورية.. لا تنجر إلى حرب غير مستعدّة لها.

سورية.. هي التي تحدّد المكان والزمان الذي تحارب اليهود فيه.

القيادة السورية.. أذكى من أن تعطي عدوّها ذريعة لضربها.

ولم يقل أي بوق:

إن شعب سورية عشرة أمثال شعب لبنان.

وإن جيش سورية يعدل عشرين مثلاً أو حتى خمسين مثلاً من جيش لبنان، عدّة وعدداً.

وإن أراضي سورية وثرواتها تعدل بمئات الأضعاف، أراضي لبنان وثرواته.

وإنّ الشعب الذي قاوم اليهود بحرب عصابات في جنوب لبنان، يوجد شعب مقاوم ومضحٍّ مثله في جنوب سورية، وشمالها وشرقها وغربها، ويمكن أن يحرر الجولان بنصف الزمن الذي تحرر فيه جنوب لبنان، وربما بربع التكاليف، أو حتى عشرها، بالنظر إلى موازين القوى المتصارعة على الأرض في حرب عصابات حدوديّة.

لم يُطرح سؤال واحد من هذه الأسئلة، من أيّ بوق داخلي أو خارجي، لماذا؟ لأن السؤال الذي يمحق هذه الأسئلة جميعاً، هو: وماذا يحصل إذا ضرب اليهود دمشق، وأسقطوا نظام الحكم فيها..؟!

هنا بالطبع يدرك شهرزاد الصباح، فتسكت عن الكلام المباح.

٨- أما ماذا يسلّم الوريث - أو يُهدي - من بلادنا، إذا ورِثنا مع بلادنا عن أبيه، الذي سلم قطعة من البلاد دون أن يرثها، فالجواب عليه، قدمه أحمد عرابي لشعب مصر ذات يوم، ولشعوب الأرض جميعاً:

"لقد خلقنا الله أحراراً، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً"

أما نحن فنقول: كلا والله.. حتى يدخل الخلف المرشح للحكم معركة تنافس حقيقي مع أبناء شعبه المؤهلين. فإن فاز، فبها ونعمت، وإن فرض نفسه، كما فعل "أب له من قبل"، فالأيام دول، أما نحن فلن نقبل بسحق إرادتنا، وتزييف وعينا، في الوقت نفسه.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ملف سقوط الجولان الثاني(*)

كان حافظ الأسد وزيراً للدفاع عندما وقعت خيانة سقوط القنيطرة واحتلال إسرائيل للجولان التي كان يطلق عليها خط ماجينو بسبب صعوبة اجتياحها من قبل الجيش المعادي، كما كان المسؤول الأول عن الجيش وعن الحرب لأن الحكم كان قد استقر للثلاثي العلوي: صلاح جديد، وحافظ أسد، وإبراهيم ماخوس، بعد معارك دامية مع الناصريين، ثم مع القيادة القومية (ميشيل عفلق، صلاح البيطار، منيف الرزاز)، ثم مع ذراري أهل السنة من البعثيين، ثم مع الدروز (سليم حاطوم، حمد عبيد، فهد الشاعر).

وإذا كان صلاح جديد قد هيمن على القيادة القطرية لحزب البعث، فلقد كان الجيش من نصيب حافظ أسد وهو المتحكم الوحيد فيه لدرجة أنه ما كان يسمح للجنة العسكرية من القيادة القطرية بتفقد وحدات الجيش والإشراف على شؤون التنظيم الحزبي فيه.

وبعد وقوع الكارثة قررت قيادة الحزب في اجتماعها عزل حافظ الأسد، وطلبوا منه أن يستقيل وكان من بين المتحمسين لمحاكمته عناصر من القيادة التي تضعه الآن في صفوف الآلهة.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. غير أن صلاح جديد تراجع عن موقفه في اللحظات الأخيرة زاعماً أنه لا يجوز تحميل الأسد وحده مسؤولية ما حدث، وذلك لأن المسؤولية مشتركة، وما كان جديد يتوقع بأن هذا الضابط الذي كان يصفه بأنه خجول ومتردد سيبطش به في يوم من الأيام.

كان لا بد من هذه المقدمة ونحن نقدم لقرائنا بعض الحقائق عن هذه الهزيمة النكراء ودور أسد وطائفته فيها، ولنستعرض فيما يلي بعض تصريحاتهم التي سبقت الكارثة.

النظام يقرع طبول الحرب:

أدلى اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع السوري بتصريح لصحيفة الثورة السورية الرسمية

(*) من الشبكة العنكبوتية لكاتب سوري حر.

قال فيه:

"إنه لا بد على الأقل من اتخاذ حد أدنى من الإجراءات الكفيلة بتنفيذ ضربة تأديبية لإسرائيل تردها إلى صوابها، إن مثل هذه الإجراءات ستجعل إسرائيل تركع ذليلة مدحورة وتعيش جواً من الرعب والخوف يمنعها من أن تفكر ثانية في العدوان.

إن الوقت قد حان لخوض معركة تحرير فلسطين، وإن القوات السورية المسلحة أصبحت جاهزة ومستعدة ليس فقط لرد العدوان الإسرائيلي، وإنما للمبادرة لعملية التحرير بالذات ونسف الوجود الصهيوني من الوطن العربي.

إننا أخذنا بعين الاعتبار تدخل الأسطول الأمريكي السادس.. إن معرفتي لإمكانياتنا تجعلني أؤكد أن أية عملية يقوم بها العدو هي مغامرة فاشلة. وهناك إجماع في الجيش السوري الذي طال استعداده ويده على الزناد، على المطالبة بالتعجيل في المعركة، ونحن الآن في انتظار إشارة من القيادة السياسية".

وفي تصريحه لصحيفة الثورة السورية ١٩٦٧/٥/٢٠ أضاف حافظ الأسد قائلاً:

"إن سلاح الطيران السوري تطور تطوراً كبيراً بعد ثورة ٢٣ شباط ١٩٦٦ من حيث الكمية والنوع والتدريب، وأصبحت لديه زيادة كبيرة في عدد الطائرات، وهي من أحدث الطائرات في العالم وأفضلها تسلحاً، كما ازداد عدد الطيارين وارتفع مستوى التدريب".

وفي اجتماع طارئ لاتحاد المحامين العرب، عُقد في دمشق، ألقى يوسف زعين رئيس الحكومة السورية كلمة في جلسة الافتتاح قال فيها:

"إن انحناء إسرائيل أمام الرد العربي الحاسم الآن يجب أن لا يفسر بأنه انتصار نهائي عليها، فهو ليس إلا بداية الطريق لتحرير فلسطين، وتدمير إسرائيل، وإن الظروف اليوم هي أفضل من أي وقت مضى لخوض معركة المصير العربي". وقال: "إن الشعوب العربية ستحاسب كل من يتخاذل عن الواجب".

وقال: "إن المسيرة إلى فلسطين، هي المسيرة إلى إسقاط الرجعية العربية والاستعمار والصهيونية إلى الأبد".

وفي ١٩٦٧/٥/٢٣ أدلى العقيد أحمد المير قائد الجبهة السورية بالتصريح التالي:

"إن الجبهة أصبحت معبأة بشكل لم يسبق له مثيل من قبل".

وقال:

"إن العرب لم يهزموا في معركة ١٩٤٨ على أيدي الإسرائيليين، بل من قبل حكامنا الخونة، وهذه المرة لن نسمح لهم أن يفعلوا ذلك".

وكان وزير الخارجية السورية الدكتور إبراهيم ماخوس من أكثر المسؤولين البعثيين ثرثرة، فبعد عودته من القاهرة أدلى بتصريح إلى وكالة الأنباء العربية السورية جاء فيه:

"إن زيارتي للقاهرة كانت لوضع اللمسات الأخيرة على الوضع السياسي العربي والدولي". وقال: "إن مخططات الرجعية والاستعمار والصحف الصفراء التي دأبت على التشكيك بلقاء القوى التقدمية قد دُحرت. وإن سحب قوات الطوارئ بالشكل الذي تم به يبرهن على أن لا شيء يقف في طريق الثورة، وإن تشكيك الرجعية حول وجود هذه القوات قد رد إلى نحرها".

فضح ادعاءاتهم:

١- زعم حافظ الأسد في تصريحه ١٩٦٧/٥/٢٠ أن عدد الطيارين المسرحين من الجيش لا يتجاوز أصابع اليد، ومن المعلوم أن عملية التسريحات كانت تتم حسب بيانات ونشرات تصدرها القيادة كل بضعة أيام أو أشهر، وكان آخر فوج من المسرحين في الشهر الخامس من عام ١٩٦٧ أي قبل الحرب بشهر واحد، وبلغ مجموع الضباط الذين سُرحوا من الجيش أكثر من ألفي ضابط، وهذا العدد كاف لشلّ قدرات جيش دولة كبرى، وليس دولة صغرى كسورية.

وكل ضابط أو صف ضابط يعلم كذب ادعاء حافظ أسد، فسلاح الطيران بالذات سُرح معظم ضباطه، ممن كانوا يتمتعون بكفاءات عالية، وأنفقت عليهم الأمة أموالاً طائلة، وكان تسريحهم يعني إبعاد سلاح الجو عن أية معركة.

٢- قال "أسد": "إن سلاح الجو تطوّر تطوراً كبيراً بعد ثورة ٢٣ شباط ١٩٦٦ من حيث الكمية والنوع والتدريب وزيادة عدد الطيارين".

وقوله هذا يدل على استهتاره وقلة حيائه، فالفترة الزمنية التي زعم فيها أن سلاح الطيران تطور تطوراً كبيراً هي ما بين ١٩٦٦/٢/٢٣ و١٩٦٧/٦/٥ فهل يكون معقولاً أن تكون سنة وثلاثة أشهر كافية لتطوير سلاح الطيران؟!

إن هذه الفترة الزمنية غير كافية لتخريج دورة واحدة، ولو تم تخريج هذه الدورة حسب الطريقة البعثية الطائفية، فلن يكون أفرادها قادرين على خوض معركة مصيرية مع سلاح الجو الإسرائيلي فور تخرجهم، فهناك دورات وخبرات بعد التخريج، والأنكى من هذا كله أن وزير الدفاع حافظ الأسد الذي يزعم أن سلاح الجو السوري تطور تطوراً كبيراً خلال سنة وثلاثة أشهر هو ضابط طيار ويعرف أهمية هذا السلاح واستحالة ما زعمه خلال الزمن الذي حدده.

وللقارئ الكريم أن يقارن بين تصريح الأسد الآنف الذكر، وتصريح الجنرال "هود" قائد سلاح الجو الإسرائيلي:

وجه الصحفيون إلى قائد سلاح الجو الإسرائيلي السؤال التالي:

كيف استطاعت إسرائيل تحقيق مثل هذا النصر الحاسم بهذه السرعة الفائقة؟!

الجواب: "لقد قضينا ست عشرة سنة نستعد ونخطط لهذه الجولة، وحققنا جهدنا في ثمانين دقيقة! لقد عشنا خطتنا، نمنا معها، أفقنا عليها، تمثلناها، هضمناها، وبالتدريج أدخلنا عليها الإصلاحات المتتالية حتى قاربت الكمال".

وإذن فطيلة ست عشرة سنة وسلاح الجو الإسرائيلي يتدرب لاحتلال الجولان والضفة الغربية وسيناء وتدمير المطارات العربية، ويزعم حافظ الأسد أنه صنع المعجزات خلال سنة وثلاثة أشهر!!

٣- كان البعثيون الطائفيون من حكام سورية يتحدثون - من خلال بياناتهم وتصريحاتهم - باسم الأمة العربية، ويرون أنهم يمثلون إرادة الشعوب العربية، ولا أدري متى أعطتهم الشعوب العربية حق تمثيلها، وكيف تم هذا الاستفتاء؟!

ولنتحدث عن سورية التي ابتلاها الله بهم، أما مصر مثلاً فليس لهم وجود فيها:

- فالإسلاميون على مختلف هيئاتهم وجمعياتهم كانوا بين سجين وطريد.

- والناصريون كل الناصريين كانوا يلملمون جراحهم بعد مذبحة تموز ١٩٦٣ وما تلاها من نكبات ومصائب لحقت بهم.

- والرجعيون كما يدّعون كحزبي الشعب والوطني، والانفصاليين والمستقلين انتهى دورهم منذ الثامن من آذار ١٩٦٣، ومعظمهم تم عزله مدنياً.

- ذبح الفلسطينيين واللبنانيين في تل الزعتر عام ١٩٧٦م على يدي الطاغية حافظ الأسد.

هذه حلقة من حلقات خيانات الطاغية الهالك الطائفي حافظ الأسد، من ذبح الفلسطينيين واللبنانيين في تل الزعتر عام ١٩٧٦م.

لما بدأت الحرب الأهلية في لبنان في ١٣/٤/١٩٧٥م واستطاعت القوات الفلسطينية بالتعاون مع القوات الوطنية اللبنانية دحر الكتائبيين وحلفائهم من الموارنة، وألحقوا بهم شر هزيمة، وأطبقت القوات الفلسطينية وجيش لبنان العربي على معظم لبنان، دخلت القوات السورية وقوامها ثلاثون ألف جندي لبنان في ٥/٦/١٩٧٦م وخاضت معارك طاحنة مع القوات المشتركة.

واقتحم البعث السوري لبنان؛ لكي يبقي على امتيازات الموارنة التي حرمت مسلمي لبنان من حقوقهم المشروعة في قمة السلطة، وفي مناصب الجيش والتمثيل النيابي وغير ذلك.

اقتحم البعث السوري لبنان؛ لكي يضرب الوجود الفلسطيني، ويؤدي المهمة التي عجز عنها فرنجية والجميّل وشمعون واليهود.

وبعد تدخل النظام السوري بساعات أعلن رئيس وزراء العدو اليهودي إسحاق رابين عن ارتياحه العميق لخطوة النظام السوري، وقال: "إن إسرائيل لا تجد سبباً يدعوها لمنع البعث السوري من التوغل في لبنان، فهذا الجيش يهاجم الفلسطينيين، وتدخلنا عندئذ سيكون بمثابة تقديم المساعدة للفلسطينيين، ويجب علينا ألا نزعج القوات السورية أثناء قتلها للفلسطينيين، فهي تقوم بمهمة لا تخفى نتائجها الحقة بالنسبة لنا".

أعلن الاتحاد السوفيتي وفرنسا عن ترحيبهما بالتدخل السوري في لبنان، كما أن الأنظمة العربية الحانقة أيّدت التدخل السوري بسكوتها عن النظام السوري، وهو يضرب مسلمي لبنان والمقاومة الفلسطينية.

وخاضت القوات السورية معارك طاحنة مع القوات المشتركة، حتى بلغ عدد القتلى منذ بدء الحرب حتى يوليو ١٩٧٦م خمسون ألف قتيل.

وقد كان هناك تنسيق بين قوات الكتائب وحلفائها وبين الجيش الطائفي والقوات الإسرائيلية بمباركة وزير الدفاع اليهودي بيريز.

ويقال أن ياسير عرفات صرّح: بأن شارون العرب (أي حافظ الأسد) قد حاصرنا من البر، وشارون اليهود قد حاصرنا من البحر.

بدأ حصار القوات المارونية لتل الزعتر في أواخر حزيران، وسقط المخيم يوم ١٤/٨/١٩٧٨م بعد حصار دام أكثر من شهر ونصف، وبعد منع رجال منظمة الصليب الأحمر من دخول المخيم.

انطلق الصليبيون الموارنة داخل المخيم كالوحوش الكاسرة، وراحوا يذبحون الأطفال والشيوخ، ويبقرون بطون الحوامل، ويهتكون أعراض الحرائر، وظهرت صورهم على شاشة التلفاز في معظم بلدان العالم، وهم يشربون كؤوس الخمر احتفالاً بالنصر على الفلسطينيين المسلمين، وكانوا يعلقون صلبانهم في أعناقهم.

وتحت عنوان "أحداث لبنان" نشرت جريدة المجتمع الكويتية في عددها رقم (٣٠٨) مقالاً يكشف حجم المؤامرة على الفلسطينيين المسلمين التي نفذها رجال الكتائب والعلويين السوريين تحت سمع وبصر الحكام والشعوب العربية وجامعة الدول العربية: "قام الكتائبيون وحلفاؤهم بخطف مائة طفل وامرأة من تل الزعتر وأعدموهم بطريقة بربرية، إذ أطلقت عليهم نيران الرشاشات عشوائياً بعد تجميعهم قرب مناطق تل الزعتر، وفي جسر الباشا هتكت علوج الروم أعراض المسلمات، وفعلوا أشنع من ذلك في مذبحة الكرنتينا، حيث هدموا البيوت وأبادوا الأطفال، وسلبوا الأموال واعتدوا على حرائر المسلمات، وما نقله القادمون من بيروت أن الأوغاد كانوا إذا اعتدوا على كرامة الأبكار من الفتيات، تركوهن يعدن إلى أهلهن عاريات كيوم ولدتهن أمهاتهن".

فماذا فعلت الأنظمة العربية بعد هذه المذبحة الرهيبة؟

عقدت مؤتمر قمة عربية، وتم الاتفاق على إيجاد ما يسمى بالردع العربي في لبنان، وكان في حقيقتها غطاء للوجود العلوي، فالقوات السورية الكبيرة استمرت في احتلال وقهر أهل السنة في لبنان، وأضاف العرب إليها بضع مئات من غير السوريين، وقد تم انسحابهم من لبنان بعد وقت قصير.

وثمة شيء أكثر غرابة من ذلك، لقد تعهدت الأنظمة العربية بمساعدات ضخمة تقدمها لسورية الطائفية، كما تعهدت الأنظمة العربية بتغطية نفقات القوات السورية العاملة في لبنان.

أليست هذه مكافأة لنظام الأسد على جرائمه التي ارتكبها ضد المسلمين؟

حقاً إنها مأساة.. طلب الفلسطينيون المحاصرون في لبنان فتوى من علماء المسلمين تبيح

لهم اكل جثث الموتى حتى لا يموتوا جوعاً!!

ولدي من زمنٍ يسكنني..

وأنا من زمن أسكنه..

والآن تكفنه عيني..

فدعوني آكل من ابني..

كي أنقذ عمري..

ماذا آكل من ابني؟! من أين سأبدأ؟

لن أقرب أبداً من عينيه..

عيناه الحد الفاصل.. بين زمان يعرفني.. وزمان آخر ينكرني..

لن أقرب أبداً من قدميه..

قدماه نهاية ترحالي.. في وطن عشت أطارده.. وزمان عاش يطاردني..

ماذا آكل من ابني؟!

يا زمن العار.. تبيع الأرض، تبيع العرض.. وتسجد جهراً للدولار..

لن آكل شيئاً من ابني يا زمن العار..

سأظل أقاوم هذا العفن.. لآخر نبض في عمري..

سأموت الآن.. لينبت مليون وليد.. وسط الأكفان على قبري..

وسأرسم في كل صباح.. وطناً مذبوحاً في صدري..

الطاغية رفعت الأسد(*)

الشقيق الأصغر للرئيس الهالك حافظ الأسد وعم الرئيس السوري بشار الأسد

يتميز رفعت الأسد ببعض الصفات منها: كونه من أوائل الذين سلكوا طريق النهب والسلب من ثروة الشعب السوري، بعد شقيقه حافظ، ومنها وصوله إلى أرقام قياسية في هذا السلب والنهب، لم يسبقه سوى أخيه حافظ أيضاً.

رفعت قبل الثامن من آذار ١٩٦٣م:

أبوه علي سليمان الوحش، وقد حصل جده على هذا اللقب من حلبة المصارعة، عندما صرع المصارع التركي الذي كان لا يقهر، ولم يكن أهل القرداحة يعرفون له لقباً، كانوا يعرفونه سليمان (فقط)، ثم حصل على لقب الوحش، أما علي سليمان الوحش، فقد تعلّم وكان مشتركاً في جريدة تصله بالبريد إلى القرداحة، خلال الحرب العالمية الثانية، وكانت في بيته خريطة للعالم، يتابع عليها أنباء الحرب العالمية الثانية، ولم نتمكن معرفة المكان الذي تعلم فيه علي سليمان الوحش، وقد ورث علي عن أبيه سليمان القوة الجسدية، وهذه القوة مع التعلم ساعداه على رفع مكانته الاجتماعية في القرداحة، ليلتحق بقبيلة الكلبية، إحدى قبائل العلويين الأربع، كما أنه صار من وجهاء القرداحة، وممن يسعى إليه الناس في حل الخصومات، وعندها اجتمع وجهاء القرداحة وقالوا له أنت: علي سليمان الأسد، وليس الوحش.

ولد رفعت علي سليمان الأسد عام ١٩٣٧، وهو آخر أولاد أبيه، وأمه. ويكبره جميل بأربع سنوات، فهو مواليد ١٩٣٣، أما حافظ فهو مواليد ١٩٣٠م، وكان له عشرة من الإخوة

(*) من الشبكة العنكبوتية لكاتب سوري حر.

والأخوات، حُرم الثمانية الأول منهم من التعليم، لعدم وجود مدرسة في القرداحة يومهـــا، ثـــم أصرّ أبوه على أن يتعلم الثلاثة الباقون، وفي الثلاثينات أدخل الفرنسيون التعليم، وفتحت فـــي القرداحة مدرسة ابتدائية، وتمكن علي سليمان من إدخال أولاده فيها.

في عام ١٩٤٩م انتقلت عائلة علي سليمان الأسد كلها من القرداحة إلى اللاذقية لمدة سنة من أجل الإشراف على أصغر أبنائها رفعت، الذي كان سـيبدأ دراسـته الثانويـة - يعنـي الإعدادية والثانوية- في ذلك العام، فاستأجروا غرفة في أحد المساكن حيث راحـوا يراقبـون النشاط السياسي الذي راح ولدهم حافظ يمارسه بهمة وإقبال شديدين، والذي لم يكونوا موافقين عليه تماما.

ثم تابع رفعت حتى حصل على الثانوية، ثم صار موظفا بسيطا في الجمارك، يتقاضـى راتبا لا يزيد عن ٢٠٠ ليرة سورية تعادل يومها ٥٥ دولارا، وخلال خدمته العسـكرية التـي قضاها برتبة عريف وهي أدنى الرتب العسكرية، تعرّف على الملازم المجند محمد الخطيب، الذي عامله يومها معاملة حسنة، فكافأه رفعت فيما بعد وجعله وزيرا للتربية في السبعينات.

في عام ١٩٦٣م:

عندما قامت ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣م سُرحت دفعة كانت فـي الكليـة العسـكرية، التحقت بها خلال آخر عهد ديمقراطي عاشته سوريا وكان ذلك من سبتمبر ١٩٦١ م، وحتـى الثامن من آذار ١٩٦٣م، وكانت هذه الدفعة منتقاة من الشعب السوري كافة، حسـب الكفـاءة واللياقة البدنية، ودون اعتبار للتقرير السياسي، سُرحت هذه الدفعة، وجلبت دفعة بديلـة علـى عجل معظمها من المعلمين من طوائف معينة، وكان منهم رفعت أسـد، وعبـد الله طـلاس، وغيرهم، وتخرجت هذه الدفعة بعد سنة ونصف فقط وسُميت بدورة البعث الأولى.

من ١٩٦٥ وحتى ١٩٧٠ م:

بعد تخرجه بسنة ونيف شارك في انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦ في المجموعة التـي قادهـا سليم حاطوم واعتقلت الفريق محمد أمين الحافظ رئيس مجلس الرئاسة يومذاك بعـد معركـة راح ضحيتها ٢٠٠ عسكري وهو ضعفي ما خسره الجيش السوري في حـرب ٥ حزيـران ١٩٦٧م.

وفي عام ١٩٦٩م ساهم رفعت في القوة التي حاصرت العقيد عبد الكريم الجندي من بلدة

السلمية، قائد المخابرات العامة يومذاك في عهد صلاح جديد، وقتلته أو دفعته إلى الانتحار عند بوابة اللواء السبعين.

يقول باترك سيل: كان العقيد عبد الكريم الجندي من أنصار جديد، وهو قائد المخابرات، ومن أعضاء اللجنة العسكرية، وكان رفعت قد اكتشف أن جديد يخطط لاغتيال شقيقه حافظ، وفي الأيام ٢٥ – ٢٨ شباط ١٩٦٩ وقع شبه انقلاب قام به حافظ ورفعت، حركت الدبابات إلى مفاصل العاصمة، وتمكن رفعت من اعتقال سائقي الجندي.

وأدرك الجندي عندما فقد أسطول سياراته أنه انتهى، وبعد مشادة كلامية مع علي ظاظا مدير المخابرات العسكرية قتل الجندي نفسه بإطلاق النار على رأسه. وبعد أسبوعين انتحرت زوجته أيضا، وتعززت مكانة رفعت، كذراع الأسد اليمنى، وجزع أتباع جديد، وكسب الأسد جولة هامة.

وهكذا من بين الأعضاء الخمسة المؤسسين للجنة العسكرية: كان عمران منفيا في لبنان (ثم اغتيل من قبل الأسد)، وكان أحمد المير قد طُرد إلى إسبانيا، والجندي قد مات، وبقي الأسد وجديد يتصارعان من أجل الوصول إلى قمة السلطة.

وخلالها كان رفعت قد التحق بالدورات التالية في مدرسة المدرعات بالقابون، وهي دورة قائد سرية، ثم دورة قائد كتيبة، ثم أعطيت له رتبة نقيب وأُلحق بدورة أركان حرب، وكان أول نقيب في الجيش السوري يلتحق بدورة الأركان، وفي عام ١٩٧٠م التقيت بزميله وابن دورته النقيب عبد الله طلاس، وما أدري كيف حصل رفعت على رتب (رائد، مقدم، عقيد) وكل ما عرف عنه بعد قيام أخيه بالحركة التصحيحية أنه قائد سرايا الدفاع ووصل تعدادها يومذاك إلى ٥٥ الف عسكري، فيها أحدث دبابات الجيش السوري وكانت يومذاك (ت ٦٢)، وفيها طائراتها العمودية الخاصة بها. ويشير العماد مصطفى طلاس في كتابه "ثلاثة شهور هزت سوريا" إلى أن الرئيس حافظ الأسد كان الشخص الوحيد الذي يتابع عبر قنوات سرية للغاية الشؤون الأمنية لسرايا الدفاع التي يقودها شقيقه. والقنوات سرية لأن العميد رفعت كان يسجن أي ضابط في السرايا له علاقة مع المخابرات العسكرية، الأمر الذي جعل السرايا بمثابة غيتو خاص يصعب انتهاكه. وكانت سرايا الدفاع تحيط بدمشق، وتحمي كرسي الحكم، ولم تشارك في حرب ٥ حزيران ١٩٦٧م.

رفعت أسد طالب في جامعة دمشق:

حصل رفعت على ليسانس في التاريخ ثم ليسانس في الحقوق من جامعة دمشق، مما دفع بعض الأساتذة الشرفاء إلى الهجرة من سوريا كلها، كي لا يروا بأعينهم هذه المهازل، ومن لطائف ما يرويه العماد مصطفى طلاس في كتابه "ثلاثة شهور هزت سوريا" عن العميد رفعت حين كان طالباً في قسم التاريخ بجامعة دمشق أن رئيس القسم الدكتور محمد خير فارس شكا له (لوزير الدفاع): أن رفعت يأتي مع مفرزة من الحرس إلى الجامعة أيام الامتحان، ولا أحد يجرؤ من المراقبين أن يقول له شيئاً، فماذا أفعل؟ وكان رد العماد: لا تفعل شيئاً لأنه لن يعمل لديكم أستاذ تاريخ!" على أن أجمل ما يرويه العماد عن علاقة العلم بالسلطة في تلك الأيام الأمثولة التالية: "ما كاد رفعت ينهي الإجازة في التاريخ حتى تسجل في كلية الحقوق هو وزوجته لين وابنه دريد، وكانوا يقدمون الامتحان معاً في غرفة رئيس الجامعة الدكتور زياد شويكي حرصاً على أمن الطلاب وأمن المعلومات، وعندما جاءتهم الأسئلة مع فناجين القهوة وكتب السنة الأولى قال لهم رفعت: العمى في قلبكم.. ابعثوا لنا أستاذاً يدلنا أين توجد الأجوبة لهذه الأسئلة!!".

ومن المعروف أنه بعد حصوله على الليسانس من جامعة دمشق، حصل على الدكتوراه من موسكو في التاريخ أيضاً، على أطروحة عن الصراع الطبقي في سوريا، ويعتقد أنها من تأليف أحمد داود العلوي الذي يجيد اللغة الروسية!!

رفعت أسد يهرب ذهب سوريا إلى الغرب:

وبدأ يلمع اسمه كثيراً بعد انتخاب حافظ أسد رئيساً لسوريا، ورأينا الورقة المالية ذات ٥٠٠ ليرة سورية التي وقعها رفعت باسمه الصريح بعد أن رفض مدير البنك المركزي توقيعها، هذه الورقة التي كان رفعت يطلب منها الكمية التي يريدها، وكان مدير المصرف المركزي ينفذ طلباته مجبراً، وقام أزلام رفعت بشراء الذهب من سوريا خلال عقد السبعينات بهذه الأوراق وأخرجه إلى حساباته في أوروبا وأمريكا، وهذا أول إسفين دق في الاقتصاد السوري، مما أدى بعده إلى انهيار الليرة السورية.

رفعت أسد تاجر المخدرات الدولي:

الريشة بلدة في أطراف سوريا، محاذية للمثلث الأردني السعودي السوري، زعيمها لورنس الشعلان، وهذه البلدة لا تخضع لنفوذ أي من الدول المجاورة، حتى لا تخضع لنفوذ

سوريا، وبعض الهاربين جنائياً يصلون إليها ويحتمون بزعيمها لورنس، فلا تستطيع الحكومة السورية القبض عليهم، وهذه معلومات بديهية عند أبناء البادية السورية، وسر قوة لورنس هي أنه شريك لكبار الضباط في الحكومة السورية، شريكهم في تجارة المخدرات الدولية، وعرفت مرة أحد أفراد القبيلة اشتبك مع الشرطة وأطلق عليهم النار حتى نفذت ذخيرته، وعندئذ استطاعت الشرطة القبض عليه، ثم مَن يصدق أنه خرج من السجن بسند كفالة (٥٠٠٠) ليرة سورية فقط؟! وعندما تعجبت من ذلك بحثت وعرفت أنه من أزلام رفعت الأسد في تهريب المخدرات، وبعد خروجه بساعات كان قد وصل الريشة حيث زعيمها لورنس يحميه من جميع دول المنطقة، لأنه زعيم أكبر عصابة لتهريب المخدرات في العالم.

عرف رفعت الأسد الريشة ولورنس مبكراً، وجعل نفسه شريكاً رئيسياً له في تجارة المخدرات، حتى ذاق طعم الملايين، استقل رفعت في سهل البقاع اللبناني، وسبق لورنس الشعلان في هذه التجارة، بل صار لورنس من تلامذته، لأن رفعت سخّر سيارات الجيش وطائراته العمودية في زراعة وصناعة وتصدير المخدرات في سهل البقاع، بل بنى ميناء قرب اللاذقية لا تعرف الجمارك السورية شيئاً عنه ولا عن البضائع التي تصدر منه أو تستورد عن طريقه، واستمر هذا الميناء حتى أواخر التسعينات حيث قاد بشار الأسد قبل وفاة والده لواءً مدرعاً استطاع أن يحتل هذا الميناء ويدمره في معركة قُتل فيها من الجانبين قرابة (٥٠٠) من الجنود.

وكانت زراعة وصناعة وتصدير المخدرات في سهل البقاع تحت عيون المخابرات الصهيونية والأمريكية [انظر مجلة الإكسبرس الفرنسية التي ادعت في عددها الصادر في شهر "مايو" ١٩٨٧، ص ٣٤ – ٤١]: بأن هناك صلة للسلطات السورية في تجارة المخدرات اللبنانية، وأن نائب الرئيس السوري رفعت الأسد ضالع في تسويقها لدى شبكات التجارة العالمية. وفي شهر مايو ١٩٨٥ قامت السلطات الإسبانية بطرد القنصل العام والمسؤول الأمني في السفارة السورية بسبب انكشاف دورهم في شحنة هيروين تم مصادرتها، وادعت الصحافة يومها بأن للسفير السوري في إسبانيا (وهو شخص مقرب من رفعت الأسد) دور في هذه الصفقة كذلك.

وقد نشرت مجلة الإكسبرس الفرنسية في عددها رقم (١٨٦٩) تحقيقاً مطولاً حول تورط رفعت الأسد في تجارة المخدرات والأسلحة وضلوعه في عصابات سرقة السيارات من

المانيا وإيطاليا وبلجيكا عن طريق شبكة يديرها ابنه فراس. ثم نشرت مجلة إنتربيو الإسبانية تحقيقا آخر حول صلة رفعت بالاستخبارات الفرنسية والإسبانية وعن أنشطته غير المشروعة بالتعاون مع التاجر السوري منذر الكسار في تجارة الأسلحة والمخدرات.

وبالرغم من الاحتجاج المتكرر من قبل السلطات السورية ومحامي رفعت الأسد على هذه الحملة الصحفية، فإن الحقيقة ظهرت في شهر أكتوبر ١٩٩٩ عندما اشتبكت القوات السورية مع حراس رفعت في ميناء يسيطر عليه باللاذقية، وكانت الأسباب الظاهرية هي انشطة رفعت المحظورة في مجالات التهريب عبر هذا الميناء.

ميناء رفعت:

وقد مر ذكره آنفا، يقع قرب مدينة اللاذقية، لا يخضع للحكومة السورية، واستمر رفعت يهرّب منه البضائع من وإلى سوريا قرابة عشرين سنة، دون أن يتمكن أحد من ضباط الجمارك أو الأمن بشتى فروعه من دخول هذا الميناء الذي سكنت فيه عدة عوائل من أنصار رفعت الأسد.

وترسخت ظاهرة الفساد وما تفرزه من نهب وسلب ورشوة واختلاس مذ وقعت سورية الغالية بين براثن حكم قمعي وحشي منذ أكثر من ثلث قرن، ومن الجدير ذكره أن السلطة السورية عندما حاصرت موقعا مطلا على البحر قريبا من اللاذقية تعود ملكيته لرفعت الأسد قائلة: إنه ميناء غير مشروع يستخدمه رفعت للتهريب، وقاد بشار الأسد لواءً مدرعا في حياة والده حافظ، واقتحم هذا الميناء ودمره، ووصلت الخسائر من الطرفين قرابة (٤٠٠) جندي.

ولما سئل رفعت عن هذا الميناء أجاب عبر المحطة الفضائية (a.n.n.) التي يملكها ولده سومر: وهل أبقت السلطات – الجناح الحاكم على حد تعبيره – شيئا يمكن تهريبه بعد أن سلبت ونهبت كل شيء؟ لقد استعصت ظاهرة الفساد في سورية على الحل، وكيف لا تستعصي وأقطاب النظام وسدنته هم الذين يقودون حملة الفساد؟! ويتسابقون على نهب الثروات العامة ويبتزون المواطنين وحتى الفقراء منهم في نهب أرزاقهم وأقواتهم وما يملكون. لقد أكد الباحث السوري سمير سعيفان أن مشكلة التهرب والتهريب في سورية من الحجم الكبير جدا، وأنها تؤثر بقوة في موارد الدولة والأداء الاقتصادي والبنية الأخلاقية للمجتمع، وقد قدّر الباحث سعيفان حجم التهرب الضريبي في سورية بنحو خمسين مليار ليرة سورية.

الزوجة الرابعة:

وفي بداية عقد السبعينات تزوج رفعت الرابعة وقيل الخامسة، وهي ابنة ضابط كبير شركسي من جيل أخيه حافظ، رأى رفعت هذه الفتاة في الشارع، وعرف بيتها واسم أبيها، ولما عرف أن والدها زميل أخيه، طلب من أخيه أن يخطبها له، فطلب حافظ من زميله الشركسي مقابلته، ولما حضر أعلمه أن شقيقه رفعت قرر أن يتزوج ابنته، وأنه إن لم يوافق، فسوف يخطفها!! والأفضل أن يوافق ليتم الزواج بأمن وسلام، وخاف الضابط الشركسي على شرفه وابنته فوافق، وكان ذلك.

التطهير الوطني وتخضير الصحراء:

يقول رفعت أسد في المؤتمر القطري لحزب البعث: أيها الرفاق إن ستالين قضى على عشرة ملايين في سبيل الثورة الشيوعية، واضعاً في حسابه أمراً واحداً فقط، هو التعصب للحزب ولنظرية الحزب، ولو أن لينين كان في ظرف ستالين لفعل مثله، أيها الرفاق تحتاج الأمم التي تريد أن تعيش أو تبقى إلى رجل متعصب، وإلى حزب ونظرية متعصبة.

وفي هذا المؤتمر طرح رفعت أسد مشروعه للتطهير الوطني وتخضير الصحراء وخلاصته: اعتقال كل معارض لسياسات الحزب ووضعه في سجن تدمر، وتعذيبه، مع إلقاء المحاضرات عليه، ومطالبته بحفظها ومذاكرتها، كي يغسل عقله مما فيه من أفكار تعادي مسيرة الحزب، والاستفادة منه في الأشغال الشاقة وزراعة الأشجار في الصحراء. ويخضع هؤلاء "المعذبون" إلى امتحانات يتأكد فيها من تطهير عقولهم من كل ما يعادي مسيرة الحزب.

مذبحة تدمر الأولى:

وفي حزيران ١٩٨٠م قام أفراد من الحرس الجمهوري بمحاولة لاغتيال حافظ الأسد، وجرح في ساقه، فأرعد رفعت وأزبد وكلف رفعت صهره محمد ناصيف (زوج ابنته تماضر) بتكليف مجموعتين من سرايا الدفاع، تم نقلهم بالطائرات العمودية إلى سجن تدمر الصحراوي، وتم إطلاق النار على السجناء داخل الزنازين، فقتلوا قرابة ألف مواطن معظمهم من الإخوان المسلمين، من الأطباء والمهندسين والمدرسين وطلاب الجامعات، وتم دفنهم جماعياً بالجرافات وبعضهم ما زال حياً، كما نشر ذلك الصحفي نزار نيوف لاحقاً، وكما أفاد عناصر من سرايا الدفاع أرسلوا للأردن لاغتيال رئيس الوزراء مضر بدران، وتم اعتقالهم

واستجوابهم على التلفزيون الأردني.

دوره في مجزرة حماة الكبرى:

رفعت الأسد قائد ميداني في مأساة حماة:

عيّن المجلس الأمني الأعلى للنظام في أيلول ١٩٨١م اللواء رفعت الأسد آمراً عرفياً لمناطق حماة وحلب ودمشق، وتسمية حماة منطقة عمليات أولى، خاضعة للحاكم العرفي رفعت الأسد، وأرسل ١٢ ألف جندي من سرايا الدفاع فوراً إلى حماة. وكان المقدم علي ديب – قائد القوات السورية التي قاتلت العراقيين جنباً إلى جنب مع الأميركيين في عام ١٩٩١– نائباً لرفعت في حماة، يطلعه على سير العمل في حماة أولاً بأول، حتى انفجر الوضع، وصل رفعت إلى حماة ليدير عمليات القتل الجماعي وتدمير المدينة بنفسه، والتقطت بعض مكالماته اللاسلكية وهو في حمص.

أما في اليوم الثالث للأحداث فقد ذكر شاهد عيان أنه رأى رفعت في ثكنة مدينة حماة المطلة على نهر العاصي، وانتقل إلى جنوب الملعب البلدي ليشرف بنفسه يوم الخميس الأول من المأساة على أول مجزرة مدبرة في حماة ذهب ضحيتها ١٥٠٠ من الأبرياء [اقرأ مجزرة جنوب الملعب البلدي في موقع الشرق العربي – باب مشاركات].

وكانت قوات سرايا الدفاع المقاتل الرئيسي إلى جانب الوحدات الخاصة بقيادة علي حيدر التي قتلت عشرات الألوف من المواطنين الأبرياء معظمهم من الأطفال والنساء والشيوخ.

وقد سبق لرفعت الأسد أن صرح مرات عديدة أنه سيمحو مدينة حماة من الخريطة، وسيبني بدلاً منها حدائق وحانات للخمر، ونوادي للرقص. وسيجعل المؤرخين يقولون: كانت هنا مدينة تسمى "حماة".

محاولة انقلابه على حافظ (شباط ١٩٨٤م):

يظهر مما سبق، كما سبق أن عرفناه من الواقع السوري في عقد السبعينات، أن رفعت الأسد كان الساعد الأيمن لشقيقه حافظ وكان عونه في ذبح الشعب، ونهب خيراته وثرواته، وكان ينتظر موت أخيه ليتسلم الرئاسة بدلاً منه، لأنه كما قيل "طالبان لا يشبعان طالب علم وطالب مال"، ورفعت طالب مال، والجاه وسيلة للمال أيضاً، لذلك لم يكتفِ أن يكون نائباً لرئيس الجمهورية لشؤون الأمن، ولم يقبل أن يتسلم الحكم ابن أخيه باسل حافظ الأسد بعد

موت أبيه، وقد شاهد أخاه حافظاً يهيئ ولده البكر باسل ليخلفه في الرئاسة، وبناء عليه قرر رفعت أن ينقلب على أخيه ويتسلم الحكم بالقوة، فحرك الدبابات وهمّ بذلك لولا أن أخاه عرف بنوايا شقيقه مسبقاً من جواسيسه في سرايا الدفاع، فأحبط الانقلاب بمساعدة مصطفى طلاس وعلي دوبا وعلي حيدر الذين يكرهون رفعت كثيراً لتجبره وتكبره عليهم. كما يتضح من كتاب مصطفى طلاس "ثلاثة شهور هزت سوريا" وانتهت هذه المحاولة بنفي رفعت خارج سوريا بعد أن دفع له أخوه عشرات الملايين من الدولارات استدانها من القذافي.

يقول العماد طلاس في كتابه:

رفعت يعد أتباعه بالدولة العلوية:

يكشف طلاس أن رفعت كان يدغدغ أحلام المتعصبين طائفياً بأن وعدهم أنه سيقيم الدولة العلوية هناك كما أقام اليهود الدولة العبرية في فلسطين، وكما كان غلاة المتعصبين من الموارنة يحلمون بإقامة الدويلات الطائفية التي ستدور في فلك إسرائيل قولاً واحداً. ويبدو أن رفعت تشجع في مشروعه لعلمه أن أميركا سوف ترحب بالفكرة لأنها مع أي تفكك للأمة العربية.

وبدأت تظهر على جدران اللاذقية عبارات تمجّد شخص رفعت مثل رفعت الأسد الشمس التي لا تغيب، وبدأ أنصاره ينصبون الحواجز الطيارة لإشعار المواطنين أنهم موجودون بقوة على الساحة، ويبدو أن قصد رفعت من السيطرة على مسقط رأس الرئيس، بحسب العماد طلاس، أن يقول للعالم: إذا كان أخي لا يستطيع السيطرة على المحافظة التي وُلد فيها فهو بالأحرى غير قادر على السيطرة على باقي المحافظات.

حافظ ينفي أخاه رفعت:

في أواخر نيسان ١٩٨٤م تيقن العميد رفعت أن ميزان القوى قد مال لصالح شقيقه حافظ فاتصل بشقيقه جميل الأسد ليمهد له المصالحة مع أخيه الرئيس. ومع أن الرئيس الأسد معروف عربياً ودولياً بأنه سيد من أتقن فن لعبة عض الأصابع فقد كان ينتظر بفارغ الصبر انهيار رفعت، وهذا لأن الأخير سيد من ابتز أخاه وغير أخيه. إذ ما إن وافق على الخروج من سوريا حتى بدأ يساوم على المبلغ الذي يحتاج إليه للإقامة شهوراً عدة خارج البلاد حتى تهدأ العاصفة. هذا مع أن الأمير كان يدفع له شهرياً ٥ ملايين دولار، كما لم يقصّر معه الشيخ خليفة آل ثاني ومثله ياسر عرفات والشيخ سحيم آل ثاني... إلخ.

طلب رفعت مبلغاً كبيراً بالقطع النادر لم يكن متوافراً في المصرف المركزي فخطر للرئيس الأسد أن العقيد القذافي يمكن أن يكون الشخص الذي يحل المشكلة ويؤمّن المال اللازم لإشباع فم أخيه، وحين التقاه موفد الرئيس كان القذافي والحمد لله بمراج حسن، وتذكّر مواقف الأسد القومية في دعم الثورة الليبية ومؤازرتها، ورد على رسالة الأسد رداً جميلاً، وتم تحويل المبلغ بكامله إلى المصرف المركزي، وأعطى الرئيس شقيقه جزءاً منه وبقي الجزء الآخر احتياطاً للطوارئ الاقتصادية التي كانت تعصف بنا.

وتم تحجيم سرايا الدفاع وعُيّن رفعت نائباً لرئيس الجمهورية مسؤولاً عن شؤون الأمن. واستمر في هذا المنصب حتى عام (١٩٩٨م)، غير أن تعيينه كان نظرياً لأن الرئيس الأسد أحرص من أن يسلّم أمنه الشخصي وأمن البلاد لرجل لا يتقي الله بوطنه ولا بأهله!!

وتضمن الاتفاق أن يسافر رفعت إلى موسكو ومعه اللواءان شفيق فياض وعلي حيدر، وليطمئن رفعت أن الطائرة لن تنفجر في الجو طلب أن يسافر معهم رئيس إدارة المخابرات الجوية اللواء محمد الخولي.

ووافق رفعت الذي اختار أن يقبل تعهد حافظ بأن مصالحه وأرصدته سوف تحترم في حالة سحب قواته من العاصمة ومغادرة البلاد عام ١٩٨٤م. (انتهى كلام طلاس).

يقول باترك سيل: أمضى رفعت ثلاثة أيام في المشفى مع أخيه بلا نوم، وقد صعق لمرض أخيه، ومن سريره أرسل حافظ الأسد أمراً بتشكيل لجنة سداسية من: مشارقة، خدام، الأحمر، الشهابي، الكسم، وطلاس، لتدير البلد في غيابه، والغريب أنه لم يجعل أخاه رفعت واحداً منهم.

واتجه قادة البلد العسكريين إلى رفعت بحثاً عن قيادة، لأنهم رأوا أنه أفضل من يحمي النظام، باعتباره شقيق الأسد، وقد انتصر على الإخوان المسلمين أكبر خطر داخلي، ورأوا فيه أنه سوف يخلف أخاه، ويبقى كل منهم في مكانه.

ولم يوافق كبار الضباط على هؤلاء الستة، الذين لم يروا فيهم سوى موظفين تنفيذيين موهوبين، وليسوا دعائم للنظام. وبناء على تحريضهم قام الشهابي وخدام بزيارة رفعت، ليخبروه أن رجلاً مثله لا يمكن إبعاده في مثل تلك اللحظات عن المجالس الحاكمة في البلد، أما رفعت فقال إنه يمتثل لرغبات الرئيس الذي لم يجعله أحد الستة.

ولكن سرعان ما اقتنع رفعت معهم ثم عقد اجتماعاً كاملاً للقيادة القطرية لم يغب عنه سوى حافظ الأسد ووزير إعلامه أحمد اسكندر الذي كان على فراش الموت. وقررت القيادة القطرية أن تجعل من نفسها بديلاً عن اللجنة السداسية، وكانت هذه طريقة أنيقة متقنة لجلب رفعت،

ولما علم الأسد وهو في النقاهة سخط سخطاً شديداً لأن أي انحراف عن الطاعة الكاملة الخالية من أي تساؤل كان يثير شكوكه. فاستدعى كبار ضباطه ووبخهم على الابتعاد عن تنفيذ رغباته الصريحة، وبذلك فتحوا الباب لأخطار غير متوقعة: أولم يروا أن دفع رفعت إلى المقدمة كان خطة أميركية – سعودية لإزاحته عن الحكم؟

ولما مرض حافظ في نوفمبر ١٩٨٣ م، وتجمّع الضباط حول رفعت، فجأة ظهرت في كل مكان في العاصمة دمشق صورة لرفعت تظهره في أوضاع قيادية آمرة وقد ارتدى زي المظليين.

يكبر حافظ رفعت بسبع سنين، وكان يرغم أخاه المتمرد الأصغر على احترامه، وكان رفعت يشبه حافظ في البنية الجسدية القوية، والذكاء اللامع، ولكنه يختلف في أنه أكثر صحكاً من حافظ، وميّال للمتع ومندفع، وكريم إلى حد الإفراط، وبينما انهمك حافظ بكرسيه مشغولاً في شؤون الدولة كلياً، انهمك رفعت في بناء سرايا الدفاع، كجنود مخلصين له، وكان رفعت يمارس سلطات مطلقة، وقد أثرى هو وأصدقاؤه الحميمون، كما كان يذهب في مهمات سرية إلى الأصدقاء والأعداء على السواء، ويشترك في مشاريع أخرى يحيط بها الظلام والضباب في عالم السياسة والتجارة في البلاد العربية.

بعض أملاك رفعت أسد عام ١٩٩٤م:

١- كازينو ضخم في إيطاليا.

٢- فندق خمسة نجوم في مرسيليا.

٣- مصنع إسمنت في بيروت.

٤- دار نشر في باريس.

٥- إمبراطورية إعلامية في لندن، منها قناة (a.n.n)، وغيرها محطات راديو متعددة.

٦- أسهم في شركة نفق بحر المانش بين فرنسا وبريطانيا، وهو من أوائل أغنياء العالم

المساهمين في هذه الشركة.

٧- عقارات سكنية في سويسرا وفرنسا.

٨- مجمع سكني في إسبانيا كلف بناؤه ٦٠ مليون دولار.

٩- كان يملك ميناء خاصاً في اللاذقية قبل أن يدمره بشار الأسد في عهد أبيه حافظ.

١٠- طائرة خاصة أو أكثر من طائرة، تنقله مع أفراد حاشيته في قارات العالم.

١١- وصلت فاتورة إقامته الشهرية مع حاشيته (١٠٠ - ١٥٠) شخصاً إلى خمسة مليار فرنك فرنسي، دفعتها الخزينة السورية عدة سنوات.

١٢- خسر رفعت الأسد في ليلة واحدة على موائد القمار مليون دولار. في الوقت الذي وصل فيه التضخم في سوريا إلى ١٠٠%، وعجز المواطن الشريف عن تأمين خبز أولاده وطعامهم.

رفعت الأسد في نظر بعض أنصاره الآن:

يقول الدكتور خليل أحمد الحسن أحد أعضاء رابطة الخريجين التي شكلها رفعت الأسد وأراد منها حزباً خاصاً به في داخل حزب البعث:

لم تظهر خلافات رفعت مع النظام السوري في عام ١٩٨٤م، وإنما وصلت إلى القشة التي قصمت ظهر البعير في ذلك العام، فمنذ سنوات ورفعت يختلف مع النظام السوري بما يلي:

١- لم يكن واثقاً من إخلاص الحزب للعملية الثورية التي يريدها، لذلك شكل (رابطة الخريجين الجامعيين) من البعثيين أنصاره الذين وصل عددهم إلى ٢٢ ألفاً صاروا منافسين لحزب البعث، واستمرت هذه الرابطة حتى نُفي رفعت من سوريا عام ١٩٨٤م، فحلت يومذاك. يقول طلاس: أسس العميد رفعت الرابطة بعد نيله الإجازة في التاريخ عام ١٩٧٤، وذلك كي تكون مظلة قانونية لعمله. وقد برر تشكيلها أمام أخيه الرئيس بجعل متخرجي الدراسات العليا موالين للنظام. لكن لم يبقَ انتهازي أو متسلق أو متطلع إلى السلطة أو التقرب من وهجها إلا وانخرط فيها، بحسب الكاتب.

٢- قام رفعت بعدة رحلات للاتحاد السوفيتي، وكان يزداد كرهاً للاشتراكية في كل مرة يرى فيها الفقر والتشرد والقهر والظلم، وصار يصرح بذلك حتى اعتبره الاتحاد السوفيتي

عميلاً للغرب، وطلب من الحزب الشيوعي السوري مهاجمة رفعت إعلامياً.

٣- ويقول حارث الخير وهو من أنصار رفعت بل من أزلامه: إن رفعت الأسد سيقوم بحركة تصحيحية ضد الحركة التصحيحية التي قام بها حافظ الأسد عام ١٩٧١ م.

٤- ثم يقول الدكتور خليل: جعل حافظ الأسد وأزلامه رفعت الأسد مسؤولاً عن الفساد في سوريا، وحذروا البعثيين منه ومن جماعة رفعت وجعلوها مساوية لجماعة الإخوان المسلمين في الخطر على النظام السوري.

وكان رفعت يعارض سياسات أخيه حافظ في عدة أمور منها:

١- اعتماد سوريا أكثر من اللازم على السوفييت، وبُعدها عن أمريكا.

٢- تورط سوريا في لبنان.

٣- يعارض دعم المنشقين عن فتح مثل أبي موسى وأبي نضال.

٤- ويعارض التحالف مع إيران ويقول ماذا يختلف هؤلاء عن الإخوان الذين قاتلناهم في سوريا، كيف يمكن للنظام أن يتبع سياسة في حماة وأخرى مختلفة عنها في طهران؟! هل كان الصراع ضد الإخوان المسلمين صورياً أم عقائدياً؟!

ويقول رفعت: إننا نتحدث عن الحرية، ولسنا أحراراً إلا في أن نأكل ونتزوج فقط.

وفي ١٩٨٤/٥/٢٨ أرسلت طائرة محملة بسبعين من كبار الضباط (!!!!!) إلى موسكو لفترة تهدأ فيها النفوس، وكان من بينهم رفعت الأسد، ولما أعلن بعضهم خوفه على النظام قال له حافظ: لا تخافوا على النظام بل خافوا على أنفسكم.

ثم تم استدعاؤهم جميعاً ما عدا رفعت، وفي ٦/٥ وصل رفعت إلى جنيف، وكان يرافقه أكثر من مائة، وقيل مائتين من حراسه ومساعديه، وهذه حاشية باهظة التكاليف تكفّل القذافي بتمويلها كي يبقى رفعت في الخارج.

وفي أيلول ١٩٨٤ انتقل رفعت مع بقية طاقمه - بعد أن عاد الكثير منهم إلى سوريا- إلى فرنسا. وظل رفعت محتفظاً بلقب نائب رئيس الجمهورية، وفي ١١/٢٦ زار رفعت دمشق، وزار القصر الجمهوري، وركع وقبّل يد أخيه، ولكن أخاه لم يسامحه. ومنع من زيارة سرايا الدفاع، وفي المؤتمر القطري يناير ١٩٨٥ وحضره رفعت لأنه عضو قيادة قطرية، تعرّض رفعت لكثير من النقد والهجوم، وكان بمثابة من يقف في قفص الاتهام، وفي

هذا المؤتمر منحت الصلاحية لحافظ الأسد كي يعين اللجنة المركزية كيفما يريد، التي تنتخب القيادة القطرية.

وبعد ثلاثة أسابيع انتخب حافظ رئيساً للجمهورية للمرة الثالثة بنسبة (٩٧، ٩٩%)!!

وفي مايو ١٩٨٦ قام رفعت بزيارة غير معلنة لبريطانيا، وقد سبقه أربعة من حراسه الشخصيين مسلحين يحملون جوازات سفر مغربية، وهبطت بعدهم طائرتان خاصتان تحملان رفعت وأفراد عائلته زوجاته وأولاده الصغار والخدم والحشم ورجال الأمن وكان مجموعهم أربعين شخصاً معظمهم يحمل جوازات سفر مغربية.

وصار حافظ الأسد وأزلامه يرمون كل فساد حصل في سوريا على رفعت الأسد، وقد تبين أن هذا غير صحيح، لأن الفساد استمر بل ازداد بعد خروج رفعت من سوريا عام ١٩٨٤م.

وأخيراً:

والآن يحاول رفعت استلام حكم سوريا بشتى السبل، حتى أنه عرض على الصهاينة أن يساعدوه مقابل أن يقيم معهم علاقات تطبيع كاملة، من سفارات وتبادل تجاري وثقافي، كما عرض نفسه على أمريكا وتعهد أن يقدم لها كل ما تريده، كما حاول أن يكذب على المعارضة السورية في الخارج، ومنها جماعة الإخوان المسلمين مدعياً أنه ليس مسؤولاً عن مذبحة حماة، وأن شقيقه حافظ هو المسؤول الأول والأخير عنها.

ومن نعم الله أن القاسم المشترك الوحيد - كما يبدو لي- بين المعارضة والنظام حالياً هو رفض رفعت أسد المجرم الذي عرف القاصي والداني جرائمه في سوريا ولبنان وغيرهما.

وأسأل الله عز وجل أن يمكن الشعب العربي السوري من هذا اللص المجرم الذي قتل عشرات الألوف، والذي نهب مليارات الدولارات من الشعب السوري، وأن يحجز الشعب على ثروته ويردها إلى خزينة الشعب السوري، والله على كل شيء قدير.

الملف الأسود للطاغية الطائفي بشار الأسد(*)

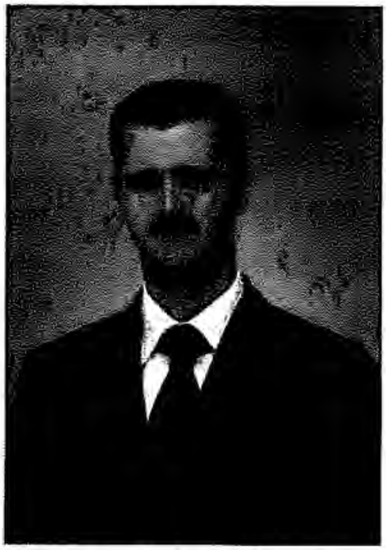

الطاغية بشار الأسد هو من أبناء الطائفة العلوية، وقد ورثِ الحقد والعار والإجرام عن والده الهالك حافظ الأسد، وهذه نبذة تعريفية بهذا الطاغية العلوي.

لم يكن حتى عام ١٩٩٤م أحد يسمع عن بشار الذي كان في حدود الثلاثين، وأصبح في هذه الأثناء العقيد الركن بشار الأسد! ولم يعرف هو من قبل سوى الحياة في قصر الرئاسة فقد كان طفلاً في السادسة من عمره عندما استولى الطاغية حافظ الأسد على السلطة عام ١٩٧٠ م؛ على رأس انقلاب عسكري أنهى سلسلة من الصراعات بين أجنحة حزب البعث العربي الاشتراكي، وقضى على البقية الباقية من الرفاق الحزبيين القدماء والقيادات التاريخية للحزب، سجناً أو نفياً، وقضى بشار سنوات طفولته في مدرسة الحرية الفرنسية في دمشق، ثم درس طب العيون في مستشفى تشرين العسكري في العاصمة السورية أيضاً، بين عامي ١٩٨٨ و١٩٩٢م ورحل إلى لندن للتخصص.

وكان في منتصف فترة التخصص عندما مات أخوه باسل في حادث سيارة في عام ١٩٩٤ م فعاد إلى دمشق.

(*) المصدر السابق، مصدر هذا الملف المواقع الإلكترونية التالية: موقع الجزيرة نت، وموقع إسلام أون لاين. نت، وموقع اللجنة السورية لحقوق الإنسان، وموقع المنظمة السورية لحقوق الإنسان، وموقع أخبار الشرق وموقع سوريا الحرة بالإضافة لبعض المصادر الأخرى.

وبينما اتخذ إعداد باسل لخلافة أبيه في الرئاسة مجراه بصورة بطيئة اعتيادية نسبياً، كان لا بد من إعداد بشار كبديل بصورة سريعة، فمنذ الأزمة الصحية الحادة التي أصابت الرئيس السوري عام ١٩٨٣م لا تنقطع التكهنات عن حقيقة وضعه الصحي، وقد تضاعفت في الآونة الأخيرة بصورة ملحوظة.

كان على طبيب العيون أن ينتقل إلى الحياة العسكرية سريعاً في بلد يلعب الجيش فيه دوراً حاسماً على الصعيد الداخلي.

وعلى أية حال يصعب القول بوجود خبرة عسكرية له عندما ترك التخصص في طب العيون، واستلم فور عودته إلى دمشق عام ١٩٩٤م منصب قائد كتيبة دبابات، وجاءت ترقيته سريعاً فأصبح مقدم ركن عام ١٩٩٧م، ثم عقيد ركن في أول أيام عام ١٩٩٩م، ضارباً بذلك رقماً قياسياً في سرعة الترقيات العسكرية!! ومتجاوزاً الضباط الأقدمين والمحدثين في الجيش السوري، وهذا جزء من الإعداد لا يمكن تفسيره بانتساب بشار الأسد عام ١٩٩٤م إلى الكلية العسكرية في حمص، فعلى النقيض من الضباط في تلك الكلية حيث لا يستطيع أي منهم مزاولة عملين في وقت واحد، كان إعداد بشار الأسد للدور المقرر له يقتضي أن يقوم بعدد من المهام الأخرى.

وكان قد تمّ ضمان الساحة العسكرية لصالحه، بإجراءات شملت التسريحات المباشرة والإحالة إلى التقاعد بالجملة خلال السنوات الماضية في صفوف كبار الضباط، ولعبت في ذلك المخابرات العسكرية دوراً رئيسياً، وهي أحد الأجهزة المتعددة التي لا تلتقي خيوط إدارتها إلا عند رئيس الدولة نفسه.

وبشار الأسد حريص منذ عودته إلى سورية على أن يظهر في موقع من يعمل على تطوير الأوضاع بروح الشبيبة، ولكن بدأت الألفية الثالثة ولم تقع الإصلاحات، في بلد قد يشير إلى أوضاعه الاقتصادية وموقعه العالمي في هذا المجال ما شهدته عملته من تدهور شديد، وكان الدولار الأمريكي يعادل ليرة سورية ونصف الليرة عام ١٩٧٠م عندما استلم حافظ الأسد السلطة، وأصبح يعادل أكثر من ٥٠ ليرة سورية الآن.

بعد وفاة حافظ الأسد في ١٠ "يونيو" حزيران ٢٠٠٠ تم الحديث عن رفعت الأسد، عم بشار، الذي كان صاحب النفوذ الأكبر في سوريا في السبعينيات، وكان على رأس سرايا

الدفاع، كما كان يهيئ نفسه لخلافة شقيقه حسب رأي المراقبين. ولتفويت الفرصة على رفعت اجتمع البرلمان السوري لتعديل المادة رقم ٨٣ من الدستور السوري التي تنص على أن سن رئيس الجمهورية ينبغي أن تكون ٤٠ سنة فتم تعديلها، خلال أسرع تغيير دستور في العالم في اجتماع استمر ربع ساعة وفي تصويت جرى خلال ثلاث ثوان أصبحت المادة ٨٣ من الدستور تنص على أن سن الرئيس يمكن أن تكون ٣٤ سنة، ولذلك تمكن بشار الأسد دستورياً من تقلّد منصب رئاسة البلاد، وبالتالي يتم سحب البساط من تحت أقدام رفعت الأسد. فانتخب بشار الأسد في ١ "يوليو" تموز ٢٠٠٠ رئيساً للجمهورية السورية.

وهذه بعض الجرائم التي ارتكبت في عهد الطاغية العلوي بشار الأسد:

- الاعتقالات: الاعتقال العشوائي دون مذكرة جلب قضائية شائع في سورية وكيفي أيضاً، فكل جهاز أمني يتمتع بحق اعتقال المواطنين والتحقيق معهم وإخضاعهم للتعذيب والمعاملة الحاطة بالكرامة البشرية، وقد يصل الأمر إلى إصابة الموقوفين بأمراض وعاهات مستديمة أو الموت تحت التعذيب أو نتيجة له دون أن يترتب على ذلك محاسبة أو تحقيق قضائي، وهذه الاعتقالات تشمل النساء والأطفال ومعظم هؤلاء المعتقلون هم من أصحاب التوجه الإسلامي، حيث تعتبر أجهزة النظام السوري الإسلاميين عدوها الأول، فهي دائمة الترصد لهم والتنكيل بهم من كل الاتجاهات وتقوم أجهزة الأمن والمخابرات عادة باعتقال المجموعات والأفراد سنتين أو ثلاثاً يمرون على أسوأ فروع التحقيق ويتعرضون لأشد صنوف التعذيب ثم تدينهم وتحكم عليهم بأحكام ظالمة وقاسية.

- اعتقال أقارب المعارضين: اعتقال أقارب المعارضين وأخذ الرهائن صفة أصيلة من صفات الخسة في الأجهزة الأمنية السورية، حيث أقدمت المخابرات على اعتقال أطفال ونساء بعضهن حوامل من أجل الضغط على أقربائهن.

- معتقلون عرب في السجون السورية: يعتبر النظام السوري من أكثر أنظمة المنطقة تدخلاً في شؤون غير مواطنيه، إذ يقوم بحملة غير مبررة ضد الطلاب الدارسين أو المقيمين أو الزائرين إلى سورية، بالإضافة إلى أنه يستقبل معتقلين غير سوريين مرحلين إلى سورية للتحقيق معهم وتعذيبهم والاحتفاظ بهم. ولقد قام النظام العلوي باعتقال العديد من المجاهدين الذاهبين للعراق أثناء مرورهم في الأراضي السورية، ويوجد حالياً العديد من المعتقلين من

البلدان العربية والإسلامية والغربية مثل لبنان والصومال والجزائر وعرب الأحواز وهولندا والبحرين وفلسطين والسعودية وغيرها من البلدان.

- اضطهاد الأكراد: لا تزال السلطات السورية تضطهد الأكراد السوريين وتمنعهم حقوقهم بلغتهم وتراثهم وتمنع الاعتراف للكثير منهم بالجنسية السورية التي سحبت منهم، ولقد قامت أجهزة الأمن باعتقال العشرات من الأكراد.

- التعذيب وسوء المعاملة: تستخدم السلطات السورية التعذيب الجسدي والنفسي والأساليب الحاطة بالكرامة البشرية بشكل منهجي وروتيني ولا سيما في فترة التحقيق الأولية التي يخضع لها المعتقل، ويمارس التعذيب على المعتقلين بدون أن تفرق سلطات الأمن والمخابرات في ذلك بين البالغين والأحداث، ويستخدم في مراكز التحقيق والتوقيف والسجون أكثر من أربعين أسلوباً معتمداً من التعذيب، وكثير من المعتقلين من يفقد أحد أطرافه أو حواسه أو يصاب بعاهة مستديمة وفي بعض الأحيان يموت تحت التعذيب أو نتيجة له ولم ترد أخبار عن محاسبة العناصر أو الضباط المتورطين في التعذيب، بل هناك تشريع يخليهم من مسؤولياتهم باعتبارهم يقومون بمهام رسمية موكلة إليهم!!

- وسائل التعذيب المستخدمة في سجون بشار الأسد وأماكن الاحتجاز في سوريا:

أ- التعذيب الجسدي:

من أكثر وسائل التعذيب الجسدي شيوعاً في سوريا:

١- الضرب بالعصي والكابلات المعدنية على القدمين أو مختلف أنحاء الجسد.

٢- الوضع في الدولاب: والدولاب عبارة عن إطار مطاطي خارجي لعجلة سيارة يوضع به المعتقل بحيث يتم ضربه بالعصي أو الكابلات دون أن يتمكن من الحركة.

٣- الصعق بالكهرباء: حيث يتم وصل أسلاك كهربائية بأطراف الجسم أو في بعض الحالات إلى مناطق حساسة منه ويتم وصل الكهرباء إليها.

٤- الكرسي الألماني: وهو كرسي من الحديد المتحرك يسبب ضغطاً رهيباً على العمود الفقري مما يسبب ألماً شديداً وشللاً في الأطراف يدوم في بعض الحالات أسابيعاً، أو يسبب شللاً دائماً.

٥- بساط الريح: وهو جهاز خشبي متحرك يربط إليه السجين من أطرافه الأربعة ويتم

ثني هذا الجهاز إلى قسمين أثناء ضرب السجين بالعصي أو الكابلات.

٦- الحرق بالسجائر.

٧- الفلقة: الضرب على أرجل الموقوف ثم إجباره على الجري.

٨- التعذيب بالماء: وذلك بإنزال رأس السجين بدلو من المياه.

ب- التعذيب المعنوي والنفسي:

١- التهديد المستمر بالتعذيب.

٢- إسماع السجين بصورة واضحة لأصوات التعذيب.

٣- توجيه الإهانات والشتائم بصورة مستمرة.

٤- التهديد بالتعرض للزوجة أو الأخت.

٥- الحبس لمدة طويلة في زنزانة انفرادية.

انتشار الدعارة في ظل حكم الطاغية العلوي بشار الأسد:

لم تعد مسألة الدعارة في سورية أمراً تحت السيطرة، هذا ما يؤكده الجميع دون استثناء، الناس والحكومة التي ترفض الاعتراف بذلك، فقبل سنوات كانت الدعارة تقتصر على أماكن يعرفها الجميع، مثل فنادق الدرجات المتردية، التي تنتشر على مرأى من الجميع، الملاهي الليلية التي تختتم برامجها الفنية بجمع الرؤوس التي تبحث عن بعضها دائماً، الشقق المفروشة المعدة لاستقبال الليالي الحمراء، والأبطال كانوا غالباً من الأشقاء العرب. أما اليوم فإن البطولة لم تعد حكراً على أشقائنا بل صار الزبون المحلي حاضراً بقوة، وأماكن الانتشار لم تعد مقصورة على مناطق محددة، خاصة مع ازدياد تنظيم المهنة بطريقة احترافية، فقد أصبحت الدعارة أشبه بالسوق السوداء، فهناك أسعار تحددها نوعية البضاعة المعروضة كعمر الفتاة أو جنسيتها أو المدة المرغوب باقتطاعها من وقتها الثمين.

وكي لا نوصف بالتجني فقد كانت وزارة الداخلية التي تنام على كتف تلك الفنادق المشبوهة في المرجة - وهي المنطقة الأكثر شهرة بالدعارة في مدينة دمشق- كانت تقوم بين الحين والآخر بإغلاق تلك الأماكن، ولكن ما هي إلا أيام قليلة وسرعان ما تعود تلك الأماكن إلى سابق عهدها بقدرة قادر. وكذلك الدوريات الأمنية التي ينظمها فرع الآداب على الملاهي

الليلية أو الفنادق، لكن دون أن يكون لها أية فعالية، إذ غالباً ما تنتهي المهمة على فراش إحداهن أو بمبلغ مالي معلوم ومتفق عليه في ما يشبه الإتاوة، لقاء استمرار نشاطها، علماً أن الشهادات الصحية التي تثبت خلوهن من مرض الإيدز والتي يتم طلبها من الفنانات والراقصات القادمات من الدول الشرقية لا تكفي، خاصة مع قدوم آلاف الفتيات من جنسيات مختلفة للعمل إلى سورية.

فيتامين السياحة!

تشير الإحصاءات الأخيرة لوزارة السياحة إلى تزايد أعداد السياح القادمين إلى سورية، وذلك في إطار خطة موضوعة لهذا الغرض، ويبدو واضحاً أن نسبة السياح الخليجيين شهدت تحسناً ملموساً، وخاصة عقب التضييق عليهم في الدول الأوروبية مما دفع بالكثيرين منهم إلى التوجه نحو سورية ولبنان، وقد عرفت القوانين السورية الكثير من التسهيلات لهؤلاء من أجل استمرار تدفقهم إلى سورية، وظهر هذا واضحاً من خلال التعامل الخاص معهم على المنافذ الحدودية، والتساهل في موضوع قانون السير، وقوانين أخرى.

وكنتيجة طبيعية للامتيازات الممنوحة للسياح على اختلاف جنسياتهم، كانت الفنادق الرخيصة والنوادي الليلية والشقق المفروشة المنفلتة عن أي نوع من الرقابة، تندرج في إطار تلك التسهيلات، خاصة بالنسبة للسياح الشباب الذين يأتون في مجموعات، إذ يأتي هؤلاء من أجل المتعة، والمتعة وحدها، فتنحصر الأماكن التي يرتادونها بالملاهي الليلية وصالات الديسكو حيث يمكن لهم تأمين ما يبحثون عنه. كما ظهرت للوجود مكاتب متخصصة بخدمة السياح، فتقوم بتأمين الشقق المفروشة لهم، وخطوط الهاتف النقال، كما ترشدهم إلى أماكن السهر لقاء عمولة يقتطعونها من الطرفين، والأهم من هذا تقوم هذه المكاتب بتأمين الخادمة التي تكون عادة السيدة التي تحضر لهم فتيات المتعة. وكل هذا يتم تحت نظر الجهات المعنية التي تغض الطرف عن هذه الممارسات تحت عنوان "تشجيع السياحة"، لأن الدعارة هي أهم العناصر التي يبحث عنها السائح العربي أينما وجد، دون أن نتجاهل وجود أعداد قليلة من السياح العرب الذين يأتون بقصد السياحة الحقيقية واستطلاع المناطق الأثرية والطبيعية في البلد.

- الإساءة للذات الإلهية وللأنبياء وللإسلام والقرآن:

انتشر في عهد هذا الطاغية النصيري التطاول على الذات الإلهية وعلى الأنبياء وعلى الإسلام والقرآن، وذلك من قبل المسؤولين والضباط والمخابرات والسجانين، حيث لا رادع لهم، بل يتم تحفيزهم لفعل ذلك، ولا أدل على ذلك من تلك الحادثة المشهورة التي حدثت في مسجد أبو ذر الغفاري في مدينة حمص، حيث دخل أحد عناصر المخابرات الإجرامية كعادته لجمع المعلومات عن المصلين، وقد تظاهر بأنه في حالة سكر، ولقد قام بسب الأنبياء والإساءة للقرآن الكريم، عندها قام بعض الغيورين على الإسلام بقتل هذا المجرم، وفروا بعد ذلك إلى خارج سوريا إلى الأردن، إلا أن النظام الأردني قام بتسليمهم للإنتربول الدولي، الذي قام بدوره بتسليمهم للسلطات السورية، ولقد قامت المخابرات بعد هذه الحادثة باعتقال عدد كبير من الشباب في مدينة حمص والتنكيل بهم. وتاريخ هذا النظام في محاربة الإسلام وأهله مشهور ومعلوم للجميع.

- **مصافحة بشار لرئيس إسرائيل موشيه كاتساب:**

من المعلوم أن النظام العلوي ينتهج منهج المتاجرة بقضية فلسطين والتبجح بأوهام جبهة الصمود والتصدي في وجه إسرائيل، إلا أن هذا النظام العلوي مفضوح وحقيقته معروفة لدى الجميع، ولقد كان من هذه الفضائح فضيحة مصافحة العلوي بشار الأسد لليهودي موشيه كاتساب رئيس الكيان الصهيوني الإسرائيلي، أثناء حضوره لجنازة بابا النصارى يوحنا بولس الثاني.

- **مشاركة بشار لعصابة مافيا النظام العلوي في نهب خيرات البلاد:**

حيث تتم عمليات النهب والسرقة تحت علم بشار بها أو بالتغاضي عنها أو بالمشاركة فيها، وأحياناً تكون عمليات النهب والسرقة لحساب بشار مباشرة ولكن يقوم بها بعض الأوباش بالنيابة عنه، وتهرّب أموال بشار الأسد إلى حساباته البنكية في سويسرا وهذه الحسابات هي باسم بشار الأسد شخصياً ولكن لا تحمل اسم شخصي إنما حساب رقمي. ولقد أدخل بشار المزيد من اللصوص لسوريا بزواجه من أسماء الأخرس، حيث انضمت أسماء الأخرس وبعض أقربائها لعصابة مافيا السرقة في سوريا، وكأن سوريا لا يكفيها ما أصابها بل هي بحاجة للمزيد من "الحرامية" للقضاء على خيرات البلاد وتدمير ما تبقى (وإن شاء الله من خلال قرائتكم للملفات التالية لطواغيت ومجرمي سوريا سيتبين لكم مدى علاقة بشار

الأسد ومشاركته لهؤلاء المفسدين في الأرض).

- **مواصلة بشار سياسة أبيه الهالك في حماية الحدود الإسرائيلية:**

ما زال بشار يعمل كـ"كلب" حراسة لإسرائيل، حيث يمنع وبكل صرامة أي محاولة لتسلل أي مقاوم إلى فلسطين أو إلى هضبة الجولان، ولقد ذكر أحد السجناء السابقين في سجون سوريا وهو الرياضي العراقي هلال عبد الرزاق بأن أشد أنواع التعذيب كانت من نصيب مجموعة حاولت تهريب الأسلحة لدعم الانتفاضة الفلسطينية.

- **محاربته للإسلام والمسلمين:**

واصل بشار الطاغية نهج أبيه الهالك في محاربة الإسلام والمسلمين، حيث واصل منع تحكيم الشريعة الإسلامية، وحكم بدل منها القوانين الوضعية، وكذلك منع الجنود من الصلاة في أوقات العمل، ومنع المساجين من الصلاة في السجون، ولقد زج بكثير من علماء ودعاة المسلمين في السجون، واعتقال الشباب المسلم في سوريا على أيدي أجهزة الإرهاب المخابراتية منتشر في كل بقاع سوريا.

ملف الطاغية غازي كنعان(*)

يشغل غازي كنعان منصب رئيس المخابرات السورية في لبنان، وهو حسب كل الروايات صاحب النفوذ والقرار السياسي في البلد، جميع المسؤولين اللبنانيين الكبار يستشيرونه أو يستأذنونه في الأمور السياسية قبل اتخاذ أي قرار لأن الكلمة النهائية له بطبيعة الحال.

يبلغ كنعان ٥٨ عاماً، وهو من عائلة علوية في قرية بحمرا قرب القرداحة بلدة حافظ الأسد في جبال العلويين شرقي مدينة اللاذقية. وعلى نقيض العديد من التقارير، فهو لا يمت لعائلة الأسد بأي قرابة، التحق بالجيش مبكراً مثل بقية الضباط العلويين، تقدم بشكل سريع في الجيش وحصل على رتبة عقيد عندما عُيّن كرئيس للمخابرات العسكرية السورية في حمص، واستغل مركزه هذا لتجارة التهريب وحماية المهربين مقابل مبالغ مالية، وإذا علمنا أن حمص هي من أكبر المحافظات السورية، سنعرف أهمية هذا المركز الحساس وما يمكن جمعه من ثروات بفعل التهريب.

وفي عام ١٩٨٢، حلّ محل محمد غانم كقائد قوات الأمن والاستطلاع في لبنان وهو الاسم الذي كان يطلق على المخابرات السورية في لبنان.

أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، جعل كنعان مركز قيادة قواته في قرية عنجر، ومن سخرية القدر أنه المكان الذي هُزم فيه الأمير فخر الدين المعني والي دمشق في أواخر القرن السابع عشر وسجنه في قفص. وبالإضافة لقواعد ومراكز اعتقال أخرى أسسها في غرب بيروت (على شارع السادات وفي منطقة الرملة البيضا، وطرابلس، وشتورا والخازمية).

يعود الفضل لكنعان بتضييق سوريا قبضتها على الحكومة اللبنانية نتيجة تحالفاته مع

(*) المصدر السابق.

بعض الميليشيات المحلية، في ١٩٨٣ أمر هذه الميليشيات بالتحرك لنسف اتفاقية السابع عشر من أيار بين لبنان وإسرائيل التي كان وسيطها وزير الخارجية الأمريكي السابق جورج شولز. في ١٩٨٤ نظم تمرد ٦ شباط في غرب بيروت الذي أدى إلى تعطيل الحكومة المركزية اللبنانية وانسحاب قوات حفظ السلام المتعددة الجنسيات، ومن ضمنها جنود البحرية الأمريكيين من لبنان.

بنهاية الثمانينات أصبح النفوذ السوري يشمل معظم لبنان كما سيطر كنعان على أغلب زعماء الميليشيات والأحزاب، وأولئك الذين قاوموا النفوذ السوري ولم يخضعوا له إما اغتيلوا ومثال ذلك: (الشيخ حسن خالد، مفتي لبنان السني، في ١٩٨٩ شمعون الابن رئيس حزب الوطنيين الأحرار الماروني)، أو اختُطفوا وسجنوا من قبل المخابرات السورية ومثال ذلك: (زعماء حركة التوحيد الإسلامية السنية، وأعضاء الجناح العراقي لحزب البعث في منتصف الثمانينات).

أهم إنجاز لغازي كنعان في الثمانينات هو نجاحه بإغراء أحد قادة القوات اللبنانية للعمل لصالح المخابرات السورية سراً مع بقائه في مركزه كأحد القادة المسيحيين البارزين المعادين لسوريا علناً، هذا القائد المسيحي اسمه إيلي حبيقة، وهو العميل الإسرائيلي ومنفذ مخطط شارون لمجزرة صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢ أصبح الآن عميلاً لسوريا أو عميلاً مزدوجاً أو ربما منسقاً بين شارون سوريا وأسد إسرائيل! والجدير بالذكر أن إيلي حبيقة بعد اجتماعه بمستعمرة نهاريا ببيغن عام ١٩٨١ عاد إلى بيروت وطلب من سامي الخطيب ترتيب لقاء مع مسؤولين سوريين، فتم له ذلك واجتمع عدة مرات مع رفعت وجميل الأسد في دمشق وباريس، كما أنه التقى بعبد الحليم خدام في مكتبه في شهر حزيران ١٩٨٢ أي قبل مجزرة صبرا وشاتيلا بثلاثة أشهر.

ونتيجة لهذا التعاون المخابراتي نال حبيقة شهادة حسن سلوك من غازي كنعان وتوج فيما بعد نائباً في المجلس النيابي اللبناني أكثر من مرة ووزيراً أيضاً.

كما استطاع كنعان أن يشق الصف المسيحي مرة أخرى باستمالته وشرائه لسمير جعجع للوقوف بوجه العماد ميشال عون المدعوم من حزب البعث العراقي.

في عام ١٩٩٠، وبعد هروب العماد ميشال عون إلى السفارة الفرنسية في بيروت ومن

ثم إبعاده إلى فرنسا، تمت السيطرة السورية الكاملة على لبنان، وأصبح غازي كنعان صانع القرار السياسي في لبنان والآمر الناهي.

ووصل تدخله السافر في الشؤون اللبنانية إلى درجة أن انتخاب رئيس الجمهورية لا تتم إلا بموافقته الرسمية، وهو الذي يرشح ويبارك.

في تشرين الأول ١٩٩٥، قبل أسابيع فقط من انتهاء فترة حكم الرئيس اللبناني إلياس هراوي، حضر كنعان اجتماعاً وبوجود رئيس الوزراء السابق عمر كرامي وعدد من الوزراء والنواب، أمر كنعان الحضور بتعديل المادة ٤٩ من الدستور، وتمديد فترة رئاسة الهراوي لثلاث سنوات أخرى.

لم يقتصر الأمر على هذا الحد، بل أخذ يتصرف وكأنه ناظر مدرسة ابتدائية، إذ رفع يده وقال للجميع وبلهجة الآمر.

- التصويت سيكون هكذا.. برفع الأيدي.. ولن يكون سرياً.

وهذا طبعاً مخالف لأبسط القواعد الدستورية، وصمت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير ولم يتجرأ أحد من أولئك السياسيين الصناديد حتى أن ينظر إلى عين زميله، وانفض هذا الاجتماع مبكراً عند هذا الحد.

الطامحون للرئاسة الأولى منهم من غادر إلى الخارج مع زوجته ومنهم من اعتزل في صومعته أو بيته يشكون من التعب أو المرض.

بعد أقل من شهر اجتمع التلاميذ المطيعون تحت قبة البرلمان ومددوا للرئيس الهراوي كما أشار إليهم أستاذهم الأكبر، ولم يكتفِ كنعان بهذا بل أخذ يهيئ الأجواء ويصيغ القوانين لانتخاب رئيس جديد (دمية سورية) بعد انتهاء فترة الهراوي، وطبعاً كان له ما أراد.

بفضل انتشار عناصر المخابرات السورية في أرجاء لبنان والولاء الأعمى للأحزاب الشيعية للنظام العلوي في دمشق على أساس أنهم فرقة من فرق الشيعة، وسيطرة سوريًا على طائفة الأحباش السنية ودعمها للسيطرة على الشارع السني، والوقوف بوجه الحركات الإسلامية المناوئة، وشرائهم لبعض السياسيين المسيحيين مثل سفاح صبرا وشاتيلا إيلي حبيقة وإيلي الفرزلي نائب رئيس المجلس النيابي، واختراقهم للحزب السوري القومي الاجتماعي، بالإضافة لعملائهم من قوات الجيش والأمن اللبناني وعلى رأسهم مدير الأمن العام الجنرال

جميل السيد المسؤول عن التنصت على رئيس الوزراء والنواب وكبار السياسيين، والذي يرسل تقاريره شبه اليومية لسيده، وبهذا أصبح غازي كنعان سيد لبنان الأول، يعرف كل صغيرة تجري، حتى في غرف نوم السياسيين المعنيين، وهو الرجل الأكثر رعباً في لبنان، يصنع ما يحلو له، فلا حساب ولا عقاب.

كان يصدر أوامره لاعتقال أي شخص لا يعجبه، فالتهمة ليست مهمة، فبإمكانه إلصاق التهمة التي يريد.

أصدر أمراً عام ٩٣ باعتقال مواطن لبناني سمع أنه تحدث إلى لجنة حقوق الإنسان، فأودع السجن وتذوق طعم الضيافة البعثية – العلوية، ولم يفرج عنه إلا بعد أن أجبر أن يصبح عميلاً لهم.

المقربون من كنعان ينادونه بأبو يعرب وهو اسم ابنه الأكبر، ولقد استغل نفوذه لمصالحه الشخصية غير الشرعية، فتعاطى كغيره من كبار الضباط العلويين إنتاج وتجارة المخدرات في سهل البقاع وتهريبها، بالإضافة لرعايته لعصابة لتزييف بعض العملات وترويجها، مما أكسبه أرباحاً طائلة، ومعظم ثروته سيولة نقدية في مصارف أمريكية وسويسرية، ولهذا من الصعب تقدير حجمها.

ونظراً لقوة نفوذه وشراسته فلا يستطيع أحد في لبنان أن يقف في وجه طموحاته التجارية، ولكن شاء القدر أن يرتكب أحد شركائه خطأً فادحاً وهو النائب السابق يحي شماس، إذ اشترى من أبو يعرب قطعة أرض في لبنان وبالسعر الذي أراده، وبعد حوالي عام تضاعفت قيمة الأرض، فطلب من شماس إعادة الأرض له وبالثمن الذي دفعه، فرفض طلبه، وما هي إلا أسابيع حتى ألقي القبض على الشريك السابق وأودع السجن عام ٩٤ بتهمة تهريب مخدرات.

كما أن مغامراته النسائية ليست أقل سوءاً من أعماله التجارية، وخيانته لأصدقائه من السياسيين الموالين له، وعلاقاته مع زوجاتهم حدث ولا حرج، والمعروف عنه بطشه بشركائه وإيداعهم السجن إذا لم يكونوا خاضعين له تماماً.

نجاح كنعان في إخضاع لبنان أكسبه أوسمة كبيرة في دمشق، وكان هناك شائعات أنه سيحل محل علي دوبا كرئيس جهاز المخابرات العسكرية قبل أن يعيّن حسن خليل.

لا شك أن دعمه المبكر لبشار الأسد، قوى نفوذه إلى حد كبير داخل النظـــام، كمـــا أنـــه يتمتع بعلاقات جيدة أيضاً مع عدة مسؤولين أمريكيين، وخاصة جماعة المخابرات (CIA) وقد زار واشنطن عدة مرات وكانت أول زيارة له في "فبراير" شباط ١٩٩٢

بعد عودته من لبنان عين مديراً للأمن السياسي في سوريا عـــام ٢٠٠١، ثـــم وزيـــراً للداخلية في عام ٢٠٠٣.

كان من بين عدة مسؤولين أمنيين استجوبهم محققون من الأمم المتحدة في إطار التحقيق الدولي في مقتل رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري، وكانت لجنة التحقيق الدوليـــة باغتيال الحريري قد حققت معه في سبتمبر ٢٠٠٥ في منتجع المونتي روزا قـــرب الحـــدود السورية- اللبنانية، كما جمّدت وزارة الخزانة الأمريكية في مطلع عام ٢٠٠٥ أصول غـــازي كنعان وخليفته في لبنان العميد رستم غزالة المالية، في خطوة وصفت أنهـــا تهـــدف للعـــزل المادي للمثلّين السيئين الذين يدعمون جهود سوريا للإخلال بأمن واستقرار جيرانها.

انتحاره:

في صباح الأربعاء يوم ١٢ أكتوبر ٢٠٠٥ غادر مكتبه في وزارة الداخليـــة لمـــدة ثلـــث ساعة إلى منزله ثم عاد ودخل مكتبه، وبعد عدة دقائق سمع صوت طلق ناري، وكانت الطلقة من مسدس في فمه، وهذا وفق إفادة العميد وليد أباظة مدير مكتبه.

وسرعان ما أعلن المحامي العام الأول في دمشق محمد مـــروان اللـــوجي أن التحقيـــق الرسمي في ظروف وفاة كنعان انتهى باعتباره حادث انتحار.

الطاغية آصف شوكت(*)

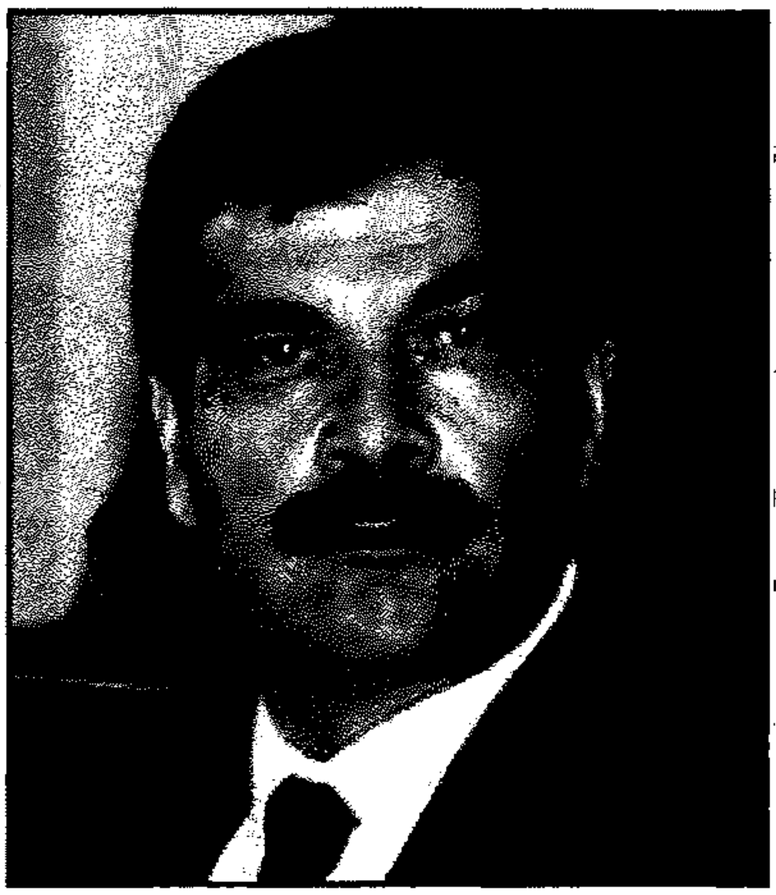

آصف شوكت هو الشخصية الأمنية القوية وهذه الشخصية هي التي تحكم سوريا فعلياً، اللواء آصف شوكت صهر الرئيس بشار الأسد. ومما لا شك فيه يتساءل الكثيرون: مَن هو آصف شوكت؟ ولماذا هذا الاهتمام الإعلامي به؟

ولد آصف شوكت عام ١٩٥٠ في مدينة طرطوس على الساحل السوري، ينتمي لعائلة متوسطة، وهو شخص غامض، ويقال عن عائلته أنها من الرحل وقد استوطنت في قرية المدحلة في محافظة طرطوس وأن معظم أهالي هذه القرية من إخواننا من الطائفة العلوية.

عائلة آصف شوكت اندمجت مع أهالي هذه القرية وأصبحت عائلته من الطائفة العلوية وأن عائلة آصف شوكت ليس لها أي تاريخ في هذه القرية!!

في سنة ١٩٦٨ انتقل إلى دمشق لمتابعة تعليمه العالي ودرس الحقوق وتخرج في ١٩٧٢، وبعد تخرجه وجد نفسه أنه لا يحب هذه المهنة فالتحق بجامعة دمشق من جديد لدراسة التاريخ، أطروحته كانت عن الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ وزعمائها الريفيين فقط. ولأسباب مجهولة أيضاً، فقد اهتمامه فجأة في الدراسة واستأجر خبيراً لكتابة الأطروحة له، ولكن اكتشف أمره من قبل أستاذه ورسب، ولم يكن له خيار سوى أن يعيد كتابة أطروحته ليحصل على شهادته في تشرين الأول "أكتوبر" ١٩٧٦.

تطوع في الكلية الحربية أواخر سنة ١٩٧٦ وتخرج ضابط اختصاص مشاة سنة ١٩٧٩

(*) المصدر السابق.

والتحق في الوحدات الخاصة شارك في حوادث الصدام المسلح بين السلطة آنذاك والإخوان المسلمين، وكان يرأس سرية الاقتحام في الوحدات الخاصة في حوادث حماة الشهيرة، وقد شاركت هذه السرية في اقتحام المنازل في حي الحاضر وقامت باعتقالات وتصفيات جسدية من أطفال وشيوخ ونساء!!

بعد حادثة حماة الدموية التي نفذتها السلطة آنذاك انتقل آصف شوكت مع ضباط آخرين من الوحدات الخاصة إلى شعبة المخابرات سرية المداهمة، حيث عززت هذه السرية من ضباط الوحدات الخاصة وسرايا الدفاع وأصبح في كل محافظة سرية مداهمة تابعة إلى الأمن العسكري، وأصبحت لسرية المداهمة في شعبة المخابرات شهرة قوية في كل المحافظات السورية من ترهيب للمواطنين واعتقالات ومداهمات وقتل الأبرياء، وكان أشهرها سرية المداهمة في دمشق التي يعمل بها آصف شوكت وأصبح من أبرز ضباطها، وسرية المداهمة في حلب التي كان يرأسها في محافظة حلب الرائد أحمد العمر آنذاك، ومتهم آصف شوكت بعمليات خارج سوريا أثناء خدمته في سرية المداهمة.

١- في تشرين الأول ١٩٨٣ أصيب سفيرا الأردن في الهند وإيطاليا بجروح بعد هجوم بالأسلحة النارية.

٢- في تشرين الثاني ١٩٨٣ قُتل موظف أردني وأصيب آخر بجروح بليغة في أثينا.

٣- في ١٩٨٣ قُتل موظف بدرجة مستشار وجرح آخر في مدريد.

٤- في آذار ١٩٨٤ انفجرت قنبلة خارج فندق عمان الدولي.

٥- وفي كانون الأول ١٩٨٤ نجا القائم بالأعمال الأردني في أثينا بأعجوبة من الموت عندما تعطل مسدس المهاجم عن العمل فجأة.

٦- وفي نفس السنة أيضاً قتل المستشار في السفارة الأردنية رمياً بالرصاص في بوخارست.

٧- وآخر الاتهامات الموجه لآصف شوكت في نيسان ١٩٨٥ هجوم على السفارة الأردنية في روما، وهجوم آخر تفجير مكتب الخطوط الجوية الأردنية عالية في مدريد.

٨- قتل السكرتير الأول في السفارة الأردنية في أنقرة رمياً بالرصاص، طبعاً كان هذا الاستهداف في أنقرة هو بمثابة رسالة موجهة إلى تركيا بعدم السماح للسوريين الهاربين من

بطش النظام للأراضي التركية الهاربة، والرسالة الأقوى إلى المملكة الأردنية كون الأردن كانت أبوابها مفتوحة لكل العوائل السورية التي هربت من القتل والاستبداد الأمني عليها آنذاك.

وجعلت هذه الإنجازات من آصف شوكت ذو شأن كبير واعتبر من الرجال الأوفياء والفدائيين للحاكم.

فقرر الرئيس الهالك حافظ الأسد نقله إلى القصر الجمهوري الحماية الأمنية – المرافقة الخاصة، فأوكلت إلى آصف شوكت مهمة الحماية الأمنية الخاصة للدكتورة بشرى حافظ الأسد.

وفي منتصف الثمانينات، بدأ نجم آصف شوكت بالبزوغ بين ضباط دفعته على الرغم أنه لم يوكل إليه أي مركز رسمي حساس في الدولة، سوى المهمات الخاصة!!

وكان رجلاً طموحاً يعرف من أين تؤكل الكتف، ينتظر اللحظة المناسبة لأداء حركته، وجاءت هذه اللحظة عندما التقى ببشرى حافظ الأسد، وهي فتاة جميلة وذكية، تدرس الصيدلة في جامعة دمشق وأصغر منه بعشر سنوات، وما يزال سبب حب هذه الفتاة الجذابة وتعلقها به لغزاً لم يحل بعد.

فمؤهلاتها الأنثوية والدراسية والمادية والعائلية كانت تسمح لها أن تختار أي شاب، وخاصة بعد الارتباط المؤقت بينها وبين الدكتور محسن بلال الذي انقلبت عليه الدكتورة بشرى الأسد وانقلبت عن فكرة ارتباطها معه وهو ذو السمعة العائلية المرموقة الطبيب الشاب والجميل وعضو مجلس الشعب آنذاك، ولكن حين أتيت إلى سويسرا لشراء مجوهرات الخطبة التقت مع صديقة سورية لها مقيمة في سويسرا وأخبرتها عن الدكتور محسن بلال أنه زير النساء.

عادت بنفس اليوم بالطائرة التي أتت بها من دمشق وعندما حضر في اليوم الثاني الدكتور محسن بلال إلى جنيف لشراء مجوهرات الخطبة تفاجأ أن بشرى الأسد قد عادت إلى دمشق، وبعدها حورب كثيراً الدكتور محسن بلال وتدخلت الدولة لترسيبه في مجلس الشعب، ولكن الكثير من أهل منطقته دعمت ترشيحه ودعمت بأصواتها لإنجاحه في مجلس الشعب بعد أن هدد الدكتور محسن بلال بانسحابه من حزب البعث، ومن لجنة الاغتراب في القيادة

القومية في حزب البعث كونه من العوائل التي لها شأن في منطقته، حيث كان الدكتور محسن بلال مقرباً من حافظ الأسد كونه الطبيب الخاص به، وحلت هذه الإشكالية من قبل الرئيس الهالك حافظ الأسد حيث اعتبر هذا الموضوع قسمة ونصيب!

رغم ذلك كله اختارت بشرى الأسد هذا الضابط الصغير ومن عائلة غير معروفة وتعليمه الجامعي هو كل ثروته وفوق هذا فهو متزوج وله أولاد!

ولكن المعروف أن شقيقها الأصغر باسل قد عارض هذه العلاقة بقوة واعتبر شوكت رجلاً غير مناسب فهو كبير السن ومتزوج، واعتبره أيضاً أنه يطمع بأموالها، ومن الأسباب الأخرى التي جعلت باسل يرفض أنه دون المستوى العائلي المطلوب ولا يجب أبداً أن يصبح نسيب عائلة الأسد بالرغم أنه علوي غير مؤكد.

عندما أصر آصف شوكت على موقفه، أمر باسل باعتقاله، وهكذا وضعه الأسد الصغير وراء القضبان، ثم أفرج عنه بعد فترة نتيجة إلحاح أخته وتدخل حافظ الأسد، وتكررت هذه العملية أربع مرات لمنعه من الاجتماع بأخته، طبعاً كانت تتم مراقبة تحركات بشرى الأسد عن طريق محمد ناصيف رئيس الفرع الداخلي آنذاك، وترسل التقارير مباشرة إلى باسل الأسد وبعد سجنه نُقل آصف شوكت إلى دائرة التجنيد العامة شعبة تجنيد طرطوس ولم يعد أحد من أصدقائه يستطيع الاقتراب والتعاطي معه بأي حديث خوفاً على وضعه العسكري وخوفاً من باسل الأسد!!!

في ٢١ كانون الثاني "يناير" ١٩٩٤، انتهى قلق آصف وبشرى، فبينما كان باسل يقود سيارته بنفسه في طريقه إلى مطار دمشق وبرفقته ابن خاله حافظ مخلوف انقلبت السيارة كما يقال بسبب الضباب وسرعة القيادة فقُتل باسل على الفور وأصيب ابن خاله بخدوش بسيطة واعتبر الحادث قضاء وقدر، كما أن بعض المحللين السياسيين قالوا أن عجل السيارة قد انفجر وسببت مقتل باسل الأسد وأشاروا بأصابع الاتهام إلى رفعت الأسد الموجود في فرنسا، بعد أن شعر أن باسل هو المنافس الحقيقي له بعد موت الأسد العجوز وخاصة أنه كان قد بدأ بتصفية جميع مراكز نفوذه وسجن أعوانه. كما أن هناك كان رأي ثان، أشار إلى بشرى وآصف، فهي أفضل وأسهل مَن يستطيع أن يقوم بعملية تخريب أو تفخيخ للسيارة، وهكذا أزيحت العقبة الكبرى من أمام طريقهما ولم يعد هناك من يهدد ويسجن، ولكن ما زال أمر

الزواج ليس سهلاً، فدم باسل لم يجف بعد ومؤهلات آصف لا تشجع على الزواج.

بعد سنة واحدة من مقتل باسل نفذ صبر آصف وبشرى، وقررت بشرى الهروب مع آصف شوكت للزواج منه وفعلاً غادرت بشرى الأسد وآصف شوكت سراً عن طريق تركيا إلى إيطاليا ليعلموا من هناك الرئيس الهالك حافظ الأسد وعائلته عن زواجهم السري، عقد الزواج تم عن طريق شيخ علوي من إحدى قرى لواء إسكندرون وتزوجا بدون موافقة والدها ولا حتى أي فرد من عائلة الأسد، واستقرت بشرى الأسد وآصف شوكت في روما لمدة شهرين لتعود في المناسبة السنوية لوفاة باسل الأسد إلى سوريا وكانت قد اشترت منزلاً في المزة فذهبا إليه، بعد عودتهما إلى سوريا بأسابيع قليلة واستقرارهما في منزلهما في المزة، فوجئ العريسان بحرس أمام منزلهما، وعندما استفسرا عن الأمر تبين أن والدها قد أرسلهم لحمايتها.

أخذت إشاعات زواجهم بالانتشار، فقرر حافظ الأسد وضع حداً للكلام فاستدعاهم إلى القصر وتمت المصالحة والمصارحة والمصاهرة وأنعم عليه الأسد بمباركته وأصبحت طلبات الصهر الوحيد لا ترد، وخلال هذه الفترة، بينما كان يزيد شوكت ألفته مع العائلة، بدأ بمصادقة بشار الأسد شقيق بشرى، الذي عاد من لندن مؤخراً لملء الفراغ الذي حصل بوفاة أخيه، أصبح الرجلان أصدقاء ومع الوقت بدأ بشار يعتمد بشدة على آصف شوكت بأمور المرافقة والحماية. وبدأ الرئيس الهالك يثق بصهره وقدراته عندها طلب منه أن يبقى بجانب بشار الأسد ويدعمه، ويساعد اللواء بهجت سليمان لتهيئة بشار الأسد خلفاً للرئيس الهالك حافظ الأسد وامتثل آصف لأمر عمه.

وبحلول عام ١٩٩٨ أشيع أنه أصبح الرجل الأقوى في سوريا وهذه الإشاعات كانت تنقل من قبل العماد علي دوبا والعماد حكمت الشهابي إلى الرئيس الهالك حافظ الأسد، وأن آصف شوكت يتدخل بكل كبيرة وصغيرة، وخاصة في ملفات الجيش من تنقلات الضباط وتصفيات حسابات بينه وبين بعض ضباط الحرس الجمهوري المقربين من باسل الأسد سابقاً، حيث تم نقلهم إلى قطع عسكرية إدارية بالتنسيق مع العميد عبد الفتاح قدسية ضابط أمن الحرس الجمهوري آنذاك، حيث تعاون عبد الفتاح قدسية مع آصف شوكت على أعضاء كشوف لضباط القصر والحرس الجمهوري وتقديم التقارير على هؤلاء الضباط وعدم إخبار

الرئيس الهالك حافظ الأسد عن هذه الإجراءات طبعاً كلها بأوامر وموافقة أيضاً بشار الأسد، وأيضاً تدخل آصف شوكت في الملف الأمني والسياسي اللبناني وأن أكثر من مرة رفض غازي كنعان أوامر تأتي من قبل آصف شوكت ويقال له نفد هذه الأوامر بتوجيه من بشار الأسد.

طبعاً كل هذه المواضيع نُقلت من قبل العماد علي دوبا وغازي كنعان شخصياً إلى الرئيس الهالك حافظ الأسد، لكن بشار الأسد كان في المرصاد، الأمر الذى لم يرق لكل من العماد حكمت الشهابي والعماد علي دوبا، حيث قررا عندها إيقاف هذه المهزلة وخاصة بعد أن أصبحت الرتبة العسكرية الأعلى غير مطاعة، وأن بعض من الضباط لواء وعميد يؤدون التحية لبشار الأسد أمام كل القطعات العسكرية، وأن نائب رئيس الأركان آنذاك العماد علي أصلان أعطى أوامر سرية بضرورة الانصياع العسكري مهما كانت الرتبة التي يحملها من قائد فرقة إلى قائد فيلق وبعض القياديين العسكريين الآخرين لكل قرارات بشار الأسد، وتم أيضاً شق ضباط بعض الوحدات المقاتلة، الوحدات الخاصة، الحرس الجمهوري، الفرقة الرابعة، حيث نُقل اللواء أمين عدرا من قائد الفرقة الرابعة إلى إدارة شعبة التنظيم والإدارة- منصب إداري بعد تدخل ماهر الأسد في إدارة أمور الفرقة الرابعة ومشادة كلامية بين قائد الفرقة وماهر الأسد.

الطاغية العلوي ماهر الأسد(*)

هذا الملف عن القائد العسكري العلويّ صانع تحرير الجولان!! العقيد الركن ماهر حافظ الأسد عضو اللجنة المركزية لحزب البعث، وعضو بارز بسرقة ونهب الموارد السورية وأكبر رجل أعمال في تبييض الأموال وتهريب المخدرات والرجل الأول في تهريب الآثار السورية!

العقيد ماهر حافظ الأسد، مواليد دمشق ١٩٦٨م.

يحمل شهادة في الهندسة بعد تخرجه التحق بالكلية الحربية وتخرج منها برتبة ملازم أول مهندس قيادي.

التحق بالفرقة الرابعة وأجرى دورات قفز مظلي، وكان ملازماً لشقيقه الهالك باسل الأسد، وكان باسل الأسد يشرف على تدريبه وتولى تدريباته وهو برتبة نقيب كتيبة المهام الخاصة، وكانت هذه الكتيبة الانطلاقة الأولى له والتي تضم ضباط ولاءهم لماهر وهم: غسان بلال، ملهم ميهوب، وباسل العلي، وأحمد بشقاق، وأحمد العبد الله الملحق العسكري في سفارة سورية بفرنسا وغيرهم من الضباط.

الوضع العائلي: متزوج فتاة من عائلة جدعان وهي عائلة أصلها من محافظة دير الزور ولديه ثلاثة أولاد.

صفاته الشخصية: مغامر، دموي، يحب الضرب، متهور وسريع الغضب، محب للهو والسهر، ومصاحبة الصبايا، ويحب إهداء من يحب سيارات فاخرة وخاصة (الجنس اللطيف)! بعض مصادرنا المقربة يقول يحب ممارسة الكيغ - بوكسينغ ولا ينهي تدريباته حتى يرى

(*) المصدر السابق.

الدماء تسيل من خصمه، ويمارس معه هذه الرياضة صديقه عمار ساعاتي رئيس اتحاد الطلبة، ومعروف عنه من قبل ضباطه الموالين له بأنهم يمتلكون أفخر أنواع السيارات ولهم كلمة قوية داخل الفرقة وفي أوساط دوائر الدولة الحكومية يتكلمون باسمه الشخصي؟!

له جهاز أمني خاص يسمى مكتب الأمن يترأسه العقيد غسان بلال، وله سجن خاص به يترأسه ابن عمه رئيس الشرطة العسكرية في الفرقة الرابعة المقدم هلال الأسد.

سنبدأ من أثناء وفاة باسل الأسد حيث كان جثمان الرائد المظلي باسل الأسد مسجى في مسجد السيدة ناعسة (والدة الرئيس الهالك حافظ الأسد السيدة ناعسة شاليش) وكانت الوفود اللبنانية الرسمية خاصة تزحف إلى القرداحة للتعزية بالابن الأكبر للرئيس الأسد الذي كان يحمل اسم أبو سليمان، وهو الاسم الحزبي الذي عُرف به قبل أن يقرر تهيئة نجله الأكبر باسل ليرثه في حكم الجمهورية العربية السورية، فاعتمد تسمية أبو باسل، وكانت فرقة الأحباش اللبنانية للأناشيد الدينية تصدح بحناجرها ليل نهار ولأسبوع كامل أمضتها "مؤاجرة" الأسد وعائلته بفقدان الضابط الشاب الذي ذهب ضحية حادث سير مروع عند دوار مطار دمشق الدولي صبيحة يوم ممطر من شهر كانون الثاني "يناير" ١٩٩٣

كانت هتافات بعض الشباب تردد اسم الوريث البديل للأسد الأب هو نجله الثاني طبيب العيون بشار الذي جاء من لندن حيث يدرس وعلى عجل ليكون إلى جانب والده بعد أن استقر رأيه على تسميته رئيساً ووريثاً بعده، وكان هناك نفر من الشباب المتحمس خاصة بين الجنود وصف الضباط يردد اسم الضابط المحترف ماهر وهو الابن الثالث للرئيس الأسد.

ورغم أن الرئيس الأسد واجه اعتراضاً جدياً من جانب عدد من أركانه خاصة من اللواء علي حيدر قائد القوات الخاصة التي أنقذت نظامه من محاولة شقيقه الدكتور رفعت الاستئثار بالسلطة، حين دخل أبو باسل غيبوبته المؤقتة الشهيرة عام ١٩٨٤، وبلغ الاعتراض حداً دفع أبو ياسر (اللواء حيدر) كي يقول في مجلس خاص: "نحن لم نقم بالثورة كي نحول الجمهورية إلى ملكية، ولن نقبل بشاب طبيب ليس له بالعسكرية ولا بالسياسة كي يكون رئيسنا المقبل".

رغم هذا الاعتراض فإن القضية حُسمت بأن بدأت تهيئة بشار للرئاسة وبدأ والده يأخذ البيعة له لتوريثه الرئاسة من بعده من أركان نظامه الذي صنعه بيديه، وقبع حيدر في بيته

في اللاذقية من تاريخه.

لم يكن للرئيس حافظ الأسد الذي لم يعتد اعتراضاً من أحد أركانه على أي قرار يتخذه خاصة بمستوى توريث سلطته أن يأخذ بهتافات الشباب المتحمس لتولية الضابط الشاب ماهر السلطة من بعده، لكنه في أفضل الأحوال ضمن وجوده داخل السلطة الحاكمة من خلال موقعه المتدرج من قيادة سرية دبابات (ت ٧٢) وهي كانت أفضل ما أنتجته المصانع السوفيتية يومها حتى أصبح في عهد شقيقه الذي حكم البلاد وريثاً لوالده في تموز "يوليو" عام ٢٠٠٠ قائداً للواء الرابع مجهزاً بأحدث المعدات والأسلحة ممسكاً بكل مداخل ومخارج دمشق عسكرياً وأمنياً.

وفي ذلك العام (عام ٢٠٠٠) وكانت فرقة الأحباش اللبنانية عادت لتصدح بأناشيدها الدينية التقليدية في وداع الرئيس حافظ الأسد طيلة الأسبوع الممتد من ١١ إلى ١٨/٦/٢٠٠٠ خرجت صور كبيرة للمقدم ماهر الأسد الذي ترقّى سريعاً ليحمل رتبة عقيد ثم يدخل اللجنة المركزية لحزب البعث العربي الاشتراكي، بعد أن سمّى المؤتمر القطري الذي طال أمد انتظار انعقاده شقيقه الطبيب بشار أميناً عاماً للحزب معطياً إياه رتبة فريق ليصبح هو نفسه الرئيس والأمين العام للحزب والقائد الأعلى للقوات المسلحة العربية السورية في سنة ٢٠٠٠، بعد أن تم تعديل الدستور في إجراء ملتبس لتخفيض سن الرئيس من ٤٠ سنة إلى ٣٤ وكان عمر الطبيب يومها ٣٥ سنة، وقيل يومها أن نائب الرئيس عبد الحليم خدام كان يملك وحده التحكم بهذا التعديل، وكان يكفيه سفراً كما هذه الأيام إلى باريس كي يوقع النظام كله في حيرة كان سيعجز عن الخروج منها، لولا عبد الحليم خدام حيث كان أمل عبد الحليم خدام بأن يقيم بشار الأسد إصلاحات اقتصادية لتحسين أوضاع الشعب السوري، وأن يقيم الحد من سرقة أموال الدول، وأن يوقف بشار الأسد عائلته وعائلة مخلوف من سرقة اقتصاد سورية، وأن يحافظ على السياسية السورية الخارجية!! وأن يتعامل مع الظروف السياسية بحكمة واستشارة من هم كانوا مشاركين في قوة سورية السياسية!! ولكن بشار الأسد هدم سياسة سورية بتسرعه وتسلطه في رأيه وتسلط أفراد عائلته على قراراته السياسية وعلى موارد البلاد واقتصادها والابتعاد عن التشاور السياسي، فتلاشى الأمل في أن تبقى سورية قوية في سياستها الخارجية وفي أن يصنع الإصلاح المالي والاقتصادي، وأن يضع حداً لفساد آل

الحاكم، وأن يصنع الرفاهية والرخاء للشعب السوري، كل هذا الأمل تلاشى وازداد فساده وفساد عائلته.

عاد العميد آصف شوكت وعقيلته ابنة الرئيس حافظ الأسد السيدة بشرى إلى دمشق بعد منفى اختياري في باريس بدأ عام ١٩٩٠ أراده لهما الرئيس الأب حرصاً على مشاعر ابنه الأكبر يومها باسل الذي كان معترضاً بالأساس على زواج شقيقته من عميد الاستخبارات القوي آصف شوكت، وكان من المنطقي وبحكم الضرورة أن يكون شوكت بعد عودته إثر وفاة باسل عام ١٩٩٣ أساسياً في المحيط العائلي، حيث حوّل الشاب بشار الأسد ليصطدم أكثر من مرة مع الضابط الشاب المتحمس ماهر الأسد الذي تولى قيادة الحرس الجمهوري الخاص بالقصر الجمهوري مع توليه زمام الأمور في الفرقة الرابعة، خاصة بعد أن أجرى شوكت حركة تنقلات عسكرية في محيط القصر لم تعجب ماهر الأسد، وعن مشاجرة كلامية بين آصف وماهر أمام الرئيس حافظ الأسد حيث لم يسمح ماهر الأسد بتدخل آصف في شؤون العائلة بعد أن دار حديث عن رفعت الأسد فتحدثت المصادر المطلعة عن إطلاق الأسد الابن النار على الصهر القوي آصف شوكت على أثرها غادر آصف شوكت إلى باريس ليتم علاجه في مشفى فالدوكراس في باريس، وكان يمكن لهذه الواقعة أن تفعل فعلها لولا تدخل الوالدة السيدة أنيسة مخلوف لترطب الأجواء ويجري توزيع المهمات والمسؤوليات حتى لا تتكرر هذه الأحداث الخطيرة على النظام وعلى العائلة.

وبعد وفاة حافظ الأسد عُقد اجتماع بين بشار وماهر وآصف ووُزعت الأدوار بينهم، حيث تسلم ماهر الأسد مافيا آل الأسد، أما مافيا آل مخلوف فتسلمها بشار الأسد شخصياً، مافيا آل الأسد المعروفة في محافظة اللاذقية المسؤولة عن تهريب الدخان والأدوات المنزلية والمخدرات من شمال لبنان والموانئ السورية والموانئ الخاصة المعدة للتهريب في شمال اللاذقية حيث تشمل هذه الموانئ إدخال المخدرات من تركيا وإيران وأفغانستان ليتم تهريبها لاحقاً إلى أوروبا وبعض الدول العربية، وبعد وفاة حافظ الأسد بأربع أيام تم استدعاء جميع شباب آل الأسد إلى دمشق واجتمع معهم بشار الأسد وأعلمهم بأن شقيقه ماهر الأسد أصبح يتولى جميع قضاياهم وهو مسؤول عنهم وعن أعمالهم في التهريب والأعمال الأخرى الخاصة بهم في الدوائر الحكومية، وهذه الترتيبات أثارت السخط والغضب من أولاد عمه

فواز الأسد ومنذر الأسد اللذان كانا يسيطران على مناطق التهريب في الساحل السوري، وتأكيداً لتسلم ماهر ملف التهريب، حدثت حادثة مروعة وتم إغلاق الملف من قبل ماهر الأسد شخصياً وهي: اشتبك محمد الأسد الملقب بشيخ الجبل ومجموعته مع دورية شرطة حين حاولت اعتراضهم وتوقيف قافلة تهريب عائدة لشيخ الجبل محمد الأسد في منطقة المنضار في محافظة طرطوس، فقُتل على إثرها ملازم أول في الشرطة وعنصرين وتم إغلاق الملف ضد مجهول لأن شيخ الجبل محمد الأسد مرتبط بعلاقة شراكة مع ماهر الأسد!!

وتولى أيضاً ماهر الأسد العلاقات المالية والتجارية مع إميل إميل لحود ورستم غزالة والتي تشمل تهريب المخدرات من لبنان وكازينو لبنان ومشاريع إعمارية واقتصادية وبنك المدينة وبنك الموارد.

وفي عام ٢٠٠٠ أيضاً تسلّم ملف الاتصالات السرية مع إسرائيل بواسطة الإعلامية ماريا معروف حيث ربطته مع تاجر سلاح من أصل لبناني مقيم في بريطانيا حيث جرت المحادثات والاجتماع مع الإسرائيليين في إحدى الدول العربية، والذي كان ينسّق الاتصالات من الجانب الإسرائيلي مدير عام وزارة الخارجية إيتان بنتسور، ومن الجانب السوري شقيق الرئيس السوري ماهر الأسد. ونقلت التقارير كل الوقت إلى القدس حيث كان وزير الخارجية سيلفان شالوم في سر الأمور، وإلى دمشق التي كان يتلقى فيها الرسائل ويصدر منها الردود عليها ردوداً قاطعة لا لبس فيها الرئيس الأسد بنفسه.

والآن يتبين أنه باستثناء الحقيقة والتي نشرت لأول مرة في "معاريف" أن الرئيس السوري مستعد للعودة إلى طاولة المفاوضات دون شروط مسبقة، أعرب الرئيس السوري أيضاً عن استعداده لزيارة القدس! سؤال بهذا الأسلوب نقله الطرف الإسرائيلي بواسطة شقيق الرئيس والجواب الذي عاد من دمشق كان: "الرئيس لا يستبعد الوصول إلى القدس"، وأكد بنتسور نفسه أمس المعلومة ولكنه رفض التوسع. "الاتصالات كانت جدية جداً"، ولكن بسبب الخلافات قبل وفاة والده حافظ الأسد مع صهره آصف شوكت تم تحجيم ماهر في مسألة التفاوض مع الإسرائيليين، وكان ذلك بطلب من آصف شوكت لبشار الأسد مما زاد الخلاف بين آصف شوكت وماهر الأسد حيث أصبح في سورية تيارين التيار الأول ماهر الأسد ومحمد ناصيف والتيار الثاني آصف شوكت وفاروق الشرع، وما تزال المنافسة المستعرة بين

رجلي الأمن السوري القويين ماهر الأسد شقيق الرئيس الأصغر وصهره آصف شوكت تضع أحدهما في مواجهة الآخر.

مصادر سورية ولبنانية متعددة أفادت بأن اللواء آصف شوكت رئيس أجهزة المخابرات العسكرية السورية اعتكف عن زيارة مكتبه في حي المزة لبضعة أيام في منتصف أيار "مايو" الماضي، مبدياً اعتراضه على ما اعتبره حلفاً معقوداً ضده بين الرئيس بشار الأسد والمشرف على الحرس الجمهوري العقيد ماهر الأسد، في الوقت الذي كان فيه عرضة لأشد الضغوط من الولايات المتحدة والأمم المتحدة. ولم يعد الحوار بين الرجلين إلا بعد تدخل قوي من بشرى الأسد شقيقة الرئيس وزوجة آصف شوكت. وفي موازاة ذلك كان رئيس الحرس الثوري الإيراني اللواء رحيم صفوي المعروف بعلاقاته الجيدة مع آصف شوكت يقود وساطة إيرانية سرية للغاية، ولأجل هذه الغاية تعمد الانتقال إلى دمشق. العداوة بين الرجلين بدأت في شهر آذار "مارس" عندما عمد اللواء شوكت إلى تعزيز نفوذه عبر إجراء بعض التغييرات في المناطق العسكرية. وفي شهر نيسان "إبريل"، تلقى العقيد الأسد من شقيقه أمراً بتسمية اللواء عبد الفتاح قدسية على رأس جهاز المخابرات الجوية، وهو ما فسره آصف شوكت على أنه تعدٍ على "حقله الخاص". العميد قدسية مقرب من عائلة مخلوف التي تنتمي إليها والدة الرئيس أنيسة مخلوف الأسد، وكان المسؤول عن أمن الحرس الجمهوري بقيادة الأسد. وفي مطلع أيار "مايو" أتى الرد من قبل آصف شوكت بتعزيز سلطات العديد من مسؤولي الاستخبارات العسكرية: رئيس وحدة مكافحة الإرهاب اللواء أمين شرابي، اللواء هشام عثمان مدير الأمن العسكري واللواء محمد الشعار رئيس المنطقة الجنوبية التي تضم محافظات دمشق، درعا، القنيطرة والسويداء.

لقد استطاع ماهر الأسد أن يقيم علاقات استراتيجية ثابتة مع أركان النظام العراقي السابق المقيمين في دمشق، ويؤمن لهم حراسة شاملة كاملة وكثيراً ما كان يزور جبهة الحدود الواسعة ٥٥٠ كم بين سوريا والعراق، ولعل أشهر زيارتين لتلك الحدود مشهود لهما بالدور الكبير كانتا حين زار الجبهة السورية – العراقية ليشرف على تمرير المقاتلين "عرباً وعراقيين" والأسلحة للقتال ضد قوات الاحتلال الأميركية للعراق، ثم حين زارها بعد ذلك للإشراف على ترتيبات إقفال هذه الحدود تلبية للطلب الأميركي بضبط الحدود تلك ومنع

تسرب المقاتلين الذين يقضّون مضاجع قوات الاحتلال في بلاد الرافدين؟! حيث بدأت الناس تتساءل عن إعدام أولادهم وعن التهم التي أبقت الكثير من أولادهم في السجون سنين طويلة من شبابهم وعن إعدام شباب وطلاب ثانويين لمجرد أنهم تناولوا فتة حمص مع بعض أصدقائهم، أو آخرين نصبوا خيمتهم للنزهة في شواطئ طرطوس أو في اللاذقية وكسب وصلفنة ومناطق سياحية أخرى، ويسمحون للمجاهد الكبير والعلامة الفاضل وناصير الدين وحامي حماه الشيخ الحلبي "أبو القعقاع" بإعلان الجهاد وتدريب المقاتلين على السلاح والكاراتيه وفن القتال الفردي في قلب مدينة حلب ثاني أكبر المدن السورية؟! وفي حي الصاخور الشعبي؛ حيث كنا نجد خطب ومواعظ أبو القعقاع الحماسية تباع في المكاتب وعلى الأرصفة وأمام المساجد، مع العلم أن الشيخ المجاهد أبا القعقاع كان يستلم من عنصر الأمن المكلف ما سيقوله (كبقية خطباء سورية) قبل خطبة الجمعة، لكنه لجرأته النادرة وشجاعته الفريدة ولتفانيه في حب الجهاد ولشوقه إلى الشهادة في سبيل الله كان لا يهتم بإملاءات المخابرات والبعثيين، ولا يخاف من أحد إلا الله!!

وكانت كتبه في حوزة تلاميذه الذين استشهدوا وجرحوا واعتقلوا وهم يجاهدون متسللين إلى بناء مهجور في ساحة الأمويين وسط دمشق فَجْر الجمعة الثاني من حزيران ٢٠٠٦ وكان بحوزتهم – إضافة لخطب ومواعظ وكتب المجاهد الأعظم أبي القعقاع - أسلحة أمريكية وصلتهم من دولة مجاورة جغرافياً!! وللعلم فإن كل الأسماء التي عُرفت ممن قضوا في هذه الحوادث كانوا من المهربين والمجرمين والمطاردين والمطلوبين جنائياً، وبعضهم كان مطلوباً من الأردن وفق طلب رسمي مقدم للإنتربول كما فضح ذلك الأمن الأردني، لكن مشيئة المخابرات في سوريا أن تجعل منهم شهداء وحكايا وبطولات تنظيم جند الشام أو غرباء الشام أو قل جند مخابرات أبو القعقاع الأسدي الذي كان يقبض على كل رأس من الشباب المتحمس الذاهب إلى الجهاد! أما السيد ماهر الأسد فيكون قد ضرب عدة عصافير بحجر واحد، حيث كشفوا وتخلصوا من الشباب المسلم المتحمس للجهاد أولاً.

وبهذه التمثيلية أولاً أظهروا للعالم أجمع وللأمريكيين خصوصاً أنهم مستهدفون من الإرهاب العالمي مثلهم، ثانياً لإسرائيل رسالة مفادها أن هؤلاء هم الذين سيشعلون جبهة الجولان بعد أن استطعنا حمايتها لكم وإخمادها وإسكاتها تماماً منذ حرب تشرين وحتى الآن،

ثالثاً وبرروا استمرارهم في فرض قوانين الطوارئ والقوانين الاستثنائية التي ما زالت مسلطة على رقاب شعبنا المظلوم والمغلوب على أمره منذ أكثر من أربعة عقود.

فساد ماهر الأسد:

أما عن فساده فهي كثيرة ومقسمة داخل سوريا وخارجها والآن سنتحدث عن فساده داخل سوريا:

في سنة ١٩٩٨ أقدم الرئيس حافظ الأسد بطلب من بشار وآصف بأن هنالك سيارات موزعة من القصر الجمهوري وعددهم حوالي ٦٠ سيارة ولوحات رقمية حوالي ١٠٠ تم توزيعها بأمر من ماهر الأسد، وهنالك سيارات على ملاك الفرقة الرابعة أيضاً تحمل لوحات عسكرية موزعة على أصحابه من الليالي الحمراء الملاح.

أصدر الرئيس قراراً بسحب اللوحات الخاصة والسيارات الممنوحة من ماهر الأسد، واحتج ماهر الأسد على هذا التصرف مما أدى إلى المشادة الكلامية بينه وبين والده، وأقدم على مهاجمة آصف شوكت صهره زوج الدكتورة بشرى الأسد الذي لم يكن يوماً وحتى هذه اللحظة موافقاً على خطف آصف لبشرى والزواج منها في إيطاليا أمام والده.

وتم إبقاء عشرين سيارة منحها ماهر الأسد منهم لعائلة دمشقية معروفة حيث تقطن هذه العائلة في المزة فيلات قرب معهد إعداد المعلمين في المزة، وبعض السيارات إلى قريبة زوجته وأصدقاء زوجته.

قام غسان بلال مدير مكتب ماهر الأسد بتقديم محمد حمشو على أنه رجل أعمال ناجح وطموح وموثوق، طبعاً.. موثوق هي كلمة عالمية يتداولها زعماء المافيا، لكن في مملكتنا السعيدة لدى آل الأسد هي تعني أنه كتوم وخادم ممتاز لسرقاتهم ونهب ثروات البلاد!!

وبسبب غيرته من رامي مخلوف الذي أصبح اسمه مردد كثيراً وخاصةً لدى المسؤولين في الدولة فكان التوجه بإيجاد اسم جديد على الساحة الاقتصادية السورية فأوجد شخص يدعى محمد حمشو للمشاريع الداخلية وميزر نظام الدين وصهره خالد ناصر قدور، يشكلون هيئة وكلاء لأعماله في الخارج!!

وكان أول مشروع بداياته مع محمد حمشو هو مشروع شركة الاتصالات برّاق وهي كبائن هاتفية حصالات.

- مجموعة حمشو للاتصالات الدولية: مؤسسة تم توقيعها وافتتاحها منذ فترة قصيرة وخاصة بعد توقيع عقد مع شركة الثريا للاتصالات عبر الأقمار الصناعية فهو أصبح وكيلهم الحصري في سوريا.

- مؤسسة براق للدعاية والإعلان: رئيس مجلس الإدارة إعلانات الطرقات الضوئية والإلكترونية.

- لجنة الشركات: رئيس لجنة الشركات تُعنى هذه الشركات بالعلاقات المالية، البورصة بالخارج وبيع الأسهم وتحويل العملات وتبيضها.

- لجنة التخطيط والإنتاج: عضو لجنة التخطيط والإنتاج تُعنى بالتخطيط والاستثمارات الخارجية والداخلية، أي تسهيل أمور أي مستثمر داخل سوريا بنسبة معينة من الأرباح.

- مجموعة حمشو الدولية: رئيس مجلس إدارة مجموعة حمشو الدولية نشاط هذه الشركة في دول الخليج جبل على استيراد وتصدير.

- شركة الشرق الأوسط للتسويق - لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات: رئيس مجلس إدارة شركة الشرق الأوسط للتسويق - لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

- شركة سورية الدولية للإنتاج الفني: رئيس مجلس إدارة شركة سورية الدولية للإنتاج الفني.

- موقع إخباري شام برس.

- شركة شام للدراسات الهندسية والتعهدات: رئيس مجلس إدارة شركة شام للدراسات الهندسية والتعهدات.

- جبالة الإسمنت الشرق الأوسط.

- شركة جوبيتر للمشاريع السياحية: رئيس مجلس إدارة شركة جوبيتر للمشاريع السياحية.

- سلسلة مطاعم زمان الخير.

- الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية: عضو مجلس الإدارة للجمعية العلمية السورية للمعلوماتية بيع واستيراد أجهزة الكمبيوتر وقطع الغيار لها.

فساد ماهر الأسد مع محمد حمشو في الدوائر الحكومية:

- قضية جمركية أُلغيت بقدرة قادر: وهي إدخال شاشات عرض تلفزيونية بلازما بشهادة استيراد على أنها قطع غيار للكمبيوتر، شاشات عرض للكمبيوتر فيها ضبط جمركي وفيها غرامات مالية باهظة ومحكمة اقتصادية ولكن ألغيت كافة الإجراءات.

- بيع حوالي ٢٥ ألف جهاز كمبيوتر إلى وزارة التربية بدون عروض مناقصة تم بيعها بشكل أمر من ماهر الأسد شخصياً على وزير التربية بدون عروض ومناقصة.

- إنشاء موقع شام برس الإخباري مع السيد علي جمالو الذي كان يعمل مصوّراً لدى هيئة الإذاعة والتلفزيون. والكل يعرف بأن هذا الموقع بات عبارة غطاء ودعاية كاذبة عن الشفافية والتحدث عن الفساد بشكل شفاف وموضوعية، وانتقاد أجهزة الدولة ضمن المسموح به من فساد الموظفين دون الاقتراب من نقد فساد النظام وآل الحاكم، كل ذلك من أجل خداع الرأي العام العالمي بأننا لدينا صحافة حرة!!

- المارّون الآن في ساحة الأمويين في دمشق يجدون حالياً معدات بناء وبرّاكات كتب عليها مؤسسة الخياط للتجارة والمقاولات.

ولمن لا يعلم، فإن مؤسسة الخياط ما هي إلا إحدى شركات محمد حمشو الوهمية، والتي هي ملكيتها الحقيقية لماهر الأسد، وهي مسجلة باسم زوج شقيقة حمشو، ويستعملها حمشو كغطاء لعدم لفت الأنظار في حصوله على تعهدات الدولة بعد أن كثر الحديث عن الفساد في الآونة الأخيرة.

والذي حصل أن المحافظ القديم محمد بشار المفتي لم يَرُقْه أن مؤسسة الإسكان العسكري كانت مسؤولة عن أعمال ساحة الأمويين، لأن الموضوع فيه "رزقة" كبيرة تقف في وجهها مؤسسة الإسكان.

ولذلك، (وحسب ما صرحت به مؤسسة الإسكان لوسائل الإعلام الرسمية)، بدأ المحافظ بوضع العراقيل أمامهم، من تأخير في تسليم الدراسات أو التغيير المستمر للمواصفات.

وبدأ تقاذف التهم بين المحافظة وبين مؤسسة الإسكان عن أسباب تأخر أعمال الساحة، إلى أن "استوت" الطبخة، فأصدر المحافظ قراراً بسحب أعمال ساحة الأمويين من يد مؤسسة الإسكان العسكري بحجة عدم الكفاءة. وقام بتعهيد كافة الأعمال إلى شركة الخياط (أي محمد حمشو)، وطبعا حصل على "الرزقة" التي كان يسعى وراءها.

ولم تسكت مؤسسة الإسكان العسكري على المحافظ الذي كان عليه أن يحذر من اللعب مع "العسكر".

ومقارنة مع تاريخ محمد ميرو وناجي العطري الحافل (عندما كانا محافظين)، فلا تستبعدوا أن يصبح محمد بشار المفتي رئيس وزرائنا القادم.. فأنتم في سوريا الأسد!!

مهمات حمشو التي كلف بها من قبل ماهر الأسد:

١- عقود البترول مع عُدي صدام حسين: تهريب البترول العراقي لبيعه بالسوق السوداء بعيداً عن قرار الأمم المتحدة "النفط مقابل الغذاء"، وكانت تُنقل من العراق إلى سوريا ويتم نقلها ببواخر شحن بترول خاصة تباع في السوق السوداء وكان فيها مُضر الأسد، وشركة المهيب وهيب مرعي، هاشم العقاد، صائب النحاس.

٢- بيع معدات إنارة من شركة فليبس من وكيلها في سوريا بسام سكر، وكان شريكه عمر التاجر ابن اللواء مصطفى التاجر، وكانت صفقة فيها الملايين من الدولارات.

٣- غسل أموال صدام حسين وتهريبها من العراق بعد اجتماعه مع عُدي صدام حسين ومع رجل أعمال أردني اسمه يوسف الزعبي ومحمد...!

حيث تم إدخال المبالغ إلى لبنان وتم تبييضها ونقلها إلى بنوك أخرى عربية وتم تبييضها عبر بنك المدينة وبنك الموارد، وكان المشرف الأمني على هذه العملية العميد رستم غزالة، حيث تم إدخال مبالغ هائلة بأسماء وهمية وصفقات مشبوهة أو تسمى صفقات بدون أي أساس لها وعقود تصدير وهمية ليتم تبييض الأموال داخل هذه البنوك.

بالإضافة إلى عمليات تبييض أموال المخدرات..

وقصص الأموال المهربة من بنك المدينة وخاصة الأموال التي سُحبت وصُدرت بأسماء مجهولة، والأموال التي أيضاً سُحبت من قبل شقيق العميد رستم غزالة كلها أموال عراقية للبترول كانت قد تم تبييضها، وبالإضافة إلى سرقة أموال مودعين بنك المدينة بالاشتراك أيضاً مع العميد رستم غزالة.

وبعد سقوط نظام صدام تم الاحتيال على الحكومة العراقية الجديدة بهذه العمليات حيث لم يتم التصريح عنهم، وتم كشف عملية تهريب أموال عراقية بعد دخولها إلى لبنان مبالغ ضخمة بطائرة خاصة، وكان مشرف على تهريبها محمد حمشو، ولكن الأقدار شاءت أن تكشفها الأجهزة الأمنية اللبنانية ويتم مصادرتها.

٤- محمد حمشو مسؤول عن الحسابات السرية لماهر الأسد في البنوك الأوروبية وخاصةً السويسرية.

٥- لديه أسهم في إحدى الشركات المالية السويسرية التي تعنى في إصدار بطاقات (ماستر كارد) ولكن المالك الحقيقي لهذه الأسهم هو الأسد.

٦- أسهم في بنك سوريا والمهجر وشريك أساسي لشركة الهرم للصرافة مدعومة من الأسد، الصرافة والتحويل الخارجي ممنوعين في سوريا..!!

فساد تبيض الأموال:

أُجبرت المؤسسة العامة للاتصالات على إرساء مناقصة PDN شبكة الإنترنت في سوريا لصالح شركة محمد حمشو بمبلغ وقدره ١٩ مليون دولار أمريكي، علماً بأن كلفة المشروع دون أرباح هي ٢٠ مليون دولار، وهذا ما يؤكد عملية تبييض الأموال من قبل حمشو ومعلمه ماهر الأسد. وبلغت غرامات التأخير أكثر من أربعة ملايين دولار، وتم التخلي عن وزير الاتصالات السابق بشير المنجد لأنه طالب مِحمد حمشو بتسديد غرامات التأخير!!

وإحدى طرق تبييض الأموال إنشاء شركة لصناعة الإسمنت في سوريا، علماً بأن كثير من الشركات الألمانية لم يتم الموافقة على عروضها، فقد أعلنت مجموعة حمشو الاقتصادية السورية (وهي التابعة بملكيتها الحقيقية لماهر الأسد) عن مشروع جديد للإسمنت بطاقة إنتاجية تصل إلى مليون ونصف المليون طن سنوياً وبأن المشروع مشمل بقانون الاستثمار رقم ١٠١١ وأن رأسمال هذا المشروع يبلغ ٢٠٠ مليون دولار، ومن المقرر أن يقام في منطقة أبو الشامات قرب دمشق، كما أنه سيعتمد على تكنولوجيا أوروبية ويوفر ٤٠٠ فرصة عمل.

وأصبح ماهر الأسد وكيل شركات الدخان الأجنبي (مارلبورو، كنت) في سوريا والتي تقاسمها مع خاله محمد مخلوف التي تم توزيعها مناصفة مع الخال.

فساده مع عضو مجلس الشعب هاشم عقاد:

أعاد ماهر الأسد علاقاته مع هاشم عقاد صديق باسل الأسد بعد أن انقطعت علاقة هاشم العقاد بالقصر الجمهوري بعد وفاة صديقه باسل.

وقد أعاد ماهر الأسد هذه العلاقة من أجل تطوير علاقاته التجارية مع العراق وخاصة في مجال المحركات (محركات الدبابات والاتصالات والنفط)، وبعد سنوات حصل خلاف

على العمولة بين هاشم عقاد وماهر الأسد، فأخذ قرار بمنع سفر هاشم عقاد إلى العراق، وفتحت له ملفات كانت مغلقة، ومنها بنك بيمو اليوناني، وملف معمل المياه الغازية المبني على أراضي تعود ملكيتها للدولة ووزارة الزراعة والتي وضع يده عليها بواسطة باسل الأسد.

فساد ماهر الأسد خارج سورية:

بالنسبة لفساد ماهر الأسد خارج سوريا كانت تتم عبر ميزر نظام الدين وصهره خالد ناصر قدور، الذين يشكلون هيئة وكلاء لأعماله الخارجية، ميزر نظام الدين هو مدير عام لمحطة إذاعية في سورية وعن طريق إميل إميل لحود ورستم غزالة في لبنان حيث تم تبييض أموال عراقية "النفط مقابل الغذاء" لصالح العقيد ماهر الأسد، وتهريب أموال لرامي مخلوف الموظف لدى بشار الأسد، وهذه الحسابات هي في سويسرا باسم بشار الأسد شخصياً ولكن لا تحمل اسم شخصي إنما حساب رقمي!!

وقضية بنك الموارد التي لم تظهر للإعلام والتي تم التكتم عليها والضغط على وسائل الإعلام أثناء السيطرة الأمنية على لبنان، حيث أقدم رستم غزالة بتبييض أموال صدام حسين وتهريبها للخارج وكانت تقدر بمبلغ ٥٠٠ مليون دولار قبل سقوط بغداد بحوالي سنة ونصف، وهذه العملية تم التنسيق عليها بين ميزر نظام وقصي صدام حسين والعقيد ماهر الأسد، وتمت عملية تبييض الأموال وتهريبها خارج لبنان بموافقة ماهر الأسد بعد أن كانت له النسبة الأكبر من هذه العملية، وقد أديرت هذه العملية من دمشق بتوجيه من ماهر الأسد شخصياً، وتم تنفيذها من قبل رستم غزالة للتغطية الأمنية والضغط الأمني بأسماء كل من طلال أرسلان وإميل إميل لحود ونقلها بأسمائهم للخارج، وهم بالنهاية يمثلون العقيد ماهر الأسد وكان نصيب رستم غزالة من هذه العملية ٣ مليون دولار أميركية، وشقة سكنية للسيد إميل إميل لحود في برج غزال في الأشرفية، أما السيد طلال أرسلان فكان له حصة مالية وضعت في حسابه في بنك دبي وبنك سويسري تقدر بحوالي ٢.٣ مليون دولار، حينها طلبت زوجة طلال أرسلان الطلاق منه لأسباب أخلاقية (وهو يمارس الجنس مع سائقه) حيث ضغط ماهر الأسد شخصياً على عائلة زوجة طلال ارسلان (عائلة خير الدين أصحاب بنك الموارد)، واستدعى رستم غزالة أشقاء زوجة طلال ارسلان وضغط عليهم بعدم قبولهم لطلب زوجة طلال بالطلاق منه خوفاً من البوح والتكلم عن الفضائح والأسرار التي كانت تعرفها زوجته،

وخاصة الفضيحة الأخلاقية المنافية للطبيعة للسيد طلال أرسلان. هذه المصالحة بين طلال وزوجته لم تأتِ بناءً عن نخوة ماهر الأسد ورستم غزالة إنما خوفاً على مصالحهم الخاصة وعلى أسرارهم وعلى أسرار أزلامهم وسائقيهم كونهم هم بيت أسرار معلميهم بتحركاتهم ومصالحهم المالية.

ماهر الأسد أحد المتورطين الأساسيين في فضيحة بنك المدينة:

تم سحب شيكات مسحوبة من بنك المدينة باسم أشقاء رستم غزالة وهم محمد عبده غزالة وبرهان غزالة وصولاً إلى الدكتور ناظم غزالة حيث بدأت عملية السحب والإيداع على البنك المذكور من تاريخ ٢٠٠٢/١/١٩ وحتى ٢٠٠٢/١٢/٣١ وتجاوزت قيمة الشيكات ٨ ملايين دولار و٣٩٦ ألف دولار أميركي واستمرت عمليات الإيداع غير معروفة المصدر والسحب بعد ذلك ليصل إلى ٨٥ مليون دولار بعد موت قصي وعدي صدام حسين!

وأقدم رئيس مجلس إدارة بنك المدينة وبنك الاعتماد المتحد، الموضوعين تحت إدارة عدنان أبو عياش بإقامة دعوى جديدة شملت هذه المرة إلى رنا عبد الرحيم قليلات، ورئيس جهاز الأمن والاستطلاع السابق للقوات السورية قبل انسحابها من لبنان العميد رستم غزالة وأشقائه محمد عبدو غزالة، وبرهان عبدو غزالة وناظم عبدو غزالة، وكذلك إيهاب عبد الرحمن خمية المتعامل مع المصرفين بواسطة قليلات، متهماً الأربعة بسرقة مئات الملايين من الدولارات الأميركية ومن المبالغ التي تم تحويلها إلى المصرفين والتي بلغ سقفها بحسب الدعوى ٧٨٥.٥٨٠ مليون دولار أميركي.

وتم الكشف عن ملف بنك المدينة وشقيقه بنك الاعتماد المتحد يتضمن سحوبات عبر الصراف الآلي، وحوالات وشيكات صدرت بأسماء متعددة وتم تجييرها لمصلحة أشقاء غزالة ولمسؤولين سوريين كبار في مراكز حكومية على أعلى المستويات.

بعد الانسحاب السوري من لبنان، بدأت تظهر إلى العلن الممارسات غير الشرعية التي كانت تحصل.

لوحظ في الوقائع التي استهلت بها الدعوى إشارة إلى إن بعض الأسماء هم من المسؤولين العسكريين في سوريا كي لا نقول في لبنان وسوريا. واللافت أن بعض الأسماء الضالعة بقوة في السحوبات التي حصلت من المصرف تم بواسطتها شراء مجموعة كبيرة

من العقارات في يوم واحد قد اختفت كلياً من الملف، واللوائح التي تم تبادلها بين المصرفين ومصرف لبنان، بما في ذلك أسماء متهمة بعمليات تبييض أموال على نطاق واسع.

وتؤكد المصادر نفسها أن المعنيين بالملف، من سياسيين وأصحاب نفوذ في لبنان، المقربين من رستم غزالة وماهر الأسد وآصف شوكت قد حصلوا على منافع بعشرات الملايين من الدولارات الأميركية عن طريق سحوبات تم من خلالها شراء عقارات ما لبث أن أعيد بعضها إلى المصرفين بأسعار منفوخة، من دون أن يكون لهم أصلاً أي ودائع أو حسابات دائنة حقيقية، فضلاً عن سرقات أموال موصوفة بمئات الملايين خرجت نقداً، وعبر بطاقات الدفع، وكانت تنتقل من حساب إلى آخر في غضون أيام معدودة بقصد التمويه.

وأن أسطولاً من السيارات الفارهة من الطراز الحديث ذهب هدايا من المجموعة نفسها إلى زعماء ونافذين في سوريا!!

وتغمز الدعوى الموثقة بأرقام حسابات لآل غزالة وقليلات وحمية، من قناة أجهزة الرقابة في مصرف لبنان التي كانت على علم واطلاع على مخالفات المصرفين، وتعزو ذلك إلى احتمال أن تكون هناك ضغوط سياسية أو أمنية حالت دون تحرك مصرف لبنان عند الاقتضاء.

وتطالب الدعوى الجهات القضائية بالتحقيق مع المدعى عليهم وتوقيفهم وإعادة الأموال المسروقة وكشف الأموال التي بيضت لصالح ماهر الأسد ورامي مخلوف وآصف شوكت والأموال المسروقة والمبيض التي كانت عائداتها لقصي وعدي صدام حسين التي نهبت وتبخرت في ليلة واحدة بعد مقتل أبناء صدام حسين!!

وإعادة رنا قليلات التي تم تهريبها من لبنان بعد حادثة مقتل رفيق الحريري والتي تم تهريبها عن طريق رستم غزالة عن طريق الخط العسكري، ومن ثم تم تزويدها بجواز سفر مزور غادرت به إلى تركيا ومن ثم إلى مصر ومنها إلى البرازيل هذه التنقلات المطلوبة من الانتربول لا تتم إلا بتنسيق أمني!

تبييض وتهريب أموال مخدرات لصالح ماهر الأسد:

كان ماهر الأسد نشيطاً في دعم وتسهيل تهريب المخدرات من لبنان إلى أوروبا وكان من بين هؤلاء العملاء يحيى شمص المعروف بغنائه الفاحش، وزعيم تهريب المخدرات

اللبنانية إلى خارج لبنان وصاحب مزارع الخشخاش في البقاع التي كانت محمية من قبل ماهر الأسد شخصياً حماية أمنية وعسكرية أكثر من حماية حدودنا على إسرائيل!!

ولم يتوقف بل استمر في التدخل في إعمار الجنوب بفرض أسماء مقاولين على مجلس الجنوب، محمد دنش لإرساء مناقصات المقاولات عليهم بدون دفتر شروط وبأسعار خيالية وتنفيذ أسوأ من السيئ، وأسس شركة خاصة مع ذو الهمة شاليش وإميل إميل لحود ومع جورج معوض غزال شركة معوض للبناء.

وأسندت لهذه الشركة بناء سد شبروق بكسروان بكلفة ١٢٠ مليون دولار، والحصة الكبيرة كانت للعميد ذو الهمة شاليش، هذه هي الحماية الأمنية للبنان حماية اقتصادية لصالح آل الحاكم في سوريا!

وكما ذكرنا في حلقة سابقة فكان ذو الهمة شاليش شريك أساسي لماهر الأسد في كسارة لبنان، كسارة فتوش التي كانت بدون أي تراخيص وكانت أرباحها تقدر بملايين الدولارات سنوياً كون رستم غزالة له حصة فيها، وكان يفرض ما تنتجه الكسارة على شركات البناء وعلى شركات إعمار لبنان مجلس الجنوب بأسعار خيالية، إرضاء لصاحب الحصة الأكبر ذو الهمة شاليش.

الحقيقة مع كل ما حدث في لبنان وكل ما أفسده ماهر الأسد ورستم غزالة، دفع رفيق الحريري لفتح ملفات فسادهم مع الدكتور بشار الأسد، ولكن تم التخلص من رفيق الحريري خوفاً من أن يسيطر على الأغلبية اللبنانية في البرلمان ويتم فتح ملفات فساد الحاكم وأجهزته في لبنان، إن الحريري قُتل لمنعه من التحقيق في ملف المدينة.

واستندت فورتشن إلى محققي الأمم المتحدة ووثائق مصرفية ومصادر أخرى للقول إن عملية اغتيال الحريري كان أحد أغراضها تغطية فضيحة المدينة التي ضخت من طريق الفساد والاحتيال المصرفي مئات الملايين من الدولارات إلى رسميين سوريين ولبنانيين. ونقلت عن المصادر إياها أن الرسميين السوريين واللبنانيين الذين تورطوا في الاحتيال خافوا عودة الحريري إلى السلطة وكشف دورهم في واحد من أكبر الأعمال المصرفية غير الشرعية في الشرق الأوسط.

حين تورط عملاء الاستخبار السوريين السنة الماضية في اغتيال رئيس الوزراء اللبناني

السابق رفيق الحريري، كان دافعهم يبدو واضحاً: تحييد خصم للاحتلال السوري الذي استمر ثلاثة عقود في لبنان.

لكن محققي الأمم المتحدة ومصادر أخرى أخبرت مجلة فورتشن أنهم ربما تحركوا بحوافز إضافية ليضربوا ضربتهم. ذلك التفجير بالسيارة في شباط "فبراير" ٢٠٠٥، على ما تقول المصادر، ربما كان أحد أغراضه تغطية فضيحة فساد واحتيال مصرفي ضخ مئات الملايين من الدولارات إلى رسميين سوريين ولبنانيين.

وتدل الوثائق المصرفية واللقاءات مع المحققين والمصادر الأخرى على أن بعض الرسميين كانوا متورطين بشدة منذ أواخر تسعينيات القرن الماضي حتى أوائل سنة ٢٠٠٣ في خطة ابتزاز أمدتهم بالنقد وبالعقارات والسيارات والجواهر، لقاء توفير الغطاء والتسهيل لنشاط غسل أموال بمليارات الدولارات في مصرف المدينة، أتاح لبعض المنظمات، وموزعي الماس الدموي في غرب أفريقيا ولصدام حسين والعصابات الروسية، أن يخفوا مصادر دخلهم ويحولوا أموالهم إلى حسابات مصرفية شرعية حول العالم.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلت لإخفاء تفاصيل انهيار المصرف في أوائل ٢٠٠٣، تقول هذه المصادر فإن الرسميين السوريين واللبنانيين الذي تورطوا في الاحتيال خافوا عودة الحريري إلى السلطة وكشفه دورهم في واحد من أكبر الأعمال المصرفية غير الشرعية في الشرق الأوسط منذ فضيحة مصرف الاعتماد والتجارة الدولي في أوائل التسعينيات.

ويسأل مروان حمادة وهو وزير الاتصالات، وأحد المقربين من الحريري، وقد تعرض هو بنفسه أيضاً لمحاولة اغتيال بتفجير سيارة: هل كانت الفضيحة أحد أسباب اغتيال الحريري؟ ويجيب: حتماً. كان بالتأكيد أحد الأسباب المتراكمة. فلو أعيد انتخابه لكان أعاد فتح الملف، الذي تصل خيوطه مباشرة إلى "الرئيس السوري بشار الأسد"، من خلال قصر الرئاسة "اللبنانية" في بعبدا.

وقد اهتم المحققون في موت الحريري، في سجلات المصرف الخاصة بالمشتبه فيهم في سوريا ولبنان، بالنظر في ما إذا كان على الأقل بعض المتآمرين تحفزهم الرغبة في طمس دورهم في قضية مصرف المدينة.

ويضيف المصدر إن الأمر يصل إلى أعلى المراجع في سوريا وتشير التقارير في شأن

الاغتيال إلى الاحتيال المالي، على أنه حافز محتمل. إذ في كانون الأول "ديسمبر" الماضي، انهيار مصرف المدينة: الاحتيال والفساد وغسل الأموال قد تكون حوافز لبعض الأشخاص على الاشتراك في العمل الذي انتهى إلى اغتيال السيد الحريري.

وإن حديث مسجل اتهم فيه العميد رستم غزالة العسكري السوري الأعلى رتبة في لبنان آنذاك الرئيس الحريري بالحديث عن الفساد السوري في لقاء مع صحيفة، منتهكاً على ما يبدو اتفاقاً للسكوت على الأمر.

وقد أمر الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش في نيسان "إبريل" الماضي، بإشارته إلى التحقيق الدولي، بتجميد ممتلكات كل من تورط في جريمة الاغتيال في الولايات المتحدة، مع أن الأمر لم يذكر أسماء.

وقد استقال الرئيس الحريري من رئاسة الحكومة، ضمن صراع السلطة الذي أعقب تمديد الأسد ولاية الرئيس اللبناني إميل لحود حليف سوريا في سنة ٢٠٠٤، وكان ينوي خوض معركة الانتخابات لمجلس النواب، على أساس معارض لسوريا. ويقول المقربون من الرئيس الحريري، إنه كان ينوي لدى عودته إلى السلطة، أن يعيد فتح التحقيق في انهيار المصرف. وقد ختم على ملف القضية وعلى كنز من الوثائق المساندة في قبو مصرف لبنان المركزي في سنة ٢٠٠٣، بعد تهديد غزالة الذي يبدو أنه جنى ملايين الدولارات من الأمر لنفسه.

لقد نظر طويلاً إلى وجود سوريا في لبنان منذ ١٩٧٦ حتى ٢٠٠٥، على أنه تحرك جغرافي سياسي يرمي إلى ضمان استقرار الجار الصغير، بعد عقود من الحرب الأهلية، وإلى اتخاذ ورقة مساومة في النزاع العربي – الإسرائيلي، لكن مع الوقت تحول الاحتلال إلى مشروع لإنتاج المال للنخب السورية وحلفائها اللبنانيين.

بعض مجرمي مجزرة تدمر من المخططين والمنفذين
(وكلهم من الطائفة العلوية)(*)

١. حافظ أسد (رئيس الجمهورية وقت المجزرة).
٢ رفعت أسد (قائد سرايا الدفاع).
٣. المقدم فيصل غانم (مدير سجن تدمر).
٤. المقدم علي ديب - قائد اللواء (١٣٨) من سرايا الدفاع (من محافظة اللاذقية).
٥. الرائد معين ناصيف - قائد اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع.
٦ المقدم سليمان مصطفى - قائد أركان اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة حماة).
٧. الملازم أول ياسر باكير - من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (محافظة حماة).
٨. الملازم منير درويش - من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (محافظة اللاذقية).
٩. الملازم رئيف عبد الله - من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (محافظة اللاذقية).
١٠. الرقيب محمد عمار - من حراس منزل معين ناصيف (من محافظة اللاذقية).
١١. الرقيب علي موسى - من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة حمص).
١٢. الرقيب همام أحمد - من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من جبلة).
١٣. الرقيب نزيه بلول - من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة حمص).
١٤ الرقيب طلال محي الدين أحمد - من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة اللاذقية).
١٥. الرقيب عيسى إبراهيم فياض - من حراسة منزل معين ناصيف (من محافظة اللاذقية).
١٦. الرقيب بدر منصور - من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من جبلة).

(*) المصدر السابق.

١٧ العريف أكرم البيشاني – من حراسة منزل معين ناصيف (من محافظة طرطوس).
١٨ العريف إبراهيم يونس – من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (محافظة حمص).
١٩. العريف إبراهيم مكنا – من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من جبلة).
٢٠. العريف طاهر زباري – من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من جبلة).
٢١. العريف علي صالحة – من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع – منطقة مصياف.
٢٢. العريف عبد الرحمن هدلان – من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع.
٢٣. العريف ناصر عبد اللطيف – من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة طرطوس).
٢٤. العريف غسان شحادة – من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة اللاذقية).
٢٥. العريف حسين عيسى – من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة حمص).
٢٦. العريف بشير قلو – من اللواء (٤٠) من سرايا الدفاع (من محافظة حمص).

أسماء بعض من خططوا وشاركوا في مجزرة حماة عام ١٩٨٢(*)

- العقيد المجرم رفعت الأسد قائد سرايا الدفاع – أصبح نائباً لرئيس الجمهورية.
- اللواء المجرم علي حيدر قائد الوحدات الخاصة.
- العقيد المجرم علي ديب أحد قادة الوحدات الخاصة.
- العقيد المجرم يحيى زيدان كان ضابطاً في سرايا الدفاع، ثم فُرز إلى المخابرات العسكرية، وأصبح رئيس فرعها في حماة.
- العقيد المجرم نديم عباس قائد اللواء ٤٧ دبابات.
- العقيد المجرم فؤاد إسماعيل قائد اللواء ٢١ ميكانيكي.
- المقدم المجرم رياض عيسى قائد اللواء ١٤٢ في سرايا الدفاع.
- المقدم المجرم وليد أباظة رئيس فرع الأمن السياسي وأحد المحققين فيه.
- الرائد المجرم محمد رأفت ناصيف المخابرات العامة، أشرف على التعذيب في سجن الثانوية الصناعية.
- الرائد المجرم إبراهيم المحمود شارك في التحقيق والتعذيب في فرع أمن الدولة، والشعبة السياسية في المخابرات، وفي سجن الثانوية الصناعية.
- الرائد المجرم محمد ياسمين قائد الفرقة الانتحارية ٢٢ التابعة لسرايا الدفاع.
- الرائد المجرم محمد الخطيب (محقق في فرع أمن الدولة آنذاك).
- المجرم عبد الله زينو محقق في فرع أمن الدولة آنذاك.
- المجرم محمد بدور محقق في الشعبة السياسية قتل بنفسه سبعة مواطنين تحت التعذيب على الأقل.
- المجرم محمد حربا محافظ مدينة حماة إبان المجزرة – أصبح وزيراً للداخلية.

(*) المصدر السابق.

قائمة ببعض نزلاء تدمر

ذلك من الذاكرة المتهالكة التالفة، قليل من كثير كثير، وغيض من فيض، ونقطة من بحر المجزرة المستمرة على امتداد ما يربو عن نصف قرن حتى كتابة هذه الأسطر، قائمة معدودة لأسماء ممن التقيتهم هناك، وردت حكاية بعضهم في بطن هذا الكتاب منهم من قضى نحبه حياً يرزق عند ربه، ومنهم من ينتظر سائلاً الله أهم التثبيت وأن يجمعني بهم في مستقر رحمته التي وسعت كل شيء، ما ذكرت منها وما نسيت هي عند الله في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى:

١	إبراهيم فرحات	تل منين/ دمشق	طالب
٢	أحمد زريقي	فلسطيني	طالب
٣	أبو عصام الدباغ	حمص	معلم
٤	أبو حمزة السباعي	حمص	معلم
٥	أبو صالح	الباب / حلب	عامل
٦	الأخوان عبيسي	حماة	طالبان
٧	أبو مصعب	اللاذقية	مدرس
٨	أبو الحسن	حلب	مساعد شرطة
٩	ابو أردان	إدلب	شرطي
١٠	أبو عبدو الصباغ	حلب	طالب
١١	أبو الحسن الشافعي	درعا	مقدم طيار
١٢	أسامة محمود	فلسطيني	طالب
١٣	أبو محمد النعيمي	------	------

١٤	أحمد البيك (أبو نضال)	إدلب	ضابط مسرح
١٥	أزاد صالح بمبوق	إدلب	طالب
١٦	أبو عبدو اللحام	دمشق	موظف أرصاد جوية
١٧	أحمد السرجاوي	إدلب	طالب
١٨	أبو محمد مامو	دمشق	معلم
١٩	أحمد أبو لبن	فلسطيني	طالب
٢٠	الأخوان أبو الليل	بانياس/ الساحل	حرفيان
٢١	أبو عمر قلعو	دمشق	تاجر
٢٢	أبو محمود عقيلة	حلب	تاجر
٢٣	أبو نادر	درعا	مساعد في الجيش
٢٤	الزعيم	حماة	موظف
٢٥	أسامة عطار	حلب	تلميذ
٢٦	أبو عبد العزيز عطار	حلب	متقاعد
٢٧	أبو عبدو الحلبي	دمشق	----
٢٨	أبو عناد	حمص	تاجر
٢٩	أبو عمر الديركي	----	مزارع
٣٠	أبو ياسر	إدلب	طبيب
٣١	أحمد سراج الدين	حلب	مجند
٣٢	إمام مسجد الحسكة الكبير	الحسكة	إمام مسجد
٣٣	أبو الوليد الحيدري	حلب	مدير المقاسم الآلية
٣٤	أبو بكر	حماة	مهندس
٣٥	أحمد أبو راشد	----	----
٣٦	أبو محمد بربر	كردي	----

٣٧	أبو عبد الله يوزباشي	اللاذقية	------
٣٨	أبو الوليد مولوي	دمشق	------
٣٩	أمير ناصيف	حمص	------
٤٠	أنس قبلان	حماة	طالب
٤١	أبو نبال خير الله	حلب	تاجر
٤٢	بسام بريك	حماة	------
٤٣	بشير الحجي	اللاذقية	معيد في جامعة اللاذقية
٤٤	بدري فواز	درعا	طالب
٤٥	بسام خدام	بانياس	طالب
٤٦	جمال خراط	حلب	طالب
٤٧	جمال عبيد	حلب	------
٤٨	حسن الشمالي	الزبداني	طالب
٤٩	حسان فرحات	تل امنين/ دمشق	عامل
٥٠	حسان طباع	حماة	موظف
٥١	حسان عرنوس	حمص	موظف
٥٢	حسان عبد الحي	إدلب	عامل
٥٣	حسين سخنينة	دمشق	------
٥٤	حسين بطحيش	الباب/ حلب	طالب
٥٥	حسان مرعي	حلب	------
٥٦	خالد أبو الصديق	الباب/ حلب	تاجر
٥٧	خالد المصري	بانياس	تلميذ
٥٨	خالد رضوان الرضوان	إدلب	مهندس
٥٩	دريد الطش	حمص	طالب

٦٠	رضوان بلتو	دمشق	مهندس
٦١	رضوان آغا	دمشق	رجل أعمال
٦٢	رياض عدّاي	دير الزور	محامي
٦٣	رياض صالحة	اللاذقية	-----
٦٤	ربيع دبا	حلب	طالب
٦٥	زكوان كركتلي	حلب	طالب
٦٦	زاهد دركل	دمشق	تاجر
٦٧	زكريا مشوّ	حلب	عامل
٦٨	زياد غضبان	فلسطيني	مهندس
٦٩	زهير يوسفان	حماة	حرفي
٧٠	زهير دهموش	دير الزور	مدرس
٧١	زكريا مصطفى	اللاذقية	عامل
٧٢	زكريا ملا	دمشق	طالب
٧٣	شقيقه	دمشق	طالب
٧٤	زياد	الميدان/ دمشق	طالب
٧٥	زهير سالم	حماة	طالب
٧٦	زكريا عبد الجبار	دير الزور	نقيب محامي سوريا
٧٧	زاكي	إدلب	-----
٧٨	زياد عجاج	دمشق	ضابط مجند
٧٩	سمير قرا حمود	إدلب	طالب
٨٠	سامر صنوفه	حمص	طالب
٨١	سامر دقماق	دمشق	طالب
٨٢	سامر	حمص	تلميذ مدرسة

٨٣	سالم علايا	دمشق	------
٨٤	سعيد غانم	حلب	------
٨٥	أبوه	حلب	------
٨٦	شقيقه ياسر	حلب	------
٨٧	سليم الأسد	داريا	طبيب
٨٨	سليم بدري	دمشق	طبيب
٨٩	سمير طحان	اللاذقية	طبيب
٩٠	سامي العمر	إدلب	أستاذ وأديب
٩١	سمير (الشركسي)	دمشق	------
٩٢	سمير (معراوي)	معرة النعمان	------
٩٣	شقيقه	معرة النعمان	------
٩٤	شلاش	حمص	متعهد بناء
٩٥	شعلان الدهوم (الدهون)	درعا	------
٩٦	شكري الشيخ موسى	الميادين	تاجر
٩٧	شاهر شموط	دمشق	طالب
٩٨	شهاب اكبازلي	دمشق	أدب عربي
٩٩	صالح خوجا	دمشق	طبيب
١٠٠	صالح بمبوق	إدلب	وكيل وزارة النفط
١٠١	ضياء غويش	تل منين/ دمشق	طالب
١٠٢	ضياء	تل منين/ دمشق	طالب
١٠٣	طريف حتاحت	دمشق	مهندس مدني
١٠٤	عبد السلام تسقية	حلب	موظف
١٠٥	عدنان بيرقدار	دمشق	------

١٠٦	عبد الكريم الصمل	تل منين/ دمشق	طالب
١٠٧	عبد الرؤوف أبو حمرة	تل منين/ دمشق	طالب
١٠٨	علي (أبو سليمان)	الزبداني	بكالوريوس شريعة
١٠٩	عوض (أبو وائل)	الزبداني	معلم
١١٠	عصام	حلب	طالب
١١١	عمر تاجا	دمشق	طبيب أسنان
١١٢	عمر حمزة	بانياس	مهندس
١١٣	علي خريطة	الزبداني	طالب
١١٤	علي دباليس	اللاذقية	-----
١١٥	عادل قرا	حلب	طالب
١١٦	عارف حمود	إدلب	معلم
١١٧	الحاج عادل كبة	حلب	تاجر
١١٨	عبد الهادي القاوي	دمشق	طالب
١١٩	عدنان مؤيد (أبو الحسن)	دمشق	-----
١٢٠	عبد الرزاق حرستاني	دمشق	طالب
١٢١	عبد الباقي حسين	القامشلي	أستاذ
١٢٢	عبد الرحمن العطار	الميادين	تاجر
١٢٣	عبد العزيز سيروان	دمشق	محقق كتب
١٢٤	عبد الوهاب الخطيب	إدلب	مدرس
١٢٥	عبد الكريم العطا	قارة/ النبك	إمام مسجد
١٢٦	عبد العزيز عطار	حلب	تلميذ مدرسة
١٢٧	عبد الله الحمصي	درعا	طالب
١٢٨	عبد الرزاق الشيخ	حماة	مجند

١٢٩	عادل لبابيدي	دمشق	صاحب مكتبة
١٣٠	عبد الناصر حويفظ	تدمر	------
١٣١	عامر عكام	حلب	حماماتي
١٣٢	عبد الرحمن خوجا	حلب	أستاذ أدب إنجليزي
١٣٣	عز الدين سيد عيسى	إدلب	طبيب
١٣٤	شقيقه	إدلب	------
١٣٥	عمورة (أبو الحسن)	فلسطيني	------
١٣٦	ابن عمه	فلسطيني	------
١٣٧	غالب غويش	تل امنين/ دمشق	طالب
١٣٨	غالب أبا زيد	درعا	طالب
١٣٩	فهد حتاحت	دمشق	موظف
١٤٠	فهد الطباع	حمص	طالب
١٤١	فواز الصغير	إدلب	طالب
١٤٢	فايز غزلان (غزال)	حماة	طبيب
١٤٣	فوزي احمد رشيد	فلسطيني	------
١٤٤	فرحان ازهري	حمص	------
١٤٥	أخته	حمص	------
١٤٦	فواز جميعان	الأردن	ضابط عسكري
١٤٧	قاسم طظري	الزبداني	مدرس
١٤٨	قاسم موسى	تدمر	طبيب
١٤٩	كمال مغمومة	حماة	طالب
١٥٠	كمال حورية	إدلب	طالب
١٥١	لقمان	بانياس	طالب

١٥٢	كسكين	الميدان	صاحب معمل خياطة
١٥٣	شقيقه	الميدان	شريكه
١٥٤	ابن عمهم	الميدان	عامل
١٥٥	محمد سمير	معرة النعمان	ـــــــ
١٥٦	شقيقه	معرة النعمان	ـــــــ
١٥٧	محمد غلاب	دمشق	طبيب
١٥٨	محمد صنوبر	دمشق	طالب
١٥٩	محمد محمود	حلب	خياط
١٦٠	محمد دمياطي	اللاذقية	حرفي
١٦١	محمد خير دبورة	الميدان/ دمشق	طالب
١٦٢	محمد حنينه	دمشق	بطل سوريا/ كراتيه
١٦٣	محمد الذهبي	دمشق	طالب
١٦٤	محمد برادعي	طرطوس	طبيب
١٦٥	محمد أحمد قطّيع	إدلب	طالب
١٦٦	محمد أديب قطب	دمشق	مهندس
١٦٧	محمد بهاء الدين الخطيب	دمشق	تلميذ مدرسة
١٦٨	محمد بلال الدين الخطيب	دمشق	طالب
١٦٩	محمد بركات الخطيب	دمشق	طالب
١٧٠	محمد الخرسة	حلب	طالب
١٧١	محمد مغراوي	حماة	تاجر
١٧٢	محمد سهل	اللاذقية	موظف
١٧٣	محمد الصغير	إدلب	طالب
١٧٤	محمد عناداني	حلب	ـــــــ

١٧٥	محمد عصفيرة	حلب	-----
١٧٦	محمد نعنع	حلب	طالب
١٧٧	محمد الأقرع	إدلب	-----
١٧٨	محمد الحاووط	إدلب	طالب
١٧٩	محمد علوه	فلسطيني	طالب
١٨٠	محمد فراواتي	حلب	طالب
١٨١	محمد فرحات	حلب	----
١٨٢	محمد المصري	إدلب	مدرس أدب انجليزي
١٨٣	محمد أبو العطاء	حلب	حرفي
١٨٤	شقيقه	حلب	طيار
١٨٥	محمد صالح لطفي	حماة	صاحب مكتبة
١٨٦	محمد خير	دمشق	طبيب
١٨٧	محمود أبو صالح	حلب	طبيب
١٨٨	محمود أندوره	دمشق	طالب
١٨٩	محمد أبو نبوت	درعا	طالب
١٩٠	محمد خالد العبدة	مضايا	تاجر
١٩١	محمود زعيتر	الميادين	تاجر
١٩٢	محمود عاشور	حماة	طالب
١٩٣	محمود عثمان	حلب	طالب
١٩٤	محمود مويل	الزبداني	طالب
١٩٥	محمود الحجي	-----	رئيس مخابرات سوريا زمن أمين الحافظ
١٩٦	ماجد الخطيب	حماة	طبيب

١٩٧	مؤتمن ترمنيني	حلب	حرفي
١٩٨	مروان حسين	الجولان المحتل	معلم
١٩٩	مروان عرنوس	حمص	طبيب
٢٠٠	مصطفى التميمي	فلسطيني	بكالوريوس رياضيات
٢٠١	مصطفى عثمان	بانياس	طبيب
٢٠٢	محيي الدين جزائري	دمشق	تاجر
٢٠٣	شقيقه	دمشق	خياط
٢٠٤	موسى سويدان	درعا	طالب
٢٠٥	مراد الناطور	درعا	طالب
٢٠٦	موفق الأبرش	حمص	طبيب
٢٠٧	موفق الشيخ ابراهيم	إدلب	شريعة
٢٠٨	مأمون مغمومة	-----	-----
٢٠٩	معن شاهين	حمص	طالب
٢١٠	مضر الدغلي	دمشق	طالب
٢١١	مضر السم	إدلب	تاجر
٢١٢	مرهف كركتلي	حلب	طالب
٢١٣	منذر طاهر خير الله	حلب	تاجر
٢١٤	ملهم الأتاسي	حمص	طالب
٢١٥	شقيقه	حمص	طبيب
٢١٦	ماهر العطار	حلب	طالب
٢١٧	ماهر عبد الغني الطنطاوي	دمشق	طالب
٢١٨	معتز طيارة	حمص	محامي
٢١٩	مسلم القصير	حمص	طبيب

٢٢٠	ممدوح درويش	إدلب	عضو عامل/حزب البعث
٢٢١	والده	إدلب	مزارع
٢٢٢	نعمان الشوّا	حلب	تاجر
٢٢٣	نزار حوّا	حماة	مهندس
٢٢٤	نديم طابوشي	اللاذقية	طيار
٢٢٥	نهاد	حماة	طالب
٢٢٦	نزار حوا	حماة	مهندس
٢٢٧	نزار	إدلب	-----
٢٢٨	هاشم مجذوب	دمشق	عالم وخطيب
٢٢٩	هشام تتان	حماة	عامل
٢٣٠	هيثم بيرودي	دمشق	طالب
٢٣١	هيثم الخطيب	إدلب	موظف
٢٣٢	وفاء ازرق	حلب	طالب
٢٣٣	وليد رضوان الرضوان	إدلب	------
٢٣٤	وليد الشامي	حمص	مهندس
٢٣٥	وليد عبد الباقي	إدلب	-------
٢٣٦	ابن عمه	إدلب	موظف
٢٣٧	وائل بريدي	درعا	تلميذ مدرسة
٢٣٨	ياسربكبوك	حلب	حرفي
٢٣٩	ياسر عادل كبة	حلب	حرفي
٢٤٠	ياسر غانم	حلب	طالب
٢٤١	يوسف حميدي	دير الزور	طبيب
٢٤٢	يوسف زين العابدين	اللاذقية	محامي/ضابط مجند

٢٤٣	يوسف عبيد	دمشق	-----
٢٤٤	ياسين ياسين	اللاذقية	تاجر
٢٤٥	يوسف جانات	حلب	طالب
٢٤٦	ياسر علبي	دمشق	طالب
٢٤٧	الأحمر	تل امنين/ دمشق	طالب
٢٤٨	..... صفوان	حماة	مجند
٢٤٩	الصباغ	حلب	أدب فرنسي
٢٥٠	طليمات	حمص	صيدلي
٢٥١	..... فلاحة	حلب	تاجر
٢٥٢	أحد أبنائه	اللاذقية	طالب
٢٥٣	زياد العقاد	حلب	طالب علم شرعي
٢٥٤	أحمد تاجا	دمشق	(مربي) مهندس كهرباء
٢٥٥	علي تاجا	دمشق	تاجر
٢٥٦	مصطفى آل رشي	دوما	طالب
٢٥٧	خالد الحوري	دوما	طالب
٢٥٨	باسل أماصيري	العمارة	طالب
٢٥٩	سليمان الناعم	جبل الزاوية	مزارع
٢٦٠	زهير حمو	دوما	موظف
٢٦١	يوسف عزّ الدين	دوما	ــ ــ ــ
٢٦٢	أسامة مرعي	دوما	ــ ــ ــ

وفي بطن هذه الحكاية أسماء أخرى، وأسماء ضاعت في زحمة الذاكرة التي علاها التلف، أسماء مضى أصحابها إلى رحمة الله، وأسماء في انتظار فرج الله، ما ذكرت منها وما نسيت هي عند الله في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

الخاتمة

لماذا الإصرار على إسقاط النظام في دمشق؟

مع أن رحلتي بأيامها المريرة العصيبة إلى سوريا متمثلة في تدمر بسجنها الرهيب قد انقضت على النحو الذي ذكرنا، من غير رتوش أو نقوش، فقد كنت أعتقد أنها نزوة نظام طائفي فاشي موغل في الجريمة والإجرام، ستنتهي برحيل الطاغية، رأس النظام الذي عاث في الأرض فساداً دون حدود أو قيود:

- سطا على الحق العام فجيره لحسابه.

- سطا على حق الأمة في الخيار، وحق الانتخاب، فقيده فيما سماه استفتاءً لصالح الفرد الذي لا يتعداه إلى غيره.

- سطا على أصوات المستفتين، فجيرها له بالمطلق حتى كادت أو أوشكت أن تدنو إلى حد النسبة الكاملة الوافية ٩٩.٩٩ %

- سطا على دماء الناس فعذب وقتل وشرد، دون أي وازع من ضمير ماتت ينابيعه، فدمر مدناً على ساكنيها، وبيض سجوناً في مجازر من قاطنيها.

- سطا على بنى البلاد التحتية، فانتظم العباد الفقر، وانهار الاقتصاد.

- سطا على رصيد الدولة من الذهب، فانهارت قيمة الليرة الشرائية.

- سطا على تراب البلاد ومدنها وقراها، فسلّم في صفقة خيانة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً هضبة الجولان عام ١٩٦٧ للعدو من غير قتال أو نزال، ثم سلم في جولة لاحقة عام ١٩٧٣ عشرات من القرى أيضاً لإسرائيل، كما لو أنها الإتاوة يدفعها بين الفينة والفينة مقابل الاستمرار في إعطاء ما لا يملك لمن لا يستحق.

أما لبنان، فحدث ولا حرج:

- سطا على ينابيع البهجة هناك، فدفن كل ما أورق من أغصانها، أو أينع من براعمها.

- سطا على مخيم تل الزعتر الفلسطيني، فدكه على رؤوس ساكنيه، وحاصرهم مانعاً

عنهم الطعام والدواء والماء، حتى أكل الناس الجيف وما عادوا قادرين على دفن موتاهم.

- سطا على طائفة الدروز فسلبهم معاني الحياة، وقتل من قتل منهم متوجاً ذلك في كمين نصبه غيلة لزعيمهم كمال جنبلاط، ثم ما لبث أن شارك بعهره المفضوح في تشييع الضحية إلى مثواه الأخير.

- سطا على النصارى فدبّر اغتيال زعمائهم، الواحد تلو الآخر، باسم شعارات الوطنية والصمود الكاذبة المكشوفة.

- ترك حلفاءه الفاطميين الجدد من أبناء حركة اللاأمل العنصرية الفاشية يحاصرون المخيمات الفلسطينية، حتى اضطر البؤساء إلى أكل القطط والجيف مرة ثانية، للحال الشديد التي ترك أبناء الخنا والمتعة الناس عليها. قالت وكالة رويترز في تقرير لها من النبطية في ١٩٨٢/٧/١م أن القوات الصهيونية التي احتلت البلدة سمحت لمنظمة أمل بأن تحتفظ بالمليشيات الخاصة التابعة لها، وبحمل جميع ما لديها من أسلحة. وصرح أحد قادة مليشيا منظمة أمل ويدعى حسن مصطفى: أن هذه الأسلحة ستستخدم في الدفاع عنا ضد الفلسطينيين.

اسمعوا أيها المنخدعون:

- ذكرت صحيفة ريبو بليكا الإيطالية أن فلسطينياً من المعاقين لم يكن يستطيع السير منذ سنوات رفع يديه مستغيثاً في شاتيلا أمام عناصر أمل طالباً الرحمة، وكان الرد عليه قتله بالمسدسات مثل الكلاب، وقالت الصحيفة إنها الفظاعة بعينها.

الوطن، عدد ٣٦٨٨، ٢٧ مايو ١٩٨٥م.

اليهود أفضل منهم:

تصيح سيدة فلسطينية وهي تتفحص صف الجثث الطويل: (اليهود أفضل منهم).

وفتاة لم تتجاوز العشرين من عمرها تنتحب وتصيح مشيرة إلى جثة منتفخة ملفوفة في بطانية خشنة تلطخها الدماء: هذا أخي، وتشير إلى جثة أخرى: وذلك أخي الثاني، ثم تشير إلى واحد من مسلحي أمل وتقول: هم فعلوها!! أصغر الضحايا.. طفل لم يمهله الموت سوى بضعة شهور، جثته الصغيرة الطاهرة تكاد لا ترى من القماش الأبيض المتسخ الذي لفت فيه.. هكذا يقول الصليب الأحمر.

"لا إله إلا الله والعرب أعداء الله" شعار ردده متظاهرون من حركة أمل في ٢ "يونيو" ١٩٨٥م احتفالاً بيوم النصر بعد سقوط مخيم صبرا وموت الكثيرين داخله من الجوع.

الوطن الكويتية، العدد تاريخ ٣ يونيو ١٩٨٥م.

– ساعد على التعجيل في جلاء الفلسطينيين بعد صمودهم الأسطوري أمام آلة البغي الصهيونية، فقد ساعد على جلائهم عن آخر مواقعهم في لبنان، ووقف بقوات ردعه يرقب الرحيل الحزين، في الوقت الذي كانت فيه القوات الإسرائيلية تجتاح لبنان حتى النخاع. وفي ٢٠ "يوليو" ١٩٨٢م قال حافظ الأسد في كلمة له من دمشق: "إن القوات السورية دخلت إلى لبنان لأداء مهمة محددة هي إنهاء الحرب الأهلية التي فرقته خلال عام ١٩٧٥م و١٩٧٦م ولم تذهب لتحارب إسرائيل من هناك!!"

هذا ما قاله أسد عبر أجهزة الإعلام، أما ما قاله صراحة لمبعوث عرفات: "أريد أن تهلكوا جميعاً لأنكم أوباش".

ثم لحق بالبقية الباقية من الفلسطينيين في طرابلس، فمحى ما بقي لهم هناك من أسباب القوة والصمود والمقاومة، وتعرضت طرابلس للقصف الشديد الذي شاركت فيه القوات السورية، وخاض الغزاة معارك شرسة مع المسلمين الفلسطينيين واللبنانيين داخل طرابلس، وتعرضت المباني والمؤسسات للهدم، وبعد حصار دام ستة أسابيع وافق عرفات ومن معه على مغادرة طرابلس وعددهم أربعة آلاف مقاتل في ٢٠/١١/١٩٨٣، على متن سفن يونانية إلى تونس، عندها قال الزعيم الفلسطيني عرفات عن الأسد:

"لقد خضنا حرباً مع شارون الصهاينة، غير أن شارون العرب في سوريا كان الأقسى علينا، بل الأنكى والأشد غدراً ولؤماً!!".

– جرد أبناء البلاد من مصادر قوتهم، بنزع أسلحتهم، وأبقاها في يد طائفة موالية، تعمل على إلحاق البلاد والعباد بدولة الملالي في إيران.

– وقف كشاهد الزور يرقب مجزرتي مخيم صبرا وشاتلا للفلسطينيين، على يد عصابات الغدر والخيانة من الكتائب بمساعدة العنصرية الصهيونية.

– أبدى جرأة فائقة في سحق الخصوم، في دول الجوار القريبة والبعيدة، فلاحقهم في لبنان والأردن وتخطى الحدود والسدود، حتى طال صلاح البيطار في فرنسا، والسيدة بنان الطنطاوي في ألمانيا، والقائمة لا حصر لها من طولها.

– بقي هذا النظام الإثني العنصري ولا يزال يحتفظ لنفسه بالرد على كل الاعتداءات التي مارستها إسرائيل من خلاله على الأمة في المكان والزمان المناسبين، والذين لم ولن

يأتيا، ولا أعتقد جازماً بأنهما سيأتيان في يوم من الأيام.

كل ذلك وأكثر من الإجرام كان للأب الجاني الفاني في نزوة من الجنون السادي امتدت لعقود قاتمة مظلمة، غير أن الوريث الابن فاق أباه، وليته ساواه جرماً لعذرناه، ولزعمنا أنه من شابه أباه ما ظلم، غير أن الطاغية الابن تجاوز الطاغية الأب ظلماً وعدواناً، فإذا كانت مجازر الأب دكت مدناً وتخطت أخرى، فإن ظلم صاحب العضمة الابن قد ساوى بين كل الرؤوس اعتقالاً ودكاً ومحقاً.

رفع كوالده شعارات جوفاء على يافطات كبيرة، كما لو أنها نقشت على طبل أجوف، منها على سبيل المثال لا الحصر"الممانعة، المقاومة، الصمود، التحرير" وباسم هذه المعاني ولا معاني، قتل واعتقال، تشريد ومنافي، خوف ورعب وإرهاب، فساد وسلب ونهب، وزيادة في رهن البلاد والعباد للغريب والدخيل، ثم فوق هذا وذاك يقف الروييضة الطائفي التافه يملأ شاشات الدنيا وفضائياتها ضحكاً وسخرية، بقدر المهزلة التي تمنت لهذا العبقري - الذي عجزت النساء أن تلد مثله- أن يحكم العالم أجمع بأركانه الأربع!!

فما أشبه اليوم بالبارحة، تتخم المعتقلات بالنزلاء، وكان لا بد من متنفس، وما كان ذلك ليعجز صاحب الطلعة البهية، فتصدر الأوامر كي تتكرر مأساة تدمر وجسر الشغور وحماة وحمص ومدن كثيرة أخرى نفذها الآباء، غير أنها في هذه المرة على أيدي الأبناء، بشار وماهر، فتكون المذبحة في سجن صيدنايا كي تجتاح بعد ذلك كل المدن التي انتفضت على الطاغية الجلاد كالمنطلق بعد منع تنادي بصوت واحد:

- الله سوريه حرية وبس..

إن هؤلاء الاباش الذين لم يعرفوا على محار الشمس متسعاً لأحد سواهم، جالوا ببغيهم يميناً وشمالاً، وبلغ بغيهم المجبول بالقهر وامتهان النفوس مداه في مجازر وحشية طالت شرائح المجتمع السوري دون استثناء أحد، طالت في درعا، وجسر الشغور وحمص وحماة وتلبيسة والدير وتلكلخ، طالت حتى الحيوانات والشجر، حاربوا الناس في أرواحهم وأرزاقهم، ولم يكن بمقدورهم أن يعثروا لصبية صغار لم تتجاوز أعمارهم عمر الورود على عذر يحفظ عليهم براءة الطفولة التي كتبوا بها بعفوية وبالطباشير على الجدار:

- الشعب يريد إسقاط النظام.

امتدت الأيدي الآثمة فلاحقت الصغار قتلاً وتشريداً وتنكيلاً، حفلات طالتهم، هي فوق الوصف، ودون كل خيال، اعتقل حمزة الخطيب الذي لم يتعدَّ الثانية عشر من عمره، ليرده

بعد أيام مسخاً من البشر قد دق عنقه، بعد أن بُتر عضوه التناسلي قبل أن يقتله.

إن عصابة الإجرام من اللصوص القتلة وقطاع الطرق الفجرة الوالغون في مراتب الفساد حتى تخطو الذروة، هؤلاء المتربعون في دمشق على صدور الناس غصباً، حتى أوشكوا أن يسدوا عليهم مجاري التنفس، إن هذه العصابة سليلة كل رذيلة عافتها النفوس السوية من بدء الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، إلا من ساواها في كل ذلك، إن هذه العصابة قد جاوزت كل الخطوط الإجرامية، بكل ألوان الطيف، الباهت منها والقاني المعتم منها والفاقع.

هكذا بلغ السيل الزبى، وفاض الكأس عما حوى، وبانت سوءة النظام، وانكشفت خسته، متجاوزاً قتل الأطفال والتمثيل بهم، إلى الاعتداء على حرائر الأمة من أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا، أوصل المرجل إلى درجة فاقت درجة الغليان، وما عاد يجدي المزيد من الانتظار، فصاحت كل الحناجر في يوم تلا "الموت ولا المذلة"، عبارة أطبقت أصداءها كل الآفاق، رددتها كل المدن السورية بأريافها وأطيانها، وتجاوبت معها ولها كل أودية الشام وسهولها وهضابها، عبارة كادت أن تنطق بها حتى الحجارة!

هكذا راحت الجموع تمسك بتلابيب النظام، وراحت الأرض تميد من تحت أقدام العصابة الباغية، بعد أن اعتقدت ولزمن طويل أنها ممسكة بكل أسباب الحياة، راحت الجموع تثأر لكل شيء جميل مقدس داسته أقدام السلطة الآثمة النجسة، راحت تثأر لنفسها من ذل ردها إلى ذيل القائمة بين الأمم، طريق سلكته هذه الجموع تجبله بالدماء الزكية في جمعة تتلو جمعة كي تزيح عن درب أجيال من الأبناء القادمة ذل ورعب وعار ظلّ يكبلها لعقود، على أمل أن يبزغ فجر جديد متلألئ بالأنوار، تختفي به ومعه كل القوى الأمنية بمعتقلاتها وشبيحتها ومندسيها ومعهم كل السلفية المزعومة!!

المهندس سليمان أبو الخير

دارمشتات ألمانيا ٢٠١١/٩/١٢

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهـــداء	٣
المقدمة: لماذا تأخر هذا الكتـــاب؟	٥
الطريق إلى دمشـــق	٩
عود على بدء: ثانية إلى دمشـــق	٢١
خمس دقـــائق	٢٥
بين الحدود وإدلـــب	٣٤
فرع التحقيق العســـكري	٤٠
الاتهام الباطل	٥٠
انتهاء المرحلة الأولى في فرع التحقيق العســـكري	٦٧
فرع العدوي بدمشـــق	٧٥
العودة إلى فرع التحقيق العســـكري	٩٧
المهجع رقـــم "٦"	١١٢
المهجع رقـــم "٥"	١٣٢
الوداع في الطريق الى تـــدمر	١٤٧
حفلة الاستقبال الرهيبة بتـــدمر	١٥٦
المهجع رقم "٢" بتـــدمر	١٦٠
استلام البطانيات	١٦٦
سخرة الطعام	١٦٨
التفقـــد	١٦٩

التـــنفس ١٧٢
الحمام ١٧٦
نماذج من جلادي سجن تدمر العســكري ١٧٨
توالي وصول دفعات جديدة من المعتقلــين ١٧٩
الحلاقــة ١٨٣
المهجع رقــم "٨" ١٨٨
الجــرب ١٩٤
السل وأمراض أخرى ١٩٥
المهجع رقــم "٣٤" ١٩٧
التعلــيم ٢٠١
المهجع المــزدوج "5- 6" ٢١٠
مجزرة تدمر: التحضير للعمليــة ٢١١
بدء المجزرة الوحشــية ٢١٤
الإفراج عن بعض المعتقلــين ٢١٧
قاسم ططري ٢١٨
المجرم "فيصل غانم" يجتمع بنـــا ٢٢٥
قاسم في ذمــة الله ٢٢٧
بوادر فتنة ٢٢٩
المهجع رقــم "٢٨" ٢٣٧
عودة الإعدامات ٢٤٠
المحكمة الميدانيــة ٢٤٨
قصاصة من صحيفة تشــرين ٢٥٤
إخلاء الســبيل ٢٦١
الملاحق ٢٧٤

من منجـرات حكـم الأسـد ٢٨٤
ملف الخائن الطاغيـة حـافظ الأسـد ٢٨٦
ملـف سـقوط الجـولان الأول ٢٨٩
رواية دريد مفتي الوزير المفـوض فـي مدريـد ٢٩٢
حزيران والجولان بعد ثلاثة وثلاثين عامـاً: أسـئلة
واضـحة.. وإجابـات مبهمـة ٢٩٧
ملف سـقوط الجـولان الثـاني ٣٠٢
الطاغيـة رفعـت الأسـد ٣٠٩
الملف الأسود للطاغيـة العلـوي بشـار الأسـد ٣٢٣
ملف الطاغيـة غـازي كنعـان ٣٣١
الطاغيـة آصـف شـوكت ٣٣٦
الطاغيـة العلـوي مـاهر الأسـد ٣٤٢
بعض مجرمي مجزرة تدمر من المخططـين والمنفـذين
٣٦٠
أسماء بعض من خططوا وشاركوا في مجزرة حماة عام
١٩٨٢ ٣٦٢
قائمة بـبعض نـزلاء تـدمر ٣٦٣
الخاتمـة ٣٧٦
الفهـرس ٣٨١

الطريق إلى تدمر

كهف في الصحراء

دار الأعلام

الأردن - عمان - العبدلي - مركز جوهرة القدس - الطابق 2 - مكتب 605

تلفاكس 4657468 - 06 ص.ب: 927563 عمّان 11190 الأردن

E-mail: dar-alaalam@hotmail.com

E-mail: al_aalam@yahoo.com